

«بدايات» في العام الخامس

تستأنف «بدايات» نضالها من أجل «الحق في المدينة» بدراسة مشتركة لعبير سقسوق ونادين بكداش عن مدينة بيروت في ذاكرة المستأجرين القدامى وهم المعرضون للتشريد بمقتضى قانون الإيجارات الجديد. ويقدم مروان غندور لفائزين في مسابقة معمارية لتخيل مصير آخر لدالية الروشة غير مصيرها الحالي وقد أطبق عليها رأس المال العقاري وحرّم سكان المدينة من تلك الفسحة الحيويّة والجميلة من شاطئهم وحياتهم المشتركة.

يكتب جون برجر في «با عين» عن شارلي تشابلن، «المهرج» العبقرى الذي يجيد فن السقوط ليؤكد للإنسان أنه يستطيع أن ينهض إنساناً جديداً من كل سقطة، ولا ينسى برجر، على عادته، أن يستطرد نحو أحداث معاصرة كالبطالة والفرق من ضحايا الهجرة الأفريقية والعربية إلى أوروبا. يجازف في هذا العدد أيضاً بنشر نصّ بالعامية اللبنانية هو محاضرة للمخرج أحمد غصّين يتحدث فيها عن فيلمه الأخير «المرحلة الرابعة» الذي عرض في بينالي الشارقة في مارس - يونيو من العام الماضي.

يسرّ «بدايات» أن تعرّف في هذا العدد بحياة وأعمال كبير فناني المكسيك وأميركا اللاتينية ديفغو ريفيرا (١٨٨٦ - ١٩٥٧) الذي اشتهر بجدارياته الملحميّة وبمحاولاته المبتكرة المزاجيّة بين إحياء الثقافة الأهلية للشعب المكسيكي، العائدة إلى حضارات ما قبل الاستعمار الإسباني، وبين تمجيد الحداثة الغربيّة بما حملته من إمكانات العدالة والتقدم. وكان ريفيرا، مثله مثل زوجته الفنانة والنسوية فريدا كاهلو، مناضلين يساريين ملتزمين بقضايا الشعب والإنسان. عن ريفيرا وموقعه في الفنّ المكسيكي، تكتب الباحثة والناقدة المكسيكية إيرمغالد أملمهاينز، تليها مختارات من الرسوم والجداريات. منتجات الذاكرة غنيّة في هذا العدد، تباشر الفنانة والشاعرة إثيل عدنان كتابة سيرتها بقصة أبٍ سورّي كان

نفتتح هذا العدد بمقابلة مستفيضة أجرتها ندى متّى مع جليبير أشقر يستعرض فيها ويحلل المسارات المتفاوتة والمتلاقية للثورات العربية في عامها الخامس. وسوف نفتتح صفحات العدد الآتي لمواصلة النقاش وتقييم تلك المسارات والردّات المختلفة التي تعرضت وتعرض لها. ونرجو اعتبار هذا الإعلان بمثابة دعوة مفتوحة لمن يهتم الأمر إلى الكتابة في هذا الموضوع. في «من باب أولى» توجّه أروى عبده عثمان رسالة مؤثرة إلى أرامل الحرب اليمنية، فيما يقارن فارح المسلمي بين اتفاق الطائف اللبناني والمبادرة الخليجية اليمنية بما هما إطاران لحل النزاعات الأهلية وحدثان فاصلان في حياة الشعبين اليمني واللبناني. في هذا العدد تحتل الأقلام النسائية «الثورات شبابها» في نصوص متنوعة لا تخلو من الزخيم والحدة والتمرد.

ونفتتح في هذا العدد أيضاً سلسلة مقالات ودراسات ونصوص أصلية بعنوان «إسلاميون خارج السرب». يعكس العنوان اهتمامنا بالتعريف بمؤلفين ومفكرين وفقهاء معاكسين للتيارات السائدة، إلى كونهم لم يحظوا بما يكفي من اهتمام في النقاشات والسجلات الجارية حالياً حول الدين وعلاقته بالدولة والمجتمع. ننشر في هذا العدد مقالة للقاصّة والصحافية السودانية الشابة نجاة إدريس إسماعيل عن المفكر السوداني ومؤسس الحزب الجمهوري الإسلامي محمود محمد طه (١٩٠٩ - ١٩٨٥) الذي قضى إعداماً بتهمة الردّة في عهد جعفر النميري لأفكاره الجريئة في الإسلام والحياة السياسية والاجتماعية والقيميّة. ننشر بعد ذلك مختارات من أحد أبرز مؤلفات طه الكثيرة «الرسالة الثانية من الإسلام». وسوف نواصل في الأعداد التالية تقديم دراسات ومختارات عن حياة ومؤلفات مفكرين آخرين ممن اختاروا أن يكونوا «خارج السرب» بينهم عالم الاجتماع والمفكر علي شريعتي والإمام المناضل محمود الطالقاني الإيراني، وعدد آخر من تلك الفئة من المغايرين الجريئين.

زميلاً لكمال أناتورك في الكلية الحربية العثمانية، وتروي طفولتها والنشأة في كنف أم يونانية، على خلفية مشاريع التقسيم والحروب التي تمخضت عن نشوء تركيا الحديثة. أما رياض نجيب الريس فيذكره أطفال درعا بطفولته الدمشقية وبحياته الصحافية وهو يتساءل، في نص بعنوان «غسيل كلي سوري» عن كيفية تسرب تراب سورية إلى كليتيه المتعبتين. ويروي عصام خفاجي تجربته وخيبته السريعة في عداد مجموعة خبراء عراقيين واكبوا الغزو الأميركي للعراق العام ٢٠٠٣، على أمل المساهمة في إعادة بناء بلدهم بعد سقوط ديكتاتورية صدام حسين.

نستحضر في «حضور الغياب» حياة وأعمال راحلين غادرنا أواخر العام المنصرم. ابن الكنيسة الكاثوليكية المشرقية المطران غريغوار حدّاد (١٩٢٤-٢٠١٥) وحسين آيت أحمد (١٩٢٦-٢٠١٥) أحد القادة التاريخيين للثورة الجزائرية. في واحد من أعمق النصوص مطلع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠) يحذر المطران حدّاد من دور تنامي الفوارق الاجتماعية في تفجير النزاعات الأهلية المسلحة. ونعيد نشر مقابلة أجرتها مجلة «زوايا» منذ ربع قرن مع حسين آيت أحمد يتناول فيها العلاقة بين الوطنية والديمقراطية وحقوق الإنسان ويقدم روايته للمسألة الأمازيغية ولحلها في إطار الوحدة الوطنية الجزائرية. أغمض حسين آيت أحمد عينيه دون أن يشاهد تحقيق أعلى أمانيه: اعتماد الأمازيغية لغة رسمية في الجزائر. ولكن شاءت مفارقة قاسية أن يبادر الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة إلى إقرار هذا المطلب الأساسي بالنسبة إلى قسم كبير من مواطني الجزائر، تكريماً للراحل الكبير بعد الوفاة. وإته لمعبر حقاً، ونحن نشهد العودة إلى تفجير التحركات الاجتماعية والمطلبية في عدد من الأقطار العربية، بما فيها تلك التي شهدت الانتفاضات

الثورية، أن يلتقي هذان الراحلان الكبيران، القائد الوطني والديمقراطي والاشتراكي الجزائري، والراهب الكاثوليكي اللبناني، العلماني والمجدد لاهوتيا، على التأكيد على مركزية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والعدالة الاجتماعية.

يشغل فيصل درّاج زاوية «فيها نظر» بنص يتتبع فيه مسيرة الأنظمة العربية من عهود الاستقلال إلى ما يسميه «دولة الخراب». ويثير درّاج إشكاليات الحداثة وتواري السياسة مع تراكم التطبّع بطبائع الاستبداد وهو يتأمل في عسر الولادات وسط زخم الحراك الثوري العربي.

في «كتاب» يراجع جمال جبران مؤلفاً قيماً للباحث الفرنسي في الشؤون اليمنية، جان لامبير، عن الغناء الصنعاني. وفي «نون والقلم» نعيد نشر مجموعة أسئلة موجهة إلى الشاعر علي أحمد سعيد - أدونيس من مقابلة أجراها معه فواز طرابلسي بباريس لمجلة «الكرمل» التي كان يرأس تحريرها الراحل محمود درويش. لم تجد المقابلة طريقها إلى النشر، إذ قرّر الشاعر سحب أجوبته عليها معتذراً عن عدم نشرها. ولما كانت النسخة الوحيدة للأجوبة هي النسخة التي كانت، ولا تزال، في حوزة أدونيس، نعيد هنا نشر الأسئلة لكونها ما زالت تستحق التأمل فيها بصدد الشاعر وشعره ومواقفه، والشعر والثقافة والتراث عموماً. ونشر أسئلة هذه المقابلة هو في الآن ذاته دعوة لأدونيس لكي يفرج عن الأجوبة أو للإجابة عن الأسئلة من جديد.

في «ثقافة الناس للناس» دراسة مبتكرة لنجلا جريصاتي خوري عمّا يحذف، عند النشر، من العديّات الشعبية اللبنانية على اعتبارها من الممنوعات. وبعد الأخوين الرحباني وزين العابدين فؤاد، نواصل التعريف بالشعر العربي بالعامية بنشر مختارات من الشاعر اللبناني طلال حيدر.

«بدايات»

ماذا حلّ بالربيع العربي؟

جليبر الأشقر

باحث وأكاديمي لبناني
في معهد الدراسات
الشرقية والأفريقية
بجامعة لندن،
من مؤلفاته
«الشعب يريد»
بحث جذري في
الانتفاضة العربية»
٢٠١٣.

ندى متي

طالبة دكتوراه
في علم الاجتماع،
في جامعة نيويورك.

في ١٧ كانون الأول/ديسمبر، أطلقت شرارة تونس موجةً ثوريةً في العالم العربي. احتلّ ملايين الناس الشوارع يطالبون بالكرامة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وملأت شوارع تونس، مصر، ليبيا، البحرين، اليمن، وسورية تحركات جماهيرية على نطاق غير مسبوق في التاريخ الحديث، وبذلت الديناميات الاجتماعية والسياسية على امتداد المنطقة بكاملها. وقد أصبحت سياسة الأمل ممكنة، لكن، بعد مرور خمس سنوات على الثورات، ها إن قوى الثورة المضادة المتشكّلة من الأنظمة السابقة وقوى التطرف الإسلامي قد استعادت المبادرة السياسية، وهي اليوم تتصارع بعنف على السلطة، فترزح مصر تحت ديكتاتورية أسوأ من تلك التي كانت قائمة قبل الثورة، بينما نجد حروباً أهلية قد اندلعت في سورية وليبيا واليمن. مئات الآلاف قتلوا، ونزح الملايين.

كيف يمكن تقييم هذا الوضع؟ ما هي أبرز ملامحه وإمكاناته؟

لمجلة «حاكوبين»، بحثت ندى متي عن إجابات على هذه الأسئلة لدى جليبر الأشقر، أحد أبرز محلّلي المنطقة العربية في العالم.

جليبر الأشقر هو بروفسور في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن. وسوف يصدر كتابه الجديد، انتكاسة الانتفاضة العربية. أعراض مرضية، في الربيع.

وهي رؤية استندت إلى تصوّر يفيد بأن «الربيع» أتي نتيجة تحوّل ثقافي وسياسي حمله جيل جديد متّصل بالثقافة العالمية بفضل تقنيات المعلومات والتواصل الجديدة، تبعاً لهذا التصوّر، كانت الانتفاضات أساساً، إن لم يكن حصرياً، صراعاً من أجل الحرية السياسية والديمقراطية.

بالطبع، ليست هذه الرؤية خارجة تماماً عن السياق، فالأبعاد المذكورة هي حكماً سمة بارزة في الثورة، ولكن، النقطة المحورية التي شدّدت عليها منذ البداية هي أنّ الجذور العميقة للانتفاضات في المنطقة جذور اجتماعية واقتصادية، قبل أن تكون سياسية، ما جرى كان انفجاراً اجتماعياً في المقام الأول، حتى ولو اتخذ طابعاً سياسياً كحال أي انفجار اجتماعي واسع النطاق.

فالمخلفات الاجتماعية للحراك الإقليمي يؤكدها كونه بدأ من بلدين شهدا أبرز التراكبات في الصراعات الاجتماعية، أي الصراعات الطبقيّة، خلال السنوات

التي انطلقت الانتفاضة العربية، أشارت ومنذ البداية إلى أنها ستكون سيرورة طويلة الأمد من النضال، تتخلّلها فترات النجاح والنكوص. ما هو تقييمك العام اليوم، بعد خمس سنوات من الثورة؟

■ لتوضيح أطر النقاش، لا بدّ من التذكير بأنّ القراءة التي سادت في البداية، خصوصاً في الإعلام الغربي، أفادت بأنّ المنطقة العربية تدخل مرحلة من الانتقالات نحو الديمقراطية، قد تستغرق أسابيع أو أشهراً في كلّ بلد وتستمرّ سلمية نسبياً، تبشّر بعصرٍ إقليمي جديد من الديمقراطية الانتخابية.

تبعاً لهذه القراءة، تكون تونس قد أبجرت فعلياً انتقالها مع سقوط بن علي، ومصر مع سقوط مبارك. كان هناك اقتناع بأنّ النمط ذاته سينتشر في معظم دول المنطقة على طريقة لعبة الدومينو، بشكلٍ مشابه لما شهدته أوروبا الشرقية في فترة ١٩٨٩-١٩٩١. وقد تلخّصت هذه الرؤية بوسم «الربيع العربي» الذي حقّق انتشاراً سريعاً.

أما الآن، فقد أبدو متفائلاً عندما أُؤكّد أن السيرونة الثورية بعيدة عن انتهائها وأدعو الناس إلى نفض الرّجوم المطبق عليهم. صحيح أن الوضع يبدو كارثياً وفاجعاً في عدّة بلدان: على رأسها، طبعاً، سورية حيث تجري راهناً مأساة هائلة، ولكن أيضاً في اليمن وليبيا ومصر. إلا أن ذلك، رغم كل شيء، ليس النهاية. لن يحلّ الاستقرار في المنطقة على المدى الطويل إلا بحدوث تغيير اجتماعي وسياسي جذري.

ليس حدوث تغيير كهذا بأمر حتمي بالتأكيد، ولا ينبع موقفنا من التفاؤل، وإنما من إدراك ديناميات الأزمة من منظور تاريخي، والإصرار على أن الأمل ما زال مشروعاً. والحال أن التنبؤ الوحيد الذي يمكن للمرء أن يجزم به إنما هو أن المنطقة ستبقى محكومةً بالمزيد من الكوارث كتلك التي رأيناها تنكشف خلال السنتين الأخيرتين بشكل خاص، طالما لم تتبلور شروط سياسية ذاتية لتغيير اجتماعي وسياسي مع بروز قوى سياسية منظمة ترفع راية التغيير التقدمي.

◆ هل لك أن تصف الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي تقف خلف الانتفاضات؟ ما هو ذلك الانسداد في آفاق التنمية الذي قاد إلى الثورة؟

■ لقد حلّلت ذلك تفصيلاً في الفصلين الأولين من كتابي «الشعب يريد». لأوجز، فلو نظرت إلى معدلات النمو الاقتصادي في المنطقة الناطقة بالعربية بالمقارنة مع كافة المناطق الأخرى من أفريقيا وآسيا، لن يفوتك تدنيها الكبير. وقد كانت معدلات نمو الناتج المحلي الإجمالي، خصوصاً نمو الناتج المحلي الإجمالي للفرد، متدنية جداً.

يعني ذلك أن الاقتصادات كانت قد صارت عاجزة عن خلق وظائف تناسب النمو السكاني، الأمر الذي يتسبب بنسب بطالة هائلة، خصوصاً بطالتي الشباب والنساء. وقد سجّلت المنطقة الناطقة بالعربية أعلى معدلات البطالة في العالم خلال العقود الأخيرة.

وقد أنتج هذا الانسداد الاقتصادي المزمن تبعات اجتماعية متفجرة: لا تتجلى فقط في البطالة الشاسعة، وإنما أيضاً في جملة من القضايا الاجتماعية والتفاوتات المحلية والإقليمية الضخمة. فإن التجاور ما بين مظاهر الثراء الفاحش والفقر المدقع قد خلق إحباطات ضخمة. وتفاقمت هذه المشكلة كثيراً منذ الطفرة النفطية في السبعينيات. وكما أردّد دائماً، فإن السؤال الحقيقي في العام ٢٠١١ لم يكن عن سبب حدوث الانفجار بقدر ما كان عن سبب تأخره في الحدوث، نظراً لتفاقم التراكمات القابلة للانفجار.

السابقة له: تونس ومصر. ولم تكن شعارات الثورة بحد ذاتها سياسية، فلم تقتصر على الديمقراطية والحرية فحسب، وإنما شملت بوضوح المطالب الاجتماعية.

من هذه الزاوية، يمكن قراءة الثورة في المنطقة بأدوات تحليلية ماركسية كحالة كلاسيكية في الثورة الاجتماعية ناتجة من انسداد مزمن في آفاق التنمية ميّز المنطقة الناطقة بالعربية لثلاثة عقود، بمعدلات نمو منخفضة بامتياز أفضت إلى معدلات بطالة مرتفعة بامتياز، لاسيّما بين الشباب.

كنت على استعداد خاص لقراءة الأمور من هذه الزاوية لأنني كنت أدرّس صفاً جامعياً عن «مشاكل التنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» على مدى سنوات عديدة قبل الثورة. كان من الواضح بالنسبة إليّ أن انسداد التنمية في المنطقة سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى انفجار اجتماعي كبير.

ولذلك وصفتُ باكراً ما بدأ في تونس في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، ثم انتشر في عموم المنطقة، كبداية سيرونة ثورية طويلة الأمد. بذلك، كنت أحيل إلى سيرورات تاريخية للثورة لا تكتمل خلال أسابيع وأشهر، وإنما خلال سنوات وعقود. وقد دشّنت الانتفاضات مرحلة طويلة الأمد من انعدام الاستقرار الإقليمي ستمرّ حتماً بفترات صعود وهبوط، فورات ثورية وانتكاسات مضادة للثورة، تنطوي أيضاً على الكثير من العنف.

إن التـجـاور ما بين مظاهر الثراء الفاحش والفقر المدقـق حـد خلق إحباطات ضخمة. وتفاقمـت هذه المشكلة كثيراً منذ الطفرة النفطية في السبعينيات.

في البداية، بدوّ متشائماً لأنني كنت أطلب من الناس أن يهدأوا من حالة الانتهاج الجماعي التي تمكّنتهم، مشدداً على أن الأمور ما زالت في بداياتها، وأن ما هو على المحك بالغ التعقيد والصعوبة، سيستلزم وقتاً طويلاً، ولن يبقى سليماً. كما أنني شددت منذ اللحظات الأولى على أن السيناريوهين التونسي والمصري لجهة الإسقاط السلمي نسبياً للحاكمين لا يمكن تكرارهما في بلدان مثل ليبيا وسورية، أو في الملكيات: قلّت ذلك قبل أن تندلع الثورة في أيّ من البلدين الأخيرين.

العام وركودها، ففشل النموذج النيوليبرالي على نحو بائس في المنطقة العربية.

يشير ذلك كله إلى حقيقة أن الثورة أتت نتيجة أزمة بنيوية، وليست عرضية أو دورية، وأنها ليست سيرة انتقال إلى الديمقراطية، تأتي لتتوج مرحلة طويلة من التنمية، كما حدث في بعض البلدان «الناشئة»، وإنما هي نتيجة انسداد مزمن، أما الخلاصة المنطقية فهي أن بلدان المنطقة تحتاج إلى تغيير جذري يطاول بنيتها الاجتماعية – السياسية من أجل تذليل الانسداد.

وأما إزالة رأس جبل الجليد، كإزالة بن علي أو مبارك وحاشيتهما، فلم يكن بوسعها أن تنهي الاضطرابات، من هنا أتى تركيزي منذ البداية على الأمد طويل، وعلى «السيرورة الثورية» كمفهوم يتميز عن «الثورة» التي ظن الكثيرون أنها انتهت مع سقوط المستبد.

◆ كيف تمت ترجمة الصعوبات الاقتصادية والتحديات التنموية في حركات واسعة النطاق تشد التغيير، كالانتفاضات؟ هل هو مستوى الصعوبات، كالبطالة مثلاً، الذي صنع الفرق؟ الحجّة المضادة لذلك تقول إن الصعوبات الاقتصادية والتحديات التنموية موجودة في العالم العربي وبلدان أخرى منذ فترات طويلة، ومع ذلك لم تقد إلى ثورات.

■ ليست هذه حجّة مضادة حقاً لأننا نوصف هنا انسداداً تفاقمت حاله على مدى ثلاثة عقود. هذا يؤدي إلى آثار تراكمية، أحدها ازدياد كتلة البطالة، لم يكن معدل البطالة مستقرّاً خلال هذه الفترة، بل ازداد حتى بلغ مستوى مرتفعاً جداً بعد عدد من السنوات. وعند نقطة معينة، يميل الأثر الاجتماعي التراكمي للانسداد الاقتصادي إلى إحداث انفجار في الأنظمة المقفلة بإحكام، هذا من ناحية.

من الناحية الأخرى، هناك أيضاً عدد من العوامل السياسية تدخلت في تحديد الانفجار. وقد استعرت من المفكر الماركسي لويس ألتوسير مفهوم «التحديد التضافري» مطبقاً على الأحداث التاريخية. فالانفجار لدينا كان ناتجاً من تحديات متضاربة بمعنى أن عدداً من العوامل السياسية تدخلت فيه لتضاف إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية البنيوية.

أحد هذه العوامل، على سبيل المثال، يتمثل في أثر الحروب الإمبريالية في المنطقة لجهة زعزعة الاستقرار، وبالأخص احتلال العراق. هذه العوامل المتنوعة التقت لتنتج انفجاراً ثورياً عظيماً.

أما سبب هذا الانسداد الاقتصادي فيمكن في آثار النيوليبرالية في السياق العربي، والحال أن الدول العربية، مثلها مثل معظم بلدان العالم، بدأت باعتماد النموذج النيوليبرالي في السبعينيات. وقاد ذلك إلى تقليص تدريجي لنفقات الدولة في الاقتصاد. فبحسب العقيدة النيوليبرالية، كان ينبغي أن يتم تعويض انحسار استثمارات الدولة من قبل قطاع خاص مُنحت له حوافز عدّة.

لم يكن ممكناً بأي شكل من الأشكال أن يصبح القطاع الخاص محركاً لمعجزات اقتصادية مثلما أراد النيوليبراليون أن يؤمنوا. فبقي الاستثمار الخاص محدوداً. قائماً على المضاربة في معظمه وموجهاً نحو الربح السريع. ولم يعوض القطاع الخاص عن أفول استثمارات القطاع العام وركودها. ففشل النموذج النيوليبرالي على نحو بائس في المنطقة العربية.

وقد نجح هذا النموذج من ثمّ يفقده القطاع الخاص في بعض البلدان ذات شروط ملائمة، كما كانت الحال في التشيلي أو تركيا أو الهند، ولو بكلفة اجتماعية عالية، إلا أنه ما كان لينجح في المنطقة العربية – بسبب طبيعة الدولة. فإنّ الغالبية العظمى من الدول العربية تجمع ما بين سمتين: هي دول ريعية، أي دول تُشكّل فيها الربوع (من الموارد الطبيعية أو الوظائف الإستراتيجية) جزءاً كبيراً من مدخول الدولة، وهي دول تتموضع على سلم يتراوح ما بين «الدولة الميراثية» و«النيو ميراثية»، والخاصية العربية الأبرز هي وجود لبّ دول «ميراثية» بشكل كامل، أي دول «تتلكها» عملياً جماعة حاكمة، على عكس «الدولة الحديثة» حيث لا يتعدى أعضاء الطاقم الحاكم صفة الموظّفين لدى الدولة. هذه السمات جمعاء هي التي قادت لما سمّيته «هيمنة التحديد السياسي لتوجهات النشاط الاقتصادي».

إذا أضفنا إلى ذلك الأوضاع السياسية الإقليمية من نزاع وانعدام استقرار حادّ، تفهمين أنه لم يكن ممكناً بأي شكل من الأشكال أن يصبح القطاع الخاص محركاً لمعجزات اقتصادية مثلما أراد النيوليبراليون أن يؤمنوا، فبقي الاستثمار الخاص محدوداً، قائماً على المضاربة في معظمه وموجّهاً نحو الربح السريع، ولم يعوّض القطاع الخاص عن أفول استثمارات القطاع

ولكن، ليس لكل منها الثقل ذاته: العوامل الاجتماعية والاقتصادية هي الأكثر أهمية، إلا أن تضافر العوامل كافة أتى متفجراً على نحو خاص.

♦ أي جماعات اجتماعية أدت دوراً في تنظيم هذه الثورات؟ هل أتى المنظمون من خلفية طبقية معينة ولماذا؟ هل وجدت اختلافات بين البلدان العربية؟

■ وجدت اختلافات، بالطبع، ولكن توجد أيضاً بعض السمات المشتركة في هذا الصدد. دعني أبدأ بالخير. صور الإعلام الحركة بوصفها ثقاد من قبل مجموعة من الشباب البارعين في استخدام الإنترنت، والذين شكلوا شبكات في ما بينهم عبر وسائل التواصل الاجتماعية، حتى أنه أطلق على الانتفاضات اسم «ثورات الفيس بوك».

هنا أيضاً، ليس هذا بالخاطئ تماماً، لكنه جانب واحد فقط من الحقيقة. فقد كان هناك فعلاً بين منظمي الانتفاضات شبان متصلون ببعضهم عبر شبكات التواصل الاجتماعي. وقد أدوا دوراً محورياً في تنظيم التظاهرات والمسيرات الممتدة من المحيط إلى الخليج، ومن المغرب إلى سورية.

ولكن، كانت هناك أيضاً قوى أخرى أعارها الإعلام اهتماماً أقل بكثير. وهي تظهر بالضرورة إذا سألت: لماذا حققت الانتفاضات نصراً أولاً في تونس ولماذا كانت مصر البلد الثاني، لماذا شقّ هذان البلدان الطريق؟ إذا استقصيت هذه المسألة بجدية، لا يمكن أن يفوتك أن تلاحظي سمة مشتركة بين البلدين المذكورين هي أهمية الحركة العمالية فيهما.

والحال أن لدى تونس وحدها في المنطقة حركة عمالية منظمة قوية تحوز على درجة من الاستقلال عن الحكومة، بما يتيح وجود عضوية منخرطة في الصراع الطبقي على مستوى القواعد والقيادات الوسطى والمحلية.

الاتحاد العام التونسي للشغل منظمة فريدة من نوعها، أدت دوراً محورياً في تاريخ تونس الاجتماعي والسياسي. وكان هناك دائماً بين قياداتها الوسطى الكثير من اليساريين. وقد لعب الاتحاد العام دور المنظم الحقيقي للانتفاضة في تونس منذ بدأت تتطور. فلولاها، لما كانت الحركة لتحقيق النصر الذي أحرزته بمثل تلك المدة القصيرة التي قلت عن الشهر الواحد.

وقد خاض الاتحاد العام التونسي للشغل في تنظيم الحركة بضغوط من بعض فروعها، مثل نقابة المعلمين،

وأمدّها بقوة دفع كبيرة. وأدت فروع الاتحاد المحلية دوراً محورياً في المناطق التي شهدت بدء انتشار الانتفاضة، فدفعت تالياً بقيادة الاتحاد العام لتلحق بالمعركة.

ثم بدأ الاتحاد العام بتنظيم إضرابات عامة جوالّة، في منطقة تلو الأخرى. والحال أن اليوم الذي هرب فيه بن علي من تونس، يوم ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، كان هو اليوم الذي وصل فيه الإضراب العام إلى العاصمة. فالاتحاد العام هو إذاً، في الواقع، المنظم الحقيقي للانتفاضة في تونس.

وللأسف، لا يوجد في مصر مرادف للاتحاد العام التونسي للشغل: فحركة العمال المنظمة هي تحت سيطرة الحكومة، باستثناء بعض النقابات المستقلة التي كانت لا تزال حديثة العهد ومحدودة العدد لما قامت الانتفاضة. عوضاً عنها، قاد الحركة ائتلاف من القوى السياسية.

وكان لناشط «فيس بوك» دوراً بالتأكيد، ولكن من السخف حقاً اختزال الثورة المصرية بشخص وائل غنيم - رئيس قسم التسويق في فرع «غوغل» الإقليمي الذي أنشأ صفحة «فيس بوك» شهيرة ولم يكن حتى مقيماً في مصر، وإنما في دبي - وتصويره كالشخصية الأهم في الثورة، مثلما فعل الإعلام لفترة.

لم تدعُ إلى تظاهرات حاشدة في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ شبكة افتراضية دون سواها، وإنما دعا إليها ائتلاف من ١٧ قوة سياسية حقيقية. وشاركت في الحشد شبكات سياسية حقيقية ناشطة على الأرض. هذا وكان لحركة العمال دورٌ مصيري في تجهيز الأرضية للثورة، وتلك نقطة حاسمة. فقد أتى الانفجار في مصر تتويجاً لخمس سنوات شهدت موجة عارمة من النضال العمالي، هي الأكثر أهمية في تاريخ البلد.

بلغت تلك الموجة ذروتها في ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ لكنها حافظت على مستوى مرتفع حتى ٢٠١١. وخلال الثورة نفسها، في مطلع شباط/فبراير، دخلت الطبقة العاملة في دائرة الصراع: مئات آلاف العمال أعلنوا الإضراب ما أن دعت الحكومة إلى استئناف العمل. وكان لهذه الموجة من الإضرابات دورٌ فعال في تعجيل سقوط مبارك.

تلك هي القوى الحقيقية التي أدت دوراً محورياً في مصر وتونس. وفي البحرين أيضاً، كان للعمال دورٌ محوري تم إغفاله تماماً. في البحرين، كما في تونس، حركة عمالية منظمة ومستقلة، ولو كانت أقل قوة تأثيرية من نظيرتها التونسية، لكنها أدت دوراً بالغ الأهمية خلال المرحلة الأولى من الثورة في تنظيم الإضراب العام.



وقد تم قمع حركة العمال البحرينيّين بقسوة، ليس فقط سياسياً بل أيضاً عبر التسريع الجماعي للعمال. وحتى في اليمن، سبقت الانتفاضة موجة من الإضرابات العمالية. في المقابل، وبسبب الحكومات الديكتاتورية للغاية، لم تكن توجد في بلدان مثل سورية أو ليبيا جماعات منظمة مستقلة، سياسية كانت أو حتى اجتماعية. وقد كان معظم المعارضين السياسيين يعيشون في المنفى بعدما عانوا القمع الرهيب في الوطن - كما جرى عدد من الاغتيالات طاولت المعارضين حتى في الخارج. أما من بقي في سورية من معارضي النظام فكانوا تحت رقابة شديدة، لا يسعهم الخوض في أي حركة واسعة النطاق. لهذا السبب، أدّت شبكات الإنترنت دوراً حاسماً في بلدان كهذه. في سورية، خلال المرحلة الأولى التي استمرت بضعة أشهر، أشرفت على تنظيم الانتفاضة لجان تنسيق («التنسيقيات») مشكلة على نحو أساسي من الشباب بواسطة شبكات الإنترنت.

هكذا، فبحسب الظروف الاجتماعية والسياسية في كلّ بلد، اشرتكت عوامل اجتماعية وسياسية مختلفة في تنظيم الثورة.

◆ فلنلق نظرة عن كثب على مصر وتونس، ثم لنعد بعدهما إلى سورية. يمكن للمرء أن يرفض تفسير الانتفاضة كنتيجة لانشقاقات في صفوف النخب الحاكمة في البلدان العربية، لكنّ مصر قد شهدت توترات متصاعدة ما بين النخب النيوليبرالية الناشئة من جهة، وما يُشار إليه عادةً بحرس مبارك القديم والنخب العسكرية من الجهة الأخرى. فكيف تقيّم هذه التوترات؟ هل تظن أنها أثّرت في الانتفاضات، وهل ترى أنها تشير إلى منحى عام في العالم العربي نتيجة تنامي الدور السياسي الذي يلعبه الرأسمال الخاص؟

■ هذه السمات تمّ تضخيمها، وضُخّ فيها الكثير من التفكير بالأمني القائم على عقيدة في العلوم السياسية تفيد بأن الطبقة الوسطى هي العامل الحاسم في التغيير الديمقراطي. ولذلك، كثيراً ما سمعنا في البداية أنّ الثورات تقودها الطبقة الوسطى المتأثرة بالغرب، والحقيقة أن الغالبية العظمى من البرجوازية النيوليبرالية كانت شديدة الخوف من ديناميات الانتفاضة.

وإذا انتهى الأمر ببعض أعضائها في بلدان مثل تونس أو مصر إلى التنصل من الحاكم، فذلك لأنّ الحاكم أضحى عبئاً، إلّا أنّهم فعلوا ذلك أساساً من أجل الحفاظ على الدولة. وإذا قام بعض أعضاء الطبقة الرأسمالية



أساسياً في المفاوضات حول مستقبل تونس. ويجوز الاعتقاد أنّ تصاعد النضالات العمالية في العام ٢٠١٢ في مصر يفسّر جزئياً انقلاب العام ٢٠١٣. لم تكن غاية السيسي أن يسحق الإخوان المسلمين فحسب، وإنما سعى أيضاً لأن ينهي التجذّر المستمر والاضطرابات الاجتماعية المتزايدة التي بلغت ذروتها في مطلع العام ٢٠١٣ ضد محمد مرسي (الرئيس آنذاك). كيف ولماذا أدّى العمّال في مصر وتونس أدواراً مختلفة؟

■ بادئ ذي بدء، وكما ذكرتُ آنفاً، من المؤسف أنّه لا يوجد مرادف مصريّ للاتحاد العام التونسيّ للشغل، لأنّ الدولة سيطرت بنحو كامل على الحركة العمالية منذ عهد جمال عبد الناصر وحتى العام ٢٠١١. ومع أنّنا شهدنا ظهور بوادر حركة عمالية مستقلة خلال السنوات القليلة التي سبقت الثورة في مصر، إلّا أنّها لم تحقّق شيئاً يتيح مقارنتها ولو عن بعد بالحركة التونسية. صحيح أنّ الطبقة العاملة أدّت دوراً رئيسياً في البلدين، لكنّها، في أحدهما، طبقة عاملة منظمة بينما كانت في البلد الثاني، ولا تزال، طبقة عاملة غير منظمة بمجملها: ما لديك هناك عبارة عن إضرابات معظمها خارجة عن القانون يتم تنظيمها على مستوى محليّ. وكان الأبرز ٢٤ ألفاً من عاملات وعمّال الغزل والنسيج في المحلّة الكبرى في مصر، شكّلوا طليعة الصراع الطبقيّ في مصر قبل الثورة وحتى يومنا هذا. في كل لحظة محوريّة، وقفوا في الخطّ الأول.

ولكن، يبقى لغياب حركة عمالية منظمة ومستقلة طبقيّاً على صعيد مصر بمجملها تبعاتٌ ضخمة، فوجود الاتحاد العام التونسيّ للشغل هو العامل الرئيسيّ الذي أتاح للأحداث أن تسلك منحىً مختلفاً في تونس - إضافة إلى غياب تقاليد الحكم العسكريّ: تونس كانت دولة بوليصة تحت سلطة بن عليّ، لكنها لم تكن ديكتاتوريةً عسكريّة.

إنّ هذين العاملين المتضافين - الخروج النسبيّ للجيش عن السياسة وأهميّة الحركة العمالية المنظمة - يفسّران قدرة الحركة العمالية على أداء دورٍ على هذا القدر من المركزيّة في الأحداث التونسية.

مع ذلك، ليست هي حركة عمالية ثورية، صار اليسار مهيمناً داخلها منذ ٢٠١١، لكنّ الغالبية العظمى ليست راديكالية. يقود الاتحاد النضال الاقتصاديّ الأساسي لكنه لا يطمح إلى تغيير الطبيعة الطبقيّة للسلطة.

لهذا السبب، يسعى الاتحاد العام إلى إيجاد تسوية

النيوليبرالية، كنجيب سويرس في مصر على سبيل المثال، بتقديم أنفسهم بانتهازية كليباليين بالمعنى السياسي، فإنّ الكتلة العظمى من النخبة الاقتصادية لم تدعم الثورة.

في كلٍّ من تونس ومصر، توصّل الجيش وجزءٌ واسع من جهاز الدولة إلى الاقتناع بأن عليهم التخلص من الرئيس لكي يحولوا دون استمرار الثورة وتجذّرها. وقد نسي الناس أن ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ في مصر كان انقلاباً عسكريّاً بقدر ما كان ٣٠ تموز/يوليو ٢٠١٣. وقد نفّذ الانقلابين المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة، في المرّة الأولى بقيادة محمد طنطاوي وفي الثانية بقيادة الرئيس الحالي عبد الفتّاح السيسي. وقد صادر الانقلابان الحراك الشعبيّ العام.

◆ يتحقّق بعض الناس بوجود قلق بين النخب العسكريّة في مصر وبين ابن مبارك، جمال، الذي أحاطت به آنذاك نخبة اقتصادية ذات قوّة متزايدة. هل ترى لذلك أي أثر في الانتفاضة؟

■ كانت هناك بالتأكيد توترات في مصر بين الجيش من جهة وجمال مبارك ومحيطه من الجهة الأخرى، كانوا في الواقع يتنافسون، فالجيش في مصر هو أيضاً مؤسسة اقتصادية: إنه، في الواقع وبفريقٍ شاسع، أهم كتلة مصالح اقتصادية في البلد.

للقوّات المسلّحة دورٌ في كافّة أشكال النشاط الاقتصاديّ غير ذات صلة بالشؤون العسكريّة. وهي تتصرّف كأنها شركة قابضة كبيرة، تنافس بعض المقاولين وتمنح العقود لسواهم - بينما تطالب لنفسها بحقّ الأولويّة في كافّة عقود الدولة.

وقد استفحلت التوترات بين القوّات المسلّحة وجمال مبارك لما عبّر حسني مبارك عن نيّته توريث السلطة لابنه. فالقوّات المسلّحة قد عارضت التوريث تماماً، بطبيعة الحال، لا سيّما أنّ التوريث كان سوف يعاكس تقليداً قديماً في حكم الجمهوريّة المصريّة من قبل العسكريين. فبعد ناصر، حكم السادات ومبارك الآتيان بدورهما من المؤسسة العسكريّة.

إلّا أن هذه التوترات جميعها لم تكن في صميم الانتفاضة بأيّ شكل من الأشكال. لقد شكّلت خلفيّة للتغيّرات التي حصلت في أعلى الهرم، أمّا الثورة فقد أتت من قعر المجتمع ولم تنتج قطعاً عن صراع داخل النخبة.

◆ في الآونة الأخيرة، حلّت الحركة العمالية لاعباً

والحزب السائد الجديد في تونس هو، إلى حد بعيد - ليس حصراً وإنما إلى حد بعيد - نسخة منقحة من الحزب الحاكم في النظام السابق.

ولكن، على عكس الحال في مصر، فإن ذلك كله يجري بطريقة أكثر سلاسة وسلمية. الفارق الحاسم هنا هو أن تونس يحكمها اليوم ائتلاف بين هذه النسخة المجددة من النظام القديم و«حزب النهضة»، المعادل التونسي لجماعة «الإخوان المسلمين» المصرية مع أنه لا يمتلك قوتها.

إنه سيناريو مختلف، يلتقي فيه جناحا الثورة المضادة ضمن ائتلاف بدلاً من أن يتحاربا، وهو بعينه السيناريو الذي تتمنى الولايات المتحدة الأميركية أن تراه يمتد ليشمل المنطقة بكاملها؛ ائتلاف بين الأنظمة السابقة المرتمة وما يسمى بالمعارضات المعتدلة تمثلها فروع «الإخوان المسلمين» على المستوى الإقليمي.

◆ فلنتنقل إلى سورية. لماذا يرتبك موقف الكثيرين في اليسار العالمي تجاه سورية؟ النظام السوري شديد القمعية والطائفية، ومع ذلك، لم تحط الثورة السورية بالدعم الذي فاز به الآخرون.

■ أظنهم يستندون في ذلك إلى أفكار خاطئة أتت كرد فعل ضد الحكومة الأميركية. أولئك الذين لا يعرفون تاريخ المنطقة يظنون أن تحالف النظام السوري مع إيران ومع «حزب الله» في لبنان ناجم عن كونه معادياً للصهيونية والإمبريالية. وتروج أيضاً أجهزة دعاية النظام السوري لهذه الصورة ذاتها. في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠١١، في مقابلة شهيرة أعطاها بشار الأسد لصحيفة «وول ستريت جورنال» قبل اندلاع الثورة في سورية، شرح أن بلده محصن ضد الرياح الإقليمية - مثلما شاء أن يعتقد حينها - لأن نظامه «وثيق الصلة بقناعات الشعب». وأضاف أن «الشعب لا يعيش فقط بالمصالح، وإنما أيضاً بالقناعات، خصوصاً في المناطق الإيديولوجية بشدة». عني بذلك أن إقناعه للشعب السوري «الإيديولوجي بشدة» بأنه معاد للصهيونية ومعاد للإمبريالية، قد حقق لنظامه الرضا الشعبي.

من هنا، لما أطاحت القوات المسلحة المصرية حسني مبارك، بث التلفزيون الرسمي السوري الخبر تحت عنوان: «سقوط نظام كامب دايفيد». أرادوا أن يصدّقوا، أو بالأحرى أن يُقنعوا الناس، بأن الثورة المصرية أتت نتيجة لاتفاقية السلام مع إسرائيل الموقعة سنة ١٩٧٨، بينما بقي النظام السوري الذي يدعي التصلب القومي

مع أرباب العمل ومع الدولة، وقد أدى دور الوسيط التوفيق ما بين قوّتي الثورة المضادة في البلد - النظام السابق والحركة الإسلامية - بدلاً من النضال ضدّهما من أجل التغيير الاجتماعي الجذري. ويأتي منح الاتحاد جائزة نوبل للسلام بالتشارك مع نقابة أرباب العمل ليكون مؤشراً ذا دلالة في هذا الصدد.

الاتحاد العام التونسي للشغل ليس حركة عمالية ثورية. صار اليسار مهيمنا داخلها لكن الغالبية العظمى ليست راديكالية. يقود الاتحاد النضال الاقتصادي لكنه لا يطمح إلى تغيير الطبيعة الطبقية للسلطة.

مع ذلك، ومن وجهة النظر الاستشراقية الغربية السائدة، يُفسّر «الاستثناء الديمقراطي» التونسي بأنه «ثقافي». ولولا الحُجَل، لنسب أصحاب هذه النظرة الفضل في «الاستثناء الديمقراطي» لبن علي نفسه!

بيد أن الاستثناء التونسي الحقيقي والوحيد إنما هو الاتحاد العام التونسي للشغل، هذه الحركة العمالية المنظمة، القويّة والمستقلّة. ويؤكد ذلك أن العامل الأكثر حسماً من أجل الديمقراطية ليس «الطبقة الوسطى» مثلما ترى العلوم السياسيّة البرجوازيّة، وإنما الحركة العماليّة. والمعيار الأشدّ دقّة في الديمقراطية السياسيّة إنما هو، في الواقع، احترام حقوق العمال ووجود حركة عماليّة مستقلّة. يمكنك أن تجد في العديد من البلدان التي تزدهر فيها «الطبقة الوسطى» تحت نظام ديكتاتوري، لكنك لن تجد أبداً حركة عماليّة مستقلّة بذاتها في ظل شروط ديكتاتورية.

◆ الثورة المضادة انتصرت تقريباً في كافة البلاد العربيّة، باستثناء تونس إذا أمكن القول. ومع أن التونسيين لم يحققوا بعد الديمقراطية والعدالة الاجتماعيّة اللتين يتوقون إليهما، تبقى على الأقل إمكانية تحدي مراكز القوى.

● أخشى أن تونس ليست استثناءً في مدّ الثورة المضادة في المنطقة. وهي تعيش مرحلة من الثورة المضادة، ولو أكثر اعتدالاً بكثير من سواها. تونس تشهد عودةً جماعيّة لرجال النظام القديم.

ينتمي الرئيس التونسي الحالي هو ذاته - عدا عن كونه أكبر رؤساء العالم سنّاً بعد موغابي في زيمبابوي ومملكة إنكلترا، وتناقض مع كونه وصل إلى الحكم فرضياً نتيجة «ثورة شبّابيّة» - إلى النظام القديم.

المعركة، ينسى الناس أو يتجاهلون ذلك كله. لا يوجد أي شيء على الإطلاق معاد للإمبريالية في نظام الأسد. إنه نظامٌ شبيهٌ بالمافيا، انتهازيٌ حتى النخاع، يخدم مصالحه فقط. وفي الوقت عينه، هو واحدٌ من أشدّ أنظمة المنطقة استبداداً، يمارس القمع بوحشيةٍ مفرطة. في مطلع الثمانينيات، استهدفت حملة قمع واسعة اليسار: رُمي ما يقارب الألف عضو من حزب العمل الشيوعي في السجن، وتعرّضوا لتعذيب رهيب، وقد بقي مئات منهم في السجن لفترات تتراوح ما بين عشر سنوات وعشرين سنة، مع أنهم لم يتورطوا يوماً بأي عملٍ عنفيٍّ ولا نظروا للعنف.

وقد مضى النظام السوري خلال السنوات الـ ١٥ الماضية في إرساء تغييرات نيوليبرالية ذات نتائج واضحة للعيان. شهدت سورية تطوّر طبقة شديدة الفساد من رأسمالية المحاسيب، إذ تحوّلت العشيرة الحاكمة من السيطرة على السلطتين العسكرية والسياسية إلى امتلاك مفاتيح السلطة الاقتصادية. فأصبح ابن خال بشار الأسد أغنى رجل في سورية ومن بعيد، كما غدا الكثيرون من أقربائه شديدي الثراء.

وفي الناحية الأخرى من الطيف الاجتماعي، شهدت سورية ارتفاعاً حاداً في البطالة، وتصفيّة للصناعات، وتفقيراً للريف، وقد أدّى ذلك كله إلى توترات اجتماعية هائلة، انفجرت في العام ٢٠١١. على هذا المستوى، سارت سورية على النمط ذاته الذي سارت عليه باقي دول المنطقة.

◆ كيف يختلف أولئك الذين خرجوا ضد بشار الأسد في العام ٢٠١١، إذا اختلفوا بشيء، عن نظرائهم التونسيين والمصريين؟

■ لتبرير دعمهم نظام الأسد، تحجج بعضهم بأن الثورة السورية، على نقيض سواها في بلدان عربية أخرى، أتت بقيادة قوى رجعية إسلامية، وهذا، أيضاً خاطئٌ تماماً. أولاً، في كل من تونس ومصر، تمكّنت القوى الأصولية الإسلامية من أن تستفيد أكبر استفادة من الثورة. وقد فاز «الإخوان المسلمون» في مصر و«النهضة» في تونس بالانتخابات الأولى التي شهدتها البلدان.

إذا، إذا كانت الحجّة أنّ الثورة السورية وقعت تحت سيطرة القوى الإسلامية، وجب على كل من قال بها أن يدعم النظام السابق في كل من تونس ومصر حفاظاً على تماسك الرأي.

في الواقع، يدعم حالياً جزءٌ من اليسار في

محضناً تجاه الثورة الشعبية. كان ذلك محض إسقاط للرغبات على الواقع بطبيعة الحال، مثلما برهنت الأحداث بعد أسابيع قليلة.

أما اقتناع أي شخص من اليسار بمثل ذلك الادعاء فهو أمرٌ مؤسف. والحقيقة أن النظام السوري لم يوقع اتفاقية سلام مع إسرائيل، لا لنقص في الرغبة من جانبه وإنما لنقص في الرغبة لدى الجانب الإسرائيلي. والحال أن جولات عدّة من المفاوضات تمّت في الواقع بين الدولتين، قبل سنة ٢٠١١، أدّى أردوغان، وكان رئيس الوزراء التركي آنذاك، دور الوسيط بين صديقه الحميم في ذلك الحين بشار الأسد وإسرائيل.

والجغرافيا هي ما صعب إنجاز اتفاقية سلام بين سورية وإسرائيل بالمقارنة مع مصر. أعادت إسرائيل صحراء سيناء إلى مصر لأنها حاجزٌ عسكري قائم بحد ذاته، لا سيما أن الاتفاقية نصّت على أن تبقى منطقة منزوعة السلاح. فالوقت الذي يحتاج إليه الجيش المصري لعبور الصحراء الفاصلة بين قناة السويس والحدود الإسرائيلية، وقتٌ يتيح للطيران الحربي الإسرائيلي تدميره مراراً وتكراراً.

في المقابل، فإن هضبة الجولان هي نقطة إستراتيجية تشرف بشكل مباشر على مناطق إسرائيل السابقة لاحتلال سنة ١٩٦٧. لهذا السبب، ضمت إسرائيل الجولان رسمياً إلى أراضيها في العام ١٩٨١. فبالإضافة إلى القدس الشرقية، الجولان هو الجزء الوحيد من الأراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ التي قامت الدولة الإسرائيلية بضمّه رسمياً إليها.

دخل نظام الأسد إلى لبنان سنة ١٩٧٦ بضوء أخضر إسرائيليٍّ وأميركيٍّ بهدف سحق منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.) واليسار اللبناني، وإنقاذ أقصى اليمين اللبناني من هزيمة وشيكة. وبعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، أكمل نظام الأسد ما بدأته إسرائيل بطردها المقاتلين الفلسطينيين من النصف الجنوبي من البلاد وصولاً إلى بيروت ومنها.

ففي السنة التالية، وعبر وكلائه، طرد النظام السوري مقاتلي م. ت. ف. وعرفات نفسه من شمال لبنان. كما دعمت دمشق حلفاءها اللبنانيين في حركة أمل الشيعية الطائفية، في حربهم ضد المخيمات الفلسطينية في الثمانينيات. وفي العام ١٩٩٠، التحق حافظ الأسد بالتحالف الدولي تحت قيادة الولايات المتحدة الأميركية في الاعتداء على العراق، دافعاً بجنودٍ سوريين إلى

تونس ومصر النظام السابق تحت حجج مماثلة. في مصر، دعمت معظم قوى اليسار الانقلاب الذي قاده السيسي، حتى ولو ندمت بعض هذه القوى لاحقاً على موقفها.

أما الحقيقة الأساسية فهي أن ثورات شعبية قد وقعت على امتداد المنطقة. وإذا تمكنت القوى الأصولية الإسلامية من أن تصبح مهيمنة بين القوى المنظمة في هذه الثورات بلا استثناء، فالسبب في ذلك إنما يعود بالتأكيد إلى الضعف العملي والسياسي لليسر من جهة، ولكنه أيضاً وفي المقام الأول نتيجة عقود من حكم الأنظمة الاستبدادية، من جهة أخرى. يجب ألا يغفل أحد ذلك. لم يكن النظام السوري درعاً في مواجهة الأصولية الإسلامية، ولا كان مبارك أو بن علي، ولا هما الأسد والسيسي اليوم.

منذ أن وصل بشار الأسد إلى الرئاسة خلفاً لأبيه على نمط السلالات الحاكمة، شجع انتشار السلفيين في سورية. كل من كان على معرفة بالوضع السوري استطاع ملاحظة انتشار النقاب في الشوارع السورية. فقد شجع الأسد الشباب على الأمر، ظناً منه أنه بذلك سيضمن السلام الاجتماعي لنظامه، وأن هذه الأيديولوجيا الرجعية السلفية الإسلامية ستبقي الشعب بعيداً عن التدخل في السياسة. في نهاية المطاف، انفجر ذلك في وجهه.

منذ أن وصل الأسد إلى الرئاسة خلفاً لأبيه على نمط السلالات الحاكمة، شجع انتشار السلفيين في سورية. كل من كان على معرفة بالوضع السوري استطاع ملاحظة انتشار النقاب في الشوارع السورية.

والحكاية مماثلة على مستوى المنطقة بأسرها. وقد دعمت الولايات المتحدة ذاتها الأصولية الإسلامية ضد القومية العربية واليسار منذ الخمسينيات، حتى عادت هذه الأصولية وانفجرت في وجهها. وأطلق السادات الإخوان المسلمين من السجون وسمح لهم بأن ينظموا من أجل أن يلحق الهزيمة بالناصرية. ثم تقبلهم نظام مبارك كحزب جماهيري، ولو تحت الرقابة الشديدة. وبسحقها لليسر بمساعدة القوى الأصولية الإسلامية، أنتجت الولايات المتحدة والأنظمة المحلية شروط صعود معارضة من ضمن هذه القوى.

إلى ذلك، لما بدأت الانتفاضة السورية، فعل النظام كل ما في وسعه لمنع طاقاتها الديمقراطية والعلمانية، غير الطائفية، من الازدهار. شكّل ذلك بالفعل الخطر الأكبر من وجهة نظر النظام، فسحق الحركة بوحشية قصوى، وزجّ بعشرات الآلاف في السجون، معظمهم من الشباب الذين كانوا منظمي الانتفاضة ورأس حريتها.

في الوقت ذاته، ومثلما وثقت مقالات وكتب عديدة، أطلق النظام سراح الجهاديين الذين اعتقلهم في سجونهم بعدما استخدمهم في العراق. وقد أتى إطلاق سراح أولئك الجهاديين كخدعة مكافئة بامتياز أقدم عليها النظام لكي تتحقق النبوءة التي أطلقها منذ اليوم الأول للثورة بأنها مؤامرة جهادية. والحال أن النظام فعل ما بوسعه لخلق الشروط الملائمة لنمو الأصولية الإسلامية في سورية كي يتغير طابع الثورة.

في الوقت ذاته، اعتمد دفاع النظام أكثر فأكثر على وكلاء إيران الإقليميين الآتين من لبنان والعراق، وهم بالتأكيد لا يقلون أصولية إسلامية عن غالبية القوى السورية الإسلامية المعادية للأسد. إن الذين يدعون أن النظام السوري «علماني» يغفلون تماماً هذه الحقيقة الجلية التي تدحض فرضيتهم.

هذا وقد برز تنظيم القاعدة في سورية مطلع سنة ٢٠١٢ تحت تسمية جبهة النصرة، بمساهمة كبيرة من فرع القاعدة العراقي، الذي كان يسمى دولة العراق الإسلامية، والذي يلعب فيه دوراً حاسماً أعضاء سابقون في حزب البعث العراقي، الشقيق للدود لحزب البعث الحاكم في سورية.

ولما قرّروا ضمّ جبهة النصرة إلى التنظيم العراقي تحت تسمية الدولة الإسلامية في العراق والشام، المعروفة باسم داعش، تسبّب العراقيون بانشقاق قسم من السوريين الذين استمروا تحت اسم جبهة النصرة، وكفرع لتنظيم القاعدة الدولي. وقد أتى ذلك كله كتطور شديد الإيجابية بالنسبة إلى الأسد وجماعته. والحال أن تنظيم داعش قد اشتبك مع معارضي نظامهم أكثر بكثير مما اشتبك مع قواتهم.

في الحقيقة، إن داعش هو «العدو المفضل» لنظام الأسد، إذ إنه منقّر للغرب إلى حدّ جعله الحجة الأقوى لدى النظام في مطالبته القوى الغربية بتغيير موقفها منه. يمكنك أن ترى بوضوح سعي النظام السوري الحثيث، بمساعدة روسيا، من أجل إغراء الغرب بدعّمه بحجة القتال ضد داعش.





في مصر، حيث بلغت الأسلمة مرتبةً عالية خلال عهدي السادات ومبارك، فارتفعت حدة التوترات بينهم وبين النظام القديم لما حاولوا أن يفرضوا سلطتهم على أجهزة الدولة، هذه هي خلفية انقلاب سنة ٢٠١٣ في مصر. تجدين إذاً على امتداد المنطقة معسكرين للثورة المضادة وقطباً ثورياً واحداً، إن ضعف هذا الأخير العمليّ وأو السياسيّ هو ما أتاح للوضع أن يتطور إلى تصادم بين معسكريّ الثورة المضادة، بينما تمّ تهميش القطب الثوريّ.

سورية هي الحالة القصوى في هذا المجال، كانت هناك طاقةٌ تقدّمية كبيرة في الانتفاضة سنة ٢٠١١، توازي إن لم تفق حالها في بلدان أخرى، نتيجة انتشار الأفكار التقدّمية واليسارية لدى الشعب السوريّ - أكثر من انتشارها في مصر، ولكن أقلّ من انتشارها في تونس، إلا أنّ هذه الطاقة لم تتخذ شكلاً منظماً، والحال أن شبكات الإنترنت الافتراضية تبرع في تنظيم التظاهرات والمسيرات، لكنّها ليست بديلاً عن شبكة تنظيمية فعلية.

أضف إلى ذلك التدخل بالغ النشاط لمعقل الثورة المضادة في المنطقة ممثلاً بمشايخ الخليج النفطية، التي سعت جهداً لتقوّي العنصر الأصولي الإسلامي في المعارضة السورية على حساب كلّ ما عداه، فالثورة الديمقراطية الحقيقية تشكّل خطراً كبيراً عليهم، كحالها مع الأسد، بهذا المعنى، التقوا مع نظام الأسد في الدفع بالعنصر الأصولي الإسلامي إلى الصفّ الأول في المعارضة على حساب العنصر الديمقراطي العلمانيّ.

نتيجة كل ذلك في سورية هي، والحق يقال، حالٌ يهيمن عليها صدامٌ ما بين قوتين مضادتين للثورة: النظام وحلفاؤه من جهة، ومن جهة أخرى معارضة مسلّحة تعتنق القوى المسيطرة فيها توجّهات سياسية تتناقض جذرياً مع التطلّعات التقدّمية الأولى للانتفاضة كما تمّ التعبير عنها سنة ٢٠١١. صحيح أن هناك أيضاً قوى معارضة مسلّحة تبدو أقلّ رجعية، ولو أنّها بالكاد تقدّمية. الأهمّ من ذلك هو أن معظم المتحمّين بالجماعات الأصولية الإسلامية المسلّحة لم يلتحقوا بها لأسباب عقائدية، وإنّما كونها مصدر رواتب في ظروف معيشية سريعة التدهور بسبب الحرب، هذا سببٌ محوريّ حتى في فوداعش، وقد أتاح للتنظيم أن يجنّد آلاف المقاتلين مع كل ما سبق ذكره، فإنّ الطاقة التي تفجّرت سنة ٢٠١١ لم يتم سحقها وإنّما تمّ تهميشها سياسياً. الكثيرون

وثمة اليوم عددٌ متزايدٌ من أعضاء نخب السلطة الغربيين - خصوصاً الأكثر رجعيةً بينهم، مثل دونالد ترامب الأميركي ومارين لوبان الفرنسية - باتوا يدعون إلى ذلك بالتحديد: يطالبون بتحالف مع الأسد وبوتين. ♦ إذا نظرنا إلى سورية اليوم، يتحدّج بعض النقاد بأنّ كلّ القوى الموجودة على الأرض السورية هي قوى الثورة المضادة. هل هذا صحيح؟ أليس معظم المقاتلين سوريين يحاربون الديكتاتورية؟

■ هم كذلك، فعلاً، لكن واحداً من تعقيدات الوضع في المنطقة هو أنه لا ينطوي على الثنائية الكلاسيكية بين الثورة والثورة المضادة. بدل ذلك لديك مثلث قوى، من جهة، يوجد قطبٌ ثوريّ قوامه كتلة من القوى الاجتماعية والسياسية تجسّد آمال العمّال والشباب والنساء الذين انتفضوا ضد النظام القديم، طامحين إلى مجتمع تقدّميّ مختلف.

أمّا في الجهة الأخرى، فتجدين معسكرين وليس معسكراً واحداً للثورة المضادة. هناك أولاً، معسكر النظام القديم، أي الثورة المضادة التقليدية. ثم، وللأسباب التاريخية التي ذكرتها، توجد قوى رجعية ذات طابع ديني، رعتها أساساً الأنظمة لتشكّل ثقلًا موازنًا لليسار، لكنها نمت وانقلبت ضدّ هذه الأنظمة. وينتمي المعسكران إلى الثورة المضادة، بمعنى أن مصالحيهما الأساسية وبرامجهما تصطدم بشكل مباشر مع آمال القطب الثوري الذي يناضل من أجل التغيير الاجتماعي والاقتصادي والديمقراطي.

في اللحظة الراهنة. لا توجد أية أفاق لمخرج تقدّمي. كل من يظن غير ذلك هو حالم. وفي غياب أفاق شبيهة. أفضل ما يمكن أن يحصل هو وقف التدهور المستمر المرافق للحرب. ولكي تنتهي الحرب. يجب على الأسد أن يرحل.

فعند وصولهما إلى السلطة بدءاً من العام ٢٠١١، جسّد الإخوان المسلمون في مصر وحزب النهضة في تونس نوعاً آخر من الثورة المضادة، فاقنعت واشنطن بقدرتهم على العمل بفاعلية أكبر من النظامين السابقين، إذ إنهم استمروا في سياسات النظام القديم الاجتماعية والاقتصادية. أمّا التغيير الوحيد الذي سعوا لإنجازه فهو أسلمة المؤسسات - أو بالأحرى المزيد من أسلمة المؤسسات

مَنْ مثّلوا هذه الإمكانية غادروا البلد إلى المنفى لأنهم، من جهة، معارضون جذريون للنظام ومهدّدون من قبله، ومن الجهة الأخرى، يجدون في انتشار القوى الرجعية خطراً معادلاً للنظام عليهم.

إنّ معظم الباقين على قيد الحياة ولم ينته بهم الأمر في السجون، قد غادروا البلاد. هؤلاء الآلاف من الناشطين الذين يجسّدون الإمكانية الديمقراطية التقدّمية لانتفاضة ٢٠١١ ويقبعون اليوم في المنفى هم سببٌ للحفاظ على أمل بالمستقبل.

ولكن، في اللحظة الراهنة، جلّ ما يمكن للمرء أن يتمناه هو إنهاء هذه الدينامية الرهيبة لصدام الهمجيّات، كما سمّيته في أعقاب ١١ أيلول ٢٠٠١، حيث تصطدم همجيّة نظام الأسد بهمجيّة داعش، علماً أنّ الأخيرة هي أساساً نتيجة الهمجيّة الرئيسيّة التي مثّلها الاحتلال الأميركي للعراق. يجب أن تتوقّف الحرب الأهليّة، ومعها دمار سورية وذبح شعبها على أيدي النظام، ضمن شروطٍ تتيح للاجئين أن يعودوا من المنفى الخارجيّ أو النزوح الداخليّ. هذا هو الآن المطلب الأكثر إلحاحاً.

في اللحظة الراهنة، لا توجد أية آفاقٍ لمُخرجٍ تقدّميّ. كلّ مَنْ يظنّ غير ذلك هو حالم. وفي غياب آفاقٍ شبيهة، أفضل ما يمكن أن يحصل هو وقف التدهور المستمر المرافق للحرب. ولكي تنتهي الحرب، يجب على الأسد أن يرحل، لاستحالة الخروج بأيّ تسوية فعلية وإنهاء الصراع ما دام في موقعه.

إن روسيا وإيران يدعمهما له تصدّان إمكانية التسوية. منذ عام ٢٠١٢ وإدارة أوباما تردّد التالي: «لا نطالب بتغيير النظام في سورية ولكننا نعتقد بأنه يجب على الأسد أن يترك موقعه لتصبح التسوية ممكنة بين النظام والمعارضة». دعا أوباما إلى ما سمّاه «الحلّ اليمينيّ». ففي اليمن، وافق الرئيس على ترك موقعه وتسليم السلطة إلى نائبه، ولم يتم تغيير النظام. عوضاً عن ذلك، تشكّلت حكومة توافقية بين المعارضة والنظام، استثنيت منها عشيرة الرئيس. لم تدم طويلاً كما بتنا نعرف، ومع ذلك، فإن أوباما منذ العام ٢٠١٢ وحتى يومنا هذا يرى فيها نموذجاً يجب أن تقتدي به سورية.

في المقابل، فإن إيران وروسيا تخشيان من أن يخلّ رحيل عشيرة الأسد بألية النظام كلها التي تزعزعت إلى حدّ بعيد، الأمر الذي قد يؤوّل إلى خسارتها سورية كحليف محوريّ لهما في المنطقة. ولذلك، تعيق الدولتان أيّ تقدّم نحو تسوية تفاوضية.

إنّ تسوية كهذه ستكون، بلا أدنى شكّ، بعيدة كلّ البعد عن الحلّ المثالي. ولكن، طالما استمرت الحرب، فلن يكون هناك أيّ إحياء للطاقة الديمقراطية التقدّمية التي أظهرتها الانتفاضة السوريّة في العام ٢٠١١. إن تلك الطاقة لا تزال موجودة؛ فإذا توقّفت الحرب وعادت القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة إلى الواجهة، سيرى الشعب أن المعسكرين كليهما لا يملكان حلولاً لمشاكل البلاد.

♦ يقول البعض إنه، لو ترك الأسد السلطة، فستستولي عليها جبهة النصرة وداعش. أنت تقول إن الإطاحة بالأسد ستسرّع النضال من أجل التحرر السياسيّ.

■ صحيح. السبب الرئيسيّ الذي يتيح لجبهة النصرة ولداعش النمو هو استمرار نظام الأسد بالوجود. إن همجيّة نظام الأسد في قمع الانتفاضة هي التي خلقت أرضيّة سمحت لتنظيمي القاعدة وداعش بأن يتطوّرا في سورية.

لم تكن هناك جماهير جاهزة لأن تلتحق بمثل تلك الجماعات المجنونة. وقد انتهى الأمر بالناس أنهم رأوا في الجماعتين ردّاً مناسباً على الفظائع التي ارتكبتها النظام وعلى الفوضى التي سادت. لعبت داعش على ذلك الوتر، وفرضت نظاماً شمولياً دينياً بينما كانت تؤمّن للناس خدمات اجتماعيّة شبيهة بخدمات دولة. ولهذا السبب، أطلقت على نفسها اسم «الدولة» الإسلاميّة.

إن الطريقة الممكنة الوحيدة للتخلّص من داعش والقاعدة هي بإزالة الأسباب التي تدفع بالناس إلى الالتحاق بمثل هذه الجماعات. عندما حاولت الولايات المتّحدة سحق تنظيم القاعدة بالوسائل العسكريّة حصراً خلال معركة ومذبحة الفالوجة في العراق، فشلت على نحو بائس. ولم تتمكّن من تهميش القاعدة إلا بعدما بدّلت إستراتيجيّتها واستندت إلى القبائل العربيّة السنيّة داعمةً إياها بالمال والسلاح.

وإذا تمكّنت القاعدة المتحوّلة لداعش من استعادة السيطرة على أجزاء واسعة من العراق خلال صيف ٢٠١٤، فلأن حكومة نوري المالكيّ الطائفية المدعومة من إيران قد أعادت خلق ظروف الحقد العربيّ السنيّ التي أتاحت أساساً لتنظيم القاعدة أن ينمو تحت الاحتلال الأميركيّ. لذلك، وللمفارقة، خشي معظم العرب السنة في العراق من الانسحاب الأميركيّ سنة ٢٠١١. فبإحدى سخریات التاريخ، انتهى بهم الأمر إلى أن رأوا في القوّات الأميركيّة حمايةً لهم إزاء حكومة المالكيّ الطائفية الشيعيّة.

وفي سورية أيضاً، لا بدّ من إزالة الظروف المولدة للحقد الطائفيّ السنيّ من أجل إنهاء جاذبيّة النصرة وداعش، وسواهما من الأصوليّين. أما الشرط الأول لتحقيق ذلك فهو إبعاد عشيرة الأسد عن السلطة، كونها مكروهة من قسم عظيم من المجتمع السوريّ. ◆ فلننتقل إلى الجيوسياسية والولايات المتّحدة. كيف تصف الردّ الأميركيّ على الثورات؟

■ هذا أيضاً موضوع يقاربه يساريّون كثر بجمود فكريّ. فيفشل الكثيرون في إدراك أن تجربة العراق كانت كارثة محوريّة. إنها بالفعل أهمّ كارثة في التاريخ الإمبرياليّ الأميركيّ. فمن وجهة النظر الإستراتيجية، إنها كارثة أسوأ من كارثة فييتنام.

في سورية لا بد من إزالة الظروف المولدة للحقد الطائفيّ السنيّ من أجل إنهاء جاذبيّة النصرة وداعش. أما الشرط الأول لتحقيق ذلك فهو إبعاد عشيرة الأسد عن السلطة. كونها مكروهة من قسم عظيم من المجتمع السوريّ.

ما يعجز بعضهم عن فهمه هو أن إدارة أوباما، بعد بوش، ما عادت تخوض في تغيير الأنظمة. وقد كان شعار باراك أوباما إزاء الانتفاضة العربيّة سنة ٢٠١١ هو «الانتقال المنظم للسلطة»، ولم يكن «تغيير النظام». أراد الحفاظ على الأنظمة عبر تغييرات محدودة في أعلى الهرم تتيح انتقالاً سلساً من دون اضطراب أساسي في النظام. وينطبق الأمر حتى على ليبيا، فالتدخل الذي قاده الولايات المتّحدة في ليبيا كان محاولة لاستيعاب الانتفاضة الليبية وتوجيهها نحو صيغة انتقالية يجري التفاوض عليها مع ابن القذافي، النجل المرضي عنه في الغرب. وقد سعوا إلى ذلك حتى الدقيقة الأخيرة، غير أن المحاولة باءت بالفشل الذريع إذ أدّت الانتفاضة في طرابلس إلى انهيار النظام.

لهذا السبب، تحوّلت ليبيا إلى كارثة إضافية من وجهة النظر الإمبريالية الأميركيّة وصارت حجة إضافية ضدّ أي سياسة «تغيير للنظام» تتضمّن تفكيكاً جذرياً للدولة، كما حصل سابقاً في العراق. ولهذا السبب أيضاً، لم يصدر عن الولايات المتّحدة تصريح واحد يفيد بأنها تريد إسقاط النظام في سورية. قالوا

فقط إنه ينبغي على بشّار الأسد أن يترك سدة الحكم لكي يتيح انتقالاً تفاوضياً للسلطة. بكلام آخر، يريدون من الرجل أن يرحل ويبقى النظام في مفرجه. لقد تلقت الولايات المتّحدة الانتفاضة العربيّة سنة ٢٠١١ وهي في أسوأ أحوال هيمنتها الإقليمية منذ ١٩٩٠. في سنة ٢٠١١ ذاتها، جلت من العراق من دون تحقيق أيّ من الأهداف الإمبريالية المحوريّة للاحتياج. حصل التدخل في ليبيا أيضاً بفضل ضوء أخضر من روسيا. فقد امتنعت الصين وروسيا عن التصويت في مجلس الأمن لدى الأمم المتّحدة عند مناقشة قرار التدخل في ليبيا. كان بوسع الدولتين استخدام حقّ الفيتو ضد التدخل. ولكن، وعلى عكس الحال مع القذافي، تنظر روسيا إلى نظام الأسد كحليف أساسي، إذ كان القذافي قد تحوّل خلال سنواته الأخيرة ليصبح صديقاً عزيزاً لواشنطن ولندن وباريس وإيطاليا وبرلوسكوني.

ولما أتى دور سورية، لم تفكر واشنطن جدياً بتدخل عسكريّ مباشر، على الإطلاق. وقد جاءت لحظة في العام ٢٠١٣، ارتبك أوباما بسبب «الخط الأحمر» الذي حدّده لما أثير موضوع الأسلحة الكيميائية، وتنقّس الصعداء لما عرضت روسيا عليه تسوية مع الأسد. وعموماً، فإن الوضع أشدّ تعقيداً بكثير من منطلق «عدوّ عدوّي هو صديقي» الذي يستند إليه معظم اليسار «المعادي للإمبريالية» بالطريقة الانفعالية.

◆ إذا كانت روسيا والولايات المتّحدة متفتّحتين على بقاء النظام السوريّ فما هو صلب الخلاف بينهما إذا؟

■ يتمحور الخلاف حول مسألة الأسد، بالطبع. فحتى الساعة، تتمسك روسيا به لأنها تجد في عشيرة الأسد الضمانة الوحيدة لبسط سيطرتها على سورية. روسيا لا تقلّ إمبريالية عن الولايات المتّحدة، وهي حتى أشدّ وحشيّة بالنظر إلى ما فعلته في الشيشان رغم كونها جزءاً من الاتحاد الفدراليّ الروسيّ (أي مرادفة لولاية من الولايات المتّحدة).

وبالمقاييس الاجتماعيّة، فإن النظام الروسيّ أكثر نيوليبراليةً وعينيةً من النظام الأميركيّ، إذ ثمة ضريبة واحدة ثابتة على الدخل الفرديّ نسبتها ١٣ في المئة في روسيا، مقابل سقف للضريبة التصاعديّة يصل إلى ٤٠ في المئة للضريبة الفدرالية الأميركيّة، من دون حساب ضرائب إضافية محلية أخرى. أما ضريبة الشركات الروسيّة فنسبتها ٢٠ في المئة، مقابل ٣٥

في المئة للضرية الفدرالية الأميركية، أيضاً من دون حساب الضرائب المحلية، وأُسر «الجمهوريين» لا يحلم بتحقيق ذلك في الولايات المتحدة.

يلعب بوتين أيضاً الورقة الدينية عبر استدعاء الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لتبارك تدخله في سورية، وتصفه بالحرب المقدسة. إنَّ تصورات بعض اليساريين الذين يحيون في بُعد زمني آخر ويؤمنون بأن روسيا هي، بشكل من الأشكال، مواصلة للاتحاد السوفييتي وأن فلاديمير بوتين هو وريث فلاديمير لينين، إنما هي مضحكة تماماً.

◆ ولكن، ما هي مصالح روسيا الإمبريالية في سورية؟
■ سورية بلد لروسيا فيه قاعدتان جوية وبحرية، فتفاعل معه تماماً كما كانت واشنطن لتتفاعل بخصوص أي بلد لها فيه قواعد شبيهة. ونظام الأسد هو حليف موسكو الاستراتيجي الأقرب في المنطقة.

تلك أيضاً فرصة لبوتين ليبلغ كل الديكتاتورين: «يمكنكم أن تعتمدوا علي في الدفاع عنكم ضد ثورات شعوبكم أكثر بكثير مما يمكنكم الاعتماد على واشنطن لذلك. يكفيكم أن تُقابلوا ما بين دعمي للأسد وتخلي الولايات المتحدة عن مبارك». لهذا السبب، صار بوتين صديقاً حميماً للسياسي، ديكتاتور مصر الجديد.

◆ إذا، يريد بوتين أن ينشئ دوره الإمبريالي في العالم العربي؟
■ أفعال موسكو تتبع المنطق ذاته الذي تسلكه واشنطن. فتنظر روسيا إلى سورية كقيمة إستراتيجية تماماً كما كانت الولايات المتحدة تنظر إلى فييتنام في الماضي، أو إلى أي نظام كانت واشنطن مستعدة لدعمه عبر التدخل العسكري المباشر.

إن تصورات بعض اليساريين الذين يحيون في بعد زمني آخر ويؤمنون بأن روسيا هي، بشكل من الأشكال، مواصلة للاتحاد السوفييتي وأن فلاديمير بوتين هو وريث فلاديمير لينين، إنما هي مضحكة.

ولكن اليوم، ميل بوتين أكثر من أوباما إلى التدخل العسكري المباشر، إذ لا تزال الإمبريالية الأميركية تحت تأثير إرث «العقدة الفييتنامية»، وقد أعاد إحياءها الفشل الكارثي في العراق، رغم أن بوش الأب وبوش الابن ظنّا كلاهما أنهما تخلصا من ذاك الإرث.

يستفيد بوتين من ذلك متخذاً موقفاً أشد صرامة من واشنطن حول سورية، عبر تقديم الدعم الكامل لنظام الأسد، بينما لا تدعم الولايات المتحدة المعارضة السورية بأي طريقة مماثلة. إنَّ دعم واشنطن للمعارضة يبدو مادة للنكات أكثر منه مسألة جدية. في المقابل، موسكو وطهران تمدان النظام السوري بدعم شامل على كافة المستويات، بما فيها الانخراط الكثيف للمقاتلين الوكلاء عن إيران.

◆ اعتنت المملكة السعودية وسواها من مشايخ الخليج بتدمير الانتفاضات. ما كان انقلاب السيسي لينجح في مصر لولا الدعم السعودي الكامل له. هل سيتمكن السعوديون من الاستمرار في أداء هذا الدور لمدة طويلة؟ برأيك، ما هي آفاق التغيير في بلدان الخليج؟

■ تلك مشكلّة رئيسيّة، بالفعل. لطالما كانت المملكة السعودية قلعة الرجعية الرئيسية في المنطقة. وهو ذا الدور الذي أدته منذ نشأتها، لأنها دأبت على أن تكون الدولة الأكثر رجعية على الأرض. إذا اعتبرت داعش دولة، يمكنك أن تقولي إنها تنافس السعودية في هذا الصدد. وتشاركان في الكثير من السمات وفي تاريخ متشابه، غير أن إحداها تم إنشاؤها في مطلع القرن العشرين والثانية أتت بعدها بقرن وبأدوات مختلفة جداً. المملكة السعودية هي معقل رئيسي للرجعية في المنطقة، لكن قدرتها على أداء دور عسكري مباشر تبدي أكثر في محيطها الخاص، في الخليج. أدت دوراً محورياً في مساعدة الملكية البحرينية على قمع الانتفاضة في البحرين. في اليمن، تدخلت المملكة السعودية إلى جانب الحكومة الائتلافية التي أنتجتها التسوية اليمنية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، في مواجهة الرئيس المخلوع علي عبد الله الصالح المتحالف حالياً مع الحوثيين. هذا في الأساس صراع آخر ما بين معسكرين مضادين للثورة، مثلما ناقشنا أعلاه.

في سورية، كان للنظام السعودي دورٌ معظمه أتي عبر التمويل، وليس التدخل المباشر. فلسوء حظنا العظيم، استولى السعوديون على بلد اتضح أنه يمتلك أكبر احتياطي للنفط في العالم. وقد منحهم ذلك إمكانيات مادية هائلة سخروها على مَرِّ العقود لمساعدة سيدهم الأميركي ونشر إيديولوجيتهم الغارقة في الرجعية والأصولية.

من شتى الزوايا، لا يمكنك فهم قوة الأصولية في العالم الإسلامي المعاصر إذا تجاهلت العامل الحاسم في

غوها الذي تشكّله المملكة السعودية، في المدى الطويل، لا بدّ أن يرحل حجر العثرة فائق الرجعية هذا لكي تستطيع السيورة الثورية الإقليمية بلوغ نتيجة تقدّمية. إن قطبي الثورة المضادة في المنطقة العربية مدعومان من قبل قوى متنافسة: الولايات المتحدة وروسيا، مشايخ الخليج وإيران، ولا تنسى أنّ نظام إيران هو أيضاً نظام أصولي إسلامي، ولو من نوع مختلف، وتواجه السيورة الثورية العربية كلّ هذه القوى.

◆ نظراً لحجم ثرواتها، يبدو أن التغيير أمرٌ ميسوس منه في المملكة العربية السعودية، برأيك، ما هي آفاق التغيير في هذا البلد؟

● صحيح أن لديهم الكثير من المال، ولكن يوجد أيضاً فقرٌ كثير في المملكة السعودية مع ذلك، وتولد المفارقة التي تكمن في أن ملكة على هذا القدر من الثراء تشهد هذا القدر من الفقر، غضباً عميقاً ضد العائلة المالكة بين السكّان الأصليين، فضلاً عن المهاجرين.

إنّ أكثر تجلّيات المعارضة فجاجة حتى الآن هي التي تزايد على النظام الملكي في مذهبه الإسلامي فائق الأصولية، والمعروف باسم الوهابية، تلك كانت الحال في انتفاضة مكة سنة ١٩٧٩، ثم في وقت أقرب مع تنظيم القاعدة، يعرف الجميع أن ١٥ من أصل ١٩ مشاركاً في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر كانوا سعوديين الجنسية، وقد ضمت القاعدة ولا تزال تضم عدداً كبيراً من الأعضاء حملة الجنسية السعودية.

إن السيورة الثورية طويلة الأمد في المنطقة ستقاس بالعقود بدلا من السنوات. من وجهة نظر تاريخية. ما زلنا في مراحلها الأولى. يجب أن يكون ذلك حافزا رئيسيا على النشاط المكثف من أجل بناء حركات تقدمية قادرة على أن تتولى القيادة.

معارضة كهذه هي الوحيدة التي تمكّنت من أن تنمو في المملكة السعودية تحديداً كونها تمكّنت من أن تعمل في ظل إيديولوجيا النظام، بينما تتضاعف الصعوبات التي تعيق نمو المعارضة التقدّمية هناك، تلك النسوية أو المعارضة الشيعية مثلاً.

مع ذلك، ثمة طاقة تقدّمية في المملكة، سوف تنفجر عاجلاً أو آجلاً، وستنفجر بالطريقة ذاتها التي شهدتها الدول الأخرى في المنطقة، وقد كان نظام الشاه في إيران

شديد القمعية، ظلّه الكثيرون محصّناً ضد الانهيار، لكن، لما انطلقت الموجة الثورية في إيران في أواخر السبعينيات، رأينا بأيّ سرعة تمكّنت من إسقاط نظام الشاه، فلا توجد أنظمة أبدية، والنظام السعودي لن يكون أبدياً بالتأكيد وهو يقوم على القمع الرهيب، والتفاوت الاجتماعي الهائل، والمعاملة المقرّرة للنساء.

◆ انطلاقاً من معرفتك باليسار الراديكالي في العالم العربي، هل أنت متفائل بالنظر إلى آفاق الثورات العربية؟ هل يصحّ القول بأن نجاح الثورة العربية مرتبط جوهرياً بنجاح التعبئة العمالية؟

■ تلخيصاً لما ناقشناه منذ بدء حوارنا، أقول إنّ الأمل ما زال لديّ، رغم أنني لن أصف نفسي بالمتفائل، ثمة اختلاف نوعي هنا، إن الأمل هو الاعتقاد بأنّ الإمكانية التقدّمية لا تزال متاحة، أما التفاؤل فهو الاعتقاد بأنّ هذه الإمكانية سوف تتحقّق.

أنا لا أراهن على انتصارها لأنني أعرف مقدار صعوبة المهمة، وهي تزداد صعوبة عندما ينبغي بناء قيادات بديلة تقدّمية قريباً من الصفر في بلاد كثيرة، فالمهمة شاقة، هائلة، لكنها ليست مستحيلة، ولم يتوقع أحد انتفاضة تقدّمية مبهرة كذلك التي شهدناها العام ٢٠١١.

إن السيورة الثورية طويلة الأمد في المنطقة ستقاس بالعقود بدلاً من السنوات، من وجهة نظر تاريخية، ما زلنا في مراحلها الأولى، يجب أن يكون ذلك حافزاً رئيسياً على النشاط المكثف من أجل بناء حركات تقدّمية قادرة على أن تتولّى القيادة، أما البديل فهو مزيد من الهبوط في الهمجية وانهايار عام في النظام الإقليمي إلى ذلك النوع من الفوضى الرهيبة التي بدأت تنتشر في بضعة بلدان.

أما بالنسبة إلى القوى العاملة، فحين أتكلّم عن قيادات تقدّمية أقصد ضمناً أن الحركة العمالية يجب أن تكون جزءاً أساسياً منها، لهذا السبب ينبغي على البلاد التي تمتلك طاقات أكبر في هذا الصدد، مثل تونس ومصر، أن تفتح الطريق، ويمكننا حينها أن نشهد تأثيراً سريعاً للبلدان الأخرى.

ودعنا لا ننسى أنّ المنطقة العربية ليست موجودة عليّ كوكب آخر، إنها جزء من الوضع العالمي، وقريبة جداً من أوروبا، وعليه، فإن من شأن نشوء يسار راديكالي في أوروبا أن يؤثّر تأثيراً مهماً في غورديف له في المنطقة العربية.

أرامل الحرب في اليمن «تقية» تهذي

أروى عبده عثمان

كاتبة وحافظة
للتراث اليمني،
وزيرة ثقافة سابقة.

في نهاية النهاية

جثث تميز العرق الإلهي المقدس - «السادة» / «القناديل» / «عرق الله والرسول» - هي فقط التي تسحب وتُكرَّم، وتُعطَّر، وتنثر عليها باقات الريحان والزهور وعطور «جنة النعيم» وتساق في مواكب جنازية مهيبه، وتدفن في المقابر الكبيرة الكثيرة التي بناها «سيد الكهف» / «سيد الشهداء» - سيان - وسط الحضور الكثيف، والتأبين القداسي وتوابعه من زامل الحرب، والزغاريد، وقصائد القرابين لله، وشعار الصرخة^١، ثم تتصدر الجنازة نشرة الأخبار. أما جثث ابني ورفاقه «الزنايل» ممن لا ينتمون إلى العرق الإلهي المقدس، «مجاهد» بدرجة أسفل سافلين فلا مكان لها في نشرة الأخبار ولا المقاليل والتفاريط^٢!

في الليل سيهدم الجميع ليُعطوا في سابع نومة، إلّا الأرامل اللواتي تسحقهن النهيدات الحارقة، سيمتن في زهو العمر الصاخب، في ليلة وضحاها يصبحن الآب والأم والصدیق والحارس للأولاد وجدران البيت والزمن وحارسة حكاية «الشهيد». فهزيمة امرأة فقيرة طرية العود وحدها تدير أطفال ما بعد الحرب، هموم تكبر ولا تصغر، تظهر ولا تختفي: المصاريف، المدرسة، المستشفى، شقاوة الضجيج المنفلت في غياب الآب، و«ضرب زيد عمرو» وسيرورة الأم الصغيرة الكبيرة اليومية، وحقن وسوسات كل ليلة: «كم أنت وحدك» في هذا الضجيج!

آآآ، يا آآآ ولدي

إنها «العولة»^٣ شبكة لا تنتهي من الخيوط المتداخلة والمشتبكة، منظومة «نشتي» (نشتهي، أي نريد)، طلبات

بعد أن تنتهي الجائحة الجوثية ستخرج الأرامل، أمهات الحرب، الثكالي يبيكين دماً، يلطمن الحدود، ينزعن شعر رؤوسهن، يسلخن جلودهن، يقلعن عيونهن، يبتلعن الغبار وثقل الذكريات وامتداداتها، تعضيها في المكان والزمان في لحظة الهوس باسترداد مُلك عرق الدين والطائفة والمسيدة الإلهية.

تأنيب الضمير الذي لا يهمد، وفجعة «يالبيتي». زادوا علينا، في حضرة «لو»، في غمرة التجيش باسم الله، واسم «حق السيد»، ومنذبة «قهري راحوا العيال فطيس»، و«حسبنا الله ونعم الوكيل». من فلكلور الحزن والندب واقتصاص الحلم، افتضاضه من أول حشجة الموت التي تخزّ وتسمعها كل أم حتى وهي بعيدة خلف الجبال، رجفة القلب، ورقة العين نذير شؤم. ولا شؤم أبلغ عندما ينبئونك بأن ولدك سقط «شهيداً» حتى وإن أجبرتك الجارات والقريبات على الاعتقاد بأنه عريس في الجنة وسط حوريات من كل شكل ونوع.

لا أشد وقعاً من سيرة ولدك الذي لا تأتي جثته، وبدلاً منها تحضر أخباره فقط، والخبر الأول: مات والرفاق، ولم ترفع جثتهم. بعدها عليك أن تقفل باب السيرة بنهاياتها الكثيرة: أن جثة ولدك / زوجك ورفاقه مشطتها الذئاب والديدان والهوام.

النهاية الخنجر: تخلّى القادة عن فضيلة (إكرام القتل دفنه)، لكنهم مشطوا الجثث وأخذوا «القناديل» منها فقط^٤، وتركوا بقية الجثث وبعضها ينبض بعرق الحياة بما تيسر. نعم جثث أطفالنا الذين لم يتعدوا الثانية عشرة بعد، بل والثامنة والتاسعة، الجثث المفخخة بالجهاد، ويقتال الدواعش والتكفيريين والعلماء والحوثة في عدن وتعز ومأرب وكل مدن اليمن.

١ صفة تطلق على النسب الهاشمي المقدس، يقابلها «الزنايل» وهي صفة تطلق على من هم دونهم من أبناء القبائل والرعطة، وعامة السكان.

٢ الصرخة المعروفة للحوثيين: «الله أكبر، الموت لأمریکا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام».

٣ المقاليل تجمعات الرجال لتناول القات، التفاريط تجمعات النساء لتناول القات.

الثلاثين. استباحس العمر وكسر زهو الحياة. البضاعة الرابعة والرائجة في «اليمن السعيد»!

هزيمة امرأة. تذبل أوراقها وأزهارها الغضة قبل أن تفتش في نيسان. سيفلق باب الدار يا تقيّة، وتسدل ستائر النوافذ. وتصطك بصقيع الوحشة الطويلة المستدئية، فمن يطرق باب مخدعك المتخشب، والمتحجر؟ لا، مؤنس يا تقيّة. لا من يللم الحنين، ويجفف الدمعة ويمسح الأنين. الحاضر الآن فقط:

سبّد الوحشة القاتلة، الفالقة واللاعنة لكل جهاد، ولكل قداسة، ولكل إمامة تبتلع الأحبة. تاركة وحشة الأسئلة وما من مجيب في اليمن سوى الفقر، الجوع، التشرد، العطش، الظلام، الجهل، اللأمان، وناسل الأسئلة التي ستلاحقك ألف سنة آتية من سرمدية الحزن والفجيعة: «على أيش قُتل ولدي؟ على أيش قتل زوجي، وأخي، والأحبة هنا وهناك؟ على أيش، وليلما، ولمن، وكيف، وبعده»، إلخ.

إن الحرب، يا مسعري الحروب بالمفرق والجملة، وكل أوزان ومقاييس الإبادة: لا صوت يعلو فوق صوت «سيد الجهاد»، ومعركة «لن تهزم أمة قائدها علي بن أبي طالب»، و«الحق أبلج والباطل لجلج»، وغيرها من هذيانات الدم.

كم من المهذئات والمسكنات، والمنشطات، وقائم الأسياد، والبخور، ومسكنات «المؤمن مستمحن»، وزوامل «ما نبالي»، وتهاني الشهادة، وصورة الشهيد / القربان تعتلي المرفج وغرفة النوم، وسرد حكاية «سراج البيت» وكان، وكان، وكان، في زحمة المعزّيات، عفوا المهنتات في فلكلور «السيد»؟ كم من تعاويز «ترميم الفجيعة» تحتجّه أيتها الأرامل، وما أكثركن في

يمن ٢٠١٥؟ كم وكم وكم؟ كهف السيد، ورأس السيد، وموروث السيد الأقدس، وخياراته الإستراتيجية لشعبي العظيم، لن

يجيب، لا اليوم، ولا الغد ولا بعد ألف عام، يا تقيّة! بعد الحمى ستأتي المبالاة وتتفجر، بعد إخراجكن للأحبة وفلذات أكبادكن، في حماة «ما نبالي» في سبيل حمى الجهاد لقتال ٢٧ مليون نسمة من الدواعش والتكفيريين والخونة واللاثوار بعد النصر المؤزر بالغنائم الذي حشدتن له العيال أيتها الأمهات والزوجات، إكراماً لسيد العيب. وبعد الهرولة ليل نهار لخبز الكعك المبطن بمهركن المصرور لليوم الأسود من الخواتم

الحياة اليومية في ظل الفقر، والجوع والتشرد، واليتم والفقدان.. وو.. إلخ. وأخطرها أن لا شربة ماء في العاصمة والمدن، وفي الصدارة أكبرها، تعز.

«كان ظهرنا والسند»، قيمة اليوم والغد، حبيب القلب الذي انخلع في صفقة وصفقة موت، باستهلال: «أيها الشعب العظيم». داعي الجهاد هلّ والخيارات الإستراتيجية أينعت، التعبئة الجهادية واجب ديني ووطني، فصعدوا زامل الحرب والقتال:

«حيّوا بداعي الموت للمشرق والمغرب»^٥. لكنه العيد يابن بدر الدين. آخر الجهاد قليلاً، نونس بسراج البيت وضوئه قليلاً، فالمعركة طويلة. قليلاً يا أبا جبريل، قليلاً يا حفيد الأنبياء.

يردّ ظل السيد: أعيادنا جبهاتنا.

مع كل فاتحة صبح وانسدال قمر، يخفت دلح الأمهات والزوجات. ما بعد الحرب، لن نسمع: «يا نظر عيوني، ويا كش من عيني، ويجعل يومي قبل يومك، وقوى عظامك، فديتك، صبح بدنك»، إلخ. من هدهدات الحصن الحصين لتعويذات الأم لرجل البيت والأسرة، وأبو العيال، وأخ العيال، وسراج البيت و«الحوية»^٦: «ذهب الأحبة ولن يرجعوا أبداً».

ستصحو الأرامل والأمهات الشكالي ذات يوم بعد أن يبرد الرأس ويخف من لوثة التشوير الإلهي الأقدس، وتذهب عنه الحمى وحماة «بالعشر ما نبالي خُلقتنا للجهاد» و«حيّ بداعي الموت»، و«مانبالي مانبالي»، و«اجعلوها حرباً كبرى عالمية»، «نحننا قرايين السيد إحننا» وزغردي يا أم الشهيد، ويا زوجة الشهيد، وابن الشهيد، وموروث: «القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة»^٨. سيبرد الرأس، لكن سرعان ما ستتصاعد الحمى حد الانفجار المريع، انفجارات الفقد وما بعده، الوحدة القاتلة، والتحام الجدران، وظلمات دهاليز البيت، استراق لحظة عشق عند إخماد هجيج الأطفال: أرملة الشهيد لم تبلغ بعد الثامنة عشرة، وما أكثرهن!! و«أم الشهيد» أيضاً وما أكثرهن. الأم اليمينية، كم تعطيها عمراً في يمنها؟ خمسة عشر. خمسة وعشرين. زودها، سبعة وعشرين؟ لا تتعب رأسك في الحساب! كيف؟ فبنات اليمن يتزوجن في سن الثامنة ويترملن في الخامسة عشرة، وأحياناً قبل، ويمتّن دون

٤ قوت العيال والتربة والتنشئة.

٥ من زوامل أنصار الله الجهادية، والزامل: نشيد حربي.

٦ «أعيادنا جبهاتنا»، شعار رفعة الحوثيون للمجاهدين في الأعياد الدينية - الفطر والأضحى، بمعنى: المجاهد لا عيد له، عيده في المعركة.

٧ الحوية: حوش البيت.

٨ شعار الشهداء من أنصار الله.



والغلاطات والجنهيات النعبية وبعد أن كرعتن بما تبقي
من زاد الأولاد في بطون معارك السيد التي لا تنتهي
ومع كل هزيمة يحولها إلى انتصارات تحصد الأكثر
والأبغ من «سراج البيت وضوءه» وما أكثر الغرايين
من الأسنان اللبينة في حضور «شهداء السيد» إنه
السيد «إن تكلم بكلمة يا يضيها»!
بعد ذلك كله

انفجر عرق المبالاة بصفعك، وبصفعنا معك،
وبصيب الوطن بقتل، عندما نرى جميعنا مئات الآلاف
من الأيتام، ومنهم الأرملة، ومنهم الأمهات النكالي
ومنهم آلة الحرب تجرف البيت والمأوى والمدرسة
والمنشئ والطريق والحديقة وكم، وكم فاني (كسيرة)
يا تقي، سيرم الفؤاد المنكسر، والضلع الأعرج
والمنقبيل يلا مستقبلي؟ وأي حكايات ستعكس وأي
أوصاف وكتابات وخيالات وما بعد اللامعقول أراميل
الضلع الأعرج! كربلاءيات بين ١٤٠١: كربلاءيات ما
دون النكسة عشرة!

الفجعة، والضمير المكسور، يا تقي، عنوان الندم الآتي،
بعد انقشاع حمى هذيانك تحرير جيزان ونجران
والركن البماني والقدس، وإسقاط البيت الأبيض،
(موت إسرائيل وأميركا ولعنهما) وتحرير عدن، وتجز
والضلع ومأرب والبيضاء، وتهامة، إلخ.

نعم، عندما تنتهي جائحة الحمى أحسم الجائحة
سيتجلى حائط ميكي، للعبور آتية ومتواليات: «حسبك
الحرب: الرجال» و«لننا» والحرب ليس فقط جيزان، بل
الحرب الساكن أروحا والغرفة والسرير، وما تبقي من
ذاكرة حلم طري.

سلامتك، يا أراميل اليمن، يا أتهات اليمن، يا أولاد
اليمن الصبر هو البضاعة الرائجة في زمن الحرب، وإن
كان ممنوعاً من الصرف مهما تكاثرت أرصده كمفاتيح
الجنة التي تصرفها ميليشيات «السيد» للمجاهدين،
ولا مفاتيح سوى فتاجين الفهوة المرة.

رحم الله ضحاً يا اليمن كاتبة، فلا شهيد في حروب
الأخوة، لا شهيد في الحروب الأهلية كلنا ضحاً يا
كلنا ضحاً يا.

ودعتك حافظ الودائع، وما بين الحكاية والهديان
خبط اسمه تقي.
ولا فكيف تشرفو ووا!



الطائف اللبناني والمبادرة الخليجية في اليمن

فارح المسلمي
باحث وناشط، اليمن.

الأزمات الداخلية في الدول العربية. ومن أوجه الشبه بين الاتفاقيتين الراعي السعودي المشترك مع فوارق الزمن والوضعين المحلي والإقليمي لكل حالة، واختلاف أهداف الرياض ومدى تأثيرها وقدرتها على الضغط على أطراف الصراع، وتمير حلولها في وسط إقليمي ودولي تغير كثيراً منذ توقيع الاتفاق إلى توقيع المبادرة، وحتى ما بعد التوقيع كما سيتضح لاحقاً. في الحالتين اللبنانية واليمنية تظهر إيران كحليف لأحد الأطراف، إلى جانب اتسام الصراع بصبغة طائفية كانت بارزة في لبنان وشكلت سبباً من أسباب الحرب، بينما تتصاعد في اليمن كإحدى نتائج الصراع وليس كسبب له. تناقش هذه المادة المنطلقات تلك مع ملامح النتائج التي تحققت في الحالتين ومدى فاعليتها في إنهاء أي من الأزميتين محل النقاش.

المضمون والتداعيات

إن اتفاق الطائف هو وثيقة إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأت عام ١٩٧٥، وقد صاغه ووقعه أعضاء البرلمان اللبناني برعاية سعودية وتحت مظلة جامعة الدول العربية التي انبثق عنها ما عُرف بالترويكا العربية، لتسهيل عملية توصيل اللبنانيين إلى اتفاق نهائي لوقف الحرب واستعادة مؤسسات الدولة لدورها الطبيعي. وقد تم توقيع الاتفاق في السعودية في عام ١٩٨٩، واحتوى بنوداً شبه دستورية لإعادة توزيع أدوار سلطات الدولة، وتسوية نتائج الحرب بما فيها وضع الجيش السوري في لبنان (البند الوحيد الذي تعلق بإجراءات مستقبلية غير فورية وخضع لتقدير الدولتين اللبنانية والسورية). إن استخدام كلمة «اتفاق» ذو دلالة نهائية للتوصل إلى اتفاق كامل ينتظر التطبيق، وهو ما حصل عملياً في الفترة اللاحقة. وقد احتوى مضامين متعلقة مباشرة بالدولة اللبنانية ومؤسساتها

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠١٥ كانت قد مضت أربع سنوات على توقيع المبادرة الخليجية التي قدّمتها دول مجلس التعاون الخليجي لحل الأزمة اليمنية التي بدأت في العام ٢٠١١، إذ كان اليمن حينها يشهد تفاعلات انتفاضة شبابية ضمن ما عرف بثورات الربيع العربي، حين خرج آلاف الشباب للاعتصام في ساحات التغيير للمطالبة برحيل الرئيس السابق علي عبدالله صالح. تولى قيادة زمام تلك الانتفاضة حلفاء صالح السابقون من الإخوان المسلمين والزعامات القبلية والعسكرية، مع مشاركة أقل لحلفائه الحاليين من جماعة الحوثيين، أو ما بات يعرف الآن بجماعة أنصار الله الذين خاض ضدهم ست حروب ما بين الأعوام ٢٠٠٤ و ٢٠١٠ في محافظة صعدة معقلهم الرئيسي، قبل أن يتحولوا نتيجة للمبادرة الخليجية إلى أحد أهم الأطراف الفاعلة على الأرض في الوقت الراهن. حينها حوّلت التدخلات الإقليمية التي تبلورت في ما بات معروفاً بـ «المبادرة الخليجية» انتفاضة الشباب ضد نظام صالح إلى صراع أطراف سياسية، فتصدّرت أحزاب اللقاء المشترك وشركاؤها (المجلس الوطني) تمثيل الطرف المناهض للنظام، يقابلهم على الطرف الآخر حزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم وحلفاؤه (التحالف الوطني). هكذا تم تكريس مصطلح الأزمة لوصف أحداث الربيع اليمني كما نصت المبادرة الخليجية التي رعتها دول الخليج (باستثناء قطر) وبزعامة واضحة (ولو شرفية) للرياض مع الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، في بنودها التوفيقية بين طرفي الأزمة.

شكلت المبادرة الخليجية اختراقاً منفرداً في اليمن دون باقي دول الربيع العربي، إلا أن اتفاق الطائف (١٩٨٩) الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية يحمل بعضاً من ملامح المبادرة باعتبارها من نماذج التدخل الإقليمي لحل

بينهم لا يعطي أي طرف كل مطالبه بشكل يسمح بتفوقه ومنحه قدرة التأثير المنفرد في الساحة. هكذا منحت صالح خروجاً شكلياً مشرفاً من السلطة ضمن لحزبه الحفاظ على نصف مقاعد الحكومة كندّ كامل لأحزاب اللقاء المشترك وحلفائهم الذين خرجوا لإسقاط نظامه. إذا أتى الجزء الأول من آلية المبادرة ليعبر عن وجود أزمة ويكرّس الدور الإقليمي فيما يتم الاتفاق عليه بإدراج شكر للدول الراعية كبند أولي. كما تم في البند التالي تأكيد إحلال المبادرة كمرجعية علياً تجمّد النصوص الدستورية، أي السعي لتكريس المبادرة كمرجعية علياً للعمل السياسي في اليمن لا يمكن لليمنيين تجاوزها تحت أي مرجعية أخرى حتى لو كانت الدستور النافذ الذي يعدّ اتفاق كهذا مخالفاً لبنوده أصلاً. هكذا بدأت التجاوزات التي همّشت دور مؤسسات الدولة.

في المقابل ظهر اتفاق الطائف أقرب إلى وثيقة دستورية، عززت سلطات الدولة اللبنانية ومبادئها الدستورية. بينما المبادرة الخليجية مثّلت أول انقلاب علني على الدستور ومؤسسات الدولة لتمنح وظائف أساسية للدولة إلى لجان مؤقتة يتم تشكيلها، إذ إنّ الفقرة (ح) من المادة (١٥) تنص على تشكيل لجنة أمنية ومؤتمر للحوار الوطني ولجنة الشؤون العسكرية لتحقيق الأمن والاستقرار. وأنت اختصاصات كهذه للجان المشكلة على حساب وزارة الدفاع وقيادة الجيش ولم تعكس نوايا إشراك الشارع في معالجة قضايا بهذه الأهمية ولا مؤسسات الدولة. اللجنة العسكرية مثلاً تشكلت من قيادات موالية للطرفين، أي جزء من أدوات الصراع التي يصعب أن تتحول إلى جزء من الحل. وفي الجانب الآخر، تم تأجيل كل القضايا محل الخلاف للنظر فيها من قبل مؤتمر حوار وطني يتكون من أعضاء يمثلون أساساً أطراف الصراع، ومكونات أخرى بنسب أقل. لكن القضايا التي ستطرح على المؤتمر لم تترك لأعضائه تحديدها كلياً، وإنما وضعت قوالبها بأسلوب خلق إشكاليات أخرى تحوّلت إلى معضلات كبرى مع نهاية الحوار كشكل الدولة ومضمون الدستور الجديد. إذ لم يكن شكل الدولة قضية أساسية لشباب الساحات وإنما عدالة الدولة، ولم يكن الدستور مشكلتهم أيضاً بقدر ما كانت المشكلة عدم احترام وتطبيق نصوص الدستور النافذ على الأرض.

غموض وازدواجية

لم تكن الفلسفة المفوضة للجان مسؤوليات ومهام أجهزة

وهيبتها، ولم يتضمن بنوداً معلقة أو غير واضحة تراعي مصالح الأطراف المتصارعة حينها وتمنحها حضوراً يطغى على حضور الدولة والسلطات الدستورية كما حصل في المبادرة الخليجية في اليمن.

المبادرة الخليجية من جهتها، هي مقترح تصالحي توفقي بين طرفين خضع للتعديل أكثر من مرة على مدار سبعة أشهر (من نيسان/ أبريل إلى تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١) لإرضاء أطراف الصراع. كانت النسخة الأولى من المبادرة مقدمة من الرئيس السابق علي عبدالله صالح ثم جرى تبنيها من قبل الرعاة الدوليين للأزمة اليمنية وبشكل مباشر من قبل السعودية ودول الخليج العربي (باستثناء قطر التي استبعدت بطلب من صالح لتحالفها العلني مع خصومه). وفيما كان الاتفاق ملزماً في حالة الطائف، فإن المبادرة ظلت غير ملزمة وينقصها التسويق بين الفرقاء وإقناعهم بها.

توضح المؤشرات العامة التي يقدمها كل من الاتفاق والمبادرة فروقاً جوهرية بين المضمونين، وبين خلفيات الوصول إلى النص والمراحل التي مر بها. فقد تم تعديل المبادرة أكثر من مرة وبعد إعلان كل صيغة وليس قبلها، وكما بدأت كمقترح قدمه الرئيس السابق نفسه، فقد أدخلت عليها لمسّات الدول الإقليمية كقطر والسعودية، ثم جرى مسح الكثير من تلك المسّات خصوصاً التي حملت بصمات الدوحة. أما اتفاق الطائف فيكاد يكون قد تدرج في صياغة المضمون حسب ما تم الاتفاق عليه مسبقاً، أي تحويل الاتفاق إلى نص، وليس وضع النص للاتفاق كالمبادرة. ولأن الاتفاق نجم عن حوار وطني لبناني، جاء النص عاكساً حرص المشاركين على تقوية الدولة وضمان دورها، بينما كانت مسودات المبادرة الخليجية تخضع في كل مرة لآراء أطراف الصراع ذاتها دون البحث عن نصوص تتجاوز هذه الأطراف إلى الدولة وما يجب أن تكون عليه.

كانت الرغبة الإقليمية في إنهاء حرب لبنان أكثر وضوحاً بإعادة تسليم الملف لأبنائه، فاحتوى الاتفاق (الطائف) في بابه الأول (المبادئ) بنوداً أساسية تؤكد هوية الدولة وتعزز دور المؤسسات والتشريعات الوطنية. وكان الهدف الذي سعت إليه الرياض تسجيل حضور إقليمي قوي أكثر من محاولة تكريس دور لها في لبنان، وإيجاد حل للصراع اللبناني. لكن في الوضع اليمني كانت هناك رغبات في إخراج الأطراف المتصارعة من ورطتها أكثر مما بدا رغبة في إخراج اليمن من أزمتته. أرادت تحقيق توازن

في الأمر ويكون ما يقرره ملزماً للطرفين». هكذا كرست المبادرة الخليجية الفردية في حين تحدثت عن الشراكة، وكرست المحاصصة في المناصب بتقاسم حقائب الحكومة بين طرفي الصراع في حين نصّت على الكفاءة، وكرست اللجان التي تتعارض وظيفياً مع المؤسسية بينما تحدثت عن تعزيز دور مؤسسات الدولة.

كانت بنود اتفاق الطائف مغلقة ومحددة وذات تفسيرات واضحة غير ملتبسة، حتى تلك النصوص التوجيهية العامة. لكن المبادرة كانت ذات بنود مفتوحة لم تحدد نهايات ونتائج واضحة في حينه، بل متعلقة بما يجمع عليه أطراف الصراع في عملية الحوار. أي أن الحوار في لبنان سبق الاتفاق وحّد مساراته وتحول فوراً إلى نصوص تنفيذية. أما في المبادرة فقد تأجل الحوار وكان مجرد بند /استحقاق واحد للمبادرة وهو الحوار الوطني القابل لكل الاحتمالات والمآلات، وأدى إلى فتح ملفات وقضايا كبيرة دون القدرة على غلقها أو حسمها.

أدى اتفاق الطائف إلى انتخاب رئيس للبنان، ولو شهدت المرحلة اغتيايات متعددة كانعكاس لبقايا نار الصراع تحت رماد الاتفاق، لكن تم تجاوز ذلك بتراكم التجارب ومرور الزمن. أما المبادرة، فأدت هي الأخرى إلى انتخاب رئيس (أو بشكل أدق مبايعته كونه مرشحاً وحيداً) وتمت تسميته رئيساً توافقياً مسبقاً بغض النظر عن نتائج الانتخابات، ومنحته صلاحيات استثنائية دفعته للتملص من تنفيذ بعض الاستحقاقات الهامة التي نصت عليها المبادرة ذاتها، كتشكيل اللجنة التفسيرية لبنودها في حال الاختلاف. وأدى ذلك إلى غياب مطلق لأي مرجعية غير فردية وتفسير للمبادرة الخليجية بقراءة أحادية من قبل الرئيس هادي، وبمباركة المبعوث الأممي إلى اليمن جمال بنعمر كلما اضطر لذلك.

نجاحات بسيطة

من ناحية أمنية وعسكرية، منح اتفاق الطائف الجيش اللبناني الصدارة والشرعية مقابل نزع سلاح الميليشيات، بينما المبادرة بادرت إلى إعادة هيكلة الجيش اليمني التي تمت جزئياً فقط وشلت قدرته على التدخل، قبل أن تذهب إلى نزع سلاح الجماعات المسلحة. ومن ثم منحت اللجنة الأمنية والعسكرية صلاحية إعادة هيكلة الجيش الوطني بشكل مستعجل لا يلبّي عملياً متطلبات عملية بهذا الحجم والحساسية، ثم ربطتها بمؤتمر الحوار من جهة أخرى كما تم توضيحه، فأحدث ذلك اختلالات أمنية عميقة

ومؤسسات الدولة إجرائية وسلسلة أيضاً، بل احتوت نصوصاً مزدوجة وغير واضحة، كتكليف لجنة الشؤون الأمنية والعسكرية بإعادة هيكلة الجيش، ثم إسناد المهمة عنها لمؤتمر الحوار الوطني المنبثق عن المبادرة في مكان آخر. كما نصت المبادرة الخليجية على تنفيذ مؤتمر الحوار الوطني لبحث هيكل الدولة ومناقشة أسس الحكم والأداء الإداري لأجهزة الدولة وبعض القضايا السياسية والاجتماعية. وبذلك تكون المبادرة قد وضعت الخطوط العريضة لإيجاد حل يمني، إلا أنها من جهة أخرى وضعت محددات للعمل على إيجاد حل وفقاً لقضايا ومجالات تناول قد تم تحديدها مسبقاً، وبعضها بعيد كل البعد عن القضايا الخلافية الأساسية التي تشكل موجّهات عامة يصبح ما دونها تفاصيل. هكذا كانت أقرب إلى وثيقة تحكيم بين خصمين تحيلهما للمحكمة العرفية منها إلى مبادرة تنقذ بلداً من كارثة وتفتح أمامه فجأة قضايا أنتجها سوء إدارة الدولة سلطة ومعارضة، ثم تضعها على طاولة الأطراف نفسها لمعالجتها.

المبادرة كانت أقرب إلى وثيقة تحكيم بين خصمين تحيلهما للمحكمة العرفية منها إلى مبادرة تنقذ بلداً من كارثة وتفتح أمامه فجأة قضايا أنتجها سوء إدارة الدولة سلطة ومعارضة. ثم تضعها على طاولة الأطراف نفسها لمعالجتها.

لقد انعكست مشكلة عدم تمثيلية الموقعين على المبادرة الخليجية حينما جرت محاولة تطبيقها على الأرض، إذ لم يكن الموقعون أنفسهم هم أصحاب القرار في الميدان. ولذلك حينما وجدت الرغبة في تنفيذ بنود المبادرة (وهو أمر نادر)، لم يملك الراغبون القدرة على تنفيذها على الأرض.

وتعزيزاً لنهج اتفاق الطائف القاضي بتعزيز دور مؤسسات الدولة، أحال الاتفاق مواضيع الخلاف مثلاً للحكومة والبرلمان حتى لو كانت تتعلق بالرئيس ذاته، لكن المبادرة الخليجية أحالت مشاكل البرلمان والحكومة إلى الرئيس كمرجع أعلى «يكون اتخاذ القرارات في مجلس النواب خلال المرحلتين الأولى والثانية بالتوافق، وفي حال تعذر التوصل إلى توافق حول أي موضوع، يقوم رئيس مجلس النواب برفع الأمر إلى نائب الرئيس في المرحلة الأولى وإلى الرئيس في المرحلة الثانية، الذي يفصل

وساهم في حدوث عمليات اغتيالات واسعة كان أفراد الجيش والأمن أبرز ضحاياها.

بعد التمديد لهادي بدأت مرحلة جديدة تمثلت في الحرب القائمة حالياً وتحول السعودية من راعٍ للمبادرة إلى طرف مباشر في الحرب ضد بعض الأطراف الموقعة.

٢٠١٤، تم التمديد للرئيس هادي لمدة عام آخر. وعندما انتهت فترة التمديد (شباط/فبراير ٢٠١٥)، كان هادي قد قضى شهراً كاملاً تحت الإقامة الجبرية المفروضة من قبل الحوثيين والرئيس السابق، وكانت الجماعة قد استولت على العاصمة صنعاء بعد انتهاء الحوار بأشهر (أيلول/سبتمبر ٢٠١٤). بدأت حينها مرحلة جديدة كلياً تمثلت في الحرب القائمة حالياً وتحول السعودية من طرف راعٍ للمبادرة إلى طرف مباشر في الحرب ضد بعض الأطراف الموقعة على المبادرة.

لقد أنهى اتفاق الطائف حرباً أهلية لبنانية استمرت لعقد ونصف العقد من الزمن، بينما أسست المبادرة لحرب يمنية لم تتضح ملامحها المستقبلية بعد. لم تضع المبادرة الخليجية أية ضوابط أو عقوبات ضد من يعرقل تنفيذها ولجأت بشكل استدرائي إلى مجلس الأمن لوضع عقوبات غير فعالة ضد المعرقلين ساعدت على تبلور تحالفات جديدة غيّرت ميزان القوة الذي كان قائماً عند توقيع المبادرة. لقد أنهى اتفاق الطائف مرحلة الاحتراب الداخلي عملياً، وما دون ذلك أمور تفصيلية، بينما ساعدت المبادرة في مضمونها وتوقيتها على نشوب حرب أهلية مريرة، وتدخل عسكري أجنبي في اليمن، وما دون ذلك أمور تفصيلية أيضاً.

لبنان ١٩٨٩

كان لبنان في العام ١٩٨٩ يعاني تبعات خمسة عشر عاماً من الحرب الأهلية، ويعيش فراغاً دستورياً من دون رئيس شرعي للجمهورية، وكان الصراع فيه قد وصل حدّ منع ما تبقى من المؤسسات الدستورية من ممارسة مهامها كمنع البرلمان من الاجتماع لانتخاب رئيس للبلاد بضغط من قائد الجيش آنذاك ميشال عون. لا يمكن مقارنة ذلك بالوضع اليمني في ٢٠١١ الذي كان في البداية أقرب إلى وضع ثوري تحوّل إلى صراع مباشر على السلطة، مع وجود رئيس منتخب ومؤسسات عامة تمارس وظائفها ولو بدرجة من السوء دفعت الشارع إلى الخروج مطالباً بالتغيير. كان حجم الصراع في اليمن لا يزال محدوداً ويمكن للمتمتع بخسائر أقل، إذ لم يكن قد وصل بعد إلى درجة الصراع المسلح الواضح المعالم مع اشتباكات محدودة المكان والأثر.

كانت كل المكونات اللبنانية قد أنهكت في الحرب الأهلية وأصبحت أكثر استعداداً للوصول إلى وضع جديد يوقف نهر الدماء. في المقابل، كانت الأطراف اليمنية

وبالحديث عن اشتراطات مستقبلية أخرى لتطبيق المبادرة الخليجية، كالعادلة الانتقالية مثلاً، فقد كان يمكن فهم احتواء اتفاق الطائف، وفي وضع كما كان عليه لبنان، أي إشارة للعادلة الانتقالية لكنه لم يفعل. بينما المبادرة نصت على منح أركان النظام السابق الحصانة من المساءلة وفي الوقت نفسه تحدثت عن مبادئ العدالة الانتقالية في مهام مؤتمر الحوار الوطني، فحظنت من يمكن أن يتحمل مسؤولية أحداث المرحلة ودعت إلى التسامح في الوقت ذاته. ثم إنها لم تحدّد فترة زمنية تعالجها تشريعات العدالة الانتقالية المقترضة، بل تركت الباب مفتوحاً ليتحوّل بدوره إلى موضوع خلافي بارز، لأن كل طرف شارك في الحوار أراد أن يبدأ من القضايا التي أثرت عليه أو أوقعت ضرراً به أو بمواليه. إنّ كل هذه الثغرات الجوهرية مؤشّر على أن المبادرة كانت مساراً مختلاً متناقضاً كان من الصعب إصلاحه أو أن يؤدي إلى تحقيق سلام طويل المدى حتى وإن تم تطبيقه حرفياً والالتزام بجميع نصوصه وبنوده.

لقد حققت المبادرة نجاحاً على الأرض بعد توقيعها مباشرة، ممثلاً بإنجاز بنود تكليف الرئيس صالح صلاحياته الرئاسية في ما يتعلق بتنفيذ بنود المبادرة لنائبه هادي حينها، ثم بقيام البرلمان بمنح صالح الحصانة المتفق عليها، وتشكيل حكومة الوفاق الوطني مناصفة بين المجلس الوطني (تكتل أحزاب اللقاء المشترك وشركائه) والتحالف الوطني (حزب المؤتمر وحلفائه). واستمر تطبيق بنود المبادرة بتشكيل لجنة الشؤون الأمنية والعسكرية وإجراء الانتخابات الرئاسية بمرشح واحد (في ٢١ شباط/فبراير ٢٠١٢)، لكن لم يتم إعداد القوى السياسية مسبقاً للتعامل مع الاستحقاقات المترتبة على المبادرة، بل إن بعض هذه القوى استخدم السلاح ضد شركائه على طاولة الحوار، وأثناء انعقاد جلسات الحوار كما فعلت جماعة الحوثيين (أنصار الله) ضد السلفيين في دماج. وبدلاً من انتهاء المرحلة الانتقالية المزمّنة في المبادرة بحلول شباط/فبراير

في العام ٢٠١١ لا تزال متأهبة ومستنفرة لخوض صراع مسلح بدوافع محلية وارتباطات إقليمية. كما أنّ الغطاء العربي الرسمي لاتفاق الطائف حدّ من تدخلات دول الإقليم المتصارعة، خصوصاً سورية والعراق. أما في اليمن، فأحداث الربيع العربي (٢٠١١) لم تؤدّ إلى تبلور تحالفات واضحة لكل دولة على حدة، وكان يتم تفسير الأمر حينها بمعطيات محلية أكثر من كونها إقليمية أو دولية، باستثناء تدخل الناتو في ليبيا، وبالتالي كان كل طرف يمني لا يزال قادراً على التلويح بالقوة ضد الآخر لكن في إطار الحصول على مكاسب تفاوضية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأطراف اللبنانية تنطلق غالباً من حسابات طائفية ومذهبية تنمهي مع التقسيم الجغرافي في كثير من المناطق، كان التدخل الإقليمي متقبلاً بين فترة وأخرى في التحالف مع هذا الطرف أو ذاك، حتى في ما يتعلق بسورية وحركة أمل وحزب الله لاحقاً. في المقابل، تشكلت هيكلية الأطراف اليمنية على شكل تحالفات سياسية أبرز مكوناتها من الأحزاب الرئيسية الفاعلة وذات الانتشار في كل جغرافيا اليمن. أكثر من ذلك، تغلبت هذه التحالفات على ما يمكن توصيفه في إطار طائفي بدخول الحوثيين في صف القوى الثورية التي تربطه بها علاقة خصومة (الإخوان واللواء محسن وآل الأحمر) ضد صالح، رغم رفضهم للمبادرة وعدم اعتبارهم طرفاً فيها. فكان توقيع المبادرة سبباً لمغادرتهم تحالف القوى الثورية الموقعة على المبادرة كطرف غير متجانس معهم اكتفوا من تحالفهم معه بتحقيق الهدف المؤقت (إسقاط نظام صالح).

أدت طبيعة تفاعلات الميدان في لبنان إلى التوجه نحو القوة المنتخبة شعبياً وهي البرلمان، وليس إلى أطراف الصراع المنهكة والمستنزفة والمتقلبة بالثأر والدماء عند البحث عن ممثلين للشعب اللبناني للاتفاق على مخرج من مستنقع الحرب. لكن المبادرة الخليجية في اليمن تعاملت مع طرفي النزاع اللذين ليس لهما صفة تمثيلية للشعب اليمني، وكان دورهما التوقيع على مبادرة تمت صياغتها من قبل غيرهم، وهدفها الأساسي إرضاء المتصارعين بقدر متوازن من المكاسب لكل منهما مثل تقاسم مقاعد الحكومة (حكومة الوفاق).

لبنان من جهته، كان يعاني من نتائج ديمقراطية الطوائف غير المتوازنة، لكنه كان يملك مرجعية تشريعية عمرها ثلاثة عقود، ولديه تعدّد وتنوّع ديني وثقافي وإثني وسقف حريات أعلى، ومجموعات فلسطينية أصبحت

مؤثرة في موازين العمل السياسي اللبناني حتى على مستوى السياسة الخارجية. أما اليمن فكان يعاني من صراع قوى النفوذ التي تتنازع الدولة ليس على مستوى السلطة بل على مستوى تعطيل سلطات الدولة لصالح هيمنة قوى النفوذ من السياسيين والعسكر والقوى القبلية والدينية التي لم تمثل تعدداً وتنوعاً بل تشابهاً في الأدوات وآليات العمل وطرق التفكير والنظرة للدولة والقانون. وأدى ضيق المصالح واحتكار أحد الأطراف لها في إطار منظومة الحكم الحقيقية، المتمثلة في نخبة قبيلة حاشد المهيمنة على القرار السياسي، إلى توزيع المصالح على زبائنها وحلفائها وليس في إطار منظومة الحكم الدستورية. هكذا وصلت هذه النخبة المهيمنة إلى مرحلة صراع المصالح ليس بشكل مباشر بين رجالها بل بين أدواتها السياسية المتمثلة في الأحزاب السياسية التي وقّعت المبادرة الخليجية. وكانت أداة جناح قبيلة حاشد المنشق عن صالح تتمثل في المجلس الوطني (أحزاب اللقاء المشترك وشركائهم من القوى القبلية ذات النفوذ القوي كاللواء علي محسن ذراع صالح الأقوى لعقود)، بينما كانت أداة صالح ونجله أحمد ومن تبقى حولهما تتمثل في التحالف الوطني (حزب المؤتمر الشعبي العام وحلفائه من الأحزاب الصغيرة التي تعد عملياً صنيعاً المؤتمر نفسه).

وهنا يظهر الفرق الجوهري بين صنّاع الأزمات وصنّاع الحلول في بيئة يمكن ظاهرياً وصفها بالديمقراطية قصيرة التجربة، وذات التجربة المختلة أيضاً، لكنها في العمق والممارسة بيئة شمولية على مستوى القرار. بيئة فيها برلمان محدود القدرة على التغيير كونه يتشكل من أغلبية ساحقة تابعة للحزب الحاكم الموالي لشخص الرئيس أو رجاله، وقد انعكس ذلك بانشقاق قرابة ثلاثين عضواً برلمانياً من حزب المؤتمر عن صالح، وتحالفهم مع أبرز رجاله المنشقين عنه (اللواء علي محسن الأحمر) الذي أعلن نفسه حامياً للثورة الشبابية.

من جهته، فإنّ لبنان أكثر تنوعاً فكرياً وطائفيّاً من اليمن، وذلك موجود في تشريعات البلد منذ عقود بينما لا وجود للطوائف الدينية في أي تشريع قانوني يمني، وربما كان التعايش بين مذهبين دينيين غير متعصبين (الزيدية والشافعية) تجربة فريدة فيه. واليمن أوسع جغرافياً بحيث يمكن أن تساعد الجغرافيا على تخفيف التراكم القائم على الدين أو المذهب، ولا يمكن وضع إطار جغرافي حاسم للمذهبين الدينيين في اليمن. وبينما أولوية لبنان ربما كانت



توحيد الهوية أو معالجة الاختلاف والتنوع الفكري/ الطائفي كانت الأولوية اليمنية في العام ٢٠١١ هي معالجة الشرخ الاجتماعي بين أبناء الشمال والجنوب الذي غذته الصراعات السياسية لعقود (تحوّل الوضع في ٢٠١٤ - ٢٠١٥ إلى إقحام اليمن في حرب طائفية). لبنان أيضاً بلد مواجهة جغرافية مباشرة مع إسرائيل (إذا كان هذا المعيار لم يزل قابلاً للتعبير ولم ينته أثره العملي بعد) ومستوى التعليم فيه أعلى من اليمن، وكذلك معدل دخل الفرد فيه، فيما اليمن بلد فقير يتحكم بممر مائي دولي هام ويجاور أهم مصدري النفط في العالم، وتتواجد على أرضه واحدة من أهم المنظمات الإرهابية في العالم (تنظيم القاعدة في جزيرة العرب) ويدفع الفقر بأبنائه للانخراط في حروب عبثية مستمرة داخلية وخارجية.

في الوقت الذي تم فيه جلب السلاح في حالة لبنان لاستخدامه في الحرب، أشعلت الحرب في اليمن لاستخدام السلاح الموجود أحياناً بنسبة أكثر من الغذاء. وقد تم جلب المزيد من السلاح بعد توقيع المبادرة.

كانت أطراف الصراع تتكون من جناحين حليفيين لها لعقود حيث إن الغطاء الحزبي لكل طرف لم يعكس وجوه أطراف الصراع الحقيقية. وإنما عبر عنها بطريقة أكثـر قابلية للتسويق والتمثيل السياسي.

يمكن تلخيص المشهد العام اللبناني حينها بالتطلع الشعبي لإنهاء الحرب ومآسيها، ولم يكن ثمن ذلك قضية تعيق تحقيق الهدف إلا بنسبة ضئيلة. أما المشهد اليمني فيمكن تلخيصه بالتطلع الشعبي للتغيير في منظومة الحكم كأشخاص وممارسات وبأقل قدر من الخسائر، فتحققت تطلعات الشعب اللبناني عبر اتفاق الطائف، بينما انحدرت تطلعات اليمنيين في العام ٢٠١١ لتتحول إلى تطلعات اللبنانيين في العام ١٩٨٩، أي إنهاء الحرب التي نشبت بعد المبادرة الخليجية وليس قبلها.

السعودية بين الاتفاق والمبادرة
كان الهدف الذي سعت إليه الرياض تسجيل حضور إقليمي قوي أكثر من محاولة تكريس دور لها في لبنان، وانطلقت من مقررات اجتماع القمة العربية ولجنة الترويكاء المكلفة من القمة بمتابعة مساعي إيجاد الحل للصراع

اللبناني المرير بعد عقد ونصف العقد على بدئه. أما في اليمن فكانت الرياض تسعى إلى إعادة توجيه حركة التغيير اليمني إلى مسارات واضحة تضمن بها عدم تسليم اليمن إلى أيّد قد لا تستطيع التعامل الآمن معه مستقبلاً نتيجة تفاعلات انتفاضة الربيع اليمني، فضلاً عن عدم رغبتها بحدوث أي تغيير ينجم عن فعل ثوري مباشر على حدودها الجنوبية.

وفي الوقت ذاته كانت أطراف الصراع تتكون من جناحين حليفيين لها لعقود (صالح ونجمله وأنصارهم من جهة، والإخوان وشيوخ حاشد والجنرال علي محسن الأحمر وأنصارهم من جهة أخرى) حيث إن الغطاء الحزبي لكل طرف لم يعكس وجوه أطراف الصراع الحقيقية، وإنما عبّر عنها بطريقة أكثر قابلية للتسويق والتمثيل السياسي. كما أنّ الوضع في اليمن يؤثر مباشرة على الوضع في السعودية، فالخط الحدودي بين البلدين يمتدّ على حوالي ٤١٦ كلم ويمثل بوابة رئيسية للتهريب إلى المملكة. كذلك، فإنّ وجود حليف قوي لإيران تمثل في جماعة الحوثيين (أنصار الله) الذين سبق أن خاضت ضدهم الرياض حرباً مباشرة في العام ٢٠٠٩، شكّل دافعاً جوهرياً لتدخلها سواء عبر المبادرة أو لاحقاً بقيادتها لقوات تحالف عربي عسكري مستمر في تدخله الجوي والبري منذ ٢٦ آذار/ مارس ٢٠١٥.

أدى استمرار حكم الملك فهد لفترة طويلة بعد توقيع اتفاق الطائف إلى استقرار واستمرار نمط العلاقة بين بيروت والرياض. وكان للرياض طرف واضح الولاء لها تمثل في ما يسمى حالياً بـ"بنّار المستقبل"، وكانت لم تزل مهمة إقليمياً بعد إنهاك كل من بغداد وطهران في حرب الثماني سنوات وقبل أن تنشب حرب الخليج الثانية. أما ظرف المبادرة فقد شهد تغييرات في الرياض سواء على مستوى تنظيم انتقال الحكم داخل أسرة آل سعود وتحوّل توجهاته بين ملك وآخر، أو في ما يتعلق بشأن اليمن، إذ رحل كل من الأمير سلطان والأمير نايف ابني عبدالعزيز اللذين أثر رحيلهما بشكل كبير على علاقة الرياض بصنعاء كون الأول ظل مسؤولاً عن الملف اليمني منذ ستينيات القرن الماضي، ثم انتقل لأخيه نايف ذي الخبرة الأقل في الشأن اليمني وتحالفاته. وبعد رحيلهما بدأت الرياض بمراجعة طبيعة تحالفاتها بمنيا من جديد، بعد أن وجدت نفسها تفقد حلفاءها الأقوياء الواحد تلو الآخر، إذ إنّ صالح لم يعد ممسكاً بزمام السلطة، ومحسن وآل الأحمر والإخوان أصبحوا أقرب إلى الدوحة، ومجرد

تحويلهما إلى طرفين أربك الرياض كثيراً بعد أن مثلاً معاً حليفها الأكثر سطوة ونفوذاً في اليمن.

في كل الأحوال، فإن الرياض ترى أن معركتها الحالية في اليمن (بعد تحويلها من راع إلى طرف في الصراع) هي معركة مع طهران التي انتصرت للتو بتوقيع اتفاقها النووي مع القوى الكبرى، ما رأت فيه السعودية حسماً من رصيده نفوذها المستقبلي على مستوى المنطقة والعالم ويجب الحيلولة دون وقوع مخاطره كاملة كما تسعى طهران لتحقيقه.

لقد تحول نجاح المبادرة الخليجية من هدف للرياض إلى مجرد صفحة تم طيها وتجاوزها نحو إعادة رسم خارطة اليمن السياسية وإعادة رسم القوى المؤثرة على الأرض فيها بما يخدم مصالح الرياض أو على الأقل بما يضمن لها عدم تحولها إلى أداة ضدها في المستقبل. وبعد كل الخسائر والجهود الدولية التي بذلتها في هذا الإطار، يمكن القول إن التراجع عن هذه الأهداف أمر غير وارد البتة، ما لم تطرأ تغييرات حادة في الإقليم ابتداء من سورية وانتهاء بعلاقة الرياض بواشنطن وموسكو وعلاقة الأخيرتين بعضهما ببعض في ما يخص المنطقة.

الوضع الإقليمي من ١٩٨٩ إلى ٢٠١١
كان الصراع اللبناني - اللبناني (أو كامتداد لأطراف إقليمية أخرى في جزء منه على الأقل) بؤرة النزاع الوحيدة في منطقة مستقرة نسبياً، وإن تخللتها حروب أخرى فهي بين دول وليست على مستوى الدولة الواحدة كحرب العراق وإيران، أو ليبيا وتشاد، أو غزو العراق للكويت الذي تزامن مع نهاية الحرب اللبنانية وعجل بتلك النهاية ربما. بينما الوضع اليمني منذ العام ٢٠١١ جزء من وضع إقليمي مضطرب وتشهد فيه دول عدة صراعات داخلية دامية وغير واضحة الملامح، حيث كل حرب داخلية في دولة ما تتشابه مواقف وتحالفات أطرافها المحلية مع الأخرى وسياق تحالفها الإقليمي تحديداً، سواء في سورية أو ليبيا أو اليمن، وذلك بعد تحويل الاحتجاجات السلمية ضد أنظمة هذه الدول إلى صراعات مسلحة بتدخل إقليمي دولي، ربما لولا حدوثه لاستمر الطابع السلمي للمطالب الشعبية حتى النهاية. أي أن بصمات الانقسام الإقليمي واضحة في اليمن ٢٠١١ أكثر مما كانت عليه في لبنان ١٩٨٩، والوضع ارتبط بخيوط الصراع الإقليمي وامتد منه، ولم يكن شأنًا محلياً خالصاً على الأقل كما كانت بداياته أو تطلعاته الشعبية غير المؤطرة حزبياً.

تم توقيع اتفاق الطائف مع نهاية التوازن بين القطبين العالميين (الاتحاد السوفياتي وأميركا)، وقبل بدء مفاوضات

لقد تحول نجاح المبادرة من هدف للرياض إلى مجرد صفحة تم طيها وتجاوزها نحو إعادة رسم خارطة اليمن السياسية وإعادة رسم القوى المؤثرة على الأرض فيها بما يخدم مصالح الرياض أو على الأقل بما يضمن لها عدم تحولها إلى أداة ضدها في المستقبل

في المقابل، شهدت جماعة الحوثيين، التي تعتبرها الرياض ذراعاً محلية لخصمها التقليدي إيران، نمواً وتأثيراً متسارعين بعد التوقيع على المبادرة الذي رعاه الملك عبدالله شخصياً في الرياض في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠١١. ورغم تدخلات الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي بين الحين والآخر حتى انطلاق مؤتمر الحوار (آذار/مارس ٢٠١٣) حين بدأ حضوره يخف تدريجياً لصالح المبعوث الأممي جمال بنعمر، وتسمية مبعوث خاص لدول الخليج إلى اليمن، وفتح مكتب تمثيلي بصنعاء، فقد وجدت الرياض نفسها أخيراً مدفوعة إلى العمل على إنهاء دور بنعمر الذي لم يساعد على ترتيب الأوضاع اليمنية كما أملت، وهو ما تم بشكل هادئ بعد تدخلها العسكري عبر «عاصفة الحزم» حين قدم الرجل استقالته من عمله كمبعوث خاص للأمين العام للأمم المتحدة في اليمن، بعد أن حرص على تمديد مهمته أكثر من مرة. واتضح أمر خلافه مع الرياض في نقطتين أولاً إعلاناته (قبل يوم من بدء عاصفة الحزم) نقل الحوار اليمني إلى الدوحة بدلاً من الرياض، والأخرى في إحاطته الأخيرة لمجلس الأمن (في ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠١٥) حين اتهم السعودية بعرقلة اتفاق سياسي وشيك بين الأطراف اليمنية بإعلانها عاصفة الحزم.

إن علاقة لبنان بالسعودية مهمة باعتباره باباً خلفياً لدمشق ولمنحه الفرصة لكبح جماح هيمنة حزب الله على الحياة السياسية اللبنانية كونه حليفاً لإيران وخصماً مذهبياً في الوقت ذاته. في اليمن حصل اختراق إيراني قوي لخاصة السعودية الجنوبية بتحالف طهران مع جماعة الحوثيين (أنصار الله) ثم تلقائياً كسر مسار علاقتها بالرئيس السابق الذي اختار التحالف مع خصومها (الحوثيين) على تنفيذ مطالبها التحالفية الجديدة معه.

مسبوق، واختلقت أطراف الصراع الميداني من الجيوش إلى الجماعات المسلحة. وإضافة إلى كل تلك التجاذبات والتنافس الإقليمى الجديدة، فإن الصراع الإقليمي بين المملكة العربية السعودية وجمهورية إيران الإسلامية لم يكن حينها مباشراً كما هو الآن، وحتى في العام ٢٠١١، لم يكن الصراع الإيراني السعودي في اليمن على تلك الدرجة التي وصل إليها أخيراً.

خاتمة

يمكن القول إن توقيع الأطراف اليمنية على المبادرة كان بمثابة هدنة، وإظهار لحسن النوايا للدول الراعية وأولها السعودية، أكثر منه قبولاً ببنود المبادرة عن قناعة، إذ إن ما حصل شمل أطراف المشكلة ذاتها من دون وجود أي طرف يمثل المطالب الشعبية أو على الأقل ذات الطابع التمثيلي للشعب (الناخب) كما كان الوضع في لبنان. لكن حسن النوايا لم يكن حقيقياً، فسعى كل طرف إلى عرقلة التحول السياسي حين كان الأمر يمس بمصالحه واستغلال الثغرات الموجودة في المبادرة الخليجية. كذلك لم يكن الرئيس الانتقالي قادراً أو مؤهلاً (أو حتى راغباً) في ممارسة أي تأثير فعال لحسم خلافات تلك الأطراف أو لقيادة عملية انتقالية حقيقية.

لقد وقّع اللبنانيون على اتفاق الطائف وهم يخوضون حرباً أهلية، والبلد بدون رئيس والبرلمان غير قادر على عقد جلساته، لكن لبنان تعافى إلى حد ما من كل هذه الظواهر الخطيرة والوضع الكارثي بعد التوقيع. أما اليمنيون فقد وقّعوا على المبادرة الخليجية ولديهم رئيس وبرلمان، ولم تكن بلادهم تشهد حرباً أهلية، لكنهم وبعد أربع سنوات على التوقيع، وصلوا تماماً إلى المشهد اللبناني كما كان قبل اتفاق الطائف، إذ إن الرئيس الذي أتت به المبادرة الخليجية كان هارباً من بلده، والبرلمان منع من عقد جلساته (كانون الثاني / يناير ٢٠١٥) وهو كان معطلاً عملياً قبل ذلك من أداء دوره الدستوري بفعل نصوص المبادرة الخليجية. في الوقت عينه كانت جبهات الحرب الأهلية تتقدم كل يوم على الأرض، وتتوسع أهداف قصف التحالف العربي على أراضي اليمن من السماء، والمواطن أصبح يحلم فقط بمأوى آمن يخلد فيه إلى النوم دون التعرض لخطر القتل الحوثي أو القصف السعودي، وذلك بعيداً عن كل تطلعاته نحو الحرية والتغيير والبناء التي عبّر عنها شبابه مطلع العام ٢٠١١، قبل صياغة أول نسخة للمبادرة الخليجية بشهرين فقط.

السلام العربي - الإسرائيلي، أي في ظل ثقافة المقاومة ولو لم تتجاوز كونها خطاباً سياسياً. في المقابل، وقعت المبادرة الخليجية في ذروة حكم العالم من قبل القطب الواحد الأميركي، وفي ظل تقارب عربي - إسرائيلي علني وسري تجاوز في بعض الأحيان التنسيق العربي - العربي. يؤثر ذلك في المشهد المحلي وتنفيذ أي اتفاق بشأنه، فرغم كل ما يقال عن تحالف روسيا مع إيران والحوثيين في اليمن، لم تستعمل روسيا حق النقض / الفيتو ضد قرار مجلس الأمن الرقم ٢٢١٦ أو ما قبله رغم نصهما على عقوبات بحق حلفائها اليمنيين.

من جهة ثانية، كانت جامعة الدول العربية أكثر فاعلية في العام ١٩٨٩، فتبنت قمة خاصة للوضع اللبناني انبثقت منها اللجنة الثلاثية (الترويكا العربية) التي سهّلت عمل البرلمانين اللبنانيين في الطائف للخروج بذلك الاتفاق. أما في ٢٠١١ فكانت الجامعة على الهامش والوضع العربي في أسوأ أحواله وأنظمة بعض أعضائها تواجه أزمات وانتفاضات عميقة وقوية تجعل ما يجري في دول أخرى أمورا جانبية. وفي قمّتها التي عقدت بشأن اليمن نهاية آذار/ مارس الماضي، باركت الجامعة فقط العملية العسكرية التي تقودها السعودية (عاصفة الحزم) بعد يومين من بدء العملية.

كانت جامعة الدول العربية أكثر فاعلية في العام ١٩٨٩. فتبنت قمة خاصة للوضع اللبناني أما في ٢٠١١ فكانت الجامعة على الهامش والوضع العربي في أسوأ أحواله وأنظمة بعض أعضائها تواجه أزمات.

لم يكن هناك انقسام عربي واضح على الأرض في العام ١٩٨٩ إلا في ما يخص صراع بغداد وطهران الذي جعل من الرياض تقف على ضفة ودمشق على الأخرى مثلاً، وانعكس ذلك على الوضع اللبناني. إلا أن لبنان نجح من لعبة الصراعات الإقليمية بتوقيع الاتفاق قبل غزو صدام حسين للكويت، وربما ساعد ذلك على الإسراع في إغلاق الملف اللبناني لفتح ملف آخر أكثر إلحاحاً بالنسبة إلى الغرب حينها. بينما في العام ٢٠١١، كان العالم العربي قد انقسم على نفسه أكثر من مرة منذ دخول أميركا وحلفائها بغداد، وخلقت انقساماته الأخيرة المتعلقة بالربيع العربي وضعاً عربياً صراعياً بشكل غير

تصحيح خطأ الموت

رنا زيد

شاعرة وكاتبة سورية.

آخر أعمالها

«ملاك متردد».

٢٠١٥.

حدود الألم: هل نحن كائنات آلية، بعد مجمل جنون صامت عشناه؟ إن شعوراً هائلاً ينتابني، بأن قدرتنا الضئيلة متاحة، فقط، في فعل تدميري ذاتي تجاه أنفسنا. نحن ندمر هذا النظام الذي خلقناه، منذ عقود، ندمره داخلنا، لأن تحديثاً غريباً ومختلفاً طراً فينا بعد الثورة، إذ ما هو مصير التركة الفكرية القديمة، التي أصبحت لا واعية، لا مصير واضح لها غير أنها في طريقها إلى تفتيت كل ما يشكلها؟ وهنا، لا يمكن أن نبقى الأشخاص ذاتهم، في أي الأحوال.

أكاد لا أتحرك، جسدي ينتفخ، ثم ينتفخ، لينتج كتلاً من الدهون، تدل على وجود مادي، في أقل الاحتمالات النفسية التحليلية لتغير الجسد، في المكان الجديد. أليس الجسد هو الحقيقة الوحيدة، والباقي مجرد أفكار غير مدركة، في الملموس؟

لافتة بحاجة إلى الإصلاح

ليست المشكلة أننا ذبحنا، وأن القتلى منا تكدسوا في حفرة تشبه الوادي، لكن الأمر الملح هو أن ذاك الجرف الذي اسمه سورية في حاجة حقيقية إلى النهوض من أجل إصلاح اللافتة الصغيرة المؤدية إليه كمكان وكمدفن جماعي. ونحن الأموات تعيننا، فكلما أصلحنا اللافتة، قصفها القائد المفدى مجدداً، وعلى أحد ما أن يصلحها، هي تنص: «سورية، القبر الجماعي الشيق». لم لا تصلحون تلك اللافتة؟ لعل أحداً ينتبه إلى أن في الأسفل من كومة أجسادنا، لا تزال هناك جثة تنطق بما يوحي بأنها تعيش في حياة جديدة سعيدة. إن الجثة تعوي كذباً جائعة، يسيل من لعابها حليب فاسد، هاهي تداعب رأسي، أنا الجثة ما قبل الأخيرة. هناك أحد سيمر ويصلح شاهدة القبر؟

أيقنث أن حياتي هناك صارت منتهية. كل ما جرى في حياتي السابقة أصبح متلاشياً وعائماً. هذا وحده كان كفيلاً في بث الرعب في نفسي. من أنا؟ مجدداً، أين هو مكاني؟ الهستيريا التي أصابتني في شكل طفيف تبدو حدثاً هامشياً، لكنها مقترنة مع توتر كارثي ودائم لحق بي، أنا الآن لست شيئاً. إذ في هذه اللحظة، أعيش هنا في باريس قرب مقبرة غرونيل في شارع سان شارل. هنا، في أكثر الأحياء الفرنسية أرستقراطية، لا شيء يدل على أنني موجودة، ولا شيء يثبت أن هذا الوجه الذي أخفيه بيدي، هو وجهي.

أنا مجرد شخص موجود، قد يكون أتى من القارة الآسيوية، أو أي بقعة أخرى في الأرض، أنا شخص غير موجود، لأن وجوده على هذا الحال، هو اللعنة. اكتشفت لاحقاً أن الجميع حولي يعاني من تلك المرحلة البلاستيكية، في التحول البشري بعد اللجوء. في هذه المرحلة، ما من مكان لثبات الهوية، ولا شيء يؤثر في ثقل وزن الجسد لتتحسس مفاتيحه في الشهوة والخدر والتصاعد. نحن مجرد قطع من البلاستيك المتكاثف فوق القلب البشري. الحياة السابقة في دمشق جثة عفنة لا أدري أين أدفنها؟ هناك، حيث لم يكن ليحدث أمر، ولم يكن شيء ليتغير، لولا الثورة. كنا كمن تلاشى في خوفه، ونحن الآن كمن ظهر شبحاً فوق خوفه.

ليس هناك فارق كبير بين حياتنا السابقة وهذه الحياة المعيشة أنياً. إلا أن حديثاً عن الجسد والجنس، ورماديتها الحالية، عند أكثرية من خرج من منهبة العمر هذه (التي ألحقها النظام السوري بالشعب، بعد الثورة السورية) قادني إلى استنتاج هو في أقصى

مع توالي الهلع، صرت مثل شجرة مقلوعة من صدر غزالة ميتة ومدفونة.

عام ونصف العام مضى علي وأنا في باريس أمام مقبرة غرونييل، في شارع سان شارل. لا أبرح المكان، أمارس طقساً شديداً الغرابة، كي أهدأ من لعنة الموت ومن صراخ الغربان الحائمة حول المقبرة. أختار كل يوم شيئاً من ملابس وأغراضي وأرميه، إما في السلة المخصصة للتبرع، وإما في زاوية من الشارع، حين أكون متأكداً أن هناك من سيمرّ فيأخذ ما رميت. كانت أغلب حاجياتي جديدة تقريباً، لكنني صرت أخاف من تجمعها، أخاف أن تصير لي ذاكرة قابلة للتلاشي، ذاكرة تقصف أو تدمر. هناك مفاصل في حياتي، أتذكر في كل منها زياً أرتديه وناسيني واقتن مع لذة ما. أما في باريس، ومنذ وصولي، فقد كانت كل الملابس عبارة عن لغز صعب الحل. صارت الأقمشة لعنة، الأحذية مؤلمة، مهما كانت فخمة وواسعة، على الرغم من أني اعتدت على الأحذية الضيقة، اعتدت ألا يكون في وسعي سوى خيار واحد منها في سورية البعث. لا أريد أن أنبي أي ذاكرة مع المكان، أي بهجة مقترنة مع الأشياء المستخدمة من قبل البشر، ستكون قاتلة.

لعل أحدا ينتبه إلى أن في الأسفل من كومة أجسادنا. لا تزال هناك جثة تنطق بما يوحى بأنها تعيش في حياة جديدة سعيدة. إن الجثة تعوي كذباً جانعة. يسيل من لعابها حليب فاسد. هاهي تداعب رأسي. أنا الجثة ما قبل الأخيرة. أهنك أحد سيمر ويصلح شاهدة القبر؟

أحاول تصحيح هذا الرعب، أحاول تصحيح خطأ الموت. في العام ٢٠١٢، أجرت مذبة مختلفة، مؤيدة للنظام السوري، مقابلة مع مصابين في داريا (ريف دمشق) لحظة وجودهم في موقع المجزرة، حاورتهم وهم ينزفون ويوشكون على الموت. لم أشاهد هذا الفيديو إلى حين خروجي من سورية. فتحت في صيف عام ٢٠١٣ في بيروت عندما تماهيت مع ضحية امرأة، وأصابني، وقتها، أول نوبة هلع مريضة. تزامن ذلك مع عودتي من كوبنهاغن إلى بيروت دون حتى أن يكون في حوزتي تأشيرة دخول إلى لبنان، كفلسطينية سورية. منحني في مطار رفيق الحريري الدولي ختماً للمرور إلى سورية مدته يوم ويوم بعده، ومن وقتها

بدأت الأشياء في التقلص، صغرت المدينة وشوارعها، وصرت أختنق من أي حادث عابر، صرت أخاف حتى من رجل الحراسة في المباني الفارهة.

البحر بلعني وبلغ ذاكرتي

في طريق القطار الطويل، من باريس إلى كوبنهاغن، كانت رحلتي مشوبة بالألم الجسدي، فامتناعي عن استخدام الطائرة بسبب الخوف من الطيران لم يخفف من أهوال رحلة الأرض. عند الطريق البحري، الذي يفصل بين ألمانيا والدنمارك، كنت أفكر في كل رحلات السوريين التي تتالت في منتصف العام ٢٠١٥ في شكل يتجاوز مفهوم النكبة الفلسطينية، ويتخطاه في الرهاب والتنكيل. إنها رحلة تتجاوز القتل إلى الموت، وما يقص من مجريات الرحلات ما هو إلا مزحة عابرة. كانت المقطورة التي أنا فيها مزدحمة بالركاب السوريين: كانوا مبتهجين، فالقطار لا يخيف. وحدي أنا الخائفة من الطريقة التي سيجتاز بها القطار المنطقة البحرية، هل سيكون هنالك جسر؟ القطار يسرع فوقه، كتلة حديدية هائلة، على سكة ضيقة؟

الراكب البريطاني الذي جلس قبالي كان يجهل مثلي ماهية الطريقة التي سيقطع بها القطار هذه البقعة من الكرة الأرضية. قال لي: «أنا لا أعلم إن كان القطار سيتحرك فوق الأرض أم تحتها»، هكذا ببرود لا يمكن أن أستسيغه، هكذا يكلمني الرجل المتحضر.

البحر بلعني، وبلغ ذاكرتي، البحر أكلنا نحن السوريين كحسك السمك، والأرض كلها كانت تشاهد، وتضحك. خاطبني أحد الركاب من المقاعد المجاورة باللكنة العامية السورية: القطار سيدخل السفينة، ثم سنصعد إلى طوابق السفينة العليا، وسنبحر نحو أربعين دقيقة في البحر حتى نصل إلى الدنمارك. شكرته. همس لي: «أحاول تخفيف خوفك. أنا فلسطيني سوري لاجئ، في الدنمارك». شعرت بقليل من الحرج، لكنني بددت هذه الفكرة: نحن في معتقل واحد، والجلاد الذي يقود القطار يمارس علي وعليه السادية ذاتها، الفارق أن اللاجئ عاش هذا قبلي.

على سطح السفينة، التي فيها كل ما يحتاج إليه إنسان على الأرض، قابلت مجموعة من السوريين، التفتوا حولي لأنني كنت فضولية جداً. أجوبتهم كانت منهكة، لقد فقدوا أحبة في الطريق. شعرت أن خيائتي ومخاوفي تافهة جداً. هناك على سطح السفينة ضحكنا

وعانقت النساء، وابتسمت للرجال الذين تركوا مسافة بيني وبينهم. لمحت طفلاً رضيعاً قد نام على كتف أمه. قالت لي الأم إنه وُلد تحت القصف، واجتاز بحر اليونان دون أن يدرك ما يجري حوله، وأنه كان يضحك من مشهد الماء، إذ اعتقد أنه في نزهة. نعم يا صغيري، نحن في نزهة، نهدهد خلالها الدول لتنام فنسرق حدودها ليمر الغرباء، ونحن الغرباء ونشبه الغجر. يا صغيري النائم في برد البحر، أنا وأنت لا ندري شيئاً عن الموت، أنا وأنت لا نخاف، لأننا اعتدنا الرعب، وأنا وأنت ميتان. كان هذا اللقاء القصير، المملوء بالأسئلة والأجوبة من القدر، قد أنساني وقت الرحلة في البحر. في الدفء، لدى وصولنا كان الترحيب بالسوريين مقترناً مع عبارة رافقتكم السلامة.

نحن في نزهة. نهدهد خلالها الدول لتنام فنسرق
دودها ليمر الغرباء. ونحن الغرباء
ونشبه الغجر. يا صغيري النائم في
برد البحر. أنا وأنت لا ندري شيئاً
عن الموت. أنا وأنت لا نخاف. لأننا اعتدنا الرعب. وأنا وأنت ميتان.

القطارات الدفارية السخية مهتأة لنقل اللاجئين السوريين إلى مالو السويدية، البلد الضئيل عدد السكان. في الدفء لم يكن مرحباً بهم، لكن ناشطين ديمقراطيين مخلصين للثورة السورية ساعدوا على إتمام الرحلة دونما ضغوط في العبور. لذا توجه السوريون إلى بر آخر، بقلوب ملوثة بالطحالب وبعيون يقظة من أي طعنة ظهر. أيها البحر، أنا هيكل بلاستيكي طاف، إلى نهاية الألم، في الماضي، وفي العودة، صوب مقبرة غرونيل الباريسية.

العنوان للشاعرة السورية الراحلة دعد حداد
(١٩٣٧-١٩٩١)



الرحيل إلى الأيديولوجيا

أسماء الغول

صحافية وكاتبة،
غزة، فلسطين.

صحافيا آخرين، للمشاركة في ورشة عمل حول أخلاقيات الصحافة الاستقصائية تستمر ليومين، تحت إشراف المدربة الأميركية المصرية هدى عثمان.

في الطريق من المعبر للقدس، أول أمر لاحظته اقتراب السماء من الأرض، وهذا لا يحدث إلا إذا نظرت إلى أفق واسع وبعيد، فالأفق الوحيد في قطاع غزة هو أفق البحر. إن ما يجعل غزة غزة هو بحرها.

هنا تذكّرني الشوارع والمدن واللافتات المنظمة بأوروبا، لكنّ الجبال والطبيعة تذكّرني بأنه الوطن، إنه شعور بالانتماء وعدم الانتماء. سألت نفسي «هل يجب أن يكون مخيماً كبيراً كي أشعر بأنه وطني؟»، بالتأكيد لا.

أعتقد أننا نحن من ولدنا في المخيمات، لا توجد عندنا عقدة المكان الأول، بل عقدة السفر، إلا أن هذه الطريق لا شيء فيها يجعلها تشبه وطني، ليست لغة اللافتات أو شكل الشوارع، أو السائقين المحيطين بسيارتنا.

تبعد القدس ساعة ونصف ساعة عن غزة. الآن بدأت أراها واقعاً حياً، إن السياسة تشعرك بأنها بعيدة جداً، والاحتلال يشعرك بأنها مستحيلة، ليست سوى ذاك الحلم في الشعارات الوطنية.

وصلت إليها في وعيي الحالي، وليس وعي تلك الطفلة، بقيت الدهشة من المساحات الخضراء ذاتها، لكن أشعر بغربة داخل الوطن... غربة لم تشعر بها جدتي يوماً وهي تروي ذكرياتها عن القدس والبلاد. وطن نقلته لي بالحكايات ذاتها، فكان وجودي كأنني لمست قصصها، لمست عالم الطفولة المتخيل الذي كان قطعة من الجنة وقتها.

إن الوصول للقدس أجمل بكثير من التغني بها، حتى أنه أسهل. رأيت شجر الياسمين بأنواعه في كل مكان، الأحجار القديمة والشوارع المرتفعة والمنخفضة. يقول لي الشاب الذي يعمل في الفندق «نحن هنا في القدس الشرقية

كنّا نزور جدي الذي يرقد في مستشفى في القدس، لم أكن أتجاوز الخامسة حين أبهرتني الحشائش الخضراء والمساحات الواسعة والمصعد الكهربائي الذي اعتقدت وقتها أنه يسافر بنا من مكان إلى مكان.

اشترينا البيض المسلوق وكعك السمسم الذي تشتهر به القدس. كان جدّي يعمل في أحد الفنادق هناك مثله مثل آلاف العاملين من قطاع غزة، وقد بدأ يعاني من مرض القلب الذي سيودي بحياته بعد ٢٣ عاماً.

في طفولتي، كانت القدس تعني الأشجار الكثيرة والوجوه المتنوعة، أي كل شيء عكس المخيم الذي تربيت في داخله، لم أشعر هناك سوى بالدهشة.

كنت أسأل جدي يومها عن كل شيء اعتبرته غريباً عني، «ليش يا سيدي هديك بشعرها؟»، فيرد «هدول يهود يا سيدي»، «ليش في شجر كثير هين يا سيدي؟»، «هاي حديقة المستشفى لزبارة المرضى».

كان الجميع مشغولاً بوضع جدي الصحي وتعّب قلبه، ورغم ذلك لم ينس أحد هذه الطفلة التي تنظر إلى كل شيء حولها فيردون على أسئلتها وينادونها ويسحبونها من يدها، إنه الحب على طريقة المخيم، ولاحقاً سأكتشف أن هذه القسوة الحنون علمتني الكثير.

الآن أنا في الثالثة والثلاثين من عمري، ولأول مرة منذ تلك الأيام أزور القدس. أذكر أنني مررت بها من بعيد حين عدنا من الإمارات عن طريق الأردن إلى الضفة ثم إلى غزة في العام ١٩٩٧.

لم أصدّق أنني أخيراً سأزورها، فقد تقدّمت مرات عدّة للحصول على تصريح من الجانب الإسرائيلي، وكان يأتي الرفض لأسباب أمنية. ولكنني أخيراً أصبحت في السيارة متوجهة إليها من معبر بيت حانون «إيرز»، بعد أن استطاعت الفتنصالية الأميركية الحصول على تصريح لي ولسبعة عشر



يعني الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وهناك في الشارع المقابل القدس الغربية يعني الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨.» فأرد عليه «إذن هناك احتلالان في القدس؟» وربما زمان للاحتلال، وأهمس في داخلي، «كم احتلال تحتل المدن، وكم الزمن سخي معه؟»

لم يسمح لي التزامي بورشة العمل التدريبية واليومين القصيرين بقضاء الوقت الكافي في المدينة بعد ٢٨ عاما حرمني خلالها الاحتلال من زيارتها، كما لا يزال يحرم الآلاف غيري.

هذا الوقت القصير جعلني أخرج منذ السادسة صباحاً لأمشي، فقطفت الياسمين من أمام أحد المنازل القديمة في القدس الشرقية، وفكرت أنه يبقى أن أسمع صوت فيروز يصدح من مكان ما لتكتمل أيقونة القدس في متخيل ساذج. سمعت ضجة أهل البيت، عجلت خطوتي، فلا أريدهم أن يروني متلبسة بسرقة ياسمينهم، لكنني في الوقت ذاته تخليت أن يفتح الباب لأخوض نقاشاً مع العائلة عن الورد وغزة وأسئلة الانطباعات الأولى والزيارات الأولى، لكنني هربت. مشيت، تذكرني المدينة بعمان وبيروت، إلا أنها في الوقت ذاته مدينة لا تشبه إلا نفسها. كانت أخبار التوتر في القدس تنصاعده وتلقبت على هاتفي رسائل إخبارية كثيرة حول ما يحدث، ولكنني لا أرى شيئاً حولي.

أحياناً سطوة الإعلام، خصوصاً المؤلج منه، تحول الأماكن إلى شيء آخر، وربما المشكلة في مفهومي للتوتر السياسي، فتعودته بغزة أن يكون قصفاً وحرباً جديدة تطحن المدينة بكاملها.

غالباً نظرة الآتي من غزة إلى القدس تشبه نظرة أهل القدس لغزة، كل طرف يتعاطف مع الآخر ويعتقد أن مدينته حالها أفضل من الأخرى. سمعت أغاني وطنية من بعيد، كما تناهى إلى أذني حديث رجلين في الشارع، أحدهما يقول للآخر «خربت الأوضاع».

أستمتع بالمشي، هناك هواء ومطر خفيف، «إنها أول أيام المطر منذ الصيف»، كما قالت إحدى المقدسيات. أزهار الياسمين تثبت من بين الجدران العتيقة وليس فقط بجانب أبواب المنازل، إن الصراع يجعل لهذه المدينة سحرها وربما شجرها، فما أراه في هذه المدينة بغربها وشرقها، لا أستطيع أن أصفه بالتعايش، إنه سكون من نوع ما.

لا يمكن أن يكون تعايشاً إذا كان بضعة تلاميذ من اليهود الإسرائيليين ينتظرون حافلة معيهم وبصحبتهم سيارة الشرطة، ولا يمكن أن يكون تعايشاً إذا كانت مسطرة الطفل الفلسطيني المكسورة تجعله متهماً بنية القتل، واعتقله الاحتلال.

إنَّ الأوضاع داخل القدس مختلفة تماماً عن المنظور الأيديولوجي الذي قد ننظر نحن من خلاله إلى المدينة. شعرت بأنَّ هذا الصراع بقديسيته يحميها من الانفجارات. هناك اتفاق ضمني على الهدوء أو كان كذلك، فلاحقاً بعد زيارتنا وصلت هبة السكاكين لذروتها.

رجعت إلى الفندق لأجد فيروز تصدح في صالة الاستقبال. ابتسمت في سري. فقد اكتملت أيقونتي الآن.

إنَّه اختبار صعب ومن نوع جديد عليّ، معاناة مختلفة أن تعيش مع محتلك في المدينة ذاتها وتتصرّف الجميع كمدينين، وربما في عبارتي هذه أُنِّي لا أزال أنظر من خلال أيديولوجيا مكونات غزة إلى القدس! فكرت هل لو ولدت وكبرت في هذه المدينة فسأستطيع أن أعيش السكون والمدينة ذاتهما؟ إذا كان البحر جمال غزة، فسحرها الآخر هو الأيديولوجيا. إنَّ القدس فيها الصراع الذي ولدت من أجله تلك الأيديولوجيا في غزة، ولكنها مع ذلك تبقى مدينة غير مؤدجة، بل فيها سحر الصراع الساكن، ولغزة سحر الأيديولوجيا المتفجر، ولطالما كان السحران في تبدّل بفترات تاريخية كما الآن، فانفجر سكون القدس وسكن انفجار غزة. إنَّ ثبات الصراع يغذي ديناميكية الأيديولوجيا، لكنَّ الأخيرة نادراً ما غدت الصراع في القدس. وإذا كانت عبارتي الأخيرة صحيحة، فكيف يحدث أنَّ هناك أكثر من أربع وعشرين عملية طعن في أقل من شهر؟ إنها فورات الغضب التاريخية اللازمة لتذكرنا بالصراع، وليعرف الجميع قيمة السكون.

رجعت إلى الفندق لأجد فيروز تصدح في صالة الاستقبال. ابتسمت في سري، فقد اكتملت أيقونتي الآن. إنَّ حقيقة أنَّ جدي كان يعمل يوماً في هذه المدينة، ومشى في شبابه بشوارعها وهو ينتظر راتبه كي يعلم أبناء التسعة وبناته الثلاث في جامعات مصر وليبيا وغزة، هي ذكرى أثرت في أكثر من أي شيء آخر.

أمشي وأحاول أن أعرف ماذا كان يدور بذهنه وقتها، هل كان يفكر أن يوسّع بيت المخيم بغرفة أخرى؟ لقد كان دوماً يعطيني مصروفاً أكثر من صديقاتي وأنا في المدرسة الابتدائية، كما كان فخوراً بأبنائه وبناته جميعهم. توفي قبل أن يعرف أنَّ هذا البيت سيتحوّل إلى فتات في حرب ٢٠١٤. لم أبك في القدس، لم أشعر بتلك المشاعر الكلاسيكية، ربما

لأنني أعيش الأيديولوجيا، ولا أعيشها داخلي، إلا أنني لن أنكر أنني بكيت داخل المسجد الأقصى، وأنا أدعو لعائلي، الذاكرة تعطي للأماكن هبتها، إنها مثل اللحظات التي تشبه لحظة ولادة طفلك الأول، أو لحظة تخرّجك أو حبك الأول. إنَّ الذاكرة تضخّم الأحاسيس، وتحوّل الواقع أسطورة، لذلك فإنَّ سمعة الأماكن ولحظاتها الأولى أكثر هيبة منها ذاتها.

يدخل من إحدى بوابات الأقصى السياح الأجانب يلتقطون الصور. لم أشعر بأنني أختلف عنهم سوى بدخولي للصلاة في المسجد. في داخلك غصة ما تذكر أنك غريب عن كل شيء هنا، أو ربما هذه هي المشاعر الاعتيادية لكن لا أحد يصرّح بها، فتكفي صورة «سيلفي» هناك لتبرهن العكس.

التقطت بضع صور تشبه كل الصور التي يلتقطها المئات يومياً، لكنّها أبداً لا تشبه صورة تلك الطفلة في ذاكرتي التي أكلت الكعك وحولها المئات من الوجوه المتنوعة والفرحة. وقت زيارة الأجانب ينتهي عند الساعة الثانية والنصف ظهراً، هناك محاولات من قبل المستوطنين ليكون لديهم ساعات محدّدة. إنَّهم يقسمون المسجد الأقصى زمانياً، دخل أماننا مستوطن وحوله ثلاثة رجال شرطة إسرائيليّين، وخرج من البوابة في الناحية الأخرى من باحة المسجد الأقصى، فتصاعدت تكبيرات المرابطين والمرباطات. استفزاز مجاني، وصناعة للكرهية، لتتذكر فجأة الصراع. إنَّ هناك توازناً ما يجعل الأشياء لا تصل حدّ الانفجار، وسكوناً لا يصل حدّ التعاش. إنها الهوية العقائدية القوية للمدينة، فهي مهبط الأديان الثلاثة، وهنا ميزان الضبط.

عدتُ إلى الفندق في القدس الشرقية. هناك ازدحام، اضطرت السيارة إلى أن تقف أمام البيت الذي قطعتُ باسميته صباح اليوم. فتح الباب، نظرت وانتظرت باهتمام لأرى من من المفترض أن يكونوا أصدقائي الخياليين، إلا أنَّ من خرج هو مستوطن وأبناؤه الذين يرتدون القلنسوات الصغيرة على رؤوسهم.

صُدّمت، وأول ما فكرت هو كيف يكون بيتاً قديماً وحجراً مقدسياً، وعراقة وورد الباسمين ويعيش به من هو مستحدث زمانياً ومكانياً. لاحظ السائق صدمتي فقال «كانت هناك عائلة عربية، لم تستطع الاحتفاظ بالمنزل، ووضعت خيمة لمدة طويلة أمامه، ثم رحلت». لحظتها لم يسعفني سوى تذكر كلمات جدي حين أتعبني التغيير في المدينة الجديدة، «ولا يهملك يا سيدي، ستعودين بعد قليل إلى غزة»، فاستعجلت الرحيل إلى الأيديولوجيا.

والدي والجيب المليء بالساكاك

مريم حمود

شاعرة ومثلة، لبنان.

«مؤهل أول» متقاعد في الجيش يتحدّر من ضيعة تعشق المرض لا الدلال، الفقر لا المال، الأمل لا الندب فالإهمال. تزوّج «خضر» من ابنة خالته «فاطمة» حتماً، كما ذكر في الاتفاق المذكور أعلاه. تبادل الحب والسنابل معاً في الحقول الذهبية في مزرعة الأغوات، وكان لأمي سحرها الخاص. بيضاء كالثلج هي، فيما والدي يريد أن يكون أغا لتكون هي زوجة الأغا. أغا لتكون هي فقط زوجة الأغا، تليق بها التسمية ويليق به المنصب.

اعتاد الذهاب إلى المدرسة حافي القدمين، على الأغا المستقبلي أن ينال العلم، فحاز شهادة السيرتيفيكا! وهي شهادة كانت عالية في الماضي وتمثل الخامس الابتدائي في يومنا هذا. وهي اعتادت القنوع فالقمع وتوريد الحذّين. كل صباح والديك واحداً!

«كيكوكيك صاح الديك» هكذا تصرخ جدتي، نستيقظ ورائحة القهوة تملأ المنزل، فقبله الصباح والمذقة فالشنكليش والزيتون فالبايص والرحيل حتى العودة. لم أرهما، خضر وفاطمة، يوماً يتشاجران. رأيتهما يتعانقان ويتغنان. لم يعلّ صوته مرّة ولا هي بكت يوماً. فصار نموذج الزواج عندي أصعب مئات الدرجات.

كتبت هذا المقطع قبل ثلاثة أشهر من اليوم! اليوم؟ نعم! لا تاريخ لهذا اليوم، هو اليوم الذي ستقرأون فيه النصّ، والذي استطعت أن أكتب فيه، وحلّلت فيه آلية انتقال مشاعري وتخلّصي من الشعور بالذنب أو التقتّع. وهو اليوم أيضاً الذي صرت أقرب فيه إلى أبي.

هو اليوم الذي كتبت فيه هذه الجملة الشعرية: أبي! لماذا تحرقني عيونني؟ ألم تتعوّداً على البكاء بعد؟ وكيف ينبت العشب الأخضر على قبري وأنا أعاد فتحة كل مساء قبل أن أنام!

«طبّ الاختيار شبّ». هي العبارة التي طالما ردّدتها جدتي التي بلغت قرناً ونصف عقد من العمر. جدتي، من جهة والدي، حقّقت رقماً قياسياً في الحُرّف بل التّرف في الحُرّف.

أنجبت السيدة والدة الأب المصون ثمانية أولاد، أربع بنات وأربعة صبيان. وبقدرة قادر، أنجبت أختها العدد نفسه من الأولاد بالترتيب نفسه، وعليه كان الاتفاق غير الموثّق: «تزويع الأولاد لبعضهم البعض» حتى لا تضيع جينات العائلة الثمينة جداً. هكذا تحوّلت العائلة إلى مثلثات أحادية صعبة الفهم، وتتطلّب برمجة دماغية خاصة جداً.

ابنة عمي هي ابنة خالتي أيضاً. خالتي هي زوجة عمّي. ابن خالي هو ابن عمّي. وعمّي هي امرأة خالي! انطلاقاً من تنامي تشبيك القرابة، ومن تماهي الوجوه والشخصيات بعضها مع بعض، كنّا في عائلتي المعلولة المصغّرة، المتكوّنة من خمسة أطفال ووالدين، ثمرة زرع لا يخلو من العفن. لكنّه العفن الأقلّ نسبة من الآخرين! تزوّج خضر من ابنة خالته. نعم هو كذلك، لماذا الكذب؟ حين علم والدي على حين غرّة أنني سأرقص على المسارح وسأمثّل، لم يُبد أيّ رأي، أو لعلّه تجشّأ.

أدركت أنا بدوري أنذاك أنّه يثق بي، وأنّه فعلاً رمز من رموز الانفتاح، open-minded، للغاية، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لم يقلق عليّ. أبلغ والدتي أنني سأصبح بيروتيّة ولن أكون «عكورية». وأنا قلقت دائماً: ماذا إذا رأي أحدّهم ألبس «شورت جينز». ماذا إذا صدمتني سبارة ومثّ وأنا لابسة شورت جينز؟ سيراني أبي بشورت جينز وسيغضب مني لأنني مثّ بطريقة غير لائقة؟

أبي هو ربي. ربّ عائلتي ووليّ أمري. عضو سابق في المجلس البلدي في ضيعة تعشق الملل بدل الحياة. أبي

ويتحسّر على حاله، ولأنه كثير الكبرياء ينزلق تحت اللحاف ويعود للبقاء من صداعه المدمّي، صداع السكتة الدماغية وصداع الضجيج من حوله، ضجيج مستشفى يستهلك المريض حتى يشفى. يشفى ربما فقط كي لا يبقى وسط الضجيج!

المستشفى! يا إلهي مستشفى في عكار. يشبه مخيمات اللاجئين بظروفه الصحية، يشبه الحدود البرية بين الدول العربية، حيث الكثير من الزائرين والنفايات في كل مكان لا سيما الحمام، طبعاً مصنوع من البورسلان: كان أبيض اللون فصار رمادياً، تفوح منه رائحة كل أنواع المأكولات وتحولاتها إلى براز، وتنقصه المياه والمحارم الورقية، إذ إنه جورة تدفق فيها ما استطعت وتخرج.

الحاج (مرتين)، العسكري المتقاعد برتبة مؤهل أول، عضو سابق في المجلس البلدي، راعي الماعز قبل الغنم والبقرة، قبع في غرفة من الدرجة الثانية، واعتقد، والله أعلم، أنها الثانية تحت الصفر.

جاوره في الغرفة رجل من وادي خالد، وما أدراك ما وادي خالد! بل ما أدراك ما يعنيه رجل من وادي خالد! يا لسوء حظ والدي! نعم أنا كنت طبقية، وشعرت وللمرة المليون أنني أجنبية، إفرنجية (مفهوم الإفرنجي في عكار أنه أكثر علماً وجمالاً وقوة ويعرف كيف يعيش).

أطلقت كل الاتهامات التي خضعت لها ثلاثين عاماً ضدهم، استعملتها لأنفذ والذي من جحيم اللاتعقيم، أجبرت على أن أعشق الطبقة والعنصرية المتأصلة بين ضيع عكار والتي تتنافس بعضها بين بعض على من هو الأكثر حرماناً أو وسخاً أو خضرة وموتاً، ولا شك الأكثر عدداً من المجندين العسكريين فيها!

وحين هربت إلى سطح المستشفى ليلاً لأبكي وأدخن سيجارة عزاء لحالي دون أن يراقبني أحد، ويتهامس الناس حولي وينتقدوا ثيابي وشعري الأحمر، عدت لأجد عشيرة كاملة تأكل اللحم مع المريض والثوم والمشروبات الغازية، ويناول الحاضرون أبي القليل فالزيد وجنت! كان قد تعرّض لنوبتين قلبيةتين وجلطتين دماغيّتين، إلى التهاب البروستات، في يوم واحد!

يوم الفاجعات تلا مشاجرة عنيفة بيننا، الأولى من نوعها. كنت قد تبثت الحركة المدنية المطالبة بعيش أفضل، واعتلى صوتي الساحات العامة ككل اللبنانيين. كان هو يخشى من الانقلاب العسكري ويخاف من حرب أهلية ثانية، ومن انقطاع الشرايين بين المناطق، وانقطاعي عنه، وأنا ابنته المدللة والأصغر والأكثر قرباً وتفهماً، وأنا اليوم،

وفي ذلك اليوم بالتحديد، كنت قابعة في المستشفى أتأمله، لا، كنت أحدّق به وبالأنايب التي تخرج من يديه ووجهه وقدميه وقلبه، لم أستطع إنهاء النص آنذاك، لأنني كنت أريد أن أحفظ جسده ولن أدع ذاكرتي تخلو منه، وحفظته، حفظت عظامه، وتجاعيده، وشعر أنفه ورائحته، ورائحة العفن التي كانت تحاول أن تسيطر عليه، على فمه ولعابه.

كان الشعور بالذنب يقتلني، يغتالني، فما استطعت أن أغيب عني أو عنه، أجلس وأنتظر. أنتظر الحاضر كي يصبح ماضياً، ولم أستطع الصلاة ولا الدعاء ولا النذور. وفي حدّ أقصى استعنت بالبكاء الصامت وبالغضب من المستشفى والضجيج الهائل.

سابقاً. كفت جدتي أم الثمانين وغسلتها. وكانت أول مرة أرى كيف تنحت المرأة. وكانت أيضاً المرة الأولى التي أرى فيها كيف يختفي الثدي في العظم عند الكبر. وكيف تصبح المرأة إنساناً. حينها أصبحت أنا إنسانة. لأنني استيقظت قرب جثة في سرير واحد بعد أن مارست آنذاك فعل الصلاة.

فعلت ذلك عن سابق تصوّر وتصميم، وصرت أشرب من ذاكرتي البصرية حتى أشبع. أشبع من قدميه قبل أن تُبترا ومن وجهه قبل أن يُدفن، وشاهدته عارياً! غريب أن تشاهد الفتاة والدها عارياً، أو تساعد علي الحركة، ولكني أريد أن أثبت هذه الـ«داتا» في رأسي. سابقاً، كفت جدتي، أم الثمانين، وغسلتها، وكانت أول مرة أرى كيف تنحت المرأة، وكانت أيضاً المرة الأولى التي أرى فيها كيف يختفي الثدي في العظم عند الكبر، وكيف تصبح المرأة إنساناً، حينها أصبحت أنا إنسانة، لأنني استيقظت قرب جثة في سرير واحد بعد أن مارست آنذاك فعل الصلاة.

مستشفى في عكار كنت أريد أن أكثف التفاصيل، لأنني شاهدت جدّي مبتور القدمين وأُمّي تغترب له حفاضه، ورأيت كيف ينصهر العظم باللحم والجلد، وكيف يختفي أفق القدم، كنت أريد أن أكون مستعدة، وهو أيضاً كان يحاول بدوره أن يتأقلم مع الظروف الجديدة ومع ما يتطلب منه الاستعداد له. في هذه الفترة كان الشباك الزجاجي هو المدى الوحيد الذي ينظر إليه أبي. ينظر ويبيكي. يرى السهل ويتأسف

حسب قوله، رجله الوحيد الأوحده. فلقد حضر أبي مجازر صبراً وشاتيلاً ولملم الجثث وما تبقى منها، فلا يريد لابنته أن تصبغ ذاكرتها باللون الأحمر ذاته، ولا للذاكرة أن تحكم روزنامة العمر كله.

الجرس والروزنامة

تعجبنني هذه الجملة: ولا للذاكرة أن تحكم روزنامة العمر كله! تعيدني إلى الطفولة، إلى مدخل باب بيتنا الخشبي المدهون بلون أبيض متصدع، ودرج الباطون الذي يسبقه، ورنّة الجرس الكهربائي. كم كنت أعشقه! فالجرس إشارة إلى أنّ الكهرباء تزورنا ونخشى من غدرها ككل يوم، وأنّنا... لست أدري، لن أتفلسف، بصراحة، يكفي أنّ لدينا جرساً! الجرس يعني كابتن ماجد أيضاً، وطمطموم الشجاع، والحوث الأبيض ورمي وهايدي وهالة في البراري ونساء صغيرات، والحصن وصوت هادي شرارة الذي أقلده، والأهم الأهم أنّه بعنب السيدة أم عمار.

نعم في الشمال كانت أمّ عمار، ماري دياب، مقدّمة برامج في التلفزيون العربي السوري الذي احتلته اللبنانيات بالدعايات والسوريات بالمسلسلات واليابان بالكارتون والروس بالأولمبيات. ما يطلبه الرياضيون!

إنها الروزنامة الورقية وقد علقها على الحائط قرب التلفاز. كل يوم تتجدد بسلخ ورقة منها ويوم من عمرنا. هل تذكرونها؟ تلك التي في خلفية أيامها لائحة من المقولات والأطباق والنكات والحزازير والمثل العليا. زوادة لليوم بكامله لصحة الروح والجسد. ومصدر للتسلية لا مثيل له.

على الحائط قرب التلفاز. إنها اللوحة المعاصرة، فكلّ يوم تتجدد بسلخ ورقة منها ويوم من عمرنا، هل تذكرونها؟ تلك التي في خلفية أيامها لائحة من المقولات والأطباق والنكات والحزازير والمثل العليا، زوادة لليوم بكامله لصحة الروح والجسد، ومصدر للتسلية لا مثيل له. كيف لا؟ وقد علق والدي السنة المقبلة كلها على حائطنا وثبتها بالمسمار، هو كان يجلب الزمن معه، يثبتته ونتحكم به! هكذا كنت أعتقد أنّنا سنفعل بقيّة العمر! يثبت أبي الزمن، و«أشخ» أنا عليه ليلاً. أن أفكر هكذا منذ طفولتي يزيدني استغراباً الآن.

النوم على البطن

أنظر موعد النوم، أنام على بطني، أيّ بطن هذا؟ إنه «كرش». يشخر خلال الليل، البطن يعلو وينخفض، وترتفع معه درجة الاسترخاء وصمت الليل وسواده.

- فاطمة

- مم

- قومي

- شو؟

- قومي

- عمّلتها

- إيه

- يا الله هلّق

- إيه

- متّرمّتها (مؤقتتها)

- ما تضربها

- هلق

- إيه

- قمت قمت

وأنا أسمع كل هذا وأكمل النوم. على بطن والدي الذي يعود لاستقبالتي.

لطالما اعتقدت أنّ تحكّمه بالزمن قويّ، كحين غيابه عتّا وعودته محمّلاً بالكثير من الأشياء. كنت أعتقد أنّه تأخّر في المجيء لأنّه يجلب معه الكيسين السحريين الغربيين، البرتقال والبصل، نعانق الأول ونشتم الآخر، ونأكل كالضباع كل ما نستطيع. وكى يغرينا أكثر، كانت الجيوب تمتلئ بالحلويات. أصلاً كان الزي العسكري بالنسبة لي منبعاً للسكاكر والحب واللعب، وعلكة غندور تحديداً، حتى لو كانت حارة مشوّهة الملامح بسبب طول الطريق.

كان يأتي بالكيسين اللذين يتحوّلان إلى «ليف» الاستحمام، فما تحبّه سيؤلمك بعد قليل! أول درس حياة

الجرس يعني أنني أستطيع أن أتابع السيدة ماري دياب تقدّم لنا رقصاً على الجليد، لمدة عشر دقائق، وبلاط أرضي جاهز، وجواربي أيضاً، أرقص وكلّ الجمهور يصفّق لي، الراقصة تنهمك في الدوران وأنا بالإحياء حتى الدوران. وهناك دائماً هناك، وظيفة للجرس الأنيق وصوته الحادة، الأكثر حدّة وحبّاً. يدقّ الجرس، أركض، أستعمل فراملي العضلية، أفتح الباب، أرى قدمين ببذلة عسكرية وحزام، وأنظر إلى الأعلى حتى تؤلّمني رقبتني، إنّه أبي! جلب معه لوحة البيت الوحيدة، اللوحة المقدّسة التي يأتي بها في بداية كلّ عام، إنها الروزنامة الورقية وقد علقها

تعلّمته والله يشهد على ما أقول، وكلّ بداية تعني اقتراب النهاية، والعكس صحيح.

حاضري على البلاط وماضيّ على بلاط آخر، ووعبي لآواع الآن واللاوعي يعني بمقدار عدم جهوزيتي لفقدانه. أتصل بي أخي ذلك اليوم، مردداً أنّ الوالد أصرّ وألح على أن يراني فقط اليوم، تحسّبت من أنّه يودعني، ذهبت وجالسته حتى نمت مستيقظة واستمررت بالنظر إليه فيما استمرّ أبي بالنظر عبر الزجاج كمن يقلّب في بانوراما حياته وتدمع عيناه.

أريد أن أرى البحر

«أريد أن أتوقّف عن العمل، سأخذ أمك إلى بيروت، إلى سينما سكالالا إلى الجنوب، إلى وادي رام، إلى كثير من الأماكن التي حلمت أن أزورها. أريد أن أخرج، أن أجلس على شرفة منزلي، أن أرى أرضي وزرعي، أريد أن أرى البحر أيضاً...»

- هل تذكر البحر ومشوار البحر السنوي يا أبي؟

- نعم!

- تضعنا حوالى العشرة أطفال في السيارة، وتسوق بنا.

- نعم!

- ننزل الشاطئ، نغيّر الملابس، ننزل الماء، فيما تتناول أنت ووالدتي البوظة العربية.

- نعم!

- وعندما تنتهي البوظة، سرعان ما تشعر بالحر فتشير لنا بيدك الصارمة أن نخرج من الماء وينتهي المشوار!

- نعم! تبّاً لك ولذاكرتك!

يضحك، يضحك أبي، وتتشعب ذاكرتي وتغوص كما عيناى. صرت ابن بطوطة، وصرت أرحل عبر الزمن وأعود إلى الحاضر وأخاف من عدم جهوزيتي للمستقبل. «أذهبي، لا توقفي حياتك، واعبريها، لا تتركي شيئاً تريدته ولا تفعلينه، كوني مغامرة وتألّقي... لا تؤجّلي، فلا أحد سوف ينتظرك».

كم كنت أريد أن أسمع هذه الكلمات من قبل، وكم كنت أودّ أن أسترجع المغامرة متي، والجريئة في. فأنا يا والدي مزيج من جنونك وعصاميّتك، ومن أمراض أُمّي ونكرانها وقوقعتها على الذات. كم كنت محظوظة أنّك عايدتني الثلاثين هكذا، وأنك الآن فقط عدت كما كنت، كما كنت أراك أنت، حين كنت أنا بعيدة عنك، وكنت أنت كما أنت.

حقاً هو ليس إلهاً، وكم انتقدته وكرهته أحياناً، لكن حين تحضر الحياة هكذا بكثافة تتداخل كل التصنيفات والمراحل.



تتضارب الأولويات وتنتهي كل أنواع المهن، تتفق أنا وهو على أننا مدمنان معا على العصامية وكلمة «لا».

أول «لا» قالها هو لوالده، «لا» لن أبقى في المزرعة، وهرب إلى أولاد عمه.

أبوه الذي خلف إمبراطورية وراءه من لا شيء، وأولاده من بعده ومن بينهم خضر، اعتقد أنه هو أيضاً الأفضل. فمحمود قصته وحدها تتطلب نصاً آخر، والعم الأكبر علي كنت أعتقد أنه جدي وأرفض ذلك لأنه سمين وقصير، فيما خالد لا أفهم عليه أي كلمة، وأعتقد أن الأفق ينقصه والسماء لا تحتضنه.

الأنكى أن عدم محبتي للعائلة، وبصياغة أخرى، عدم تقديري ربما، أو بعدي واختلافي عنها، سهل عليّ غوي وتصالحي مع أمراض النفسية لدرجة أنني بحث ببعضها، ویدرجات سطحية منها، أمام أبي أخيراً. بحث بها واجتزت أشواطاً سريعة من حياتي، ومن عقدي. أنا لا أملك الوقت ولن أبوح بما يعذبه، لن أقول له كيف تكسرت عظام وجهي، وأنتي لم أقع عن الكرسي ولم أصطدم بالخزانة بل ضربت. ضربت حين حاول أحد ممارسة السلطة بغيابه، فعلاً لا يليق الصولجان بأي رجل ولا الأمومة بكل امرأة ولا الحكمة بكل عمر.

لن أقول له كيف تكسرت عظام وجهي. وأندس
لم أقع عن الكرسي ولم أصطدم بالخزانة
بل ضربت. ضربت حين حاول أحد ممارسة السلطة بغيابه. فعلاً لا
يليق الصولجان بأي رجل ولا الأمومة بكل امرأة ولا الحكمة بكل عمر.

أجبر والدي على ملازمة المنزل ومغادرته بالسيارة مرة أسبوعياً ليغير النمط، ومن كان يخزن التبغ العربي في علب الخليل تحت السرير، توقف بكلمة واحدة، فالقلب لا يتحمل.

لعبة الموت

في الحقيقة، أبي جبان أيضاً.
يا للهول! هذا العصامي المارد، يختبئ من الإبرة، من كل دواء، في الزاوية، من أي بداية وجع، يرفع يده ويهرول، يعتقد الجميع أنه قد خرف وهو يخاف الألم قبل أن يأتي. وعندما يزوره صديقه تختفي عنه ملامح التعب ويبدأ بالكلام والمديح والسياسة والذم.

لما غادر الرفيق، أه يا أمي! يا أمي وينك!
في الحقيقة يصعب التصديق. يصعب التصديق أننا متشابهان لهذه الدرجة: لون البشرة، العينان وأصابع القدمين، الرجلان، اليدين، والحمد لله أنني لا أملك أنفه وليتني أخذت منه غمازتيه. نتشابه أيضاً بمدنيتنا ونظرتنا إلى العالم وأحياناً إلى الدين: أعترف أخيراً بأن كل دين مسيس، وكل فكرة هي دين، وأننا بالدين واختياره أحرار، وأنه يضعف أمام الناس والنميمة فتذهب عنه هذه الأفكار ويعشي مع القطيع كي لا يعاكس التيار.

في المرض تحضر الذكريات، وفي الصحة يحضر المستقبل والأمنيات. في المرض يصبح كل ذي عسكري بدلة مدنية وكل عيب مصارحة، ويصبح كل مكتوم مصارحة.

تقع الكارثة. تدرك أنك وحدك حقاً، لك أهل يحبونك وبيت يضمك إن لجأت إليه، ولكن لا مرايا تعكس صورتك هناك. لا قناع حتى تلبسه لهم، لا لباس، ترى نفسك شبح نفسك هناك.

تدرك أن صورة العائلة الجميلة والكبيرة، التي علقتها عوضاً عن الروزنامة القديمة، صورة تضم جميع الأحفاد، فيها الشقيقان وزوجاتهما والأبناء والبنات، والأختان والصهر الأوحدهم بنت، والأب والأم، وأنا تائهة بأي زاوية أركن.

حالياً قرب والدي. غداً قرب أمي حين تحتاج إليّ. بعد غد قرب الأخت. ومتى سأركن أنا قرب ناي؟
تدرك أنها صورة، لحظوية، أنية، فانية، غير طويلة الأمد، وأن السلطة إذ تضمك، عنك تبعدك، وأن الأنا لولاه ما تحققت ولولا مرضه ربما لما انصهرت فانسلخت، وأني الآن جاهزة، ربما، إلى حد ما...

وأدرك الآن أن لي ولأبي لعبة تجمعنا منذ الطفولة: «يا عباد الله وخذوا الله، انتقلت إلى رحمته تعالى، المرحومة مريم خضر حمود، وإذا كنت عنجد يعني عنجد عنجد ميتة ارفعي إيدك اليمين لفوق! إذا كنت عنجد عنجد ميتة، ارفعي إيديك اليمين! وإذا كنت عنجد أربع مرات ميتة، ارفعي إيديك اليمين!»، «ماتت ماتت ماتت»، «ويغرني»، وأستيقظ من الموت لأموت وأستيقظ ضاحكة. حتى لعبتنا يا أبي أو «الكود» الخاص بنا ينبع من الموت، والموت لا ينبع إلا من الحياة. قدمت حياً، أو مهما دمت فدم ضاحكاً.

يتبع

جندي سوري في لبنان مدّ يدك لنصافحك، يا غانم!

لينة عطفة

شاعرة من سورية.

لم أحزن على رفاق سلاحي الذين قُتلوا في قضايا تهريب ودعارة وسُمّوا فيما بعد شهداء. لم أحزن على البلد الذي عَفَسوه.

هذا قدر الجمال منذ الأزل: التّعفّيش.

حزنت مرّتين في لبنان، مرّة عند انتهاء خدمتي الإلزاميّة، ومرّة قبل انتهاء خدمتي بعام.

كنت في بيروت في فرن الشبّاك، الساعة الحادية عشرة ليلاً أمتشق بارودتي وأمشي مع صديقي نشرب الجعة ونقرط الفستق ونثرثر، فجأة سمعنا صوتاً مربعاً، صوت صراخ وعويل وتوسّلات، صوت بكاء فجائعي، لا أدري إن كان ذلك الضّيق في الصدر والقشعريرة في الأطراف تُسمّى خوفاً.

ركضنا باتجاه الصوت، كان خارجاً من قبو، نزلنا بسرعة ونحن نرتجف ونبتق مثل المجانين قبل أن نصل: «إيدك لفوق ولاك... هاتوا الهواوي».

سكنت كل الأصوات، ارتفع من داخل القبو صوت: «أهلاً بالشباب»، توقّفنا قليلاً بأنفاس مقطوعة، خرج شاب في العشرين، مجنّد سوري مثلنا عرف من لهجتنا أننا سوريون، اقترب وقال: تفضّلوا.

دخلنا بثقة وقوّة، إنهم مجنّدون سوريون مثلنا لكنهم في منطقتنا. كانوا ثلاثة مجنّدين يحاصرون امرأتين وثلاث فتيات وخمسة أطفال.

كانت وجوه المحاصرين المساكين تنضج رعباً. نظرت في أعين الجنود الثلاثة وهمست لقائدهم: ما الأمر؟! فقال بابتسامة تنتن: نسوان، قليل من المتعة. تستطيعون مشاركتنا. شعرت أن حنجرتي تضخّمت وأني صرت بجعة من فرط المرارة، اقتربت من الفتى بهدوء، أحطته بذراعيّ ودمدمت: الآن سوف تذهبون من هنا بسرعة لأنّ ثمة مؤازرة قادمة، نحن سوريون

أجمل شيء أنتقيه بعد خدمة اثنين وستين عاماً في هذه الحياة القاحلة، هو ما عشتّه أثناء خدمتي الإلزاميّة في لبنان. يأخذ الرّفاق إجازة ويذهبون إلى سورية، وأنا أخذ إجازة لأتمتّع بجنة النعيم هنا! لبنان الأخضر بمشروباته وحشيشه وترفه وقحباته الرائعات. نعم! أنا المجنّد غانم أشرب وأدخّن وأمارس الحبّ أراقب رفاق السلاح كيف يعفّشون ذلك البلد الرّائع.

يسرقون كلّ شيء، ينسلون أسلاك الكهرباء من الجدران، يقتلعون البورسلين والبلاط، يحتطبون الأرز، يهرّبون التبغ والكحول والآثار، يهرّبون حنفيات الماء ومقابض الأبواب. ثمة وطن يهرّب في صناديق التبغ! صاحبي الذي تأخّر عن غزوة أصحابه لم يجد شيئاً ليعفّشه فصادر كلباً شاردًا، وقال لي ضاحكاً: يا أخي، حتّى كلابهم تختلف عن كلابنا. بلد اقتصاد الفنادق والسياحة كلابهم كلاب سياحية خمس نجوم. أنا غانم المجنّد العادي جدّاً كنت طفلاً شقيّاً ومراهقاً عنيداً ومواطناً يقف في طابور الفرن ست ساعات، عاشقاً يواعد نصف فتيات الحيّ ويحبّ أمّه فقط، طالباً جامعياً يكتب الفقرات المهمّة من الكتب بالإبرة على ورق السجائر ليغشّ بسلاسة وينجح بدرجة ممتاز.

ولا شيء سوى أنّ أمّي توجّهت إلى القبلة ودعت ربّها: الله يوفّقك بعسكريتك يا ابني!

فكان أن استجاب الله وكانت خدمتي في لبنان الأخضر، أزقته خضراء، بحره أخضر، شوارعه خضراء، حشيشه أخضر، مواخير خضراء، إنّه بلد الخضوبة.

أطير ويصير خيالي أخضر وأعود إلى عاطفة الخلق الأولى التي كنت عليها. لبنان يهيج الغرائز مثل قراءة الشعر والرواية وسماع الموسيقى. إنّه بلد له أثر كحولي!



ونُحسب على أنفسنا، لا داعي لفضيحة سوف تودي بك مع هذين الاثنين.

انسحب الثلاثة بسرعة دون ضجيج، التفت إلى المساكين المتجمّدين رعباً، كنت أتصبّب عرقاً وخجلاً. «أنا أعتذر» - خرج صوتي على شكل دمعة كبيرة - «أنا تحت أمركم جاهز لأية مساعدة».

أخرجتهم من القبو، طلبوا أن أساعدهم في عبور الجسر، ساعدتهم. أوصلتهم حيث يريدون، شكرونا وبكوا، تقدّمت أكبرهن صوبي عانقتني وقالت: شو اسمك يا ابني؟

- غانم يا سيدتي.

- المسيح يحميك، العدرا تحرسك، الله يوفقك يا غانم كيفما توجّهت.

رجعنا إلى منطقتنا ونحن في ذهول تام، لولا صدفة مرورنا قرب ذلك القبو اللعين كنّ الآن مغتصابات وغالباً قتيلات مع الأطفال الخمسة.

هكذا كان قرار العقاب على ما فعلته: خمسة عشر يوم حبس ومحروم من الإجازات حتى نهاية الخدمة. قابعا في عتمة الزنزانة أقرقش خبزة يابسة. أهمس بانتصار: الحمدلله أنه لم يغير لي مكان خدمتي ولم ينقلني. بقيت في لبنان الأخضر... زنازينه خضراء.

غفوت مرغماً تحت وطأة الكوابيس واستيقظت مذعوراً على سطل ماء اندلق عليّ، عسكريان اثنان اقتاداني إلى مكتب العقيد.

دوت صفعته على خدي وبعق في أذني: اسمع يا مناضل يا كتلة الشرف اسمع، ورفع صوت المذيع عالياً: مُد يدك لنصافحك يا غانم، أنت عنوان الشرف والأخلاق يا غانم، أدخل رفاقك إلى مدرستك يا غانم.

دوت صفعة ثانية وثالثة على خدي وبعق العقيد: مدرسة الشرف يا عرص؟! هذه إذاعة الكتائب يا حفير، كتائب بيت الجميل، تستشرف على حساب رفاق سلاحك؟! يا حمار يا عتي يا عاهر. سوف أعلمك الشرف على أصوله، خمسة عشر يوم حبس ومحروم من الإجازات حتى نهاية الخدمة، خذوه.

قابعا في عتمة الزنزانة أقرقش خبزةً يابسة، أهمس بانتصار: الحمدلله أنه لم يغير لي مكان خدمتي ولم ينقلني. بقيت في لبنان الأخضر... زنازينه خضراء.

أن نرسم بيروت من روايات مستأجريها

استوديو أشغال عامة

أشغال عامة هو
استوديو يجمع عدداً
من المعماريين/
ات ومصممي/ات
الغرافيك والباحثين/
ات، أسسته كلُّ
من عير سقسوق
ونادين بكداش في
العام ٢٠١٢. في
«أشغال عامة»،
نجد قيمة فعليةً
في الربط بين مجالي
التصميم والبحث
من جهة، ومجال
الدراسات المدنية
والعمرانية من جهة
أخرى. ونهدف من
خلال ذلك إلى تناول
الشؤون العامة
وقضايا الحق في
المدينة بشكل نقدي،
وسياسي وخلق.

المزمع إنشاؤه مع إقرار قانون الإيجارات الجديد، كما أن هناك «تحوّلاً للمصارف التجارية اللبنانية إلى الموقع المتشدد في إعطاء القروض السكنية، وذلك من منطلق زيادة عدد حالات عدم القدرة على دفع المستحقات» (جريدة النهار، صفحة الاقتصاد، مورييس متى «أفق القطاع العقاري ضبابية في غياب السياسة الضريبية» ٢١ تشرين الأول ٢٠١٥).

ضمن هذا السياق، تمّ تطوير مشروع «أن نرسم بيروت من روايات مستأجريها» والذي نحن بصدد العمل عليه، يمثل المشروع مبادرةً لمناقشة إمكانات السكن في بيروت، وفهمها ضمن سياقها التاريخي والاجتماعي، فيه، نركّز على تجارب المستأجرين القدامى في تأمين السكن، وعلى المحاولات المستمرة لإخلائهم. يهدف المشروع إلى إعادة صياغة النقاش حول قوانين الإيجار والسكن، وطرح وجهات نظر جديدة انطلاقاً من مفهوم الحق في المدينة، من أجل مواجهة الضغوطات القائمة، وإيجاد مساحةٍ لمناهضة السياسات الحالية.

استمددنا العنوان الأساسي لهذا المشروع – الإيجار – من الأهمية التي نجدها في بلورة مفهوم للسكن وللحق في البيئة المبنية والطبيعية لا يتطابق بالضرورة مع المفهوم الحضري للملكية الفردية والذي أيضاً لا يستطيع أن يؤمّن حاجة الناس، على اختلافهم، إلى السكن اللائق.

منهجية المشروع تعتمد على إشراك الشباب والطلاب من مختلف الأحياء والجامعات، في عمليات البحث والتفكير والإنتاج، من خلال ورش عمل عن عدة أحياء سكنية في بيروت، تمّ اختيارها بسبب كثافة المستأجرين القدامى فيها ولكونها أحياء «شعبية».

منذ إقرار قانون الإيجارات في نيسان ٢٠١٤ والنقاشات التي تلتها، بدا واضحاً أن هناك أزمة حقيقية للسكن في لبنان، وفي بيروت تحديداً. كما ظهرت إلى العلن المعاناة التي يعيشها سكان بيروت وضواحيها في الوصول إلى السكن الكريم، وذلك جرّاء السياسات الإسكانية المتعاقبة منذ أوائل سنوات التسعينيات.

بالرغم من هذه الأزمة، ظلّ النقاش حول قضية الإيجارات القديمة والقانون الجديد يتمحور حول ثنائية المستأجرين مقابل المالكين، في حين يُخفى دور السلطات العامة في نشوء هذه الأزمة وفي مسؤوليتها لضمان حق السكن من خلال وضع سياسات إسكانية تأخذ بعين الحسبان أوضاع السكان كافةً.

غير أن السياسات العامة التي تبنتها السلطة اللبنانية والقائمة على السوق والاستثمار العقاري، تسببت في تشكيل مستقبل مديني لا يراعي القاطنين في المدينة على اختلاف قدراتهم وتنوّع حاجاتهم، وأدت إلى الحدّ من إمكانية السكن في بيروت، وإلى إخلاء العديد من الأسر منخفضة ومتوسطة الدخل، من البيوت والأحياء التي لطالما عاشت فيها واستمدّت سبل العيش منها. وتمّ الترويج لفكرة أن السوق قادر على تأمين السكن للجميع، فاختزلت الدولة «سياسة الإسكان» وحولتها إلى زمرة محدودة من الوسائل القائمة على السوق، مثل القروض السكنية المصرفية وغيرها من التسهيلات من القطاع الخاص، علماً أن العرض السكني الموجود في السوق، إن كان للإيجار أو التملك، غير متاح لأكثر من ٧٠٪ من العائلات اللبنانية، وهذه لا يتجاوز معدّل دخلها السنوي ١٠ آلاف دولار (أرقام تستند إليها وزارة المالية في دراسة لها عن عجز الخزينة في تسديد بدل الإيجار المثل للمستفيدين من الصندوق

أي أنّ سكّانها من الطبقات الوسطى أو دون الوسطى سكنوا أحياءها وبيوتها باستمرار على مرّ ثلاثة عقود على الأقل. هذه الأحياء تتغير جذرياً، لكن ما زال يوجد فيها نسيج عمرائي واجتماعي متصل بتاريخها، غير أنه معرّض أيضاً إلى تغيّرات عنيفة، ورش العمل تتوزّع على الباشورة، الطريق الجديدة، البدوي، المصيطبة، مار مخايل/الروم، الشياح، وكنل سكنية متفرقة (في أحياء المدوّر، رأس بيروت، عين التينة، الناصرة، المزرعة والبسطة). نعرض هنا بعض نتائج ورش العمل التي تم إنجازها: الباشورة، الطريق الجديدة، البدوي والمصيطبة.

حيّ الروم / مار مخايل

تكوّنت منطقة الرميل، الممتدّة من هضبة الأشرفية إلى شارع مار مخايل، وشهدت نمواً عمرائياً وسكائياً في وقت متأخّر، وذلك مقارنةً مع الأحياء «البرجوازية» القديمة الأخرى الكائنة في محيط وسط بيروت التاريخي. عموماً، ظلّت هذه المنطقة ذات أراضٍ زراعية حتى فترة الانتداب الفرنسي، باستثناء الحيّ المحيط بمستشفى السان جورج والمنطقة السفلى، وذلك عقب تأسيس السكك الحديدية ومحطة قطار مار مخايل في العام ١٨٩١. وأدّى نشاط الإرساليات الفرنسية كالمدارس والمستشفى والكنائس فيها إلى جذب الكثير من سكان المناطق المجاورة إليها، أضف لجوء الأرمن من مخيم الكرنيتينا إلى الحيّ. ومع إنشاء محطة الترامواي في أول شارع مار مخايل، شهد الشارع خلال سنوات العشرينيات تصاعداً كبيراً في وتيرة التوسع العمراني. بعد الاستقلال في سنوات الأربعينيات، وتحديدًا بعدما تحوّل شارع مار مخايل إلى شارع تجاريّ وحرفيّ بامتياز، وبعدما انتقلت إليه الكثير من العائلات منخفضة الدخل والعمال للاستفادة من الحركة التجارية، عمد بعض مالكي الأراضي الموازية للشارع (معظمهم من الروم الأرثوذكس) إلى بيع أراضيهم أو إخلاء بيوتهم وتأجيرها للقادمين الجدد من الأرياف. وهؤلاء بدورهم أخذوا يشترون الأراضي وينتقلون إلى التلال المحاذية في الأشرفية، مثال حيّ الروم. وهكذا أصبحت مار مخايل منطقة سكنية للفئات الاجتماعية متوسطة الدخل والفقيرة. لكنّ تلة حيّ الروم بدورها - وبعدما كانت مصيفاً للعائلات الثرية - استقبلت أيضاً الوافدين الجدد إلى المدينة، وذلك ابتداءً من سنوات الثلاثينيات عندما

قدم إليها عمّال سكة الحديد أو العاملون في المرفأ أو موظفو شركة كهرباء لبنان ومعمل البيرة حتى سنوات الخمسينيات والستينيات عندما بدأت «الروم» تشهد زيادة قويّة في عدد السكان، ونقصاً في الخدمات العامة الأساسية. اليوم عدد كبير من مبانيها يعاني من انعدام الصيانة ويعاني السكان من عدم الاستقرار والتهديد بالإخلاء بسبب موجة الاستثمار العقاري والخدمات التي حصلت في شارع مار مخايل خلال السنوات العشر الماضية. وتشير دراسات إلى أنّ ٧٥٪ من سكان الرميل هم من المستأجرين، كما أنّهم من أصحاب الدخل المتدني. وعلى الرغم من بعض التحوّلات في الملكية، ما زال حيّ الروم تحديداً محافظاً على نسيجه السكاني والعمراني. وبسبب قلّة المساحات العامة فيه تاريخياً، يميّز بكثرة الفسحات المشتركة بين الأبنية، الأمر الذي أدّى إلى خلق نوع آخر من المساحات العامة تتمثّل بالممرّات والشوارع الضيقة والأدراج العامة، فتشكلت فسحات عامّة للقاء والتسامر على هذه الأدراج.

المصيطبة

إنّ المنطقة التي تسمى اليوم المصيطبة كانت امتداداً صخرياً لما كان يُسمّى البريّة. وينحرف اسمها من كلمة «مصطبة»، فقد كانت - كما حالها اليوم - مرتفعة عن مستوى المدينة القديمة وبعيدة عن بحرّها. تشير المصادر إلى أنّ المماليك حوّلوا إلى قاعدة عسكرية لمحاربة الصليبيين في العام ١٢٩١، وضمت أبراجاً عديدة عسكرية ومدينة سُمّيت بأسماء عائلات للدفاع عن بيروت: برج أبي حيدر، برج بيّهم، برج سلام. قبل أعمال التنظيم وشقّ الطرقات التي نفّذتها سلطات الانتداب الفرنسي، كانت المصيطبة عبارة عن أراضٍ كبيرة من الصبار. وبعد فتح سور بيروت القديمة وخروج العديد من العائلات منها خلال سنوات العشرينيات والثلاثينيات، أخذت العمارة تنطلق في قرية المصيطبة من مساكن وبيوت في الأراضي المحيطة بأطرافها. كانت المصيطبة وبرج أبي حيدر مصيفاً للعائلات البيروتية من رأس بيروت وأحياء أخرى لكونها منطقة مرتفعة مشجّرة ولأن مناخها معتدل. وكانت العائلات المسيحية تشكل جزءاً كبيراً من مالكي الأراضي والسكان. أرثوذكس المصيطبة هم، عموماً، ملاكو عقارات وسطى وكبرى. تملكهم للأراضي

بدأ مع بداية سنوات العشرينيات عندما قامت وهبت سلطات الانتداب الفرنسي الأراضي إلى عائلات الروم الأرثوذكس في منطقة المزرعة، أمّا السريان، فخلال سنوات العشرينيات أتت عائلات سريانية من تركيا هرباً من المجازر، وسكنوا في المصيطبة حيث قدمت لهم السلطات الفرنسية أراضي وأسسوا مدرسة مار سواريس وكنيسة مار بطرس وبولس.

في بداية الخمسينيات، ترك العديد من العائلات قراهم في الجنوب ونزلوا إلى بيروت. بعد نكبة فلسطين التي كانوا يقصدونها للعمل أتوا إلى بيروت وعملوا في المرفأ وفي أعمال البناء وعمال نفايات في بلدية بيروت واختاروا المصيطبة للسكن فيها.

القسم الشمالي من المصيطبة معروف بمنطقة «آل سلام»، العائلة التي كانت تملك معظم العقارات والأماك في المنطقة. كانت منطقة ذات بيوت تشبه القصور، وتلكها عائلات سنّية من بيروت، وحولها مساحات من البساتين. كانت تلك العائلات السنية متوسطة الدخل، ويعمل معظم أفرادها موظفين في مرفأ بيروت وشركتي الكهرباء والمياه. وكان قسم منها يملك إصطبلات في حي العانوتي القريب من قصر سلام، لتربية البغال المستعملة في نقل البضائع والخشب من المرفأ إلى سوق النجارين والأسواق التجارية الأخرى.

في بداية الخمسينيات، ترك العديد من العائلات قراهم في الجنوب ونزلوا إلى بيروت، بعد خسارة فلسطين التي كانوا يقصدونها للعمل. أتوا إلى بيروت وعملوا في المرفأ وفي أعمال البناء وعمال نفايات في بلدية بيروت، اختاروا المصيطبة لأنه كان فيها ما يسمى ببيوت «الدار» التي يتكوّن الطابق الأرضي الرملي فيها من غرف متعدّدة كان بإمكانهم استئجارها بشكل تشاركي بين عائلات عدّة.

هذه العوامل جعلت من المصيطبة منطقة متنوّعة وذات تلاحم سكني اجتماعي، إلّا أنّه لم يستمرّ من دون تحديات، لا سيما بعد شقّ طريق سليم سلام في العام ١٩٧٢ ثمّ تأثير سنوات الحرب الأهلية.

الطريق الجديدة

تعرّف الطريق الجديدة تاريخياً على أنها المنطقة الممتدة

من ثانوية المقاصد في المرح من جهة الشمال حتى آخر شارع صبرا من جهة الجنوب، قبل أن تعرف العمران منذ نحو نصف قرن، كانت تسمّى تلة زريق نسبةً إلى إحدى العائلات المسيحية المعروفة بآل زريق التي كانت تملك مساحة كبيرة من التلة المحاذية لمنطقة المزرعة والتي كانت تعرف من قبل باسم مزرعة العرب. وبسبب اتّساع هذه الهضبة الرملية وخلوها من السكان والعمران، كان البيروتيون يتخذونها متنزهاً ويقصدونها مع عائلاتهم لقضاء عطلة الأسبوعية. بدأت عمليات البناء والسكن في منطقة الطريق الجديدة في أوائل القرن العشرين، تحديداً مع بداية مرحلة الانتداب الفرنسي عندما انتقلت إليها عائلات من المدينة القديمة. في ذلك الوقت، كان يغلب الطابع الزراعي على المنطقة وكانت تستخدم لتربية الحيوانات والماشية. مع بداية سنوات العشرينيات، وهبت سلطات الانتداب الفرنسي أراضي في الطريق الجديدة إلى بعض السكان الروم الأرثوذكس القاطنين في منطقة المزرعة شمال الطريق الجديدة. خلال سنوات قليلة، فرّز المالكون الجدد العقارات الكبيرة من عشرة آلاف متر مربّع إلى عقارات صالحة للبناء. وأخذت العائلات التي انتقلت من المدينة القديمة أو البسطة تشتري قطع الأرض المفرزة وتبني عليها بغاية تحسين وضعهم السكني. في العام ١٩٣٥ أقامت فيها سلطات الانتداب سجنًا شامي سجن الرمل وتم ربطه مع المدينة من خلال طريق واحد: الطريق الجديدة.

مع توسّع العاصمة في الثلاثينيات، قدّمت إلى الطريق الجديدة عائلات من إقليم الخروب بحثاً عن فرص العمل والدراسة في العاصمة. في العام ١٩٤٦ نزح الكثير من عائلات الساحل الفلسطيني إلى الطريق الجديدة. كان الحي حينها يعتبر منطقة عمرانية جديدة مع توفر مساكن غير مشغولة. مع توافد العائلات أنشئ الملعب البلدي ومطار بشر حسن وعدد من الخدمات العامة. إلى جانب هذه العائلات التي تسكن الحي منذ أكثر من سبعين سنة، هناك سكان استقروا في المنطقة في سنوات الستينيات مع تأسيس جامعة بيروت العربية. حينها تغير طابع الحي ليستقطب طلاباً لبنانيين وعرباً سكنوا في المنطقة وساهموا في تنوع السكان وإنشاء المقاهي. أما بين عامي ١٩٦٩ و ١٩٨٢، فقد كان تأثير المنظمات الفلسطينية قوياً في الحي. وكانت منظمة التحرير الفلسطينية هي التي توفّر خدمات كالمياه والكهرباء في الحي. وبعد انسحابها عام ١٩٨٢، عانى



الحي من نقص حاد في الخدمات. حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية، كان دور الدولة اللبنانية شبه غائب، مما أفسح المجال أمام الجمعيات، خصوصاً الإسلامية منها، لأن تلعب دوراً أساسياً في تقديم الخدمات والمساعدات للعائلات المحتاجة.

البدوي

يقع حي البدوي على حدود بيروت الإدارية من جهة الشرق، فهو آخر حي ضمن المنطقة العقارية التابعة للأشرافية حيث يشكل نهر بيروت فاصلاً بينه وبين المنطقة التابعة لبلدية برج حمود. ومنطقة البدوي تُعرف تاريخياً على أنها المنطقة حول شارع خليل البدوي الممتد بموازاة نهر بيروت من تلال كرم الزيتون حتى شارع أرمينيا. قبل إنشاء شارع خليل البدوي، كانت المنطقة عبارة عن تلال حرجية وزراعية تمتد من خط سكة الحديد شرقاً نحو نهر بيروت.

منذ أن بدأ العمران في المنطقة، كان حزب الهنشاك الأرمني فاعلاً فيها. مع اندلاع ثورة ١٩٥٨ وقف الحزب إلى جانب اليسار اللبناني معارضاً الرئيس كميل شمعون. حينها تحولت منطقة البدوي إلى خطوط تماس. واثراً الصراعات السياسية التي نشبت بين حزبي الطاشناق والهنشاك، رحل داعمو الطاشناق من منطقة البدوي باتجاه برج حمود، فتحوّل عدد من البيوت إلى مساكن شاذرة، انتقلت إليها وسكنتها لاحقاً عائلات مارونية كانت قد قدمت من الشمال إلى بيروت بحثاً عن العمل.

في بداية الحرب الأهلية، تحديداً في عام ١٩٧٦، قُصفت منطقة البدوي وتهجر بعض أهاليها. عندها أيضاً قدم سكان جدد إلى الحي وأخذوا مكانهم. خلال الأعوام القليلة الماضية، وقبل أن تتحوّل الطوائف الأرضية للأبنية السكنية إلى مقاه ومطاعم في شارع مار مخايل، كان انخفاض سعر متر الأرض وكلفة الإيجار في الحي مقارنة مع مناطق أخرى في الأشرافية جاذباً لسكان جدد. إذ اعتبرت البدوي على أطراف المدينة (كضاحية لها) لكن في الوقت ذاته تتمتع بميزات بيروت الإدارية كالكهرباء.

السكن في الإيجار

ركّزنا في رسم الخرائط على ناحيتين، الأولى تحديد الأبنية التي يسكن فيها المستأجرون والمالكون القدامى والثانية تحديد الأبنية التي يسكن فيها المستأجرون القدامى والجدد. في توزّع السكان القدامى، تمخّنا الخرائط قراءة عن نسبة الكتل السكنية التي لم تتعرض لتغيّرات عمرانية منذ عام ١٩٩٢، وذلك حين أوقف العمل بمبدأ ضبط الإيجارات للعقود الجديدة وصدر قانون الإيجارات ٩٢/١٦٠ الذي مدّد العقود القديمة. أما في توزيع السكان الجدد غير المالكين، فوجدنا ترتيبات سكنية متنوعة. تستقطب منطقة البدوي كثيرين يرون فيها ميزات لها علاقة بموقعها وقربها من وسط المدينة، كما بنسجها العمراني، حيث تتراوح معظم أبنيتها بين الثلاث والخمس طبقات (خريطة). ففي هذه المنطقة سوق الإيجار حيوي يخلق العرض المناسب لطلب من شريحة متنوعة تضم طلاباً وعائلات. لجأ المالكون إلى ترتيبات جديدة يقسمون فيها الشقق إلى «فوايهات»، فيخلقون شققاً صغيرة تابعة من حاجة سكان المدينة لها. هنالك كتلتان بالتحديد

وصل إلى بيروت ما يقارب عشرة آلاف أرمني هرباً من المجازر في منطقة كيليكيا. في وقتها. اتخذت منظمات الصليب الأحمر وسلطات الانتداب الفرنسي إجراءات من أجل إقامة آلاف الخيم على أرض فارغة في الشمال الشرقي من بيروت.

في عام ١٩٢٢، وصل إلى بيروت ما يقارب عشرة آلاف أرمني هرباً من المجازر في منطقة كيليكيا. في وقتها، اتخذت منظمات الصليب الأحمر وسلطات الانتداب الفرنسي إجراءات من أجل إقامة آلاف الخيم على أرض فارغة في الشمال الشرقي من بيروت، تحديداً في منطقة المدور.

وتشكّلت مع قدومهم أولى الأحياء غير الرسمية في بيروت وذلك عبر إنشاء مخيم المدور في الكرنتينا. ابتداءً من عام ١٩٢٦، وبمبادرة من جمعيات أرمنية ومساعدة من سلطات الانتداب، تم اقتراح حلول دائمة لسكن اللاجئين الأرمن خارج المخيمات، وبالتالي نقلوا تدريجياً إلى مناطق مجاورة خارج منطقة الكرنتينا، مثل برج حمود وكرم الزيتون ومخيم هاجين وخليل البدوي. كانت هذه الأحياء أيضاً في عهد الانتداب قريبة من فرص العمل بسبب وجود الشكّة وسكة الحديد والمرافق وبسبب قربها من وسط بيروت.



سمحنا بحصول تنوع في سوق السكن. الأولى حيث يقع كامب هاجين، وهو مشروع سكني بدأ عام ١٩٢٢ مع خروج الأرمن من المخيمات حيث تم شراء عقارين من قبل جمعية أرمنية وتقسيمهما إلى عقارات صغيرة وتصميم مشروع سكني وفق تصميم توجيهي. ويتداول أنه يمنع الهدم داخل حدود كامب هاجين، أما الكتلة الثانية فهي كامب الأبيض، في الطرف الآخر من منطقة البدوي. يقع هذا الحي على هضبة متضرسة، تعرّضت مشارفه إلى إخلاء السكان وتخريب المباني، كما سنرى لاحقاً.

أما في خريطة المصيطبة فتشييد سليم سلام، كما المباني التي تم بناؤها بعد ١٩٩٢، يبدو واضحاً في تقليص المستأجرين القدامى. يقال في الحي إنه تم إخلاء الكثيرين بعد العام ١٩٩٢، إنما بتعويض مرتفع «غالي»، كاف لشراء شقة من دون قروض مصرفية أو يسمح لهم بالبقاء في الحي، فنرى أن الأحياء التي ما زالت تحافظ على نسيج مترابط بعيدة عميقاً عن الأوتوستراد من جهتيه، وعن الأبنية الجديدة التي تم بناؤها على مشارفه، فنجد من جهة منطقة مليئة بالزواريب، يتناول السكان اسماً محدداً لكل زاروب منها (زاروب الصفح، زاروب الباشا، زاروب الفرن، حي آل عبال)، ومن الجهة الثانية، نجد حي اللجي وحي آل سلام، حيث مقهى المصيطبة الشهير. هذه الأحياء سكانها خليط من مستأجرين ومالكين قدامى، يسكنون في المبنى ذاته بنسبة كبيرة من أبنية هذه الأحياء. أما المستأجرون الجدد فالواضح أنهم من منطقة البدوي، بعيدون عن السكان القدامى، مع وجود العديد من الاستثناءات.

تشير جميع هذه المعلومات إلى أنّ الإيجار لا يزال الوسيلة الأساسية والمتاحة للوصول إلى السكن في بيروت.

السكن خارج نطاق السوق

وفي غياب قانون إيجار جديد عادل وسياسة سكنية، وجدنا طرقاً بديلة للوصول إلى السكن يمكن البناء عليها لخلق فرص سكن خارج نطاق السوق. فبالعودة إلى منطقة البدوي، وجدنا ترتيبات سكنية مرتبطة بمؤسسات دينية أو أهلية تؤمن السكن في الحي، وتحديدًا تعمل لإبقاء السكان القدامى في أماكنهم، حيث ثمة عقارات عدة للمدير توفّر السكن بأسعار زهيدة، في نوع من ضبط الإيجار. وهناك أيضاً ظاهرة «السكن المؤقت»،

التي هي مبادرة محلية يقوم بها المجتمع الأرمني من أجل الحفاظ على تماسكه الاجتماعي وتأمين السكن المدعوم. إذًا، بمبادرة من ناد أرمني، يوجد في البدوي مبنى يملكه النادي ويهدف إلى مساعدة العائلات غير المسورة في السكن المؤقت لفترة سنة أو سنتين من دون مقابل. يتألف البناء من أربع طبقات، يسكن المالك في شقة، وباقي الشقق تسكنها عائلات أرمنية غير مسورة. وهناك أيضاً عقارات مالكوها غير موجودين، توقّوا ولا ورثة لهم، تسكن فيها عائلات جديدة. لتأمين جزء من الحاجة إلى السكن الميسر، تمنح هذه الأمثلة إمكانية تأمين أراضٍ غير خاضعة للسوق العقاري، بحيث يمكن أن تتحوّل هذه العقارات إلى أراضٍ تشبه نظام الوقف.

لكن تبقى هذه البدائل والترتيبات السكنية وحدها غير كافية لتوفير السكن الميسر لمعظم الساعين إلى إيجاد مسكن. فدور الدولة كمساهم في توفير السكن انتهى مع إيقاف العمل بمبدأ ضبط الإيجارات وتحوّلت إلى داعم لرؤى الاستثمار العقاري. ويتضح تأثير هذا الدور في ناحيتين، من الناحية الأولى نرى أبنية فخمة، تحتوي على شقق عديدة خالية، وظاهرة التأجير المؤقت للسائح التي تنتشر في أبنية قديمة يجري ترميمها لجذب المولعين بالتراث من الأجانب، ويصار إلى عرضها على المواقع الإلكترونية (مثل AIR BNB)، ومن ناحية أخرى أكثر عنفاً، يكون الإخلاء المستمر للسكان القدامى من بيوتهم وطردهم من أحيائهم. يؤثّر هذا التوجّه مباشرة على العلاقات الاجتماعية والتركيبات المكانية للأحياء، وعلى السكن الهش للعديد من المستأجرين الجدد.

ففي المصيطبة مثلاً، هنالك شقة يشغلها، ما لا يقلّ عن ٦٠ مستأجراً من العمّال من الجنسية البنغلاديشية، والغرف مجهزة بأسرة مزدوجة. دخلها أحد المشاركين في الد«ورشة» بعد أن ركل المالك الباب ودخل على المستأجرين بلا إذن، كما أنّ معظم الأبنية المهجورة في المصيطبة يسكنها حالياً عمّال من دون عقود مبرمة.

الإخلاء والهشاشة

لعمليات الإخلاء وقّع كبير على السكان، بالأخص المجموعات الهشة المعرضة للتعنيف والتي لا تمتلك ضمانات أخرى. فالقانون الجديد – أو عمليات السوق – لا تأخذ بعين الاعتبار الفئة العمرية أو مستوى الدخل أو الوضع الصحي والجسدي.

في خريطة البدوي، على مشارف كامب الأبيض



تم إخلاء وتخریب حوالي ١٤ مبنى من قبل البلدية، كما يقال، كي لا يسكن عليها أحد أو يستولي عليها، وكان سكانها مالکین ومستأجرین لكن لم یکن لديهم سندات ملكية. يُقال إنَّ عائلة وحيدة لديها أسهم في الأرض، تم إخلاؤهم جميعاً ما عداها. وهناك حركة شراء عقارات منذ ٢٠١٠، منها ما يضمُّ أبنية يسكنها مستأجرون، ممَّا يقتضي ضمناً إخلاءهم. بالإضافة إلى عملية تحويل مبانٍ خلال السنوات الأخيرة إلى مطابخ مطاعم، معظمها على شارع مار مخايل الرئيسي.

إن التغيير السكاني والاقتصادي للحى من خلال إخلاء السكان القدامى والتجارات الصغيرة يؤثر على حياة الحى وديمومة السكن الميسر.

والانتقال من البيت الذي لطالما سكنه الفرد، وخصوصاً عندما يضطر للانتقال في شيخوخته، يشكّل تعييفاً نفسياً وعاطفياً، ويجابه هؤلاء من خلال البقاء في الحى حيثما استطاعوا، يساعدهم على ذلك علاقاتهم الاجتماعية، وجدنا هذا الإصرار في الطريق الجديدة، ونروي تفاصيله من خلال قصتين:

- جمانة: عائلتي مؤلفة من ٧ أشخاص، نشأنا وترعرعنا في منطقة الطريق الجديدة والآن جميعنا نعيش معاناة انتقالنا من منزلنا الأساسي إلى برجا التي لا يربطنا بها سوى المنزل الجديد الذي نسكن فيه. معاناتنا اليومية هي توجّهنا إلى بيروت بسبب عملنا والعودة ليلاً، وما يتضمن ذلك من بُعد المسافة وزحمة السير وتكلفة المواصلات، المشكلة الكبرى تكمن في البعد عن المكان نفسه: العادات، الجيران، الأصدقاء. كل هذا أدى إلى الشعور بالغيرة، هذا الانسلاخ الذي لم أستطع التعوّد عليه. قرّرت العودة إلى السكن في بيروت واستئجار غرفة في منزل مشترك (فواييه) يضمّ عدداً من الصبايا حتى أتمكن من معاودة عملي والعيش ضمن المحيط الذي تعوّدت عليه. وكان قرار مشاركة السكن مع أخريات مشكلة أيضاً (فأنا في الأربعينيات من العمر)، لكنّه الأسهل والأوفر نظراً إلى ارتفاع الإيجارات واستحالة شراء منزل في بيروت.

هذا الإرباك وذلك التوتّر عانتهم العائلة كافةً وتحديداً الوالدة التي تأثرت بالموضوع وشعرت

بالوحدة وصعوبة الاختلاط بالمجتمع الجديد والتّبعد عن مكان مكثت فيه ما يقارب السّتين عاماً، ممَّا أدّى إلى تدهور صحتّها وإدخالها المستشفى عدّة مرات. - الحاجة وفيقة: سيّدة مُسنّة من مواليد ١٩٣٢، استأجر والداها في الطريق الجديدة في العام ١٩٥٥، بقيت في المأجور حتى العام ٢٠١٢ عندما تمّ إخلاؤها، وهي في الثمانين، بتعويض قيمته خمسون ألف دولار. ومن شدّة حبها للمنطقة وعمق ارتباطها بأهلها، ساعدها الأصدقاء والأهالي على إيجاد شقة في الشارع ذاته، تدفع إيجارها من التعويض الذي أخذته والذي سيكفيها بضع سنوات، وهي لا تستفيد من أي ضمان للشيخوخة في حال مرضها.

رصدنا خلال العمل الميداني في منطقة ضمن الطريق الجديدة ٣٢ مبنى خالياً أو قيد الإخلاء. أحد تلك المباني مؤلف من ٢٨ شقة، تقطنها أكثرية من المسنّين، مع وجود أشخاص مقعدين. وهناك العديد من المباني المهذّدة بالإخلاء والهدم في منطقة المصيطبة. يسكن العديد من تلك المباني مالكوها فقط دون غيرهم، مما يثير السؤال حول مفهوم سائد يعتبر الإيجار القديم مسبباً حصرياً لهدم المباني القديمة. إنَّ التغيير السكاني والاقتصادي للحى من خلال إخلاء السكان القدامى والتجارات الصغيرة يؤثر على حياة الحى وديمومة السكن الميسر فيه وق عرضنا بعضاً من جوانبه، فهذه الأحياء تعتبر من الأحياء «الشعبية»، وهذا عامل أساسي في جعلها متاحة للسكن من خلال الإيجار الجديد، لذلك فإنَّ وضع سياسات تحافظ على نسيج الأحياء، يبدو الأنسب لحلق ديناميكية سليمة في الوصول إلى السكن بما يتناسب مع حاجات الناس.

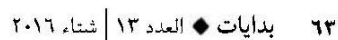


رسم مستقبل المدينة السكني، في خدمة من؟

إذاً، لمن المدينة وكيف يُرسم مستقبلها السكني؟

عندما صدر قانون الإيجارات الجديد، كان شعاره الأساسي إنصاف المالك القديم. لكن تشير دراسات عديدة، ومنها التي أجرتها «المفكرة القانونية»، إلى أنّ الجهة المستفيدة من القانون الجديد تتمثّل في أصحاب الرساميل الكبرى. إذ تشير الدراسة إلى أنّ القانون يتضمّن في تفاصيله إجراءات بالغة التعقيد والكلفة ويحمل في طياته بذور تأجيج المواجهات والصراعات بين المستأجرين والمالكين، وتشرح الدراسة:

بناء ملك قديم



«تبعاً لذلك، تكون الجهة المستفيدة منه، ليست فئة المالكين القدامى، ما دامت هذه الفئة تتحمل مباشرة نتائج تعطيل أي من المؤسسات المنشأة بموجب القانون ومخاطر أي مواجهة مع المستأجرين. إنما تكون الجهة المستفيدة هم أصحاب الرساميل الكبرى الذين بإمكانهم وحدهم تقديم حلول مالية لتحرير المالكين والمستأجرين من أعباء المواجهات المرجحة بينهم بثمن يقلّ بقدر ما تزداد حدّتها وكلفتها... وإذا علمنا أنّه كان بالإمكان الوصول إلى تحرير الإيجارات من خلال اعتماد معايير أكثر بساطة (مثلاً حصل في باريس)، لا نبالغ إذا قلنا إنّ تأجيل هذه المواجهة المنهكة هو الركن الأساسي الذي بُني عليه هذا القانون أو على الأقلّ سمته الأساسية، وهي خلاصة تشير إلى قوة التزام البرلمان بتغليب كفة أصحاب الرساميل ومصالحهم، حتى ولو حتمّ عليه ذلك التضحية بوظيفة الدولة الأساسية في تعزيز الوثام الاجتماعي».

من الناحية المدينيّة، كانت واضحة في الأحياء التي أجرينا البحث فيها عملية تغيير ملكيّة العقارات ورسم مستقبل بيروت لصالح هذه الفئة من المطوّرين العقاريين. ففي البحث الذي أجريناه في حيّ الروم، على سبيل المثال، نرى كيف أنّ شارع الخازنين يتعرّض لبيع هائل للأراضي أو عروض للبيع بعد صدور القانون. هذه الخريطة تشير إلى العقارات التي انتقلت ملكيتها أو عُرضت للبيع خلال السنة الماضية، والتي بغالبيتها عليها مبانٍ سكانها من المستأجرين القدامى.

نحن مهتمون بفهم الوسائل التي من خلالها يفهم سكان بيروت القدامى وجودهم في المدينة عبر الإيجار وكيف تغير هذا المفهوم مع الوقت. الأمر الذي يطرح علينا مداخل جديدة للنظر.

من ناحية أخرى، وأبعد من قانون الإيجارات الجديد، يشكّل الإطار التشريعيّ الحالي حافزاً أساسياً لبيع المالكين القدامى لعقاراتهم لمصلحة شركات عقارية تسيطر كل السيطرة على إنتاج المدينة. فارتباط الطبقة السياسية والحاكمة ارتباطاً حميماً مع قطاع التطوير العقاري، وتقديم تسهيلات للمستثمرين من خلال تخفيضات في الضرائب العقارية والاستثمار، وصعوبة البناء على

العقارات الصغيرة بسبب نسبة البناء مقارنةً بأسعار الأراضي، جميعها أنتجت عمليّات كثيفة لبيع الأراضي من المالكين القدامى إلى مستثمرين.

تظهر هذه الحالة في العديد من الأحياء. بالنظر إلى خريطة الباشورة التي تقع على حدود سوليدير وتعرّض إلى تغييرات جذريّة بسبب موقعها، نرى كميّة المباني المهجورة والعقارات الفارغة والمباني الجديدة على أطرافها. بالتدقيق في ملكية بعض هذه الأراضي الفارغة، جميع العقارات في اللون الزهري هي ملك ثلاث شركات عقارية: العالية، الباشورة وبلاتينوم، جميعها ملك طلال الزين وأفراد من عائلته التي أيضاً تملك المشروع الضخم المجاور في الباشورة الذي هو بشراكة مع وزارة الاتصالات أي Beirut Digital District.

حيّ الروم أيضاً، يضمّ ثلاثة مبانٍ وكانت تسكنه خمس عائلات (٤ بالإيجار القديم ومالك قديم) ويضمّ محل «غارو» على شارع مار مخايل الرئيسي، اشترته منذ حوالي سبع سنوات شركة «ميكالانج» التي قامت بإخلاء السكان منه تدريجياً وتصميم مشروع كبير يهدم مبنى من المفترض أن يكون مصنفاً تراثياً بما أنّه يقع على شارع مار مخايل الأساسي. المالك الجديد حجز أحد البيوت بالشمع الأحمر بعد وفاة المستأجرة القديمة التي كانت تسكن فيه وذلك قبل أن يتمكّن أولادها من الدخول إلى البيت وأخذ أغراضها. الأثاث والصوّر والأغراض ما زالت في أماكنها. النتيجة أن إنتاج السكن ينحصر في مبانٍ فاخرة وأبراج لا مكان فيها للسكان القدامى أو متوسطي الدخل.

خلاصة

في مشروع «أن ترسم بيروت من روايات مستأجريها» أردنا الانطلاق من أهميّة الإحصاء ومعرفة التركيبة السكنية للمدينة قبل صدور أي قانون يؤثر على سكان المدينة من جهة، ومن جهة أخرى، نحن مهتمون بفهم الوسائل التي من خلالها يفهم سكان بيروت القدامى وجودهم في المدينة عبر الإيجار وكيف تغير هذا المفهوم مع الوقت. الأمر الذي يمكن أن يطرح علينا مداخل جديدة للنظر بتأثيرات تغيير دور الدولة من مؤمن للسكن إلى داعم لرؤى الاستثمار العقاري، بهذا، يحاول هذا المشروع التركيز على الشقّ السياسي في نقاشات السكن - والسياسي بمعنى التوجّه أبعد من الملكية للتطرّق إلى الحقّ في المدينة وأسئلة أساسيّة عن الحقّ المكتسب في المكان.

التمتع بالمساحات الخارجية أفكار مدينية لدالية بيروت

مروان غندور
معماري، لبنان -
الولايات المتحدة،
عضو في «الحملة
الأهلية للحفاظ على
الدالية الروشة».

صنوبر في عرمون محشورة بين المباني السكنية متعددة الطبقات. حالياً، لا توجد قوانين تضمن لنا استمرارية شجر الصنوبر بتغطية المنحدرات الغربية للبنان للأجيال المقبلة. رغم أن السيران كان وسيلة منتشرة للترفيه للعديد من سكان بيروت، فإن انخفاض المساحات المفتوحة داخل وحول المدينة جعل هذا النشاط الترفيهي مجهولاً للكثير من السكان الشباب. السيران هو النشاط الترفيهي الذي يتيح لفئات اجتماعية عدة وبشكل متساو إمكانية الاستمتاع بالحياة من خلال التواصل مع المساحات الخارجية. على عكس النظرة المجردة للأرض، التمتع بالمساحات الخارجية أثر بكل التفاصيل والخصوصيات التي تجسدها الأرض. أشكال الصخور، والنباتات، والوجود الموسمي للحيوانات وآثار وجود الناس، كلها مغامرات واستكشافات ذات قيمة عالية للاستمتاع بها في الهواء الطلق.

في سياق اقتصادي تقدر فيه قيمة الأرض وفق رأس المال الذي تنتجه، وذلك وفقاً لعامل الاستثمار وما تطل عليه الموقع مما يحولها سلعة للتبادل، ما هي قيمة الحصول على حقوق متساوية للسكان للاستمتاع بالحياة؟ لن أجيب على هذا السؤال، لكن سأبعضه بسؤال بلاغي لا يرتبط به: ما هو الحدث التاريخي السخيف الذي يجعل من موقع جيولوجي هام مثل الدالية ملكية خاصة؟ إن الدالية هي آخر الأماكن المفتوحة في بيروت والتي أصبحت حالياً هدفاً للتطوير العقاري الخاص بالفنادق. يمكننا الحديث عن الطمع، والفساد السياسي والخصخصة التي لطالما اعتمدتها أجهزة الدولة تاريخياً والتي قد تؤدي إلى تدمير للدالية بوصفها منطقة مفتوحة في المدينة، لكن الأهم هو إيجاد طريقة تمكن سكان المدينة من تخصيص قيمة في الحق المتساوي في الاستمتاع

«عمر وبيع». كانت تلك نصيحة والدتي بعد تخرجي مهندساً معمارياً في نهاية الثمانينيات. كانت خيبتها أن ذلك لم يحصل قط! بعدما عاشت في بيروت منذ الانتداب الفرنسي وعاشت فترات الاستقلال والحروب المتعددة، المحلية والإقليمية والعالمية، أصبح لدى والدتي أفكارها الخاصة عن كيفية تحقيق مدخل ثابت في منطقة غير مستقرة اقتصادية. كما غيرها كثير، قد آمنت بأن الثروة لا تتحقق سوى عبر التجارة، أي نوع من التجارة، وأفضلها التجارة الخاصة بالعقارات... «عمر وبيع». ذلك هو التناقض المتأصل في علاقتنا مع الجغرافيا التي نتمثل معها، إذ تقارن الأرض بقيمة رأس المال الذي تؤمنه، وبالتالي هي مجردة ومن الممكن التخلي عنها. لا مكان في هذه النظرة تجاه الأرض للتفاصيل كتلك المتعلقة بالنباتات المحلية التي تمثلها الأرض، أو الطيور المهاجرة التي تستقبلها موسمياً، أو الممارسات الاجتماعية المرتبطة بها وطبقات الرواسب التي كونتها! إن النظرة المجردة للأرض تركز على التبادل القيمي للمناظر والمنحدرات والمنطقة والمنشآت المتعلقة بها.

تحت والدتي التنزه. أكثر ما تحب هو السيران، إذ تستمتع بالأشجار والنسيم والمناظر الطبيعية. مع النمو الحضري لبيروت، شهدت والدتي على اختفاء الكثير من المناطق التي اعتادت أن تقصدها لتقوم بسيران، مثل حرج بيروت، والدالية، والغلاييني، والرملية البيضاء، ووطى المصيطبة، والكوكودي، والأوزاعي، وعرمون وبشامون. نظراً لحركة البناء المكثف خلال الستين سنة الماضية، مع استثناء الدالية، فقد اختفت هذه المناطق أو أصبح الوصول إليها متعذراً. لا تزال والدتي تذهب برفقة أخيها وأختها في سيران تحت بضع شجرات

بالحياة وذلك من أجل سحب موافقتهم الضمنية (أو عدم اكتراثهم) بعمليات البناء غير المسؤولة. إنّ «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» هي محاولة في هذا الاتجاه. بدأت الحملة في العام ٢٠١٤ مع هدف «المناصرة من أجل حماية واجهة المدينة البحرية بوصفها مساحة مشتركة، ومنطقة مفتوحة تُستخدم من قبل كل سكان المدينة وزوارها بطريقة مدنية ولكن عفوية». مذكاً، نشرت الحملة دراسات عدّة وثقت الأهمية الاجتماعية والثقافية، والجيولوجية والبيولوجية للموقع، بالإضافة إلى حملات عامة، ورسائل رسمية للوزارات المعنية، وتنظيم نشاطات في الدالية، وإطلاق الشعارات، والصور والأشرطة للترويج لهذا الفضاء. كذلك قامت الحملة بأرشفة الصور القديمة الخاصة بالمكان، ونشرت بيانات صحافية ورفعت دعاوى قضائية.

الدالية والكورنيش هما المكانان المتبقيان اللذان يجمعان الناس من الفئات الاجتماعية المختلفة. ليلتقا ويختبرا (وربما يتشاركوا) التجارب نفسها.

في حالة بيروت، مفهوم الحق المتساوي لا يقتصر على الفروقات الطبقية، بل ربما الأكثر أهمية هو المجموعات الاجتماعية/الطائفية/الإجتماعية/الطائفية/السياسية المختلفة التي يتزايد تباعدها داخل المدينة. الدالية والكورنيش هما المكانان المتبقيان اللذان يجمعان الناس من الفئات الاجتماعية المختلفة، ليلتقوا ويختبرا (وربما يتشاركوا) التجارب نفسها. ينزل عدد أكبر من سكان بيروت داخل الحدود السياسية والطائفية لمناطقهم والتي تصبح حدود فعلية. يضاف إلى ذلك قلق المسؤولين الرسميين من تأمين مساحات مفتوحة مشتركة حيث الحدود غير مرسومة بشكل واضح، وبدا ذلك واضحاً في التردد في فتح حرش بيروت خوفاً من تهافت السنة والشيعية والمسيحيين من المناطق المحيطة به إليه. إنّ الفضاءات المفتوحة أمام الجميع لا توفر بالضرورة الاندماج الاجتماعي، الذي يمكن رؤيته على الكورنيش حيث يجتمع معظم الفئات الاجتماعية المختلفة في أقسام مختلفة من الفضاء الأفقي، وتعيد رسم حدود مناطقها بشكل عفوي. لكن الكورنيش، وبشكل أكبر الدالية، هي مساحات يلتقي

فيها المرء بقاطني المدينة من مناطق مختلفة وذلك خارج الخطاب الرسمي المسيطر المتعلق بمسألة لمن تعود ملكية المدينة، بما أنّ طريق الكورنيش والبحر يحذّان الدالية فهي تهرب من قبضة الفريق المسيطر، مما يسمح بدخول مجموعات مختلفة من مناطق مختلفة من المدينة إليها. بشكل مماثل، نجا الموقع حتى فترة قريبة من جشع المطورين العقاريين، ما سمح له أن يكون أكبر منطقة فيها أقل وجود لمبان على شاطئ بيروت، مما سمح بالحفاظ على النبات والحيوان فيها مقابل احتضانها مروحة واسعة من النشاطات التي فشلت المدينة بشكل متزايد في استيعابها.

تظهر فريدة الدالية وغناها بشكل أكبر في الوثائق المتنوعة التي أنتجتها الحملة وتركز على أهميتها الجيولوجية، والأركيولوجية والبيئية والاجتماعية. لقد أطلقت الحملة مسابقة مفتوحة للأفكار في الربيع الماضي بعنوان «ألف دالية ودالية» لتقديم بدائل للتطوير العقاري الخاص الذي كان مخططاً له أن يحصل في المكان. ورغم أنّ الفترة الزمنية للمسابقة كانت قصيرة (٢٤ آذار/ مارس - ٢٦ أيار/ مايو ٢٠١٥) فقد تلقت الحملة ٢٠ مشروعاً، وجزء منها كانت مشاريع معمقة ومبتكرة ومسؤولة مدنياً. تُظهر المشاريع الثلاثة الرابحة ثلاث مقاربات مختلفة للمنطقة من دون أن تكون مقتصرة عليها. في الملف الذي قدّمته للمسابقة تقول مجموعة «دالية» (Dalieh): «اخترنا اعتبار الدالية وسيطاً مؤقتاً، وتفضيل المسار على المنتج، واقتراح خاصية عدم الاكتمال بوصفها معطى نهائياً في اقتراحنا «النهائي». هذا المكان الطبيعي يتعلّق بما ينمو بقدر ما يتعلّق بالجامد، ويتكوّن من مواد وقوى وممارسات حيّة ومتغيرة...».

يطوّر هذا المشروع استراتيجيات مكانية وقانونية ومؤسسية لصالح «ثلاثة أنظمة زمنية» تتعايش مع بعضها البعض ويعزز كل منها الآخر. إنّ الإطار الثقافي والمدني محشور مكانياً بين النظام الجيولوجي والبري الساحلي والنظام البيئي المائي. إنّ هذا المشروع هو خارطة طريق لحماية وتطوير الدالية بوصفها مكاناً في بيروت حياً دائماً وبالتالي متغيراً.

في المقابل فإنّ «الملاذ الأخير» (The Last Refuge) هو مشروع يستكشف التدخل المادي في الموقع بوصفه وسيلة للتحكّم بالنشاط الاجتماعي على الأرض من أجل حماية القيمة الأيكولوجية والجيولوجية للدالية.

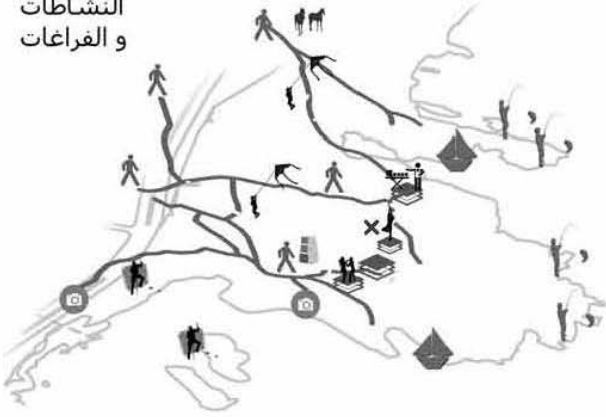
يقدم المشروع تقنيات بناء وتدخلات بناء ذات مواقع إستراتيجية للحفاظ على وصول مفتوح للبحر مع حماية ميزات الإيكولوجية. في هذا الإطار، تكتب المجموعة في الملف الذي قدّمته إلى المسابقة: «الدالية هي آخر ملاذ للعديد من أجل ممارسة حقهم في الوصول إلى الفضاءات العامة في المدينة، وبشكل أدق: حقهم في الوصول إلى البحر... إنّ هدف تصميمنا سيكون مصالحة الحساسية الأيكولوجية والأركيولوجية للموقع مع الممارسات السوسيو - ثقافية الموجودة مسبقاً أو المقترحة حالياً. نركّز على حماية الدالية من خلال الممارسة، وفي الوقت عينه التعاطي مع كل التحديات التي يواجهها الموقع اليوم في ما يتعلّق بالملكية والتحديات الاجتماعية البيئية والتدهور المادي». يطوّر «الملاذ الأخير» تجربة شاملة عبر المكان حيث البناء هو عنصر واحد فقط، مما تجري مراقبته بوصفه تدخلاً زمنياً في إطار الوجود الأوسع وطويل الأمد للدالية.

يضع المشروع الثالث الرابع «ليس فقط عن الدالية» (Not Just About Dalieh) الدالية في إطار خطاب أوسع عن الوعي المدني. تعتبر الدالية جزءاً من شبكة الأماكن التي ينبغي أن يعي شأنها سكان بيروت، ويهتموا بها ويستمرّوا في التواجد داخلها. يُظهر المشروع أهمية تلك المساحات العامة في المدينة، وذلك عبر تطوير تجارب تشاركية لمختلف المجموعات السياسية والإثنية التي تحتويها المدينة: «عبر الاعتماد على تنوّع الأشخاص المتواجدين على الكورنيش، نرغب في اعتبار الدالية منصّة تبادل من أجل جذبهم وتسهيل الحوار بينهم عبر الخبرات والتجارب المتشاركة... إنّ مشروع «ليس فقط عن الدالية» يتمحور حول استعادة الحق في الوصول إلى الطبيعة والإرث العام والحوار في المدينة التي تتوسع على حساب نوعية حياة الإنسان». يقترح المشروع حملة توعية يجري تطويرها من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، ووسم العلامات التجارية، وبرامج بناء في الموقع. بناءً على ذلك، ستحتوي الدالية ثلاث مناطق أساسية: ٢٠٪ من الموقع سيكون محمياً من أي نشاط بشري من أجل الحفاظ على النظم البيئية على اليابسة وفي البحر. ٢٥٪ من الموقع سيجري تطويره ليصبح منزهاً عاماً مع كل متطلبات منشأته وخدماته، فيما ٥٥٪ من الموقع سيبقى منطقة مفتوحة مع أقل قدر ممكن من التدخل، وحيث يمكن تنظيم نشاطات اجتماعية، بشكل غير رسمي، في مكان مرتجل إلى حد كبير.



-الملاذ الأخير

عناصر التصميم المقترح
النشاطات
و الفراغات



استخدامات المجتمع
الاستعمالات الحالية
القيمة كمكان عام



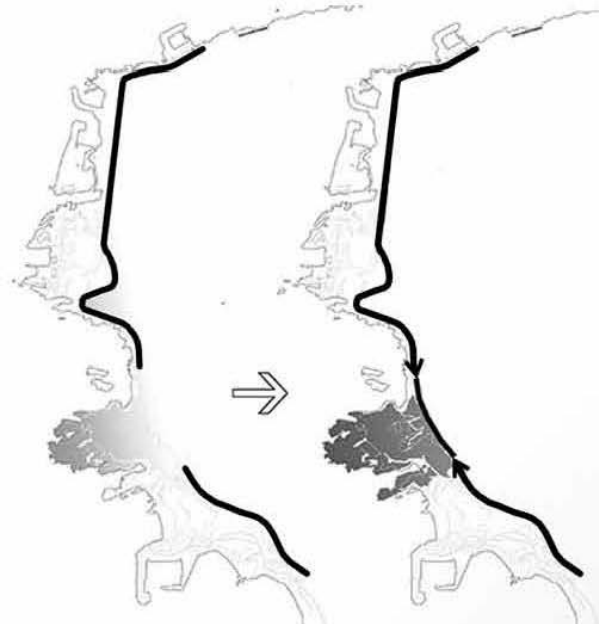
الاثار



الغطاء الطبيعي
التنوع الايكولوجي
الفصائل المهددة بالانقراض



الطوبوغرافيا
منحدرات قاسية
كهوف



الصورة الأولى

يمثل الخط الأسود الأقسام التي يمنع فيها الوصول إلى الشاطئ فعلياً ومن خلال الرؤية، فقد شرعت المراسيم المتعاقبة تخصيص الساحل. تمثل الدالية المكان العام الأخير في بيروت. هي الملاذ الأخير للعديد من المواطنين ليمارسوا حقهم في الوصول المجاني إلى الشاطئ.

الصورة الثانية

الهدف من وراء تصميمنا هو مصالحة حساسية الموقع البيئية والأركيولوجية مع الممارسات السوسيو-ثقافية الموجودة مع تلك المقترحة. نحن نركز على حماية الدالية من خلال الممارسة، وفي الوقت عينه التعاطي مع كل المعوقات المتعلقة بالملكية، والتحديات الاجتماعية والبيئية، والتردي المادي.

الصورة الثالثة

يهدف التصميم لتحديد طريقة حماية المناطق الهشة إيكولوجياً، وتحديد المسارات الواضحة، وإنشاء بنى خشبية خفيفة غير دائمة وذات تماس قليل مع الأرض. تساند هذه العناصر نشاطات عديدة رسمية وغير رسمية تعتمد بشكل أساسي على الخصائص الفريدة للموقع.

مكاتب لادارة الموقع
للجمعيات الأهلية
و المجتمع المدني

منشآت من الخشب و الخيزران



منصات لممارسة الرياضة
الرقص و اليوغا

مدرج

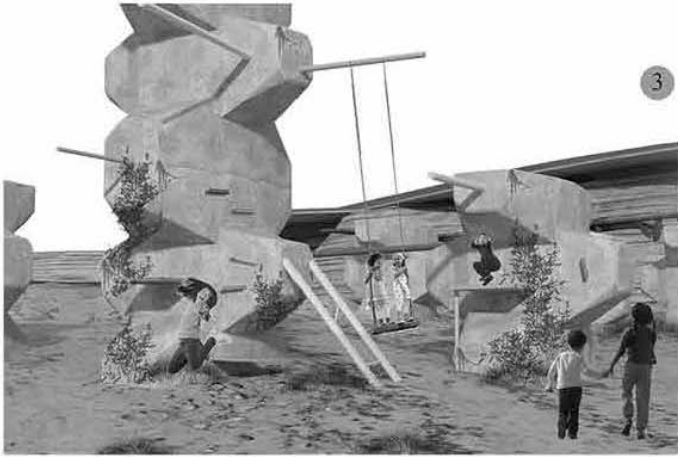
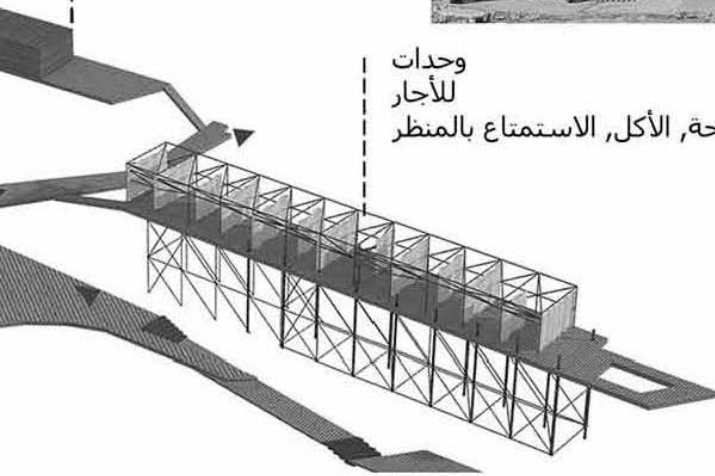
منصة يوغا

وحدات
للأجار
للاسترحة, الأكل, الاستمتاع بالمنظر

5

منصة
للرقص

مسرح



3

الكورنيش

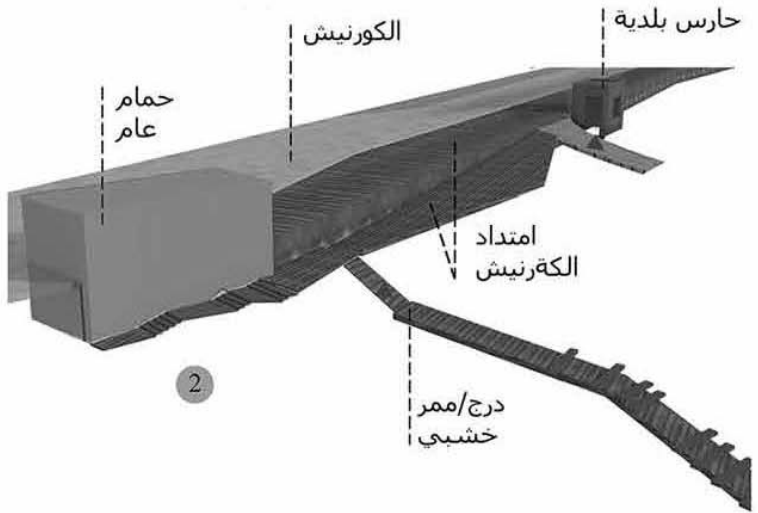
حارس بلدية

حمام
عام

امتداد
الكورنيش

درج/ممر
خشبي

2



أكشاك للإيجار و غرف للصيادين مبنية من البامبو المحلي وبنى
خشبية مرتفعة للتخفيف قدر الإمكان من التأثير على النبات
والحيوان.

الصورة السابعة

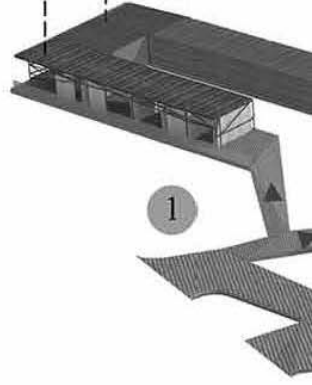


1



غرف
للخدمة

غرف
للأجار

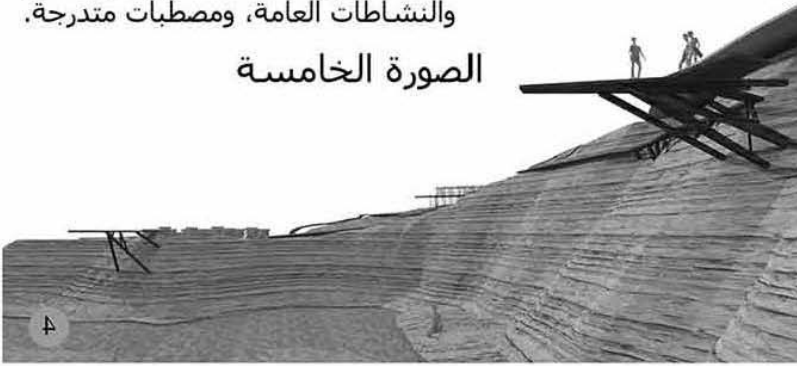


الصورة الرابعة

سيصار إلى بناء منشآت وتقديم خدمات للمجتمع على الموقع لتأمين الإدارة المستمرة والربح المستديم، ويظهر الرسم البرنامج والنشاطات والعناصر التصميمية / البنيوية التي سيتم

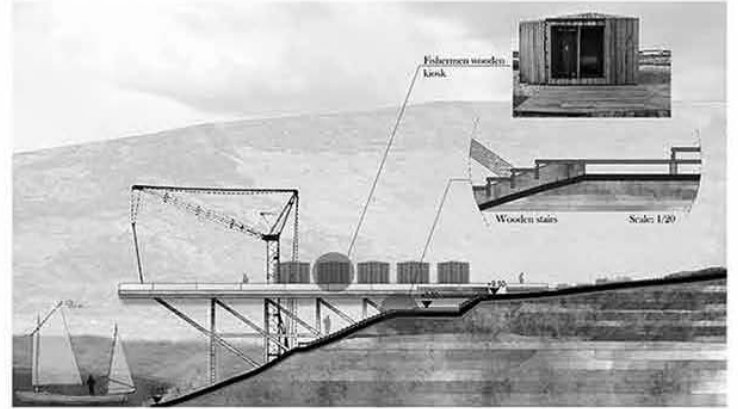
تتضمن الرسومات عناصر تصميمية أخرى مثل مراسي للمراكب، وبنى للرياضات المتطرفة، مساحات للسوق العام والنشاطات العامة، ومصطبات متدرجة.

الصورة الخامسة



الصورة السادسة

مثل ذكريات الحرب تصبح تلك الكتل الاسمنتية عنصراً من المشهدية، يذكر بالأيام التي كانت فيها الدالية في خطر. فيما أن الحرب لاستعادة الدالية انتهت بالنصر، سيسيطر الموقع والمستخدمون على المكعبات التي سيستخدمونها لنشاطاتهم الخاصة، مثل مكان للجلوس، وللتغفو ولنصب الأراجيح... سيبتكر الأولاد استخدامات جديدة للمربعات الباطونية: الرسم واللعب والتسلق. ستكبر النيات في الموقع وتحتاج المربعات ويمكن زرع عرائش معينة محلية، وستصبح المربعات بالتالي مغطاة كلياً وتشكل استمراراً عمودياً للفسحة الأفقية الطبيعية.

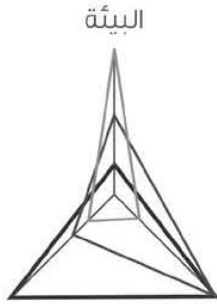


ليس فقط عن الدالية

الصمت يعني القبول. حان وقت كسر الصمت.

الأمر يتعلّق ببيروت.
الأمر يتعلّق بالمساحات العامة.
الأمر يتعلّق بالساحل.
الأمر يتعلّق بلبنان.
الأمر يتعلّق بالعدالة.
الأمر يتعلّق بكم.
والأمر يتعلّق بالمستقبل.

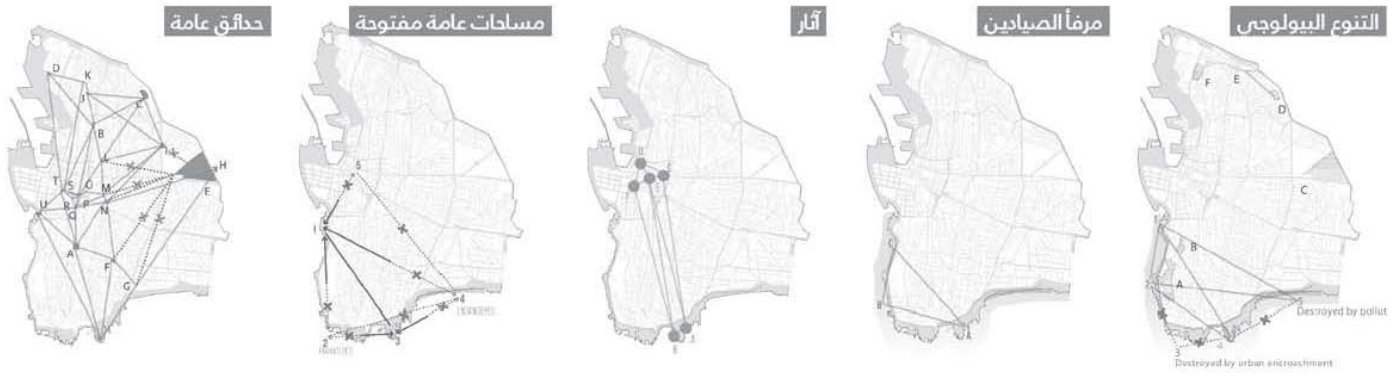
مع الدالية
في الدالية
من أجل الدالية



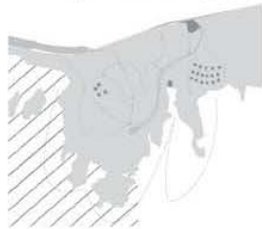
الاقتصاد الاجتماعي - الثقافي

المحافظة وإعادة تأهيل الدالية على ثلاثة مستويات: اجتماعي (تنوع المستخدمين وإدارة من قبل أصحاب المصلحة للموقع)، اقتصادي (اقتصاد رسمي وغير رسمي)، بيئي (إعادة التواصل مع الطبيعة، ومناطق محمية بحرية وعلى اليابسة).

الدالية من ضمن شبكة بيروت ترتبط الدالية بشبكة المدينة



المقاربة الاقتصادية



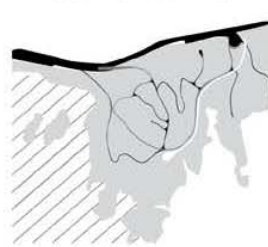
مكان لتشجيع القطاعات الاقتصادية: اقتصاد غير رسمي، زراعة حضرية، مركز أبحاث، نشاطات تجارية، سياحة بيئية، مركز للصيادين. كذلك يتضمّن فضاءً للمعارض ومسرحاً لتشجيع النشاطات التعليمية.

المقاربة القانونية



محفّزات لأصحاب العقارات: تسمية الأمكنة الرسمية بأسمائهم، مثل مسرح بيزون.

القدرة على الوصول



مساران غير رسميين
منحدران للكراسي المتحركة
طريق واحدة للآليات

التصنيفات



منطقة محمية
نطاق غير رسمي
نطاق رسمي



تستخدم للحفاظ على النباتات السوسيو - ثقافية الحالية وتعزيزها والحفاظ على المالية كمكان تشاركي مفتوح والوصول إليها

المستخدمون

القاطنون في المدينة، محبو الطبيعة، محبو الرياضة، السياح، العائلات، الأطفال، مالكو الحيوانات الأليفة، المراهقون، الأزواج

النشاطات

ترفيه، تريض مشي، يوغا جلوس، تنزير الكلاب، سيران، صيد، سباحة، غطس، حمام شمس

القدرة على الوصول إلى المكان

يجري الحفاظ على طريقة الوصول كما هي الآن، من الطريقة السهلة للصعبة وفق المناطق

تأثير التدخل

متوسط



حماية الحياة الجيولوجية، النباتية، الأرضية والبحرية

اليابسة [متنزه التنوع البيولوجي] ٢٣٠٠٠ متر مربع
منطقة بحرية محمية ٤٠٠٠ متر مربع وفق ميثاق الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة ومواردها والتصنيف الخامس فيه
٤٠ مترا عرضاً، وكيلومتر واحد طولاً في البحر

المستخدمون

القاطنون في المدينة، محبو الطبيعة، محبو الرياضة السياح، ممارسو الغطس، العائلات، الأطفال، المراهقون، الأزواج، الباحثون، مصممو المشاهد الطبيعية، المختصون بالنباتات، المختصون بالبيئة، علماء الآثار، المنظمات غير الحكومية، الجامعات، الممارس

النشاطات

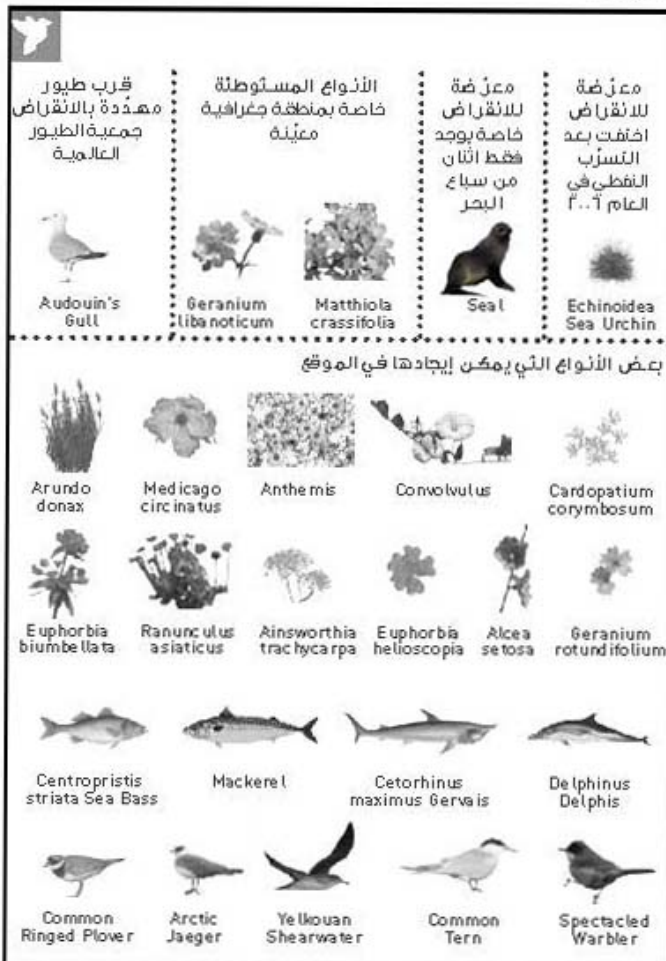
ترفيه جلوس، مسارات للتعليم، أبحاث، تعليم، تريض مشي، رياضات، غطس، سباحة، استخدام قارب الكاياك، تجديف، لوح التجديف، من دون صيد السمك أو التعرير

القدرة على الوصول إلى المكان

عبر اليابسة: سهل وآمن من خلال مسار بعرض ١.٤ متر (استناداً إلى الممر المستخدم حالياً)
عبر البحر: بواسطة المراكب

تأثير التدخل

بسيط

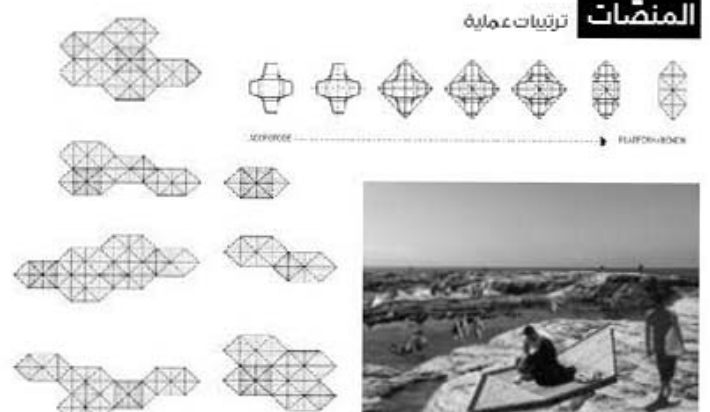


البحث عن الطعام والمؤن في المدينة

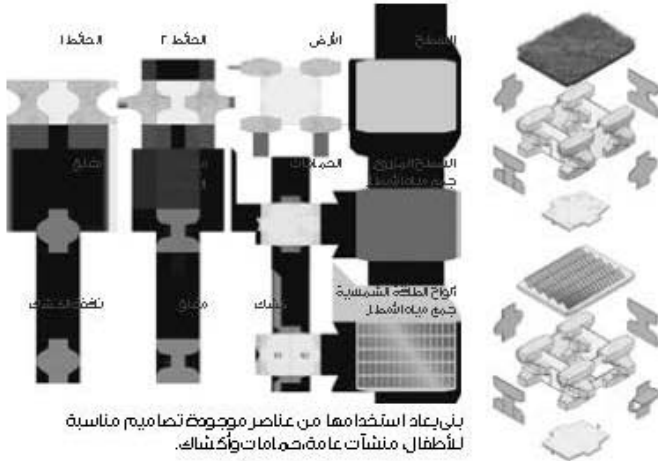


المنصات

ترتيبات عمالية



متنزه رياضات التسلق



بني يعاد استخدامها من عناصر موجودة تصاميم مناسبة للأطفال، منشآت عامة، حمامات وأكشاك.

زراعة حضرية



الاستدامة
البيئية



التصنيفات



زيادة التوسع

المنطقة الرسمية



المنطقة محدّدة بالتقسيم السابقة التي تحاذي الكورنيش، وكذلك منطقة الركام وكاسرات الأمواج التي وضعتها وزارة الأشغال العامة.



المستخدمون



الفاطنون في المدينة، محبو الطبيعة، محبو الرياضة، السباح، محبو
الموسيقى، العائلات، الأطفال، مالكو الحيوانات الأليفة، المراهقون، الأزواج،
المؤثرون، الفنانون، الباعة.

النشاطات



تزييه، لقاء مشي تزيي، يوغا، جلوس، عروض موسيقية عروض تزييه الكلب، ملاعب للطفال، بيكنيك سوق.

القدرة على الوصول إلى المكان



سهر وأمان. صالح لمستخدمي الكراسي المتحركة.

تأثير التدخل



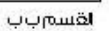
طوبو

سوق ومركز أبحاث



أسماك وخضروات من محيط الدالية، مؤمنة من قبل الصيادين ومن منطقة الزراعة الحضرية. مركز الدالية للأبحاث مركز مفتوح للعامة، تعاون بين صيادي السمك والباحثين لدراسة النظم البيئية الخاصة بالبحر الأبيض.

مركز صيادي الأسماك ومركز المعارض



تم اخراج تصويل الطليقة العليا من مركز صيادي السمك الموجود حالياً إلى مكان للعرض مفتوح للعامة ويعرض نتائج كل الأبحاث التي يقوم بها مركز الطليقة للأبحاث

الحياة

اعتزل الدالة كوسيطاً زمنياً وفضل
مسارها على نتيجة، ولقد راح علم
انتهاه مشروع بصره هائل في
الفرح للكنز.



الخريطة توضح منطقة
البحر
١- البحر
٢- المنطقة الساحلية
٣- المدينة

شاطئ سباع البحر

محط للتنزه
مطل على شاطئ سباع البحر المحمي

منطقة مخصصة للسياحة العامة

منصات عامة للشبوة

برك طبيعية ضخمة

برك طبيعية ضحلة

منطقة مخصصة للسباحة العامة
والغطس

استعادة الشاطئ العام

استعادة الشاطئ العام

رحلات بحرية تربط الشواطئ ببعضها

شاطئ الرملة البيضاء العام

الغناء في السياق الاجتماعي الصناعي

جمال جبران

كاتب وصحافي يمني.

لامبير على السنوات الطويلة التي قضاها في اليمن، سيبدو ذلك هامشياً ونحن نرى عناصر يمنية تقيم في البلاد ويجلس على رأس سلطته الحاكمة وقد اكتفت بعلاقة سطحية مع الحياة الحقيقية الدائرة بداخل مجتمعها أو معرفة قشورها عبر شخصيات وسيطة، وقد ظهر الفرنسي لامبير على العكس من بعض اليمنيين وهو يغوص في بحثه داخل البيئة الصناعية بين مختلف الطبقات الاجتماعية والسياسية من رأسها وحتى القاع مُستمعاً ومستفسراً وسائلها.

في الحالة الأولى يبدو باحثنا وقد استفاد من كونه في فترة من زمن إقامته اليمنية قد عمل موظفاً في الخارجية الفرنسية ورئيساً للمركز الفرنسي للدراسات اليمنية، ما جعل تواصله مع القيادة السياسية الحاكمة ممكناً ومُتاحاً بل وتفرضه مهام الوظيفة التي كان يشغلها. وقد استفاد من غريزة الباحث في تمكينه من خلق علاقات إنسانية مع طبقة اجتماعية وثقافية واسعة تنوعت بين مختلف الفصائل الحزبية والفكرية وحتى القبليّة. ولم تذهب كل هذه الصلات الاجتماعية التي نسجها باحثنا

قد يلزمنا في فاتحة الكتابة عن «طبّ النفوس، في الغناء الصناعي» (الهيئة العامة للكتاب - صنعاء) ضرورة التعريف بصاحبه الباحث الفرنسي جان لامبير من أجل إزاحة فكرة مسبقة قد تأتي مبنية على تناقض بين هويّة الموضوع الذي يعرضه الكتاب وهوية مؤلفه. وسوف يكون ذلك التناقض مبرراً سهلاً وساذجاً، له أن يضع الكتاب نفسه والذي كان ترجمه الباحث اليمني علي محمد زيد، في خانة الأعمال الاستشرافية الخاصة بأولئك العابرين والغرباء الذين يذهبون إلى بلاد «اليمن السعيد» من أجل التأكد من حقائق استقرت في أذهانهم. هكذا لا يكون حضورهم الفعلي إلا من أجل التثبت من هذه الحقائق لا إعادة طرحها على طاولة النقاش والتقليب والتدوير من أجل امتلاك معرفة حقيقية بالمكان وأهله. وهذه عادة ارتبطت للأسف بعدد غير قليل من باحثي الدراسات العليا أتوا إلى اليمن الذي اتخذوا من قضايا الاجتماعية والتاريخية قاعدة لصلب رسائلهم الأكاديمية. لن نعتمد هنا ونحن نقوم بإزالة «شبهة الاستشراق» بخصوص



Jean Lambert

La Médecine de l'âme.

Le chant de Sanaa dans la société yéménite

٣٢٠ صفحة - الطبعة الأولى ١٩٩٧

Société d'ethnologie



يسرد وصفاً لطقوس ومحتويات الحالة المصاحبة لأوقات الطرب وما جاوره من تفاصيل، لتأخذ طقس تناول الكحوليات التي تأتي خاتمة لوعده تناول نبتة القات، قد تأتي هذه الصورة مخالفة في أذهان البعض لقولة «صنعا بلد الإيمان والحكمة» كما جاء في سبائك التراث الإسلامي، لكنها تتفق مع عدد غير قليل من أصحاب الطريقة الصوفية الذين ما زالوا على إيمانهم بأن لا تحريم ثابتاً بخصوص شرب الخمر، وبأن تناول الخمر استكمالاً لجلسة القات المرافقة للاستماع للطرب أو «المقبل» الذي يبدأ في مرحلة أولى بحال وصول المشاركين في الجلسة ونحوه من حضر قبلهم قبل الدخول في تبادل كلام مرح وتناقل التكاثر بغرض تلطيف أجواء المكان نفسياً بعد ذلك يبدأون في فتح عزف القات التي تأتي على هيئة ربطات، ويرافق ذلك تقديم ما يلزم من لوازم الراحة من «ترموس» لحفظ المياه الباردة والمداغة (الترجيعة) أو السجائر، يأتي هذا الكرم من جهة صاحب البيت بهدف «تشبيط الألفة الاجتماعية» بين الحاضرين وعلى وجه الخصوص غير المعتادين على حضور الجلسة في هذا المكان بشكل منتظم، وسيكون كل هذا قهيدا لبداية مفعول التشوة التي تفعّلها نبتة القات في ذهن متناولها بحيث يأتي التركيز والرغبة في الثبات على المكان نفسه دون رغبة في فعل تحرك منه يأتي أيضاً ثبات الحديث حول فكرة معينة ومناقشتها ويكون الموضوع السياسي هو الغالب بحيث يدور الحديث بانتظام، وقد يكون هناك شخص بعينه يقوم

في الهواء إذ استفاد منها لتكوين خلفية صلبة لعمله البحثي، فأتت الموسيقى الصنعانية التي كانت قلب شغله البحثي مدعومة بفصص وتفاصيل لها علاقة بطقوس الحياة غير الحزنية لعشاق الطرب الصنعاني وتعارض مع فكرة العلية التي يخشاها أهل المدينة مثل تلك التفاصيل المرتبطة بطقوس لبالي الطرب نفسها وما يجري فيها، لا يمكن لباحث العنود عليها مكتوبة أو موقوفة في أرشيف يمكن الذهاب إليه حين حاجته إنه يروي لنا طقوس الحدث من داخله وعن طريق متابعة مباشرة ومناقشة مفرداته وتفاصيله مع الحاضرين، إنه يستفيد هنا من تلك الميزة التي تُعطى للأجانب دون غيرهم في المجتمعات الباطنية التي لا ترغب في أن يخرج سرّها للعلن لكن أصحابها يرون في الأجانب المقوم المؤقت فهو عابر في نهاية الأمر ومكتوب عليه الرحيل وترك المكان مهما طال مكوثه تشابه المسألة مع تلك السهولة التي يلقاها الغرباء أنفسهم في إقامة علاقات مع قبات المكان الأصلية إذ يتعاملون مع أولئك على هيئة من سيأخذ أسرارهم ويرحل عائداً إلى وطنه الأصلي، ولا تظهر خطورة العلاقات إلا حين حصولها مع ابن المكان والمقيم الأبدى واحتمال استخدامه لتلك الأسرار كأداة تهديد وترهيب لو حصل خلاف لاحق بين أركان العلاقة.

ولا يبدو الباحث لاميير هنا وهو يحزر دراسته على هيئة من خان الثقة التي فتحت له بداخل نبتة المجتمع فهو لا يشير إلى أسماء أو بيوت ولا يقصد التشهير حين

بتسيير دفة الحديث لو كان واحداً من المشتغلين في المجال السياسي. وهنا يحصل (في بعض المجالس الشهيرة) كشف لأسرار ومعلومات لا يجري تناولها علناً، ويسعى بعض الصحفيين إلى حضور مثل هذه الجلسات لحيازة معلومات لمشاريع كتابية يستندون إليها في أعمالهم، لكن من دون الإشارة إلى مصدر المكان والأشخاص الذين قدّموا لهم تلك المعلومات.

ولا يمكن فصل المقيّل عن عادة تناول نبتة القات الذي تُضغ أعشابها لاستخراج رحيق له سمات تعمل على تنبيه الذهن وشحذه. ويوازي هذه الرحيق جرعة ضئيلة للغاية من مادة الأمفيتامين، ولهذا يبدو تأثيره الفيزيولوجي محدوداً. ويشير لامبير هنا إلى الباحثة في الأنثروبولوجيا شيلالير التي قالت بضرورة البحث عن أسباب استهلاك القات في النتائج الاجتماعية المُصاحبة له «فهو قبل كل شيء نوع من المدخل إلى المؤسسة التي يملكها «المقيّل» ويصعب على شخص لا يتناول القات حضوره»، «فاستهلاك القات هنا وثبات التواجد في ذلك «المقيّل» يسمح للفرد على نحو يومي بتكوين دائرة علاقات اجتماعية ومن ثم توسيعها مع الوقت».

كما يتيح المقيّل مساحة للأشخاص «الباحثين عن متعة حميمة ونخبوية»، ويكون المضيف هو الشخص الذي يقوم بضم هذه المجموعة، في حين يُسمّى المدعو إلى الجلسة «الطيرفي». ومن خصوصية «الطيرفي» البحث عن صحبة أشخاص «حاليين» وهي كلمة من اللهجة «تُعبّر عن كل ما في

المتعة من غموض قد تذهب بالرء من الروحانية المتطرّفة إلى المتع الحسية التي قليلاً ما يُعترف بها». ويقصد لامبير هنا عادة التصقّت ببعض مرتادي تلك الجلسات وهم من الذين لا يهنا لهم «مقيّل» دون وجود شباب شديد الوسامة أو «حالي» يبقى طوال الجلسة ملاحقاً بنظرات أحد الحاضرين ويتكدر مزاجه لو غاب هذا «الحالي» أو تأخّر عن الحضور أو حتى لو غاب لدقائق عن المكان لقضاء حاجة.

يبدو المناخ الذي يؤدّي فيه الغناء الصنعاني هو ما يجعله «نشاطاً نخبويّاً (بامتياز) يجد في «المقيّل» إظهاره الطبيعي». إذ تنعقد، إضافة إلى النقاشات السياسية، ندوات فنية حقيقية ويجري الحديث عن «جلسات الطرب» مثلما يجري الحديث عن «جلسات الأدب». وإذا كانت الجلسة تأتي في سياق «المقيّل» فلا تكون حينها مقتصرة عليه، إذ تمتدّ لتشمل «السمر» بمعنى السمر المتعارف عليه عربياً، مع إضافة حضور الكحول وقتها كختم للحالة الوجدانية التي صارت تعطي رأس كل واحد من الحاضرين. وفي العادة لا يجري الحديث عن الأمر على نحو علنيّ بل في سياق هامشي أو من خلال رموز يتم تبادلها في الجلسة بين راغبي الشراب، وذلك احتراماً لأولئك الذين لا تقرب شفاههم أطراف الكؤوس.

في العموم يمكننا لمس حالة من المدنية في احترام أهل صنّعاء القديمة لرغبات بعضهم البعض والتستر عليها إن لزم الأمر تماشياً مع حرّية الحق في الاختيار، ويكتفي من لا يشربون بتوديع المكان ومن فيه

كي يسمحوا لهم بالبقاء والتصرف على راحتهم. لا يمكن التغافل هنا عن سمة بارزة عُرفت بها صنّعاء وشهرة نبیذها المصنّع من أجود أنواع العنب اليمني المعروف عالمياً، وقد تم توارث هذه الصناعة من يهود اليمن الذين أقاموا طويلاً في أرجاء المدينة وتركوا آثارهم واضحة في المباني عن طريق نمطهم المعماري المميز وفي الصناعات الحرفية والنبیذ.

ومن المتعارف عليه عدم ذهاب الشخص لمقيّل ما دون دعوة صريحة من صاحب المكان، وسيكون شعور الرء مزعجاً للغاية حين إدراكه بأن حضوره غير مرغوب فيه. تؤخذ المسألة هنا من باب العناصر التي من الممكن أن تؤدي لإزعاج المطرب، وعلى صاحب البيت أن يوفر له أفضل حالة ممكنة لأداء عزفه وغنائه، ومن واجبه أخذ مزاج هذه الفنان في الحسبان إذا أراد بقاءه في عداد من يحضرون مقيّله.

وفي حالات بعض العازفين يقوم هؤلاء باختيار الأشخاص المدعوين إلى المقيّل لتحاشي حضور غير القادرين على فهم وإدراك عمق الموهبة التي يحملها. كما أن نقطة البداية لا تكون إلا من جهة المطرب نفسه ولا تأتي استجابة لطلب مباشر من الحاضرين. فهذا أمر قد يعمل على تخريب الجلسة من أساسها.

يحكي في سياق التراث الصنعاني أن المطرب الشيخ علي أبو بكر بأشراحيل كان لا يتحمل أن تُطلب منه أغنية، وحصل أن انتهك أحدهم هذه القاعدة ليتناول الفنّان عوده غاضباً ويغادر المكان.

نصر واقعي لا يمت الى الخيال بصلة

احمد غصين

سينمائي، لبنان،

من افلامه

«أبي لا يزال شيوعياً»

و «المرحلة الرابعة».

الملائكة كانت عم بتقاتل بسيوفها وعلى احصنتها جنباً الى جنب مع المقاتلين.

بعدين بمشوار ثاني، رحت فتش عنهن بلكي بلاقي غير كتيبات بس ما قدرت لاقيهن، نقال لي انو هيدي تجارة غير رسمية، ومش لدعم المقاومة، تجارة مربحة في زمن الحرب.

البحث عن شيكو

كل هذا وانا في طريقي عم بسوق بالجنوب، انا كنت طالع بالاساس لفتش عن شيكو. شيكو الساحر، لاعب الخفة. ساحر عم استدعيه من طفولتي ومراهقتي في النبطية. كنت انا وابنه نرافقه بمراهقتنا، ندور معه على الحفلات يلي بيعملها بالضيق كان يقدم عروضه بنوادي الضيق ومدارسها، انا وابنه كنا عم نتعلم العزف على «الاورغ»، اتفقنا انو نكون العازفين في عرضه، عازفي الإيقاعات على الخدع، منحسّ الجمهور ونخلق جو اضافي من الغرابة، لنقول انو كنا الموسيقى التصويرية للعرض.

كل مرا كنا ننهي العرض، كان يجي لعندي شيكو ويحذرنني من كشف اية من العابه، انا يلي كنت اقف على طرف المسرح كنت شوف كل شي ومع الوقت صرت اقدر اكشف اسرار كثير من خدعه.

اجمل فقرة من العرض كانت فقرة زوزو الدمية يلي بتحكي، شيكو كان متكلم باطني، يتحاور مع زوزو الدمية يلي صانعها هوي من الخشب، وكان صرلن مع بعض اكثر من عشرين سنه. شيكو كان يشتري الفن شراية، بداياته تعرف على الساحر او الكاتب المشهور داهش، ثم انهوس بالسحر. كان يقول انه عليك ان تشتري الخدع لتنمي قدراتك، فنانو السحر يشترون من بعضهم من بعض فنونهم. اشتغل ببيروت بالسبعينات،

بيروي فارس فقيه بقصة نشرها بكتاب يعود لعام ٢٠٠٦، عن حرب ٢٠٠٦ بجنوب لبنان، انو في مقاتل كان كتير عطشان دق باب بيت ختیار بواحدة من هل الضيع، كان المقاتل بيعرف ان الختیار بعده قاعد ببيته. دق الباب عم بيطلب ماي، وعلى لسان العجوز، انه بس فتح الباب شاف المقاتل وعدد هائل من الملائكة بلباس القتال واقفين وراه، طلب المقاتل شربة ماء، فردّ عليه العجوز انو في مي لالك ايه، بس ما في مي بيكفي لكل هذا الجيش من وراك. التفت المقاتل مذهولاً من يلي عم يشوفو العجوز وهوي ما قادر يشوفو.

كيف فينا نوصف الخرافة يلي خلت العجوز يشاهد مقاتلين ملائكة؟ او انو مؤلف الكتاب خلاهن يكونوا مقاتلين؟ كيف فينا نفهم ونفكك حجم الخرافة يلي اتضخم بعد حرب ٢٠٠٦.

فيديو للكتاب المصور

انا كنت عم بسوق بالجنوب، وقت يلي إشتريت هيدا الكتيب من شباب بيعون هيدا النوع من القصص على طريق فرعيه من احدى شوارع مدينه النبطية، بيوقفوا على بسطة أشبه بحاجز، بيعرضو بضاعتهم عليك انت ومارق، فيك تدفع قد ما بدك، كلو هيدا تحت شعار دعم المقاومة.

لما قرّيت الكتاب، اجاني شعور ان العجوز لازم يشوف ملائكة عم تحمي المقاتل، مش عم بتقاتل معه، لو كانت بقدر غير بالقصة شوي، لاستطردت بالكتابه عن الملائكة لابسه ثوب ابيض طويل عم تحمي المقاتلين من الرصاص، عم تخفيهن امرار بتلف حولن الثوب الابيض لتحميهن، عم ترفعهم من القذائف.

بس في قصة ثانية من الكتيب نفسه بتأكد انو

تلاحقه، حس انو الناس عم تتحاشاه، على الاقل يلي يعرفوه. حتى انو في واحد قطع الشارع الى الرصيف الثاني حتى ما يبرق من جنبه.

كبرت القصة، إجا مين يقلو انو المدينة عم بتحكي، انك فيك تخفي الناس وان سحرك في يتحول لعمل شيطاني، بلكي فكرة الاخفاء هي يلي خوّفت الجمهور، الغياب والظهور، بس الجمهور بيؤمن بفكرة الظهور؟ يمكن لانو ما قدر يفسر هذ الفعل؟ انو كيف ممكن لرجل غير مقدس انو يكون عندو قدرات ما لها تفسير؟ السحر عمل غير مقبول وعند رجل اسمو شيكو، كان لا بد من تفسير، وكان من الطبيعي ان يلجأو لرجل الدين، لإمام المدينة، وحده الشيخ يقدر يحد من سلطة هالقوة الحارقة، قبل ان تصبح تهديد، حتى للساحر نفسه. هل كان شيكو على استعداد انو يروح لبعيد ليخلق حوله هذا الغموض، بمعنى انو يتعايش من الاشاعات يلي رح تتحول مع الوقت الى خرافة ثم الى هالة قوة. شيكو كان مرعوب، كان مرعوب، كيف كبرت القصة هل قد، السحر محرّم! ما كان هيدا قصدو ابدًا.

بين الساحر والشيخ

الساحر في مواجهة رجل الدين، منعرف مسبقا النتيجة. شو الحوار يلي دار يا ترى بين الشيخ والساحر؟ هل اجا شيكو ببذلته يلي نادرا ما يبشلهها، ام اجا مجرد من اي خدع، مستسلم كلياً لطاعة رجل الدين؟ لنعترف هون انو الشيخ ما كان عارف شو بدو يعمل بالاول، كيف بدو يقارب هذا الموضوع، وين الحقيقة من الخدعة، كان عليه انو يكون حذر من هل الساحر يلي رجع عل المدينة بقدرات غريبة. شو بيعمل اذا تحداه شيكو باشياء ما يقدر يفسرها؟ هل هو منجّم. حضر وبرأسه كل الاحاديث والآيات التي تثبت كذب هذه الافعال. رغم هيدا كان عم يبحس برهبة ما من انو يعمل هل الساحر افعال تجرّده من كل حججه وتهزمو بالمواجهة. اصلا ما بعمرؤا واجه هيك حاله من قبل، بس شيكو ما فسخلوا المجال لكل هذه المحاججة والتحدي. اجا شيكو خالي الوفاض متل ما يقولو. مستسلما كلياً لطاعة الدين. لأ. اكثر من هيك كان عم يطلب المساعدة. تنفس الشيخ بارتياح، ابتسم ابتسامته الابوية المعتادة، استعداد سلطته، وحتى انو عيطلو باسمه الاول، قلو «يا (محمد) شو كل هل الضججه يلي عاملها بالمدينة، عم تعمل سحر صاير؟» هون بلش شيكو ببرر مفهوم

في الملاهي الليلية، متل التيكو تيكو، والاولاتيلات. رجع شيكو الى النبطية أستاذ مسرح وقرر انو بدو يبشله يقدم عروضاته.

هل اجا شيكو ببذلته يلي نادرا ما يبشلهها. ام اجا مجرد من اي خدع. مستسلم كلياً لطاعة رجل الدين؟

عم بتخيل هلاً الدعاية لشيكو على مسرح ريفولي، الثمانينات، النبطية، بأي فترة بالتحديد، قبل او بعد حرب ما بين حركة امل وحزب الله الاحزاب يلي كانت عم تتقاتل بوقتها، بعد او قبل عملية للمقاومة ضد اسرائيل على تلال النبطية. دعاية لساحر على مسرح ريفولي. الدعاية بتقول «تعالو الى عالم السحر، الى عالم الدهشة، الدكتور شيكو الساحر الفنان يقدم عرضه المذهل».

شيكو مشغول بتحضير عرضه، أستاذ المسرح، جاب الخشب، المساعدة جاهزة لخدعة التقطيع، الإضاءة السوداء جاهزة ليخفي راسه، لو كان بيعرف من قبل انو هي الخدعة رح تسبب كل هذا الذعر، لفكر مرتين قبل ما يقدمها، كل شئ كان بيوحى بالنجاح. شيكو متحمس لاول حفله له بمدينته، عم نشوفو عم يبشغل كل الوقت، لوحده عم بيعلق البوسترات، عم يبساعد النجار بالخشب، وبالليل بيحلم بنجاح العرض، ساعتها يقدر انه يقدم عرض دائم بلكي، بتتعدى شهرته الجنوب كله، بيتخيل العروض يلي رح تنهال عليه.

طيب اجا الموعد، الصالة ملياني ما كان في ولا كرسي فاضيه، كل شي مبين تمام. طلع شيكو الى المسرح كان عندو شعور لا يوصف، كان في قمة نشوته، من خدعة الى خدعة، الجمهور يتمتع، يندهش، يتفاعل، لحد ما اجت لحظة خدعة اخفاء رأسه، ساد الصمت الرهيب، حس شيكو بأنو في شي غريب صار بين الجمهور، بلحظتها كان عليه ان ينتقل للعبة مدهشة اكثر او انو يعمل فقرة زوزو الكوميديه، ليغير مزاج الجمهور، بس نقص الخبرة لعندو خلاو متلبك اكثر، واخذو شوي وقت ليستعيد انفاسه ويقدر يكمل العرض. بالليل، كان شيكو مشغول بيلي حصل، شو يلي وثر الجمهور وخوفو هلقده. كان عليه ان ينتظر للصباح ليكتشف شو يلي صار.

فاق ثاني يوم ونزل دغري على السوق، حس بنظرات

حولو، مذهون باللون الذهبي. بشع أكثر كل ما تقدمت منو. كملت طريقي وانا مأخوذ بشكله، بمكانه، بلغته، بحجمه، بسرعة تنفيذه ووضع. عم بسوق قررت غير الوجهة كلياً لفوت أكثر لعمق الجنوب. بعد حوالي ساعة، قربت من وادي المشهور، اسمو وادي الحججي، يلي شهد ما يقال اشترس المعارك عام ٢٠٠٦.

بس قبل ما أوصل بشي نصف ساعة، وعلى طريق قاضييه بين ضيعة وضيفة، اصطدمت بنصب ثاني، هذه المرة ما كان محطوط على طريق دائريه بوجك دغري، ابدأ. كان عن جد على جنب الطريق.

وقفت نزلت من السيارة، كان واضح ان نفس الشخص، نفس الجهة هي يلي عملت هيدا والثاني كمان، اللغة نفسها، نفس المواد، يلي داخلها من بقايا اسلحة على شكل فني جوا النصب. بس الفرق هو بالزوايا المختلفه، والشكل الدائري ايضاً.

مين عم ينفذ هيدي النصب كلها؟ دورت ورجعت للنصب الاول وقررت اطلع على الضيعة لأسأل عنو. لاول لحظه بين سؤالي كثير غريب.

«مين حط هيدا النصب التذكاري تحت بالوادي؟» قالو: نصب؟ «قصدي التمثال».

الكل يتوافق على تسميتو، يسمونه «تمثال حزب الله». بس ما حدا بيعرف إمتا نحت، «اجو جماعة الحزب وحطوا، فجأة لقيناه تحت». يبدو انو ما في داعي روح أسأل عن النصب الثاني. فالجهة واحدة، هيك مبيت. خليني اقول انو ما اندهشت بعدم اكتراث وتعجب الناس بل الضيعة من هل النصب، بلا مبالاهن، كان لازم ولحتي أتوقف عن كل هل التساؤلات ولانو باعرف انو رح سوق وصير فتش عن نصب ثاني وتالت ما بعرف موقعه، رح ابرم بالجنوب بالعرض وبالطول، اطلع على كل زاويه، وبدل ما اعمل كل هيدا، توجهت مباشرة لعندن. لاكتشف أنو في مكتب تصاميم قائم بحد ذاته، مكتب يشرف على كل انواع هيدي النصب. مجموعة من المهندسين قاعدين بيرسمو ويبخططو لافكار واشكال ومواقع كل هيدي الانصاب.

قال المهندس حسن: «نحن ما منشغل على الطريقة الايرانية، ما في حزن وبكائيات بعملنا هنا، نعم جزء من الاعمال، في شق اخر قائم على مفاهيم الظلم والتضحية، بس نحنا خرجنا من الحرب منتصرين، نحن قوايا، ونبعمل على هذه الاسس، اساس القوة والانتصار. اصلاً صار فيك مثل ما بدنا بالزبط، لازم تفوت على

الخداع البصري والعاب الخفة وان كل هذا هو مسرح ما في سحر ابدأ. وراح بعيد حتى انو كشف بعض حيله وطرق الخدع واساليبو. ضحك الشيخ باطمئنان، ورجع وبجدية مطلقة قرر انه لازم ياخذ القرار اذا كان هذا اللعب (مثل ما سماه) حلال او حرام. «بس يا شيخنا انت شفت بعيونك انو هيدا ما هو الا خفة ايد، العاب خفة، خداع بصري».

القي الشيخ كلمة صغيره عن مفهوم الحـ والاضطـ
والحـرام. ودعاه انو يفسر يلي عم يعملو.
اضطـ ر شيكو من جديد ان يكشف بعض
الخدع الخفيفة ليقنع الناس بأنو هيدا منو سحر.

بس لحل المسألة من اساسها، دعاه الشيخ ان يجي ثاني يوم على الحسينية بعد الصلا، ليجتمع بالناس ويثبت لهم ان يلي عم يقدمه هو خدع مش اكثر. باليوم الثاني، نزل شيكو على حسينية المدينة، كانت الناس مجتمع، عيونهم مترقبه، وصل شيكو ببذله، طلع عل المنصة. هون القى الشيخ كلمة صغيره عن مفهوم الحلال والحرام، ودعاه انو يفسر يلي عم يعملو، اضطـ شيكو وهوي ومخنوق من القهر ومن جديد ان يكشف بعض الخدع الخفيفة ليقنع الناس بأنو هيدا منو سحر.

نصب اول ونصب ثاني

انا عم بدور على الساحر عم بفتش عنو، او عم ببحث عن السحر والخفة بهدي المنطقة؟

عم بسوق السيارة بالجنوب. باخذ طريق، بنزل على وادي بقلبو في سهل كثير حلو، اسمو سهل المدينة، وانا وعم بسوق بهل السهل فجأه بيطلعلي نصب ضخـم، لوهلة بين كثير ضخـم.

نصب بنص تقاطع لثلاث مفارق صغيرة. شكلو غير مألوف، إمتا إنحط هيدا الشي هون؟ مرقت من شي شهر من هون ما كان موجود. نصب مرتفعه شاهقه نحو السماء، دائرية الشكل، بنصها في شكل عامودي لأسلحة مكسره ومجمعة فوق بعضها البعض. مبيت انو قصدون يعملو شكل فني من هل الاسلحة.

ما في اي علامة او لوحة رخامية للدلالة على مناسبة النصب او لأيو ذكرى إنحط. اكتفيت بتصويرو، لقيت

الجنوب ودغري تشوفنا، تحس انو نحنا موجودين وين ما كان، تحس بعظمت انتصارنا».

السيرورة الطبيعية للحزب هي يلي وصـ المهندس الى هذه اللحظة. سيرورة طبيعيـة لتطـور حزب سياسي. او لنقول لتزايد قوته.

المهندس حسن، خريج الجامعة اللبنانية. قابلناه في مكتبه. مكتب هندسي عادي. المهندس حسن يرسم ويبخطط النصب، ويرجع بكفي عملو بالعمارة، بعمر بنايات، كأني مهندس. في كتير سككتشات على مكتبه، لاشياء نفذت واشياء بعدا عم تنتظر التنفيذ.

شو بترسم، كيف بترسم؟ شو هيدي الخطوط؟ ليش هذه الدوائر؟ هذه الزوايا الحادة؟ من وين تستوحي هذه التصاميم؟ شو بتقرأ؟ ليش هيدي الاسلحة المكسرة بمنتصف النصب. اسلحة العدو؟ شو هي اللغة، هل تكرم لحدا، لشهيد معين؟ رح تحت نصب لكل واحد من الشهداء؟ للشهداء المهمين؟ للقيدات فقط؟ كيف بتختار الموقع. ليش هيدي النصب مش بساحة الضيعة او بالساحات الاساسية للمدن؟ شو بتسميهم، نصب، تماثيل، اعمال؟ هل بتحط النصب في مكان الاستشهاد. كم بناية صممت لحد هلق؟

«من أنت؟». قتلوا «انا مخرج. عم بسأل عن النصب انو بدي صوّر كيف بتشتغلوا». «لمين؟ أحمد؟ لي انا، عم بعمل بحث حول هدي النصب ولغتها». المهندس: «حببت شو عم نعمل، حببت يلي شفتو؟ أحمد؟ اه، لا شك انه مثير للاهتمام». المهندس: «بدك تعمل فيلم عنن يعني؟ أجاب: «ايه بالطبط».

فقال: «بدك تشوف بعد شو عم نعمل؟ تعا شوف هل السكتش، بعدنا عم نشغل عليه».

أحمد: انا في المركز الرسمي للمكتب الاعلامي في مدينة النبطية.

«دباية اسرائليه واقعة بقلب فنج، اه كماشة، دباية مطبقة عليها كماشة، ثم مجموعة دبابات محطمة على جسر مكسر، مفجّر؟ أحمد: «رح تنفذوا كل هيدا الشئي، عنجد؟ بس ما في جسر هيك بالجنوب؟»

«رح نبني جسر ضخيم، مع دبابات بحجمها الحقيقي ومنرجع منفجرو. او نبني جسر محطم، ومنجيب دبابات

محطمة ومنحطها بهيدا الشكل يلي شايفوا. اظن وضع كل هيدا ومن ثم تفجيريه هو المثير، أزيط، منفجر العمل، ما قبل النصب، بعدين منتركه على حاله كيفما جاء التفجير او بعد التفجير. حتى لو ما في جسر ب الواقع. منبني لنفجره».

مش مأكدا اذا قال هيدا الشئي حرفيا. مفروض متل هيك شخصية بثوزن كل كلمة عم بتقولها، لازم احترم هيدا الشئي. واضح انو عندي علاقة مش واقعية او ملموسة مع هذه الشخصية والحزب على العموم. بخاف من الاسقاطات. بخاف من خيالي بهل العالم السياسي، من البعد عن الواقع. عشان هيك اصلا قصدت مقابلة المهندسين في المكتب تبعن.

ما كان عندي اي تعليق، سألني رأيي، ما يعرف عن جد، اذا كان هذا الشئي على ضخامته ملك كفاية، مُدهش حقيقة، شو الموقف يلي لازم اخذوا من هيك اعمال؟ تجسيد المعركة بحرفيتها، لتجميد اللحظة، لغة بتحمل تجميدها بذاتها.

هيدا العمل، رح يتنفذ بوادي، محتمل في المكان نفسه للمعركة يلي صارت. اذا وانت وعم بتسوق بعدين بالوديان والمساحات الشاسعة، رح يطلع قدامك فجأة عمل ضخيم، بيستعمل في ادوات ومركبات العدو لتمجيد انتصاره، ما كان في المهندس حسن يفكر بهيك مشاريع قبل عشر سنوات قبل خمسة، ان السيرورة الطبيعية للحزب هي يلي وصلت المهندس الى هذه اللحظة. سيرورة طبيعية لتطور حزب سياسي، او لنقول لتزايد قوته.

هون وباللحظة يلي بلش فيها المهندس برسم تصور لمشروع ضخيم بهل شكل، هي بداية اعلان التغيّر بالجغرافيا الي لا رجعة، بداية وضع خطاب بصري للمستقبل، رح يسود، لغة نصيبه جاي من تأثيرات ومدارس عده بالتاريخ، الها علاقة بسيطره سياسي لحزب واحد، الها تاريخها الحضاري بس مش الديني ويطول الحديث عنها سياسيا. بس هيدي الاشكال الهندسية والاعمال المجسمات هي الارث البصري يلي رح نحمله معنا، هي اللغة يلي رح تبتلع مخيلة المنطقة البصرية، يمكن؟

اربع مقاتلين على جبل

المهندس: «في المستقبل رح نحط مجموعة من الاعمال بكثير من المناطق».

يتخيل شهيد، خلي كل حدا يسقط وجه شهيد على جسد اي مقاتل من هؤلاء المقاتلين الاربعة. بس ليش اللون الاسود، يقترح عليه على الاقل تغير باللون؟ بلكي اللون الابيض؟ رح يتوسخ مع مرور الوقت، طيب شو عن اللون الاحمر، لون للشهادة، للتضحية، منلون الاحجار مثلاً، الذهبي، لون بيشع في وجهك طوال النهار، يلمع، يبرق من بعيد. ليش الاسود، اذا مش لأسباب لوجستية بحت.

قتلوا «وشو بصير بالارض، بالعشب والورود»؟ قاللي «في النصب للدبابات المدمره المهزومة ما ممكن للورد انو ينبت، هيدا بيدمر الفكرة من اساسها». أنا: «طيب، والعمل»؟ هو: «رح نحرق الارض، بمواد معينة وبأحجار بركانية. فيك تحرق الارض حتى ما ينبت فيها اي حياة». أنا: «بس انت بتحب الورد، ما هيك»؟

هو: «عفو»؟ أنا: «قصدي: طيب والعمل تبع المقاتلين الاربعة»؟ هو: «اه، من الحجارة البركانية نفسها رح نعرّم وننفذ هذا العمل». أنا: «فكرت بالزمن»؟ ما جاب.

كيف يمكن تمجيد الانتصار؟ ما بصدق انو سألتها إذا يحب الورد! شو خطر على بالي؟ طبعاً الملفت الصارخ هو لأي حد كنت متحفظ بمسألته. تحاشيت كل الأسئلة يلي عم تضج وتعج في داخلي. مثلاً: كيف فيك او كيف ممكن تمجيد لحظة الانتصار، وهي مش ثابتة، لا بل متتابعه مع الزمن من العام ٢٠٠٠، تمجيد انتصارك بأنصاب، بلقطة مجمدة لمقاتلين عمالقة، في حركة دائرية لاسقاط طائرة، بابقاء اسلحه العدو مدمرة، بالدبابات المفجرة. وينصب تجريدي هندسي، ما إلو رموز لتفكيك لغته من قبل الناس المارقين هونيك. مهندس يبصم نصب لحزب ايدولوجي هدفه تمجيد مقاومته، ونشر لغته البصرية وين ما كانت، بس ليش بالذات هيدي النصب الباطونية، الاثار التذكاريه يراد منها انو تدوم للأبد.

المثير بالامر ان حزب بعرف عن نفسه كحزب شيعي اسلامي بيبنى نصب بلغة وخطوط هندسيه وتجريدية لما بعد الحداثة. هذا في الارث الحضاري، يمكن مش ضروري يكون في تأثير اسلامي، هون. في الارث

فاجئني المهندس بعمل ثاني ما يقل ضخامة عن الاعمال الاخرى، «سلويت» اذا صح التعبير، او خيال على ارتفاع الف متر، على جبل مشهور هو «جبل الرفيع»، مشهور برمزيته بوقت المعارك مع اسرائيل. على هذا الجبل رح يتم وبحجارة بركانية سوداء، رسم وتصميم لاربعة مقاتلين مع اسلحتهم. طبعاً الوجوه غير واضحة هون، هل هنى شهداء سقطوا بهيدا الجبل، او لمقاتلين بعدون عم يقاتلو لهلاً، او الاثنين مع بعض؟

المثي
كحزب شيعي
وط هندسيه وتجريدية لما بعد الحداثة.

المقاتل يلي على اليمين، يبدو كأنه راجع من المعركة، سلاحه مصوّب نحو الارض، ظهره للحدود مع اسرائيل، مبين عليه تعبان شكلوا بعدو راجع من المعركة، اما المقاتل يلي على شمال الصورة، عم يطلع الجبل، شكلوا متأهب، كانو رايح صوب المعركة من جديد، صوب معركة جديده، او يمكن ببساطه راجع لموقعه بس بعدو متأهب. المقاتلين الاثنين يلي بالنص، واحد رافع سلاحه محتفلاً على ما يبدو، منتصر، والاخر على شماله، وهوي الاقل وضوحاً، وجهه مباشرة لنا، حامل سلاحه بانضباط تام، وجهه صوبنا بس ما في عيون عم بتطلع فيك، ما في احساس الا بضخامة العمل، ما بقا في صورة صغيرة لوجه شاب شهيد، ما في صورة عملاقة لعدد من الوجوه تتوزع بنفس الحجم، او اكبر بشوي حسب اهمية الشهيد.

هون عم نشوف الاجساد كاملة، اجساد بتختزل كل الشهداء يمكن، يبدو هذا العمل كأنه هربان من لقطة فيديو مفرزة، فيديو لعملية ما بالتسعينات، او لقطات مختلفة من عدة فيديوهات، لحركة جسد المقاتلين مُنتجة ومنقّذه على هذا الشكل.

ومتل ما قال المهندس حسن قبل «نحن منتصرين، اقوياء»، يمكن قصدو صار إلنا جسد كامل، لنا الجبل كله. على هيدا الجبل سقط مئات الشهداء، فلترفع اذا اجساد مقاتلين اربعة، لذكرا كل الشهداء، هذا العمل بيختزل وجوههم جميعاً، بيختزل القصة، ما رح يرسم ويحدد الوجوه، ما حيحدد الشهيد، خلي كل واحد



والتصوير، بس نحن لا منكره الكاميرا (يبتسم). بعدين شو هيدي الطائرة؟ كنا رح نسقطها».

هون بيرتعب الكاميرا مان.

صرخت: له ! هيدي عليها كاميرا للتصوير.

أجاب: «ايه بس ما فيك تصور الجبل، والطائرة عم تصور من فوق. هيدا منو مسموح ابداء، في شي امني هون».

قلت: طيب لك شو رح نعمل؟

وهيك تعاونا انا والمقاتل، لإخراج هذه اللقطة، قلت له كموش هيدا «المونيطور»، قول توقف او Cut، بس بدك واين ما بدك.

نعرض اللقطة على الشاشة، نتركها لكي تصل الى نهايتها.

بلشنا التصوير من جديد، بلشت الكاميرا تطلع، تطلع، واللقطة تتحول الى روح، الى طائر، الى كشف، والمقاتل عم بياخذ وقته. الى ان بنوصل لهيدي لحدود يلي عم بتشوفوها هلاً. قال وقف بس، ما فيك تكشف اكثر من هيك. انا المخرج الثاني كان بدّي لقطه واسعة جدا من السماء، مثل ما بتشوفنا الارواح، مثل ما بتنزل الملائكة المقاتله، والنصب موجوده بنصّها، بس هون قرر المقاتل انو هيدي هي الحدود.

هل رح يطلع العشب حول نصب على جنب الطريق، وبعدين تغمره غبرة الشارع، بيصير شكله مختلف كليا عن شكله الحالي، وبخجل يبيلشوا الناس بتفكيك مواده لاستعمالاتهم اليومية، او لتبيعون، الاضاءه من حوله هي يلي رح تختفي بالاول، بعدين الحديد او بقايا الاسلحة يلي بنصفه، مع الوقت بصير عاري بس الشكل الباطوني هو يلي رح يبقّى. بعدين بيسحبوا شرائط الكهرباء الممدوده جوائه، هون عند سحب الشرائط، رح ينشاف الحديد المسلح جوا، فيتم سحبه شوي شوي، طبعاً بعد هيك رح توقع أجزاء من الباطون لحالا، يفقد أجزاء منه، هل نقول انو بيصير طلل، أطلال؟

هل الناس رح تعمل مثل ما صار بعام ٢٠٠٠ وقت انسحبت اسرائيل، من جنوب لبنان؟ بتذكر كثير منيح كيف هجمت الناس بشكل احتفالي عنفي هستيري على المواقع المتروكة من قبل الجيش الاسرائيلي واجتاحات هذه المواقع، اخذت في طريقها كل شيء. حتى معتقل الخيام لم يرمط من هيدا الطقس، فانت الناس محتفلة مهستره واخذت كل شي فيها تاخذو من اغراض المعتقلين المحررين أنفسهم.

الاسلامي، ولتحريم النحت، والثلاثي الابعاد، ما في هيك ممارسات، بس في تجسيد للمجسمات، مسموح ان تبني مجسم للقدس، للكعبة، بنسخة طبق الاصل. بس من مواد قابله للتلف، ما فيك تبني مجسم ثابت للعبة، للكعبة، النسخة، لازم يكون قابله للهدم والتلف في اي لحظة، حتى لو كان التعاطي معها في المناسبات الدينيه هو التقديس لرمزيتها. في الارث الحضاري، بتحس انو المهندس حسن عم يبلهث نحو الما بعد الحداثه. هيك بيصم البنائيات، وهيك بيصم نصب اديلوجي.

قلتلو: «ليش هل الدائرة بالنص من فوق لهيدا النصب»؟ هو: «صمته وبالي انه لازم يكون للاستشهاديين لذكرى العمليات الاستشهادية. هو نصب الاستشهاديين على شان هيك هوي دائري مش حدّ، مش عنيف».

وهذا النصب الثاني، شو يلي عنيته بهيدا الشكل؟ «اه هذا العمل، كان لشهيد واجه الدبابات مباشرة باحدى المعارك بحرب ٢٠٠٦، ودّمّر عدد من الدبابات بصواريخه الصغيره الموجهة. هو لذكرى شهداء المواجهات البطولية».

انا: «عشان هيك هوي بهيدا الشكل»؟

المهندس: «ايه فيك تشوف الزوايا الحادة، البارزة، مش مثل العمل يلي سبقه، هون بدّي ابرز الالتحام مع العدو، المعركة، المواجهة المتكافئة. العنيفة».

التصوير من السماء

انا فيما بعد لما طلعت لصوّر هيدا النصب، كان من البديهي انو هيدي النصب المرتفعة الشاهقة والصاعده نحو السماء، انو تصويرها يكون من السماء، من اعلى نقطة، كيف فينا نشوفا من فوق. هي الايديولوجيا يلي عم بتسعى لتغيير الارض، نحو السماء، للسيطرة على السماء وعلى الارض، كيف بتطلع روح الاستشهاديين من بوابة هذا النصب بلكي، كيف بتلتقي بالملائكة المقاتله، اللقطة الصاعده، لتفرجينا خريطة جغرافيا المنطقة، وكانو اختزال الفضاء فيها، هو بين نصب واخر. نحنا وعم بنصور هيدي اللقطة، فجاء اجا شاب من الجبل، كأنو طلع من بطن الجبل، مدني على «الموتو».

طيب قلنا هيدا اكيد من الشباب المقاتلين.

سألنا: «شو عم تعملوا هون»؟

انا: عم نصور هيدا النصب. مين حضرتك؟ نحنا معنا

اذن بالتصوير هون من المكتب الاعلامي.

رد: «هيدا المكتب الاعلامي بحب الكاميرات،

يعترف هون انو حتى انا شخصيا ساهمت بهيدا
الشيء، دخلت مش مصدق انو انا بالمعتقل يلي سمعت

هيك بكون الطقس الاسطوري، الغيبة والوعد بالظهور، بالانقاذ، والشهاده والقدره على تفسير التضحية، القربان من اجل الطائفه، الانتصار، عدم تصديق الانتصار.

قصص كثيره عنو، اخذتني نشوة اللحظة، اندمجت مع
الناس ومع الهستيريا، فأخذت اول شي وقعت يدي عليه
باحدى الزنازين، يلي كانت بعدا بتفتح بريحه المعتقلين،
فما كان صرولو مارق ساعات على تحريرهم حتى قضيت
زنازينهن من كل غراضن. اظن ان بعض العناصر
الحزبية حاولت تمنع العالم من انو ياخذوا غراض وإشياء،
بس كان فات الاوان، انا نفسي لقيت حالي عم ختي
قطعة قماش مزخرفه اخذتها من تحت سرير وحدي من
الزنازانات وخبيتها بين ثيابي، بعدين وعيت وانتبهت
للكارثة يلي عم بتصير، فبلشت صرخ على بعض
الشباب يلي كانوا عم ياخذوا غراض المعتقلين، للذكرى
طبعاً: «ان هذا خطأ كبير يا جهلة، كل شي لازم يضلوا
مطرحو مثل ما تركوهن، مكانه، انو هيدا مش من حقنا،
لازم يبقوا للذكرى ولتحف فيما بعد». انا عم اقولهن
كل هيدا الشي بس عم ببعد عنهم، ويدي عم بتشد على
قطعة القماش المسروقة.

لأ ما ح يصير كل هيدا الشي. والناس مش رح تدمر
نصب ما بيرمز الى شخص بعينه او دكتاتور لتنتقم من
تمثاله، وهيدا مش موقع اسراييلي مهجور. بس مع الزمن
اذا الجهة السياسية أهملت هيدي الاعمال يلي نفذتها،
نعم رح ياكلوا العالم شوي شوي، وبهدوء، ومثل ما كان
في لا احتفال ولا افتتاح رسمي بوضع هيدي النصب
التذكاريه بمكانها، ما رح يتم الاحتفال بتدميرها.

هيك بكون الطقس الاسطوري، الغيبة والوعد بالظهور،
بالانقاذ، والشهاده والقدره على تفسير التضحية، القربان
من اجل الطائفه، الانتصار، عدم تصديق الانتصار،
فلنستدعي الاسطورة بأحسنها تحارب معنا، قبل حرب
٢٠٠٦، مش مثل بعدو بجنوب لبنان.

قلت له، وانت وين من كل هيدا الشي؟
رد عليّ شيكو: «انا مؤمن كمان، مؤمن بالظهور،
بحاول رغم كل هيدا الموت انو أعمل بالخفة الساحره.

الناس ما بقى عم بتحب الخفة، السحر، بلكي انا رح
أختفي قريباً. شو رح يقولو ساعتها: الساحر أخفى
نفسه؟ هذه حيله ثانيه من حيله؟ او انو ما حدا رح ينتبه
انو ما عدت موجود اصلاً؟ شكلو الاسطورة بلعتنا كلنا.
بعدين قلبي، بتعرف، يمكن كان لازم اكشف كل الخدع
يلي بعرفها لما وقفت بالحسينيه قدام العالم. يمكن كان
لازم اتوقف عن انو ادهش الاطفال بسحر خفيف، قبل
ما يتجسد عشقهم الطفولي فيما بعد بقتال رح يخليهن
يأمنوا بأنو الملائكة عم بتقاتل معهن».

تجميد لحظة الانتصار؟

طيب لازم اعترف اخيراً انو الموقف من مشروع سياسي
ادبولوجي عم بيفرض سيطرته البصريه بهيدا الشكل،
لبيكي، ما تفاجئت فيه، ما تفاجئت، من منطلق الممكن،
صرت متأقلم مع فكرة الممكن، ممكن وفيهن يعملو يلي
بدن ياه. اصلاً شو الاعتراض يلي انا حاملو، ليش؟ انو
تغير بالجغرافيا وكل شي بيتبعوا؟ هيدا ما بيعني شي،
اعتراض على الشكل الفني الهجين؟ اعتراض على
المشروع السياسي الديني من اساسه ومحاولة تفكيكيه؟
انو الساحر عم بيبختفي ليجي شي يحل محلو؟ مش
كثير دقيق. او انو «الممكن» اثاره اسئله حول «السائد»،
هل انا ضد السائد من منطلق السيطره، سيطرة الفكر
الواحد؟ ام انو السائد بالمشروع السياسي الطائفي،
اثار فضولي بمحاولته الفنيه اذا فينا نقول، يعني محاولة
احاطت الخطاب التعبوي السياسي بلغة فنيه جديده عم
تتطور بطريقه مش سائده.

لحد وقت قريب كان مفهوم ومألوف طريقه رسم
الشهداء، المجسمات الدينيه في المناسبات، التضخيم
في ممارسه الشعائر وتنظيمها وانعكاس كل هيدي
الممارسات شعبياً الى حد خلق سوق منظم، كمجالس
التعزیه التي تتولاها شركات خاصه، كل هذا كان
انعكاس الخطاب السائد وأعلانه، حتى استدعاء الملائكة
للقتال جنباً الى جنب، كان بعد تبلور حضور الأسطورة
من اجل تكريس السائد، وهون فينا نسأل، هل هو
استدعاء من الماضي ام من المستقبل، استدعاء الملاك من
الماضي مع سيفه للمقاتله، اي استدعاء التاريخ، بسبب
ولقوة اللحظة الحاضره (الحرب، الكارثة)، ام استدعاء
من المستقبل لان الكارثة هي بدايه الخلاص الموعود.

وهون السؤال، لماذا اذا كل هل الهوس بتجميد
بتمجيد لحظة الانتصار؟

شارلي تشابلن وفن السقوط

جون برجر

حكواتي، روائي،
كاتب مسرحي،
ناقد ورسام.
آخر أعماله
«رسوم شخصية»
(٢٠١٥).

إنّه يرى أنّ مجريات الأمور في العالم بلا رحمة ويتعدّر تفسيرها، فيعتبر ذلك تحصيل حاصل. يتركز كل نشاطه على الراهن: أن يتدبّر أمره، أن يجد مخرجاً نحو مزيد من النور. فقد لاحظ أن الحياة مليئة بظروف ومواقف تتكرر حتى تصوير مألوفة، بالرغم من غرابتها. منذ الطفولة المبكرة، ألف الأمثال والنكات والنصائح وحيل المهنة والمخاتلات، التي تشير إلى أحاجي الحياة اليومية المتكررة. ولذا يتصدى لها بحكم استشرافية لما يتعرّض له. فنادر ما يرتبك.

هذا بعض من بدهيات الحكم الاستشرافية التي اكتسبها: العجيزة هي مركز الجسد الذكوري: إنها حيث يجب أن تركز خصمك أولاً وهي غالباً ما تقع عليه عندما يطرحونك أرضاً.

النساء جيش آخر. راقب عيونهن قبل أي شيء آخر. الأقوياء هم دوماً ضحائم الجئة ومتوترون عصبياً. المبشرون لا يحبون إلا أصواتهم.

يوجد من ذوي الحاجات الخاصة حولنا ما تحتاج عرباتهم إلى شرطي سير.

تعوزنا الكلمات لتسمية أو تفسير مسارات العناء اليومي والحاجات غير المشبعة والرغبة المكبوتة.

معظم الناس لا وقت لديهم لأنفسهم مع أنهم لا يدركون ذلك. إنهم ملاحقون فيستلحقون حيواتهم استلحاقاً.

وأنت مثلهم، لن تكون لك قيمة إلا إذا وقفت جانباً، ومددت عنقك للخارج، إذذاك يتوقّف أصحابك فجأة وينظرون إليك دهشين. وفي صمت هذه الدهشة يكمن كل الكلام الذي يمكن تصوّره في أي لغة أم. فقد أنشأت فجوة اعتراف.

إن صفوف الرجال والنساء المحرومين من كل شيء أو من كل شيء تقريباً، يمكنهم أن يوقروا فجوة من حجم مناسب لكي يختبئ فيه ولد الصايغ.

الجهاز الهضمي غالباً ما يكون خارج سيطرتنا. ليست القبة للوقاية من الطقس، إنها علامة على المقام الاجتماعي.

عندما تسقط سراويل الرجال ففي الأمر مذلة، عندما ترتفع فساتين النساء فهذا إشراق.

في عالم بلا رحمة يمكن للعصا أن تكون رفيقاً. وثمة بدهيات أخرى حسب المكان أو الظروف.

لدخول معظم الأمكنة عليك أن تملك النقود أو الدليل على امتلاكها.

السلام موجودة لتتزلج عليها. النوافذ موجودة لرمي الأشياء خارجها أو لتتسلق إلى داخل من خلالها.

الشرقات مواقع للزحف أو لانزال الأشياء منها. الطبيعة المتوحشة مخبأ.

كل المطاردات دائرية. كل خطوة تخطوها قد تكون خطوة ناقصة، فتعامل مع الأمر بأناقة لحرف الأنظار عن الخراء المحتمل.

أشياء من هذا القبيل كانت جزءاً من المعرفة الأمثولية للصبي ذي العشر سنوات.

لأول مرة عمرك له رقمان - يتسكع في جنوب لندن، في لامبث، مطلع القرن العشرين.

قضى معظم طفولته في «مؤسسات الرعاية الاجتماعية». أولاً في معمل، ثم في مدرسة للأطفال البائسين. أمه، واسمها هنة، التي كان شديد التعلّق بها، لم تكن قادرة على الاهتمام به. قضت معظم حياتها في مستشفى للمجانين. كانت متحدرة من جنوب لندن من بيئة من المؤدين في القاعات الموسيقية.

كانت مؤسسات رعاية الفقراء، مثل المحرقات ومدرسة الأطفال المهجورين، تشبه السجون، وهي

لا تزال تشبه السجون، بطريقة تنظيمها وهندستها. إنها إصلاحيات للـ«خاسرين». وعندما أفكر في الصبي ذي العشر سنوات ومعاناته، أفكر بصور زيتية لأحد أصدقائي.

ميشيل كوان، قضى أكثر من نصف حياته في السجن إلى أن بلغ الأربعين، محكوماً عليه لسرقات صغيرة. بدأ التصوير الزيتي وهو في السجن.

مواضيع لوحاته حكايات تجري في العالم الخارجي الحر، كما يراها ويتخيلها سجين. والسمة الأبرز لتلك اللوحات هي الأمكنة والمواقع المغفلة الظاهرة فيها. الشخصيات المتخيلة والأبطال حيويون، يحسنون التعبير عن أنفسهم ونشطون، لكن نواصي الشوارع والبنائيات الشاهقة، والمداخل والمخارج، والآفاق والأزقة، حيث نلقى تلك الشخصيات، جرداء، بلا هوية، بلا حياة، ولا مبالية. لا أثر أينما كان أو لمحة للمسمة أم.

إننا ننظر إلى أمكنة في العالم الخارجي من خلال الزجاج الشفاف لكنه معتم وقاس لنافذة زنزانة سجين. يكبر صبي العشر سنوات ليصير مرافقاً ثم شاباً قصير القامة، نحيل جداً، له عينان زرقاوان ثاقبتان. إنه يمارس الرقص والغناء. وهو أيضاً إيمائي يبتكر حوارات معقدة بين ملامح وجهه، وحركات يديه الحساستين والهواء المحيط به، هواء حر ولا ينتمي إلى أي مكان. الممثل، يصير معلماً في فنّ النشل، ينشل الضحك من جيب بعد جيب من الارتباك والخيبة. يُخرج الأفلام ويمثّل فيها. لكن ديكوراتها جرداء، مغفلة، ولا أمّ لها.

أيّها القارئ، علّك خمنت من أقصد، أليس كذلك؟ إنه شارلي تشابلن، الولد الصايع، المتسكع.

عندما كان فريقه يصوّر «الهجوم على الذهب» العام ١٩٢٣، كان نقاش حام يدور في الاستوديو عن مساق القصة. وكانت ذبابة تحرك انتباه الحضور، فطلب تشابلن بغضب أن يؤتى إليه المضرب للالتقاطها عليها، ثم توقف فجأة وأعاد المضرب إلى مكانه. عندما سأله الآخرون: لماذا؟ فطلع إليهم وقال: «ليست هي الذبابة ذاتها».

منذ عقد من الزمن، لاحظ روسكو أربكل، «القبضاي» الأثير عند تشابلن، أن صديقه شارلي «عبقريّ هزلي متكامل، وهو بدون شك الوحيد في زمانه ممن سوف يذكّرهم القرن المقبل».

انقضى القرن وتبين أنّ ما قاله أربكل «السمين» قد

تحقّق. لقد تغيّر العالم كلياً خلال ذلك القرن، اقتصادياً واجتماعياً. مع اختراع الأفلام المحكية، ومع بناء صرح هوليوود الجديدة، تغيّرت السينما. على أنّ أفلام تشابلن لم تفقد شيئاً من فجائيتها أو فكاهتها أو سخريتها أو ألّفها. أكثر من ذلك، تبدو دلالتها أقرب إلينا، وأكثر إلحاحاً من أي وقت مضى: إنها تعليق حميم على القرن الحادي والعشرين الذي نعيش فيه. كيف أمكن ذلك؟ أريد تقديم ملاحظتين متبصّرتين. تتعلّق الأولى بنظرة تشابلن الحكّمية إلى العالم الموصوفة أعلاه، والثانية بعبقريته بما هو مهرّج، والمفارقة أنّ هذه العبقرية مدبنة إلى أبعد حدّ بعيد للبللوي التي عاشها زمن الطفولة.

إنّ الطغيان الاقتصادي الكوني لرأسمالية المالية المضاربة، في أيامنا هذه، التي تستخدم الحكومات المحليّة (وسياسيتها) بما هو قوادر العبيد، ومثلما تستخدم الإعلام العالمي بما هو مروج المخدرات التابع لها، هذا الطغيان الذي لا هدف أوحد له غير الربح والتراكم بلا هوادة، يفرض علينا نظرة ونمط حياة متقلقين، هشّين، بلا رحمة وبلا تفسير. وهذه النظرة إلى الحياة هي أقرب الآن إلى النظرة الأمثولية لصبي العشر سنوات إلى العالم مما كانته الحياة في الزمن الذي صوّر فيه شارلي تشابلن أفلامه.

في الصحافة اليوم تقرير عن إيفو موراليس، رئيس بوليفيا، الذي يتمنّع بقدر من الصراحة وطيبة القلب، يفيد بأنه اقترح قانوناً جديداً يسمح للصبيّة بأن يبدأوا العمل عند بلوغهم العاشرة من العمر. وقد باشر نحو مليون من صبيان بوليفيا العمل من أجل المساهمة في تأمين معيشة أهلهم. وسوف يمنحهم القانون حداً أدنى من الحماية القانونية.

منذ ستة أشهر، في البحر المحيط بجزيرة لامبيدوزا الإيطالية، غرق ٤٠٠ مهاجر من أفريقيا والشرق الأوسط في مركب غير صالح للإنزال إلى الماء، وهم يحاولون دخول أوروبا بطريقة غير شرعية على أمل الحصول على عمل. على امتداد الكرة الأرضية يوجد ٣٠٠ مليون من الرجال والنساء والأطفال يبحثون عن العمل يؤمّن لهم الحد الأدنى من المعيشة. لم يعد «المتسكع» فريداً.

إنّ حجم الأمور المستعصية على التفسير يتّسع يوماً بعد يوم. ذلك أنّ سياسات الاقتراع العام فقدت معناها لأنّ خطابات السياسيين الوطنيين لم يعد لها



صلة بما يفعلون ولا بما يستطيعون فعله، القرارات الأساسية التي تقرّر مصائر عالمنا اليوم يتخذها جميعاً كلُّها مضاربون ماليون ووكلائهم، وهم بلا أسماء وبكمّ سياسياً. وكما افترض ابن العشر سنوات: «تعوزنا الكلمات لتسمية أو تفسير مسيرة العناء اليومية، والحاجات غير المشبعة والرغبات المكبوتة».

يدرك المهرّج أنّ الحياة قاسية، وزئيه البالي المرّقع ذو الألوان المبهرجة هو بحدّ ذاته تعليق هزلي على تعابيره الكثيفة. المهرّج معتادٌ على الخسران. الخسران هو مقدمة العرض الذي يقّده.

يكمن زخم أفلام تشابلن في أنّها تكرّرية ومتصاعدة، كلّما سقط مرّة، انتصب على قدميه بما هو رجل جديد، والرجل الجديد هو الرجل ذاته ورجل مختلف عنه في أنّ معاً، بعد كل سقطّة يتبيّن أنّ سرّ قدرة تشابلن على أن البقاء على قدميه يكمن في تعدّده.

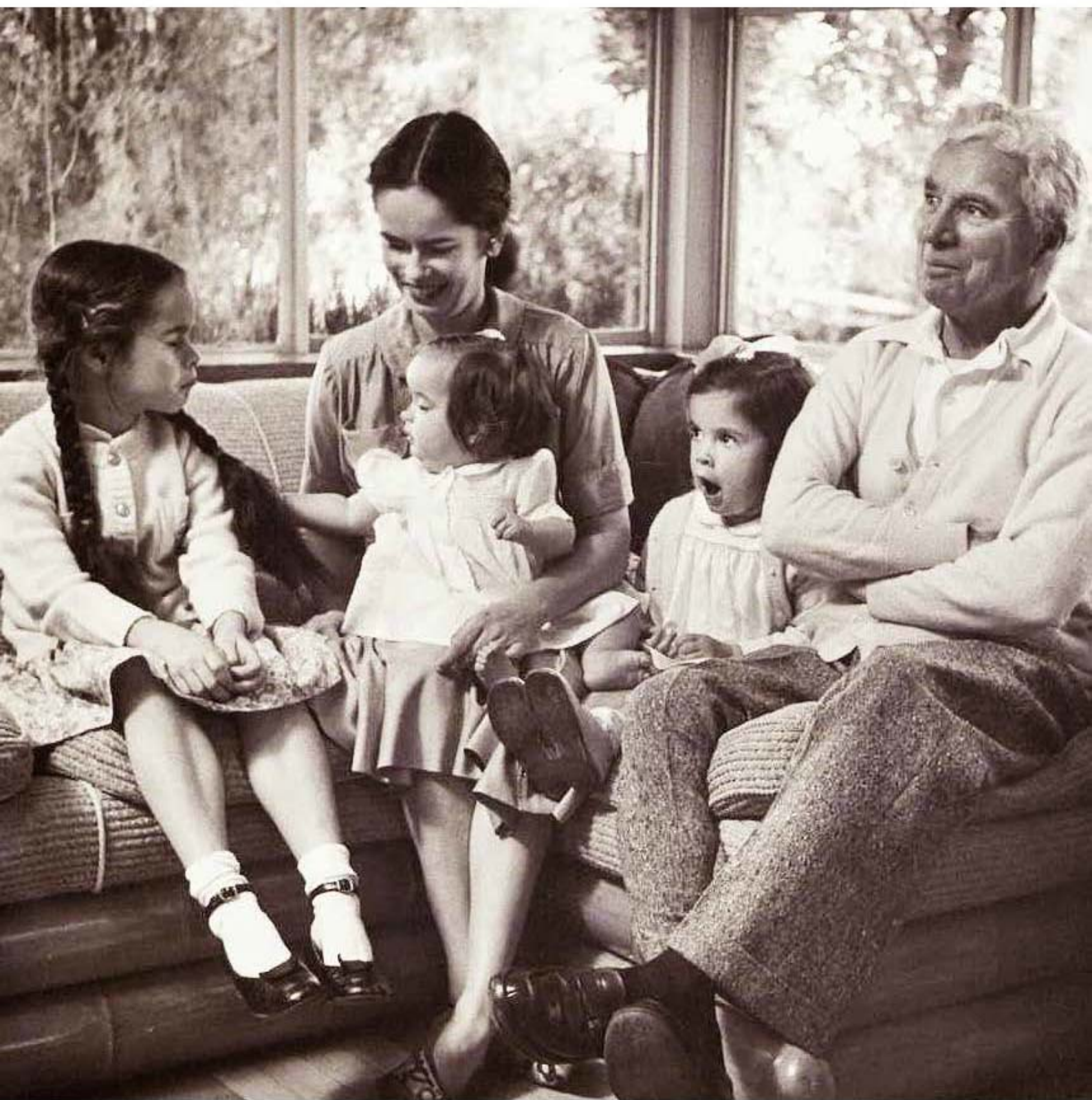
كلما سقط مرّة، انتصب على قدميه بما هو رجل جديد. والرجل الجديد هو الرجل ذاته ورجل مختلف عنه في أنّ معاً.

هو التعدّد ذاته الذي يكتّنه من أن يتمسك بأمله التالي مع أنه معتاد أن تتبدّد آماله تكرّاراً، أنّه يتعرّض للمذلة تلو المذلة برباطة جأش. وحتى عندما ينتقل إلى الهجوم المضادّ، يفعل ذلك بشيء من الندم ولكن بجرأة، فتلك الجرأة هي سرّ مناعته، فهو منيعٌ لدرجة يبدو معها أنه من أهل الخلود. ونحن، إذ نستشعر ذلك الخلود في حلقة «سيرك» أحداثنا الخائبة، نحسّه بواسطة الضحك.

في عالم شارلي تشابلن الضحك هو الاسم المستعار للخلود.

ثمة صور فوتوغرافية لتشابلن عندما كان في منتصف الثمانين. نظرت إليها ذات يوم فلاحظت أنّ التعبير على وجهه أليّف، لكنني لم أعرف السبب. عادت إليّ الفكرة لاحقاً. تحرّيت عن الأمر. التعبير على وجهه يشبه تعبيراً على وجه رامبرانت في آخر صورة ذاتية له: «صورة ذاتية بما أنا فيلسوف ضاحك أو بما أنا ديمقريّتي».

«أنا مجرد ممثل هزلي لا أساوي أكثر من فيلس»، يقول، «كل ما أطلبه هو ضحك الناس».



النزعة الأهلية والاشتراكية في أعمال ديبغو ريشيرا

إيرمغالد أملاهينز

كاتبة ومترجمة،
المكسيك، حائزة على
دكتوراه من
جامعة تورنتو عن
«جان لوك غودار
والقضية الفلسطينية».

مجتمع المستقبل وإعادة بنائه. وقد انحازوا إلى استخدام التكنولوجيا الحديثة والاشتراكية معاً كأداتين من أجل تحقيق اعتناق الإنسانية، فيما أدانوا إساءة استخدام هذه وتلك في الاتحاد السوفياتي (عن طريق النسخة «البيروقراطية» أو الستالينية من الاشتراكية والمجتمع المنحط الذي أنشأته).

سوف يكون هذا الحد المزدوج للتكنولوجيا الحديثة - بما هو أداة إخضاع وتحرير معا - موضوعاً مركزياً في جداريات ديبغو ريشيرا ابتداءً من عشرينيات القرن الماضي. فقد نشأت تلك الجداريات في إطار النقاشات حول نمط الحداثوية المميز لما يجب أن تكونه المكسيك بعد الثورة. فقد ضمن ريشيرا جدارياته روايته الخاصة عن النزعة الأهلية indigenismo، وهي التيار الفكري والثقافي والسياسي والأنثروبولوجي الذي يركز على إحياء الثقافات الأهلية ودمجها في الدولة الوطنية. تحقيقاً لانضواء السكان الأصليين في ظل سلطة الدولة الوطنية، جرى تمجيد الثقافة الأهلية بما هي جزء من تاريخ الوطن من خلال برامج رسمية متنوعة في مجالات التربية والثقافة والمؤسسات والسياسات. وكما سوف نرى لاحقاً، سوف يقدم ريشيرا، بناءً على المثل الاشتراكية وعلى نقد الرأسمالية، رؤية للنزعة الأهلية بديلة عن تلك التي تعرضها الدولة بمثل ما هي بديلة عن الاشتراكية السوفياتية. ومع أن هذه السردية البصرية، كانت تتعاطى مع تناقضات عدة، فقد حوّلت نتاج ريشيرا الفني نتاجاً ثورياً يقارب ما اعتبره هو وبريتون وتروتسكي «الفن الحق» في بيانهم.

وُلد ديبغو ريشيرا في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٦ في غواناغاتو، وتم منذ عمر مبكر عن مؤهلات استثنائية في الرسم والتصوير. وعندما انتقلت أسرته إلى العاصمة وهو في العاشرة، انتسب ديبغو إلى أكاديمية سان كارلوس

في «بيان من أجل فن ثوري مستقل» (١٩٣٨) الذي وقّعه كل من أندريه بریتون وديبغو ريشيرا وليون تروتسكي، يدين الموقعون الخطر الذي يتهدد الحضارة من قبل الفاشية مجسدة بألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي. في استباق لاندلاع الحرب العالمية الثانية، يصفون ظروف الإنتاج الفكري على أنها منحلة، ويدينون تبعية فنانين في ظل النظامين وتنكرهم بالتالي لمبادئ الفن وقيمه. ويرى موقعو البيان أن كلا النظامين يشتغل وفق أشكال اجتماعية معادية للفرد. من هنا الحاجة إلى تحرير الإنسان والفن من فخ العلوم والفنون البرجوازي الذي نصبه هذان النظامان. في معارضتهم للستالينية، يتعاهد بریتون وريشيرا وتروتسكي على العمل من أجل تحرير الفن ومن أجل قيام فن يعمل لصالح الثورة الاشتراكية الحقة. كتبوا يقولون:

«الفن الحق، الذي لا يكتفي بأن يقدم منوعات من نماذج جاهزة، وإنما يصبر بدلاً من ذلك على التعبير عن الحاجات الجوانية للإنسان وللإنسانية في عصره - إن الفن الحق هذا لا يستطيع إلا أن يكون ثورياً وإلا أن يعمل من أجل إعادة التكوين الشاملة والجذرية للمجتمع. وهذا هو واجبه، على الأقل من أجل تخليص الإنتاج الفكري من القيود التي تكبله، وتمكين الإنسانية من أن ترقى إلى تلك الذرى التي بلغها عباقرة معزولون في الماضي. إننا ندرك أن وحدها الثورة الاشتراكية هي القادرة على تمهيد الطريق من أجل ثقافة جديدة»^١.

النزعة الأهلية في الفن

رأى موقعو البيان الثلاثة إلى أن الفن الحق هو بالضرورة ثوري لأنه يمكن الإنسان والفن معاً من الاعتناق من القيود التي فرضتها الرأسمالية والاشتراكية البيروقراطية على المجتمع. فالفن الحق، في رأيهم، قادر على إعلان قدوم

١ متوافر على مواقع التواصل الاجتماعي. انظر https://www.marxists.org/subject/art/lit_crit/works/rivera/manifesto.htm

للفنون، ودرس على يد رسامين بارزين أمثال سانتياغو ريبول وأندرياس ريبوس وجوسي ماريا فيلاسكو وجوسي سالومي بينا. وفي تلك السنوات تعرّف أيضاً إلى الحفار جوسي غواديلوبي بوسادا الذي سوف يكون له تأثير كبير على أعماله. وبعد ست سنوات من الدرس في أكاديمية سان كارلوس، تمزّد ريفيرا على الواقعية شبه الفوتغرافية التي تطبع أسلوب أكاديميات الفنّون وبدأ العمل على نحو مستقل. في العام ١٩٠٧ حصل ديبغو على منحة دراسية في أكاديمية سان فرناندو في مدريد بإسبانيا، ثمّ عاش بين ١٩١١ و ١٩٢٠ في باريس، حيث تمكّن من الأساليب الطليعية. لم يكتف بالتكيفية، فدرس فن رسم «الفريسكو» في إيطاليا قبل أن يعود إلى المكسيك في العام ١٩٢١. وبعد سنة من ذلك، سوف ينفذ جداريته الأولى في مدرّج بوليفار في المدرسة الوطنية العليا.

تعود لوحته الأولى إلى العام ١٩١٥ وعنوانها «مشهد زاباتيستي: المغاور» المعلقة في المتحف الوطني في مكسيكو العاصمة. إنها مستوحاة من الثورة المكسيكية ١٩١٠-١٩٢٠ وتتضمّن عنصرين أساسيين من سردية ريفيرا الثورية: الاشتراكية والنزعة الأهلية. كانت الصيغة المكسيكية من النزعة الأهلية من تنظير المدير العام لوزارة التعليم حينها جوسي فاسكونسيلوس الذي صاغ مصطلح «العرق الكوني» الذي يجسّد مثالا مهجنا لا طبقيا من الوحدة الإثنية. على أنّ فكرة العرق الكوني تنطوي على مضمرات عرقية آرية، تنمّ عن نظرة جوهريّة تمزج النزعة العرقية والاستعلاء الأبوي تجاه سكان المكسيك الأصليين. بالمقارنة، كان تصوير ريفيرا للقيم الأهلية بعيداً كلّ البعد عن تعريف فاسكونسيلو، حيث يتحوّل هذا الأخير إلى أقسى نقاده ابتداءً من ثلاثينيات القرن الماضي. يجسّد «المشهد الزاباتيستي» رواية ريفيرا البديلة للنزعة الأهلية. إنها توليفة قائمة على خدعة بصرية وعلى تأويل لصورة فوتوغرافية شهيرة للقائد الثوري إميليانو زاباتا كانت شائعة في تلك الفترة. في هذه التوليفة التكعيبية المزوّرة، دمج ريفيرا مصادر عابرة للثقافات ليس من أجل العودة إلى الجذور الأهلية، وإنّما من أجل التوليف بين زمنيّات مختلفة بواسطة نزعة أهلية تحويلية، ليست منبئة في الماضي وإنّما قائمة في الحاضر الحديث عينه.

لينين في جدارية روكفلر

فيما بعد، سوف يضمّن ريفيرا جدارياته رؤى مثالية تعود إلى ثقافة المكسيك قبل الغزو الإسباني وثقافة أميركا

الوسطى. اعتمد على المكتشفات الأركيولوجية في زمانه، ليعيد تصوير عمارة وأبطال وألهة وأساطير ومعتقدات عائدة إلى تلك الحقبة التاريخية، فتتعايش في جدارياته مشاهد من ماضي المكسيك الأهلي المتجدّد مع صور الحداثة، يقرأ الماضي قبل الإسباني قراءة جديدة فيقدّم تاريخاً مشتركاً لجميع المكسيكيين. بحمت عن ذلك مقارنة بين الفلاح المكسيكي والركنين الاشتراكي والرأسمالي للتقدّم المتمثلين بالتصنيع والعلوم والتكنولوجيا، تظهر كلّها منفصلة عن الواقع المعاصر للسكان الأصليين.

«الحليقة» (١٩٢٣) عنوان أوّل جدارية له مرسومة في مدرج سيمون بوليفار في المدرسة الوطنية العليا، وهي تصوّر نقاشات جارية في زمنه عن القومية والوطنية، واحتقار العالم الأكاديمي لما هو شعبي، وضرورة استنقاذ العالم قبل الإسباني والصلات القائمة مع الديانة والثقافة والصناعة الأوروبية. ولا عجب أن ينتقد فاسكونسيلوس هذه الجدارية على اعتبار أنها ليست «مكسيكية» بما فيه الكفاية. في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٤، بدأ ريفيرا العمل في كلية الزراعة في تشابنغو، وهي دير يسوعي قديم، كلف بتزيين القسم الإداري منه والكنيسة القديمة. وكان القصد من الجدارية إحياء ذكرى توزيع الأرض على الفلاحين بعد الثورة، أي عملية ثورية قيد التنفيذ، وبالتالي تصوير ريفيرا للاشتراكية في الزراعة.

في العام ١٩٣٠، رسم ديبغو ريفيرا جداريته المثيرة للجدل في نيويورك. كان هو وزوجته فريدا كاهلو عضوين في الحزب الشيوعي يعكسان في فنّهما معتقداتهما السياسية. في العام ١٩٣٤، وسط الأزمة الاقتصادية الكبرى، كلّفت أسرة روكفلر الفنان برسم جدارية في مدخل البناية الرئيسة في «روكفلر سنتر» والذي جرى تصوّره بما هو عمارة لمجد إنجازات الإنسانية ومركز تبادل اقتصادي ومالي وثقافي وللتجارة الخارجية يشهد على التزام أسرة روكفلر بالمسؤولية الاجتماعية. وكان المفترض أن تحتلّ جدارية ريفيرا «الإنسان على مفترق الطرق» تلك مدخل المركز. وكان ريفيرا قد زوّج عدّة مبان رسمية في مكسيكو ونظم معرضاً فردياً كبيراً في متحف ألفن الحديث في نيويورك العام ١٩٣١ وكلف بالتصوير على جدران ساحة الحديقة في مؤسسة ديترويت للفنون.

في تلك الجدارية، صوّر ريفيرا قلب الولايات المتحدة الصناعي بما هو ملحمة مديح للصناعة والآلة والعمل البشري والسيطرة على الطبيعة وتحرّر الإنسان. ورسم ريفيرا في وسط جدارية روكفلر سنتر، الثالوث الثوري

المتكوّن من جندي وفلاح وعامل (الذي سوف تكون له لاحقاً ملامح وجه لينين) يتشاركون في حمل المنجل والمطربة. وفي الجدارية أيضاً مشاهد من مسيرة في ساحة موسكو الحمراء يتراءى في مؤخرتها مدفن لينين. وصوّر ديبغو المعرفة العلمية والحداثة من خلال الطائرات ومناظير المراسد الفلكية ومجهر المختبرات وأنايب الأشعة الكاثودية وشاشات السينما. هكذا باختصار صوّر ريشيرا الجبروت الصناعي للولايات المتحدة.

في سرديّة الجدارية، يقع على العامل أن يختار بين طريقين: الرأسمالية أو الاشتراكية، تظهر الرأسمالية ألى اليمين في مشاهد تصوّر الفساد والخراب والأمراض والفوارق الاقتصادية والبطالة. وفي تلك الجهة أيضاً، تتمثّل الرأسمالية بواسطة ألمانيا النازية وانحطاط الأثرياء وعذاب المستغلّين وبالتظاهرات في «وول ستريت» تقمعها الشرطة الخيّالة إلى جانب البرجوازية التي تحتسي الشمبانيا وتلعب البريدج. أمّا في الجانب الشيوعي، فتلقى النساء الرياضيات والجماهير السوفياتية المحتشدة في تظاهرات «الساحة الحمراء». وبين هاتين اللوحتين، يبدو الثالوث يتوسطه لينين، متشابك اليدين مع العمّال والأفريقيين الأميركيين ومع جندي وفلاح وأمّ وزوج شاب وممثّلين آخرين عن الشعب.

في رسمه الشعوب الأفريقية الأميركية والقمع في «وول ستريت» وانحطاط الطبقات العليا، تحدّى ديبغو أفراد الأسرة التي كلّفته رسم الجدارية واستفّرهم، فطالبه روكفلر باستبدال وجه لينين بوجه شخص مجهول، وحثّته أنّ وجود القائد الشيوعي في الجدارية يستفّر عابري السبيل قرب العمارة. رفض ديبغو، فدُمّرت الجدارية. أثار ذلك سجّالاً حادّ الاستقطاب يدافع فيه البعض عن الفنان وعمله بحجّة أنّ تدمير الجدارية من قبيل فرض الرقابة على الفن، فيما دافع آخرون عن أسرة روكفلر، وحثّتهم أنّ الجدارية تكليف خاص قائم على ملك فرديّ فيحقّ للمالك أن يدمّر الموادّ التي تتكوّن منه. عند عودة فريدا وديبغو إلى المكسيك بعد عام من ذلك، كلّفت الحكومة المكسيكية الفنان بأن يعيد بناء الجدارية في «قصر الفنون» بمكسيكو العاصمة، حيث لم تُثر الجدارية ردود الفعل ذاتها التي أثارها في نيويورك، مركز الرأسمالية المالية.

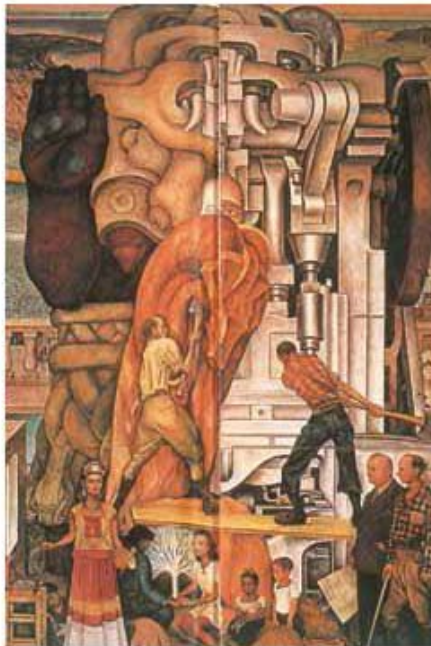
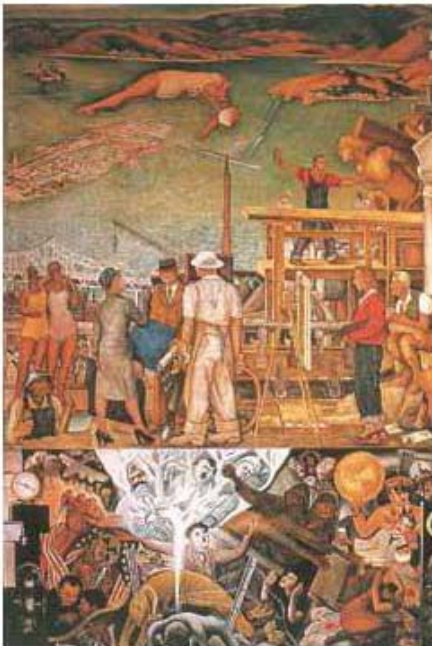
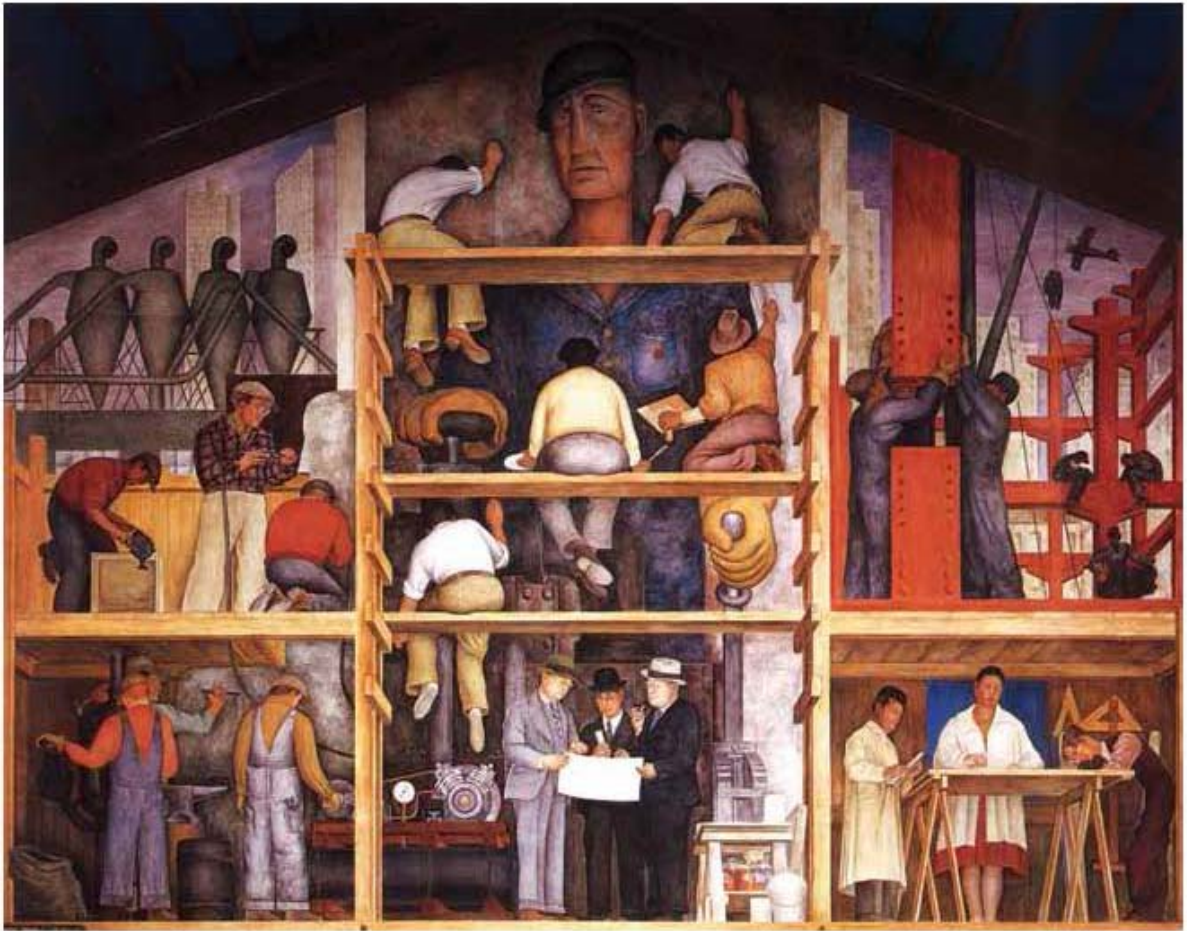
تناقضات الحداثة

في الجداريات التي رسمها بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ في وزارة التربية، كان ريشيرا قد عزّز رؤية لنزعة أهليّة بديلة من

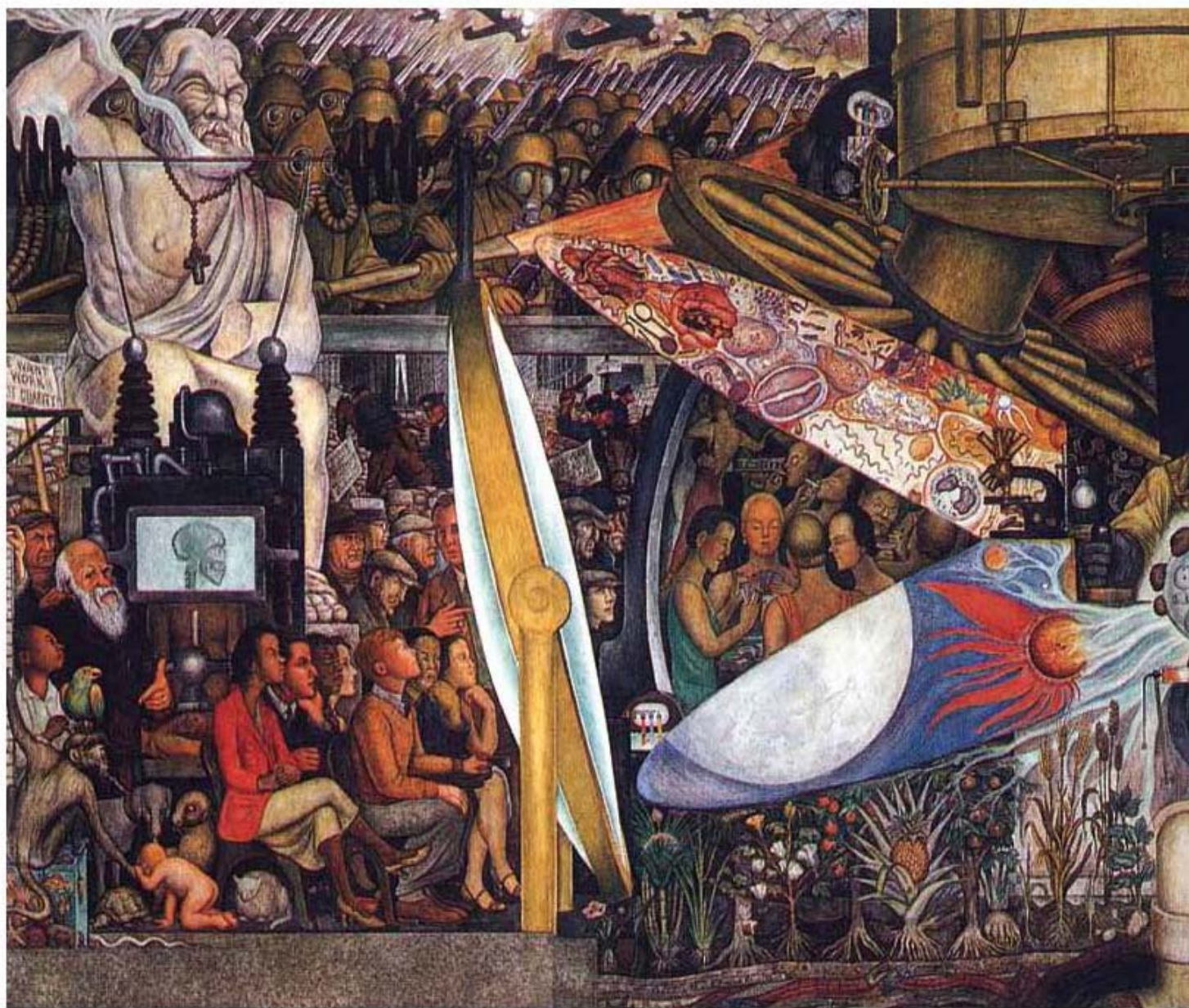
خلال تصويره التفاوت في التطوّر التاريخي. فمثلاً، في «ساحة العمل» في وزارة التربية، صوّر التقدّم الذي حمله التصنيع والعلوم والتكنولوجيا، ولكن تظهر هذه جميعها منفصلة عن الواقع المعاصر للسكان الأصليين. وعلى الرغم من ذلك، فمُشاهد العلوم الأوروبية الحديثة - كما هي مجسّدة في لوحة «الكيمياء» - تقابلها مشاهد من الفكر قبل الإسباني القديم، كما في مشهد «الجيولوجيا». هكذا تُعرّض على المشاهد رؤية شاملة تعدّدية لتاريخ العلوم، ليس بما هو تاريخ غير أوروبي فحسب وإنما بما هو أيضاً إنجّاز غير مكتمل للثقافتين الأوروبية وغير الأوروبية، وبما هو جزء من مسار أوسع من التطوّر التاريخي المتفاوت.

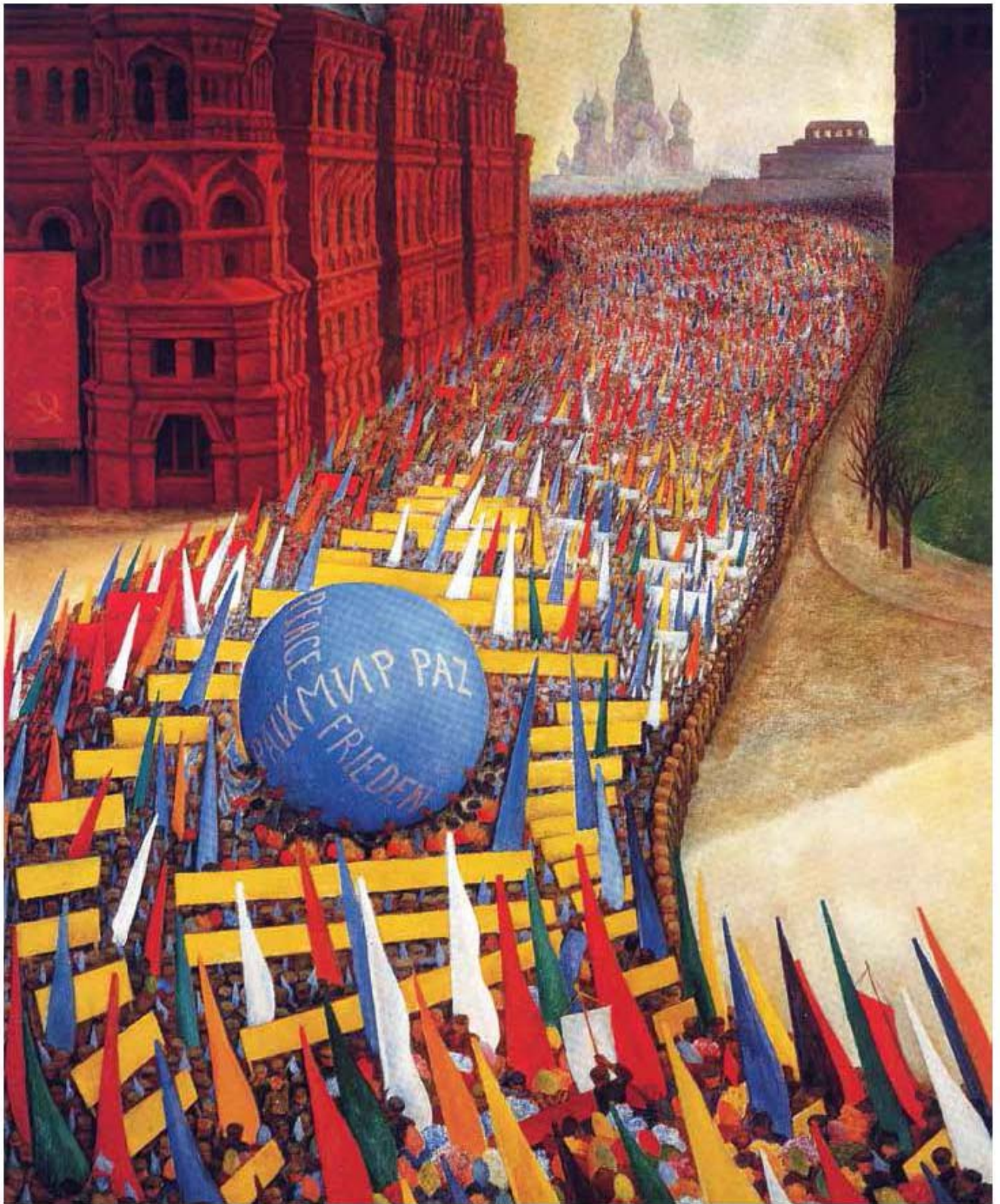
على الغرار ذاته، ألف ريشيرا في العام ١٩٥٣ جدارية في مستشفى لا رازا في مكسيكو العاصمة عنوانها «تاريخ الطب في المكسيك: الشعب يطالب بعناية صحيّة أفضل». في تلك الجدارية، يتناول ريشيرا الطب قبل الإسباني بالتوازي مع الطب الأوروبي الغربي. تعبّر هذه النظرة التعدّدية للطب عن تهجين في اللغة البصرية، إذ يصوّر ريشيرا شخصاً ممّا قبل الحقبة الإسبانية من أمثال تلازولتيوول (إلهة الذرة) مستخدماً تقاليد رسم عائدة إلى عصر النهضة الأوروبي من أجل توليد أشكال واقعية. هذا التهجين بين الأزمان والأشكال والمعارف المختلفة، حيث يتعايش الحاضر مع الماضي ويغذي واحدهما الآخر، هو نفسه ما يميّز لوحة «مشهد زاباتستي» المرسومة العام ١٩١٥ حيث تشهد هذه الجدارية على تناقضات الحداثة غير المحلولة: ابتعاد التكنولوجيا والعلوم عن الواقع الفعلي للشعوب الأصليين، والتعايش والتناظر معاً بين الماضي التاريخي والحاضر، وطغيان البيروقراطية على الاشتراكية وفشل نزوع هذه الأخيرة إلى الاتّساق. فإذا كانت النزعة الأهلية الرسمية تمثّل تمجيذاً سطحياً للثقافة قبل الإسبانية، فإن ريشيرا، في نقلة جذرية، يقدّم لنا ماضياً قبل إسباني متشابكاً مع قضايا العرق والطبقة، بمثل ما يصوّر لنا صورة مميّزة لاشتراكية المستقبل مخصوصة بواقع المكسيك بعد الحقبة الكولونيالية.

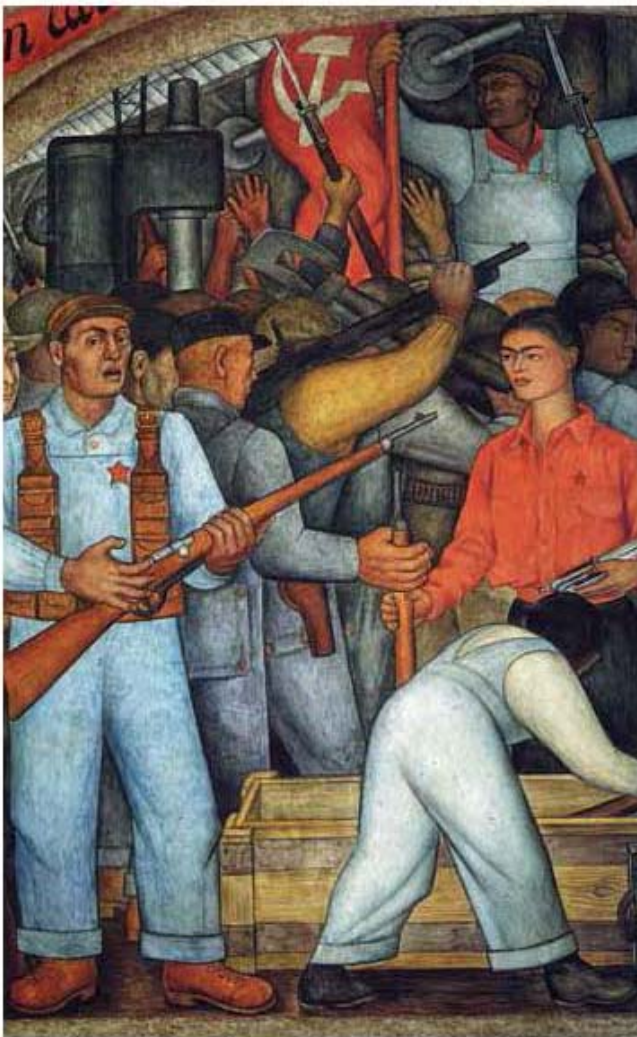
يقول ريشيرا في مقابلة مع مجلة «أموتا» البيروفية: «ليس الفنان الثوري بمبدع روائع فنية يثير الاستهزاء أو التمجيد بل هو مقاتل من مقاتلي الطبيعة [...] وهو أحياناً مقاتل غواري بالسلاح [...] إنّ الفنان يكون ثورياً أو لا يكون [...] والشغف الطاغى عنده في زمننا الحاضر - كما في أي زمن آخر - يجب أن يلتقي مع التطلعات المشتركة للجماهير الشعبية».





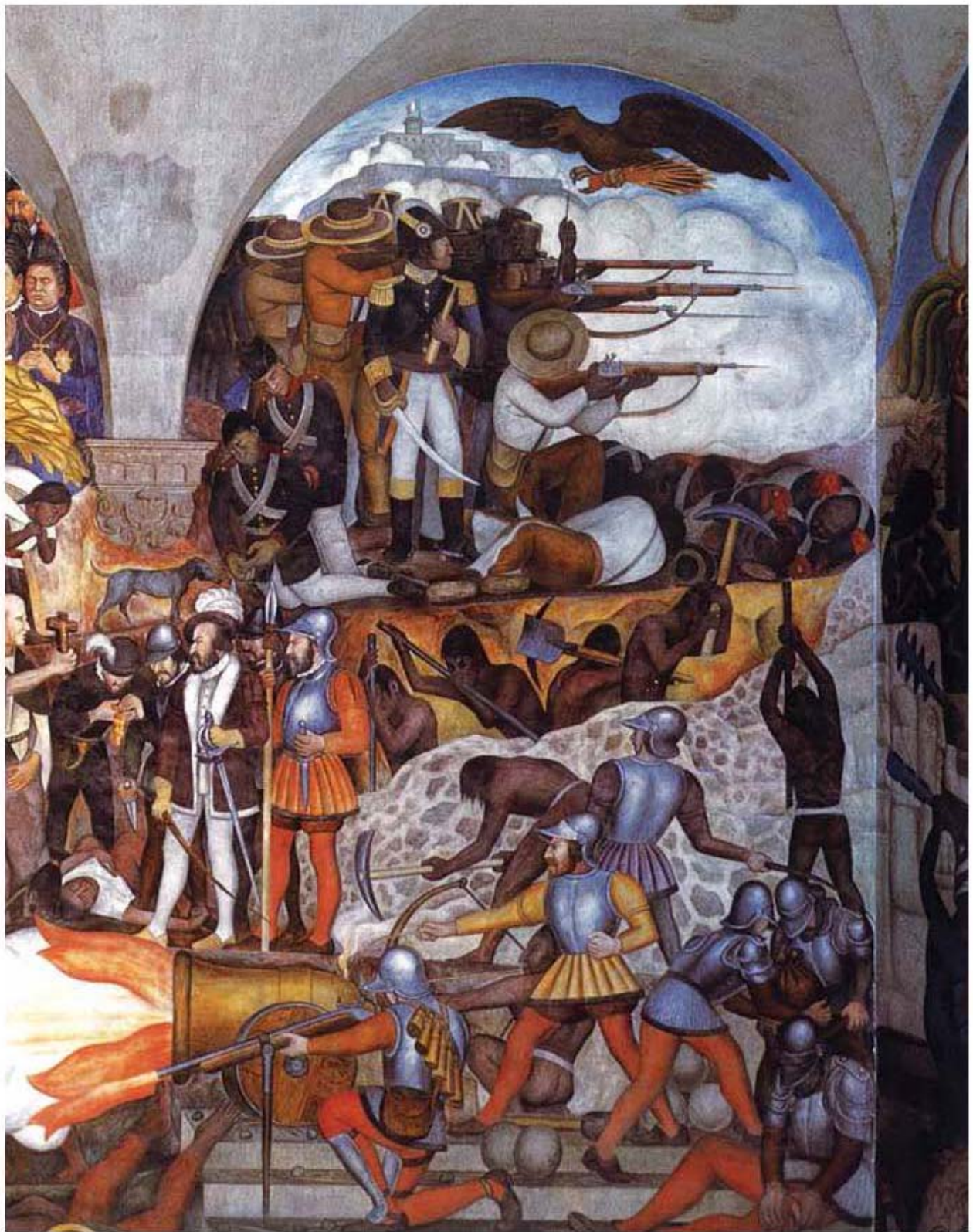














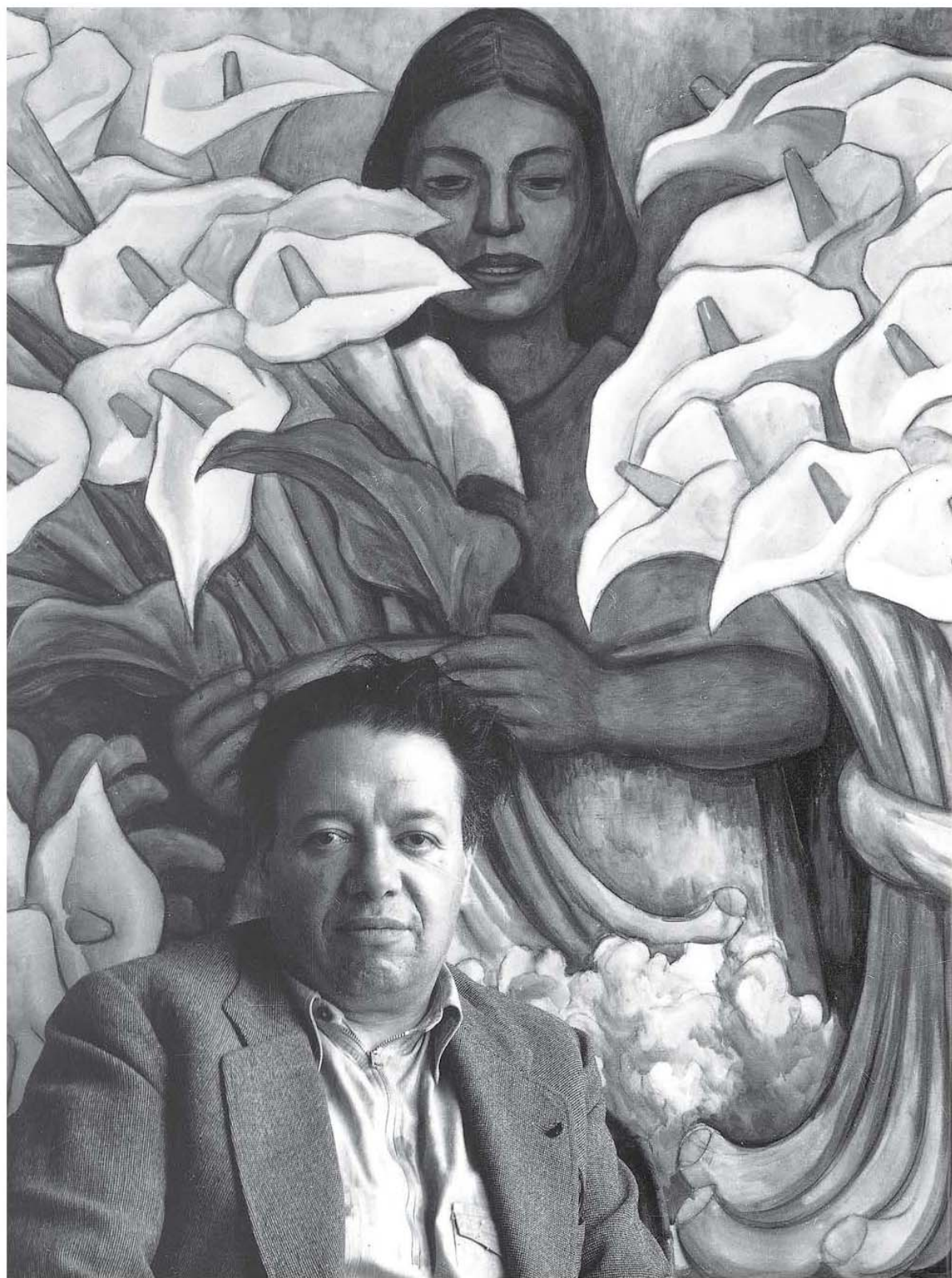














عن نهاية السلطنة العثمانية فصل من سيرة

إنيل عدنان

روائية وشاعرة ورسامة
ومؤلفة مسرحية من
سورية ولبنان. من
أعمالها المترجمة إلى
العربية «الست ماري
روز»، «سفر الرؤيا
العربي»، «مدن ونساء»
«رسائل إلى فواز»،
«قصائد الزيفون»،
«باريس عندما تكون
عارية»، «في قلب قلب
مدينة أخرى».

لحظة وفاة نابليون، في جنوب البلقان، في آخر موقع حيث كانت اللغة اليونانية لا تزال هي اللغة القومية بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية.

القرن التاسع عشر قرن غريب. بدأت خلاله إمبراطوريات الداخل تنهار ببطء ولكن بثقة، فيما إمبراطوريات الخارج، الإمبراطوريات الكولونيالية، يؤسسها الفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والبلجيكيون في عموم أفريقيا وفي أجزاء كبيرة جداً من آسيا حتى لا نقول فيها كلها. فتلقى حركات تحرر من جهة، وتلقى من جهة ثانية وفي الآن ذاته شعوباً أخرى يجري إخضاعها بقسوة.

في ما يتعلق بشعوب السلطنة العثمانية، والأرمن منهم خصوصاً، يجب أن تُبرز قوة أوروبية جديدة. في العام ١٨٧٧، غزت روسيا تركيا عبر حدود القفقاز، وهناك كان يوجد القسم الأكبر من السكان الأرمن. لم يقف الأرمن إلى جانب الروس ظناً منهم أنهم بذلك سوف يكسبون بلداً مستقلاً. طبعاً كانت توجد قرى تركية ويونانية في المناطق ذات الأغلبية الأرمنية. خلال تلك الحرب ١٨٧٧-٧٨ كان القمع التركي وحشياً. وكان الشيشان والأكراد في الصفوف الأمامية من قوى القمع الذي جرى على نطاق واسع جداً. وأقول إن ما كان يجري كان حرباً أهلية، مع أن الكلمة لم تلفظ حينها، والحروب الأهلية كاسحة بالنسبة إلى السكان. هكذا تعرّضت السلطة العثمانية في إسطنبول لخطر مزدوج على امتداد السنوات: القوى الأوروبية المصممة على تدمير السلطنة العثمانية، خصوصاً في دفع أقليته، «الأم» داخله، والعالم العربي كذلك، إلى الثورة المسلحة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تمثل الخطر في مجموعة من الضباط الذين راحوا يطالبون بإجراءات جذرية، وهم ضباط «تركيا الفتاة».

في البداية، لم تكن «تركيا الفتاة» قد اتخذت موقفاً

«إنني لا أمركم بأن تقاتلوا بل أمركم بأن تموتوا». كان هذا مزاج العصر. وهو ما قاله مصطفى كمال لقواته في ذلك اليوم الحاسم من معركة المضائق (الدردنيل) في ٢٥ نيسان / أبريل ١٩١٥. هذا القول سوف يغيّر مصير تركيا. بلغ عدد الجنود العثمانيين القتلى ٢٥٣ ألف جندي. لكنهم كسبوا المعركة التي استمرت قرابة تسعة أشهر وانتهت بهزيمة كاملة. لقد أفشلت محاولة البريطانيين مع حلفائهم الأستراليين والنيوزيلانديين الوصول إلى إسطنبول. وهكذا ارتقى إلى مصاف الأبطال قائد لواء المشاة ٥٧ الذي قال «لست أمركم بأن تقاتلوا بل أمركم بأن تموتوا. بعد قليل سوف تأتي وحدات جديدة وضباط جدد ويأخذون أماكنهم».

أبي، الذي كان ضابط أركان في السلطنة العثمانية، مارس دوراً قيادياً في تلك المعركة وقد أصيب في فخذه ومؤخرة الرأس. وسوف أعود إلى هذه الحادثة.

اعتقالات في صفوف الأرمن

قضت مفارقة ساخرة كبيرة في واقع أن ٢٥ نيسان / أبريل ١٩١٥، يوم بداية «معركة المضائق» الكبرى، كانت شرطة إسطنبول تعتقل مائتي وجيه أرمني بقصد نفيهم وربما تصفيتهم. القصة معروفة جداً، لكنها لا تمنع من إثارة السؤال: ما الذي أدى إلى حملة الاعتقالات هذه؟

يقضي الجواب أن نقوم برحلة إلى وراء. فلنعد إلى العام ١٨٢١، قبل مئة عام بالضبط من تفكيك السلطنة العثمانية العام ١٩٢١.

في العام ١٨٢١، نالت اليونان استقلالها. والغريب أن غزوات نابليون، وحلمه الإمبراطوري، أطلقا في أوروبا رغبة في تدمير مجموعات كبرى مكونة من أمم وشعوب وأوطان مختلفة. حدث أول شرخ في السلطنة العثمانية

الصحراء. غالباً ما كان يتحدث عن مخيماته فيها وعن أنوارها. وأكثر ما أثار اهتمامه انتقال كتيبان الرمان من موقع لآخر. «ينام المرء وأمامه سلسلة من التلال ويستيقظ فإذا هو أمام سلسلة أخرى!». ووقع حادث مؤسف جعله يغادر المكان من جديد. اتهم ابن شبيخ قبيلة بالكذب، وتلك إهانة كبرى. طالبه الشبيخ بأن يغادر سريعاً عند الفجر. قال له «أنت تحت حمايتي ولا أستطيع أن أؤذيك، ولكن إذا قبض عليك رجالي خارج المخيم فسوف تلقى حتفك». ركب حصانه عند انبلاج الصباح وفرّ نحو الشمال حتى وصل إلى المحمية العسكرية التالية على طريق دمشق.

لعله عند انتهاء تعليمه بين ١٩١٠ و ١٩١٢، تزوّج أبي في دمشق امرأة شابة اسمها لطيفة وولد له منها ثلاثة أبناء: سميحة ونضيضة وبرهان الدين. أما اسمه فهو عساف قدرى وكان يسمى قدرى بك. لما قرر الفرنسيون تسجيل نفوس المواطنين في لبنان في العام ١٩٣٢، وطالبوه بأن يتخذوا لأنفسهم أسماء عائلية، أضاف أبي اسم أبيه عدنان إلى اسمه.

عندما انقسمت جماعة «تركيا الفتاة»، وجلّ أعضائها من زملاء الدراسة، حوّل بعض الأمور مثل النزعة الألمانية لدى أنور باشا وانجذاب كمال إلى إنكلترا وفرنسا، ومبدأ الدولة الوطنية، كان أبي يتمنى تحقيق إصلاحات، لكنه كان معجباً بالجنرالات الألمان الذين كانوا يُعدّون لمعركة الدفاع عن المضائق، أي حماية إسطنبول. وكان على صلة وثيقة بكمال وقد شارك في حملات ليبيا وبلغاريا وغالبولي. لم يكن قومياً عربياً. كانت بريطانيا بالنسبة إليه مصدر كل مصائب السلطنة.

في بداية العام ١٩١٤، أو نهاية ١٩١٣، التقى والذي بأمي، يونانية من إزمير تصغره بنحو ١٨ سنة ومن أسرة فقيرة نوعاً ما. تزوجها، وكانت الزيجات المختلطة نادرة جداً في تلك الأيام. لاحقاً، وأنا طفلة في بيروت، سمعت أنها قضت سنوات سعيدة معه عندما كانا في إسطنبول، يرتادان المقاهي حيث الغناء، ويصاحبان مغنين ومغنيات من المشهورين.

عندما اعتقل اليونانيون في معسكرات لمنعهم من الانضمام إلى الجيش اليوناني المحتشد في أوروبا قصد السيطرة على إزمير والساحل، عمل أبي على إسكان أشقاء أمي الثلاثة عندنا ولكن بـ«تكتّم»، وتولى تأمين حاجات أسرهم.

في العام ١٨٧٧ حاولت روسيا اجتياح المقاطعات الواقعة شرقي تركيا. وعندما اندلعت الحرب العام ١٩١٤، بين فرنسا وإنكلترا من جهة وألمانيا وتركيا من جهة أخرى،

معادياً للسلطان بذاته. كانوا يريدون تحديث تركيا والتعاون مع مسيحيي السلطنة لتفعيل الأمور. في العام ١٩٠٥ أنشأ مصطفى كمال جمعية «الوطن والحرية»، لكنها كانت أكثر جذرية إذ نادى بضرورة إسقاط السلطان. قام انقلاب «تركيا الفتاة» العام ١٩٠٨، وانضم كمال إلى قيادة أركان الجيش في ١٩١١. وفي العام التالي اندلعت حرب بين تركيا من جهة وتحالف مونتي نيجرو وبلاد الصرب والبلغار واليونان من جهة أخرى. أخيراً، قاوم الأتراك وأمكن تحقيق نوع من السلام.

أبي، زميل أتاتورك

أريد أن أتحدث هنا عن حياة أبي لأنها وثيقة الصلة بتلك الفترة التي تثير اهتمامي في هذه الآونة. ولد أبي في دمشق العام ١٨٨٠، العام ذاته الذي ولد فيه مصطفى كمال. يقول بعض المؤرخين بصدد هذا الأخير إنه ولد في تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٨٠ وآخرون في العام ١٨٨١. ومثله مثل جميع الفتية في العالم الإسلامي، درس أبي في «الكتاب» إلى بلوغه الثانية عشرة. كانت أسرته تمتن العسكرية. والده في الجيش لكنه توفي عندما كان أبي في الخامسة وشقيقته في الثانية. لكن الجد كان له ثلاثة أولاد وابنتان من زواج سابق وكان كل اخوة أبي غير الأشقاء ضباطاً عثمانيين من أم قوقازية.

في سن الثانية عشرة، خالف أبي إرادة أمه وقرر أن يذهب إلى إسطنبول للانضمام إلى المدرسة التمهيدية للكلية الحربية. يروي أنه فرّ من دمشق إلى إسطنبول، عابراً كل أراضي الأناضول. وفي إسطنبول قصد عمه الذي كان على رأس الإدارة في تلك الكلية.

لم يكن أبي يتكلّم كثيراً. كان من الصامتين. لكن الغريب أنه كان يتحدث كثيراً عن أتاتورك. يقول إنهما كانا طالبين معاً وتخرّجا ملازمين شابين في العام ذاته. وسرعان ما حانت تجربتهما الأولى في القتال. كان الإيطاليون قد هاجموا السلطنة في ليبيا، فأرسل أتاتورك إلى طبرق وأبي كذلك. كان ذلك في العام ١٩١٢ بعدما كان قد أرسل إلى القدس. ذات يوم، في قديسة القيامة تفكك مسمار وسقطت أيقونة من على جدار. اختلفت السلطات الدينية المسؤولة عن الموقع على من سوف يحل المشكلة. عندما أبلغ أبي بالأمر، قصد المكان وأخذ مطرقة وأعاد تعليق الأيقونة على الجدار. لم يكن لمسلم الحق أصلاً بدخول الكنيسة الشهيرة، فنقرر نقله تأديبياً إلى موقع بعيد في الجزيرة العربية.

في الحجاز، غرب الجزيرة العربية، اكتشف أبي

١٩٢٠، في غوروري، حاول سكان الشرق والجنوب الشرقي الفرار. وسارت قوافل من المهجرين إلى سورية ولبنان مشياً على الأقدام.
هنا يمكننا رواية قصتين.

في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وأنا بعد طفلة، التقيت في قرية بعبدات اللبنانية سيداً تركياً يدعى عبد الرحمن بغدادياً زاده. كان يتحدث وأهلي بالتركية وكنت أفهمهم جيداً، أعني أنني كنت أستطيع أن أتابع أحاديثهم. كان عبد الرحمن بغدادياً محافظ منطقة أضنة عندما قُتل الأرمن، بمن فيهم النساء والأطفال. ويجب التذكير بوضوح أن السفن البريطانية والفرنسية الراسية في ميناء أضنة لم تُنزل جنوداً على اليابسة لحماية الأرمن مع أنهم كانوا قد شجعوهم على الثورة منذ عقد من الزمن. كان بغدادياً زاده قد تأثر، إنسانياً، كثيراً بالمأساة التي تجري تحت ناظريه واتصل بالحلفاء للسماح للأرمن بركوب السفن والنجاة بأنفسهم. وعندما انكشف تدخله هذا اعتُبر خائناً لدى الأتراك، ورشق بيته بالحجارة وأجبر على سلوك طريق المنفى. ذهب عبد الرحمن إلى باريس لبعض السنوات قبل أن ينتهي وحيداً في بعبدات وقد قررت زوجته وأولاده البقاء في البلاد. وكثيراً ما كان يقول إنه لم يكن ليستطيع أن يتصرف بطريقة مغيرة. فقد أتبع ما أملاه عليه ضميره، وهو ليس أسفاً على شيء.

قصة الحقيقية الجلدية الحمراء

قصتي الثانية: عندما كنت في التاسعة عشرة تقريباً، دخلت «كلية الآداب» في بيروت حيث كانت صديقتي المفضلة ماجدا إهماليان، من أسرة أرمنية تتكون من أب وأم وخالة عزباء وأختين، عائدة وبرجوي. كانت تلك السنوات الختامية للمراهقة وكنت أعاني صعوبات جمّة في علاقتي مع أمي، كنت أعيش في حالة غربة فعلية في أسرتي الصغيرة. فوجدت لنفسني أسرة أخرى، أسرة تقبلني كما أنا، لأنني كنت مسكونة بحالة اضطراب عميقة وغريبة. كانت هذه الأسرة تدرك أن والدي كان زميلاً لآتاتورك وأنه كان لفترة في قيادة الأركان العثمانية التي يرأسها أنور باشا. سألوني عدة مرات «هل قتل أبوك أرمنين؟» وكنت أجيب دوماً «لا». وهذا صحيح وأنا أكيدة منه.

كنت أزور تلك العائلة عدة مرات في الأسبوع، على امتداد خمس سنوات (عدا زيارتي لهم عندما كنت أعود من الولايات المتحدة إلى لبنان في بعض فصول الصيف). عرفتهم معرفة حميمة، كأنني واحدة من أفراد العائلة. غالباً

أعلن الروس الحرب على تركيا فانضم أرمن المقاطعات الشرقية إليهم. وتلقوا التشجيع من البريطانيين والروس فشنوا حرب عصابات سموها حرب تحرير ضد تركيا. كان ذلك فعل خيانة في نظر الأتراك، وانطلقت حملة القمع الأولى للجيش التركي. تلى ذلك معارك أخرى، إحداها في كيليكيا حول أضنة، ودخلها، حيث كان الفوج الأرمني يقاتل مع القوات الفرنسية. من هنا بات الوضع في السلطنة كلها غير قابل للتوقع إلى درجة أن البريطانيين كانت لهم أربع خطط مختلفة في نهاية الحرب العالمية الأولى. محاولة الاجتياح الروسي عن طريق القوقاز انتهت العام ١٩١٧ مع قيام الثورة البلشفية. ثم وقع لينين معاهدة مع الأتراك لوقف الحرب على تلك الجبهة فوقع أرمن المناطق الشرقية والشمالية في الفخ، واستمرت معركتهم ضد الأتراك، التي حرّضهم عليها البريطانيون، لسنتين إضافيتين.

لويد جورج وتقسيم تركيا

عودة إلى الخطة الأثيرة لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج، الخطة التي لم يحالفها النجاح قط. قرر أنه يجب تقسيم تركيا كما نعرفها الآن، فيعطى الساحل المتوسطي إلى اليونانيين، خلا سبيلسيا التي قرر منحها لإيطاليا. وتكون إسطنبول وجوارها من نصيب روسيا، وتمنح الأراضي على البحر الأسود وصولاً إلى القوقاز إلى الأرمن، وتبقى أنقرة ومنطقتها تركية!

سألوني عدة مرات «هل قتل أبوك أرمنين؟» وكنت أجيب دوماً «لا». وهذا صحيح وأنا أكيدة من ذلك.

بناء عليه، شن كمال هجوماً على الأرمن في شمال البلاد على مدى سنتي ١٩١٥-١٩١٦. وقد تعرّض الأرمن لحملات قمع قاسية بعدما تخلّى عنهم البريطانيون. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨، أعلن عن هزيمة السلطنة العثمانية، وفي العام التالي وقع السلطان محمد السادس معاهدة سرّية تضع السلطنة تحت الانتداب البريطاني. أما على الأرض فلم تكن الأمور قد حسمت على الإطلاق. في أيلول/سبتمبر ١٩٢٠، بعد فترة من المناوشات المتواصلة بين أتراك وأرمن، طلب كمال من الجنرال كارابكير «تهجير الأرمن خارج حدود تركيا». ومع أن الأرمن وقّعوا معاهدة سلام في تشرين الثاني/نوفمبر



ما كانوا يتكلمون التركية، ذلك أن الوالدين لم يكونا يتكلمان الفرنسية. وغالباً ما يجري الحديث عن تركيا. وأستطيع القول بثقة إنهم كانوا يشتاقون إليها. ذات يوم، أبلغوني أن الأب كان رئيساً لمحطة قطار قونية، المدينة التي تضم ضريح الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي وحيث يجري احتفال سنوي على اسمه في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر من كل سنة. قال لي الأب إهماليان إن حاكم قونية كان رجلاً تقياً يقدس الرومي، وإنه أسر له بما يُعدّ للأرمن في منطقته، ففرّ هؤلاء إلى سورية وبعضهم إلى لبنان. فروا مشياً على الأقدام وكثير منهم قضى على الطرقات. يذكر أن الفنان بول غيراغوسيان، الذي استقرت أسرته في القدس بفلسطين، أمضى حياته يرسم مشاهد ذلك الخروج من تركيا. (وأرغم هو نفسه على الهجرة إلى لبنان العام ١٩٤٨ عندما أجبر الإسرائيليون مئات الألوف من الفلسطينيين على مغادرة بلدكم! فإذا هو على الطرقات مرة أخرى!) للوحات بول غيراغوسيان أثر روحاني قوي. ففي كل لوحة من لوحاته، صغيرة كانت أم كبيرة، تحول عبقريته قافلة اللاجئين الطويلة إلى حجاج مقدسين.

ثمّة أحداث لا ندرك أهميتها إلا بعد أن تنقضي. عندما توفيت أمي في بيروت العام ١٩٥٧، كنت أسكن كاليفورنيا لإعداد شهادة دكتوراه في جامعة بيركلي. كان عليّ أن أخلي شقتي بسرعة بأن أبيع بعض الأشياء وأعيد المفتاح إلى صاحب الشقة، بعدما سكنا منذ العام ١٩٣٠ (توفي والدي قبل ذلك بعشر سنين العام ١٩٤٧). ولما لم يكن لي غير غرفة طلاب في بيركلي، تعذر عليّ الاحتفاظ بالشئ الكثير من متاع البيت. أنفذت بعض الأشياء: سجادة بوخاري، لجمالها، «كيليم» تركي كانت مربعاته ذات الألوان الحمراء والنيلة مفروشة دوماً في أرض غرفتي. احتفظت أيضاً بحقيبة حمراء، من الجلد البقري الصلب، تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الحقيبة غير الوسيعة وضعت ألبوم صور العائلة: أذكر صور عمتي في دمشق مع ابنيها - وشقيقتين يونانيتين من صديقات أمي غادرتا إلى فرنسا، وعدداً آخر من الصور. لم يكن لدينا كتب، ولا أعمال فنية، لذلك قضيت الساعات تلو الساعات أعين ذاك الألبوم! وقد عثرت أيضاً على مغلف كبير يحوي رسائل موجهة إلى أمي أرسلها أبي خلال معركة الدردنيل. كانت مكتوبة بالفرنسية وهي لغة كانت تدرّس جيداً في الكلية الحربية، وقد تعلمتها أمي في مدرسة دينية بإزمير ارتادتها حتى سن الثانية عشرة. ولما كان اسمها «روزا ليليا لا كورتى» (كانوا يسمونها «مدام ليلي» في بيروت)، كانت

تلك الرسائل، وبعضها مكتوب «تحت القنابل»، تبدأ كلها بـ «يا وردتي العطرة»! فاحتفظت بتلك الرسائل في الحقيبة، مع بعض الفضيّات التي أذكر أننا لم نستخدمها قط: مغرفة وملاعق وشوك وصينية، إلخ. ثم أضفت إلى كل هذا صورة كبيرة على ورق كرتون، كانت أمي قد وصفتها لي غير مرة، لقيادة أركان السلطنة العثمانية خلال الحرب. كان ثمة ثلاثة صفوف من كبار الضباط. في وسط الصف الأول يترع مصطفى كمال، وكان أبي هو أيضاً في عداد الصف الأولى على ميعدة بعض الأمكنة من كمال. كانت صورة مؤثرة.

ولما كان عليّ أن أعود سريعاً إلى كاليفورنيا، تركت سجادتي والحقيبة عند آل إهماليان على أساس أنني سوف أستعيدها بأقرب فرصة. في نهاية صيف ١٩٥٧ غادرت بيركلي لقضاء سنة في هارفارد. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨ بدأت تدريس الفلسفة في كلية في شمالي خليج سان فرانسيسكو. استمرت سنوات التدريس إلى العام ١٩٧٢. خلالها، كنت أعود دورياً إلى لبنان في الصيف وأزور صديقتي ماجدة. وقد لاحظت أن الكيليم تحت فراش أحد أسرّتهم، وسجادة البوخاري تغطي الديوان في قاعة الاستقبال، حيث تجلس الأسرة كل يوم. مرة أو مرتين سألتني ماجدة متى سوف أستعيد أغراضي، لكنني أحسست بشيء من الحجل عندما ساورني شعور بأنني «أسحب السجادة من تحت أرجلهم»! مضت السنوات. وفي صيف ١٩٧٢ قمت بزيارة قصيرة لبيروت، أو هكذا كنت أظنّ لأنني ما لبثت أن أمضيت فيها ثلاث سنوات. حينها التقيت صديقتي سيمون فتال ووجدت عملاً كمسؤولة للصفحات الثقافية في جريدة بيروتية تصدر باللغة الفرنسية.

تحدثت لسيمون عن حقيقتي، لكنني ظلت أوجل اليوم الذي سوف أذهب لاستعادتها. اندلعت الحرب الأهلية وغادرت وسيمون إلى كاليفورنيا، مع أنني لم أعد إلى التدريس حينها. نحو العام ١٩٨٠ أمضينا فترة في بيروت. ما أن وصلت إليها حتى وعدت نفسي بأن أزور آل إهماليان لاستعادة أغراضي. كنت قد حزمت أمري. كان ذلك يوم إثنين، مثلاً، فقلت لنفسني «سوف أذهب إليهم يوم الجمعة بالتأكد. سوف نذهب كلثانا». بعد يومين، أي يوم الأربعاء، كنت في «باب إدريس» أسير وسيمون على الرصيف عندما ظهرت الشقيقات إهماليان الثلاث. انخفضت أصواتهن. ولما كنت أتأهب لبلاغهن بأنني قررت أخيراً أن آتي لاستعادة أغراضي، علمت أن والديهن قد توفيا. وأضافت ماجدة «تعرفان، سوف نغادر إلى لوس أنجلوس بعد غد. لقد هوجم «بنكو دي روما» حيث نودع مجوهراتنا وأموالنا وخسرنا كل

شيء، إلى درجة أننا اضطررنا لبيع أثاث البيت، وأغراضك، لحاجتنا إلى المال. لم يكن لدينا عنوانك في أميركا!». سيطر عليّ إحساس غريب. لم أنبس ببنت شفة. أعطيتهم عنواني في كاليفورنيا. وافترقنا. فقد مضت ٢٥ سنة منذ أن تركت أغراضي عندهم!

مسؤولية فرنسا وبريطانيا

لم أجاوز قط هذه الخسارة العائدة إلى إهمالي كلياً. ولكن بعد بضع سنوات، ذات ليلة تمكن فيها مني الأرق، أحسست وقد سرت قشعريرة باردة في ظهري. عادت إلى ذاكرتي اللحظة الماضي عليها ٢٥ سنة حين تركت حقيقتي في خزانة غرفة مآجدة، عندما فتحت وأهلها الحقيبة وشاهدوا الصورة التي كان أبي جد فخور بها: لقد أووا في منزلهم صورة الجنرال كمال باشا المسؤول عن وضع حد للوجود الأرمني في الأناضول. لا بد أن تلك كانت لحظة صادمة. لا أزال أعاني منها إلى الآن. قابلت الأخوات إهماليان في كاليفورنيا والمؤكد أننا لم نتطرق للحديث عن تلك الأحداث. (ولا أنا استطعت أن أقرأ رسائل أبي!).

كابادوس وارتكبت مجازر من الطرفين. وخان الإيطاليون اليونانيين الذين كانوا طامعين في المناطق الساحلية ذاتها. وكان اليونانيون يعتقدون بإمكان غزو المزيد من الأراضي في الداخل، أي ما يزيد على أراضي الساحل وحدها. استغرقت الحرب سنة كاملة وكسبها كمال ودخل إزمير في أيلول/سبتمبر ١٩٢٢، حيث كانت هزيمة اليونانيين الكاملة، وعقد البريطانيون معاهدة مع تركيا الجديدة. ولا بد من أن نضيف هنا أن اليونانيين كانوا قد ضموا إلى خريطتهم المنطقة المسماة «الجسر»، أي الجانب الشمالي من تركيا على ساحل البحر الأسود، وهي منطقة كان الأرمن يطالبون بها هم أيضاً.

استغرقت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات، واقتضى الأمر أربع سنوات إضافية لكي يرسم كمال باشا وجنرالاته خريطة تركيا كما هي اليوم. يبدو أن انتصارات كمال، وحسن الطالع الذي لم يفارقه، قضت على عدة مطالبات إقليمية (ونحن لم نتطرق إلى المطالب الكردية) وعلى العديد من الأحلام. مع بداية العام ١٩٢٤ تم الاعتراف بالجمهورية التركية رسمياً! وإذ نعاين تلك الفترة المزعزعة، غالباً ما ننسى مسؤولية الحلفاء، أي مسؤولية البريطانيين والفرنسيين خصوصاً، أو نستبعداها.

الفرنسيون

كانت الثقافة الفرنسية تهيمن على أوروبا، بما فيها روسيا، منذ القرن الثامن عشر. وكان العديد من كبار الروائيين الروس، بمن فيهم تولستوي، يجيدون الفرنسية. وكان للعثمانيين علاقات دبلوماسية على قدر من الأهمية مع مملكة فرنسا منذ القرن السادس عشر. أما بالنسبة إلى الحقيقة التي تعيننا، فيجب التشديد على أن اللغة الفرنسية، جنباً إلى جنب التركية والألمانية، كانت تدرّس في الكلية الحربية المرموقة، في إسطنبول. وكان كمال يفخر بأنه يتحدث الفرنسية بطلاً أسطورياً في السلطنة العثمانية على امتداد القرن التاسع عشر وصولاً إلى القرن العشرين. وكان نابليون، الغازي الشاب، قرين «الإسكندر المقدوني» في عصره، البطل الأثير لدى كمال باشا شخصياً، وهو المعروف بعدائه لألمانيا والمعجب بفرنسا، الدولة القومية التي كان يرى فيها النموذج الذي يقتدى بالنسبة لتركيا. ومن المؤكد أن دولة قومية مثل فرنسا قد شيدت على مجازر مختلفة وجماعات سكانية مختلفة، فملوك فرنسا ارتكبوا المجازر بحق «الكاثار» و«الأليبيجوا»

إن مجمـل ما طالبت به تركيا الحالية من العام ١٩١٧ تقريباً. كانت جماعات مختلفة موعودة به: الأرمن واليونانيون والإيطاليون.

إن مجمل ما طالبت به تركيا الحالية من نهاية العام ١٩١٥ إلى العام ١٩١٧ تقريباً، كانت جماعات مختلفة موعودة به: الأرمن واليونانيون والإيطاليون. ومع أن الأرمن لا يذكرون ذلك إلا نادراً، وكان لليونان حضور هام ومطالب تاريخية، ذلك أن الإغريق قبل سقراط ظهروا على ساحل بحر إيجه والإمبراطورية البيزنطية سيطرت على آسيا الصغرى وما يتعداها. وكان لويد جورج يؤثر اليونان مع أنه وعد بمنح الجهة الجنوبية من تركيا إلى الإيطاليين! وكانت وزارة الخارجية البريطانية منقسمة بصدد كل هذه القضايا. في كل الأحوال، في كانون الثاني/يناير ١٩٢١، انتهى حكم السلطان رسمياً. ومضي يونانيو أوروبا إلى احتلال ثراسيا وقاموا بالإنزال على الساحل الآسيوي من تركيا ودخلوا إزمير في أيلول/سبتمبر ١٩٢١. في تلك اللحظة، انحاز يونانيو السلطنة إلى جانب الجيوش اليونانية الغازية. فوقعت اشتباكات في قرى

في ما يتعلق باستقلالهم كانت جليّة. أخرج الفرنسيون مشروعاتهم: إنشاء لبنان كدولة، إضعاف سورية إلى أبعد حدّ ممكن، خصوصاً بمنح تركيا مناطق شمالية يقطنها عرب مسلمون وأرمن ومسيحيون سريان يون بالدرجة الأولى. في العام ١٩٣٩، منحوا الأتراك الإسكندرون المدينة التي أنشأها الإسكندر الكبير، وأنطاكية، المدينة السورية التاريخية، مسقط رأس متى الإنجيلي. وقد اضطر العديد من الأرمن الذين كانوا يعيشون في تلك المدينة إلى الهرب منها من جديد.

والآن إلى سؤالنا الأخير: ما الذي نستطيع فعله الآن؟ خلال قرن، أدى إنشاء الدول القومية مثل لبنان وسورية والعراق وفلسطين إلى الإفلاس إلى هذا الحد أو ذاك. لقد اختفت فلسطين، كما يبدو بوضوح، بسبب رفض الإسرائيليين السماح للاجئين بالعودة إلى حيث كانت منازلهم خلال قرون من الزمن. وكان العراق بحاجة إلى سلطة قوية لمنع من أن يتفكك وقد دمره الاميركيون بوحشية. لم تنجح سورية ولبنان في توحيد الجماعات التي تكونها وعاش البلدان أو هما قد عاشا أو يعيشان الآن حروباً أهلية مخيفة. أما تركيا، البلد الأكثر استقراراً، فأمامه مشكلة كردية عسيرة يتوجب عليه حلها. وثمة طريقتان لحل هذه المشكلات: تمنح تركيا للأكراد مواطنة كاملة وشاملة وتنشئ نوعاً من النظام الفيدرالي على الطريقة السويسرية، حيث يمكن لشعوب ذات فروقات لغوية أو سواها أن تعيش معاً. والأرمن؟ في القفقاس دولة أرمنية. وعندما نفكر في الوضع بالأناضول، خلال الحرب العالمية الأولى، فقد عولجت تلك المسألة بطريقة لم تكن لتؤدي إلا إلى الحرب: شعبان يريد كل منهما دولة استثنائية على الأرض ذاتها، فلو كسب الأرمن لما كان ثمة وجود لتركيا. وقد كسب الأتراك، ولا بد للأرمن الآن من أن يعترفوا بأن قادتهم وقفوا إلى جانب أعداء تركيا وأن هؤلاء قد خانوهم فخسروا. وعلى تركيا أن تعترف بأن كبار الجنرالات العثمانيين الكبار، كاراكبير باشا خصوصاً، استخدموا الحرب للتصفية النهائية للأرمن من أجل إنشاء دولة قومية تركية وهذا يستلزم إبادة جماعية. وما أن يحصل هذا الاعتراف، يمكن للشعبين التطلع إلى المستقبل بهناء أكبر. ينبغي معالجة مشكلات قديمة، لأن المشكلات الجديدة والملحة، ذات الصلة الكونية، تنتظرنا: فائض السكان، نقص المياه، التلوث، إلخ. وهي مشكلات لا بد من أن تعبئ الإنسانية طاقاتها لمعالجتها: فإما أن نبقي معاً على قيد الحياة أو نزول معاً. من جهتي، أعتقد أن غريزة البقاء سوف تنتصر.

والبروتستانتين. سوف يقال إن هذا كان منذ زمن طويل جداً، لكن للفرنسيين مشكلات كبيرة عندما تحدّثهم عن الهجرة. في كل الأحوال، احتل نابليون مكانة كبيرة في مخيلة الصيغ الأولى من الضباط العثمانيين. وفي مناسبة أو مناسبتين نظم أبي حفلات استحضار للأرواح طلب ورفاقه خلالها من «وساطة الطاولات الدائرة» أن يبلغهم نابليون ما إذا كانوا سوف يكسبون الحرب أم لا!

الإنكليز

منذ الثورة البلشفية العام ١٩١٧ وخروج الروس من الحرب، قاد البريطانيون دفعة الحرب. وقد أخذ الإنكليز المبادرة في صياغة مصير الألمان في أوروبا ومصير العثمانيين في الشرق. وصلت سلطتهم إلى درجة أنني سمعت أبي يقول عدة مرات «لن تسقط ورقة شجر واحدة من أي شجرة في العالم دون إرادة الإنكليز!». وكان في ذهن الإنكليز، وكذلك الفرنسيين، فكرة بسيطة جداً: استخدام أقليات السلطنة ومكوناتها لتقويض بنيانها كلياً، فقد أقنعوا عرب الحجاز بالثورة وانضموا إليهم واعدوا إياهم بتأسيس مملكة عربية شاسعة تضم العراق وسورية وفلسطين وأجزاء من الجزيرة العربية. وبالتأكيد ما إن كسبوا الحرب حتى خانوا العرب خيانة موصوفة وقطعوا أوصال المملكة العربية التي قد نشأت للتو! شجعوا الأرمن على التمرد وعندما بدأ الأرمن يخسرون المعركة ويتعرضون للمجازر، تخلّوا عنهم كلياً. في النهاية، كان الإنكليز والفرنسيون موجودين في شرقي المتوسط كله، يسيطرون على كل شيء، وامتنعوا عن إنزال الجنود لنجدة اليونانيين أو الأرمن عندما كان هؤلاء في حالة كارثية. إن البريطانيين، كما الفرنسيين، يتحملون المسؤولية الكبرى عمّا جرى. ثم إننا لسنا نسمع أبداً اليونانيين أو الأرمن يتذمرون من دور هاتين القوتين العظميين في المآسي التي تعرضوا لها.

**كان الإنكليز والفرنسيون موجودين في شرق
المتوسط يسيطرون وامتنعوا عن إنزال الجنود لنجدة اليونانيين
أو الأرمن عندما كان هؤلاء في حالة كارثية.**

في نهاية الحرب العالمية الأولى، هل كان رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط بعد زوال السلطنة العثمانية لزوم لازم؟ فالكذبة التي فرضت على العرب



غسيل الكلى السوري

رياض نجيب الرئيس

صحافي متقاعد يعمل
في النشر. فصل من
كتاب لا عنوان له حتى
الآن، يصدر قريباً.

مَنْ تأخر تدبيره تقدّم تدميره،
ومن طالت غفلته زالت دولته
قول عربي قديم

الكلى هي الوحيدة التي ستحظى بهذا الشرف، شرف أن تكون الـ«revisited» دون سائر البلاد والأقطار. علماً أنها برتابتها، بثقلها وبلادتها، محجّة أو وجهة واحدة لأشخاص كثر. وبالتالي فإنني أمامها لا أحظى بأي تمايز سوى أنني مريض كغيري من مرضى الكلى. أنا لست الصحافي هنا، بل مجرد زائر مؤقت يعاني عطباً في جسمه. لست الناشر ولا المغامر أو صاحب المشاريع الثقافية المشاغبة ولا الرجل الذي لم يتعلم قط من خساراته. إن لي تاريخاً، لا علاقة له على الأرجح بتاريخ المرضى الآخرين، لكنه لا يعني شيئاً لتوليفة المعدن والأنابيب التي بات عليّ التزاماً الاتصال بها وإعارتها دمي لبضع ساعات. هذه الماكينة المصمّمة كي تُصغي للدم فقط، ولنسبة الأملاح - تحديداً البوتاسيوم، وضبطها في معدل ما كي لا يتوقف نبض القلب، لا يعنينا دُمّ بعينه. مع ذلك، فهي تُمدّد حياتي أياماً قليلة أو ربما أسبوعاً في كل مرة. تعينني لكي أبقى على قيد الحياة، لكي أتذكر وأحاور محدّثي القلائل وأعرض وأرفع صوتي وأسخر وأسترخي وتدفع عيناى وأفكر بخساراتي دون أن يعني ذلك أنني نادم. ثم أن أضحك بعد هذا كله.

ثلاث مرات في الأسبوع، تستقبلني الآلة بجمودها الذي يهيا لي بأنه مستمر إلى ما لانهاية. كما لو أنها تجري معي حواراً صامتاً وبحيادية تامة. حوار بالدم. أعود بعدها إلى البيت منهكاً كأن جسدي صُودر مني، وعليّ أن أستدعيه بالنوم. أن أعيد جمعه جزءاً جزءاً أو قطعة قطعة.

هذا الجسد الذي ألقيت به في أمكنة بعيدة وقريبة

عندما بدأت الثورة في سورية، تعطلت كليتي. كان ذلك في الأسبوع الأول من أحداث درعا. أدخلت إلى المستشفى. وكان تشخيص الحالة بسيطاً من الناحية البيولوجية، أو قل غير فريد طبياً. إنني أعاني من فشل كلوي. فلترا جسمي الاثنان توقفاً عن العمل. باتا تقريباً معطلين. ما يعني أنني سأحظى من الآن فصاعداً بصديق جديد، وهو ماكينة غسل الكلى. وأنّ الرحلة التي سأقوم بها بصورة منتظمة، لثلاث مرات في الأسبوع، لن تكون صحافية أو سياحية من أي نوع. بل ستكون رحلة إلى المستشفى. وهي بوتيرتها المنتظمة، تشبه إلى حد ما الرحلات التي كنت أقوم بها خلال عملي في الصحافة. لكنني الآن لن أحمل دفترأ أو كاميرا. لن أسجل أية ملاحظات ولن أجري أية حوارات، عدا تلك الروتينية والباهتة مع الطبيب المشرف على علاجي. لو كنت أصيبت بمرض آخر، لاختلف الوضع، لكّانت حالتي أكثر سهولة لي وللآخرين.

ربما كنتُ توفيتُ بكل بساطة، وانتهى كل شيء. ذلك أن أسوأ ما في هذا المرض هو أنه ضرب صميم حياتي الخاصة والعامة. إذ لم يعد بمقدوري أن أسافر حول العالم. لقد جُمّدت كل المشاريع والمخططات التي أردت بها إقفال بيوغرافيا الأسفار في حياتي. وهي مفارقة نوعاً ما. فأنا لطالما حلمت بأن أعيد زيارة بعض الأماكن التي سبق أن زرتها في رحلاتي الصحافية، كفييتنام وحضرموت. لكن ماكينة غسل

قد لا تتيج له الحياة فرصة أن يفرغ ما في ذاكرته إلى العلن، أو قد يدهمه مثلاً مرض لئيم، يتنافى وطبيعته ويتعارض تماماً مع أسلوب حياته، كما في حالتي هذه. وعليه عندئذ أن يعرف كيف يتعايش معه. تماماً كتعايش نقيضين. خصوصاً عندما يكون مرضه مرضاً لم يفلح في أن يصبح شللاً مكتمل الهيئة ولا يروق له ربما أن يمكث في جسد مكابر لظالما اعتاد الإحاطة بشخصياً بأحداث مصيرية وتُسمت النصف الثاني من القرن العشرين، وحددت مصائر شعوب ورشخت نكباتها.

وأنا بقيتُ أطاردُ ظلَّ التاريخ من بلد إلى آخر. غير أنني لم أصل إلى سورية. لم أصل قط إلى الحدث السوري. بلادي القريبة، والتي بت اليوم بعيداً عنها، شأن أي لاجئ. في أشد لحظات بلادي وحدة ومرارة، أبقى في مكاني. لقد غطل الجسد وأنا في أمس الحاجة إليه، ولم يتطلب الأمر سوى عطب قريب من رثتين اغتسلتا بهواء ثقافات الأرض. غير أن هذا لم يكن كل شيء، إذ وقعت بعدها وكسرت ذراعي معاً، الأمر الذي فاقم من عزلي فلم يعد بإمكانني من بعدها أن أكتب أو أن أقوى حتى على حمل قلم، أو أن ألوح لسورية وهي تبعد. سورية التي كان لعائلتي دور أساسي في استقلالها، ما يزيد من شعوري بأنها توأمتي، كما لو أن مصاباً واحداً ضرب جسدينا معاً.

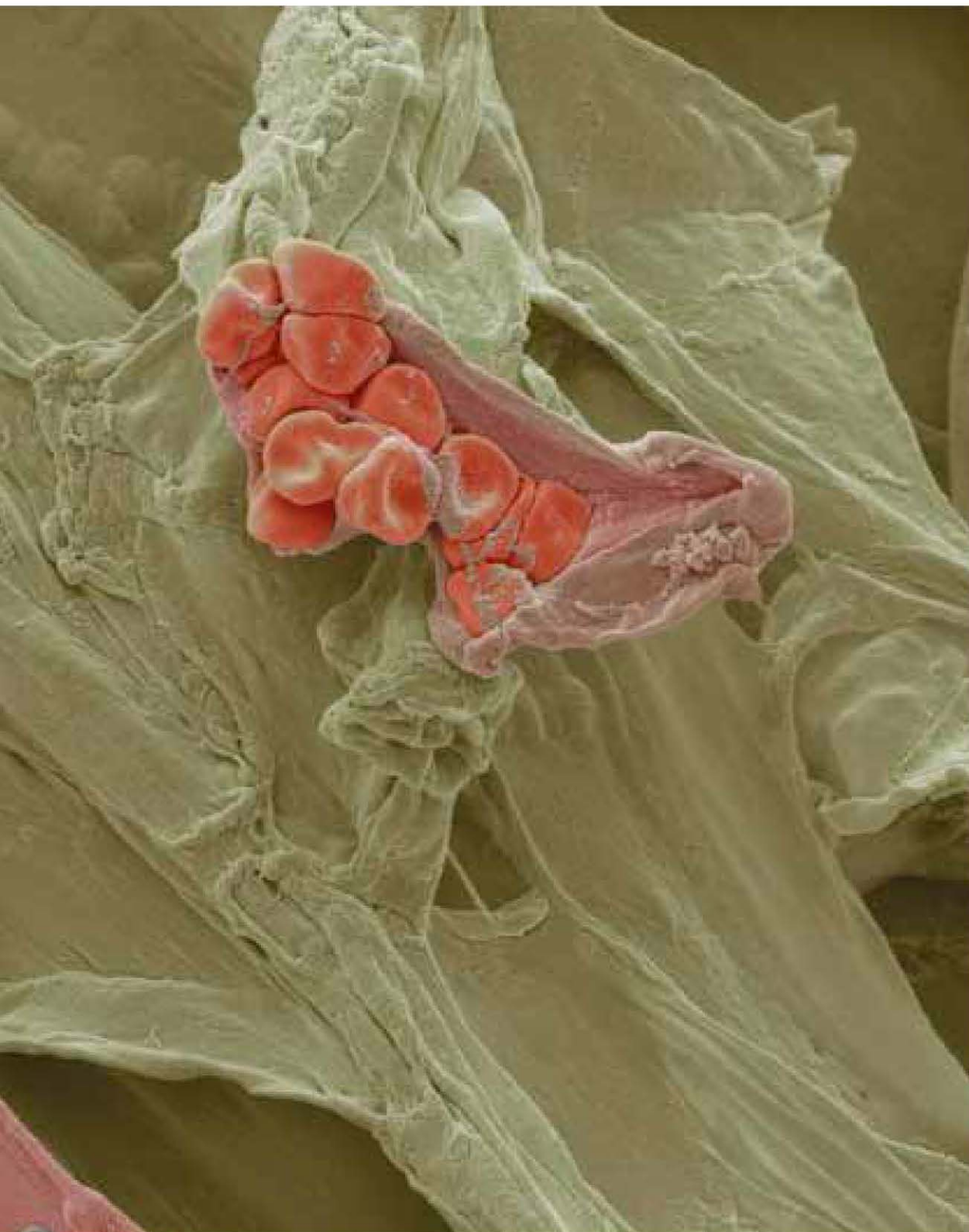
لقد استبعدت عن الناس بديناً وفكرياً، لكنني لا أملك الآن إلا أن أكون مطيعاً. عالمي تقلص في حدود خارطة ضيقة من النقاط ضمن بيروت، بين بيتي والمستشفى والمقهى بعض الأحيان، لتصبح القراءة وسيلة احتكاكي الوحيدة تقريباً بعالم السياسة. أما المطارات التي أمضيت فيها مئات الساعات، فقد بات دخولها اليوم محرماً أو خارج خياراتي. قبل إصابتي بالمرض، كنتُ أذهب في كل ويك إند إلى الشام. ألتقي في مقاهيها بأصدقاء طفولة ومعارف قدامى. أما الآن فقدت الاتصال بمن بقي حياً من أصدقائي على وجه العموم. إنني بالنسبة لهم مريض ولا أحد منهم مستعد لإزعاجي. المرض يخلف في المرء ندوباً سيكولوجية. وهو نكبتني الشخصية.

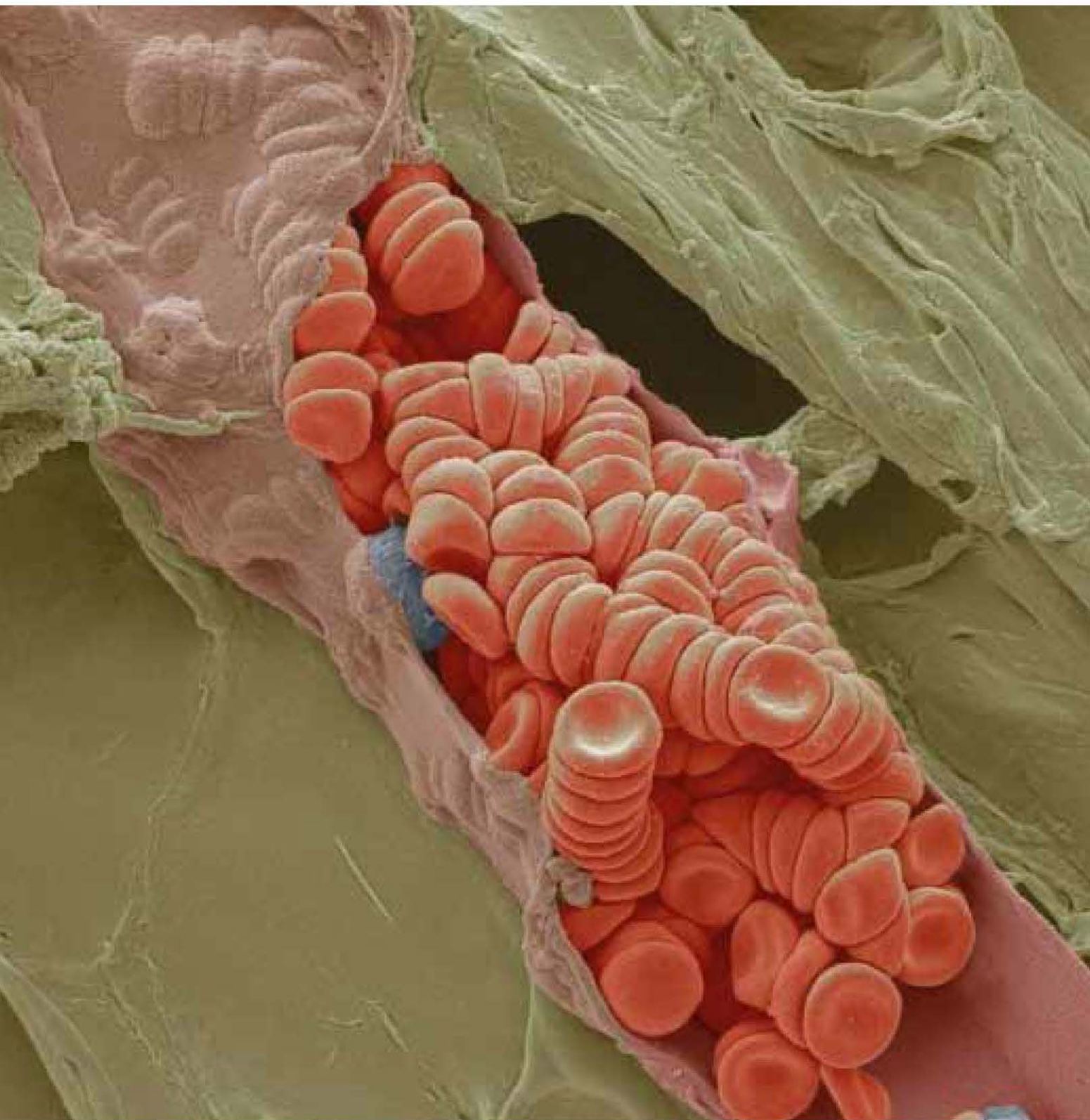
لقد طاردتني الصحافة وطردتني. وأنا بدوري لم أكف عن مطاردتها. إلى أن كان سلامٌ بيني وبينها، عندما غادرتها عام ٢٠٠٠ غير نادم، ولم أكن الكاتب الذي ينظر بعين الحسرة إلى مهنة في أوج تألقها. لقد

حول العالم، تارة من طائرة، وتارة من قطار سريع أو ترام أو سيارة، لم أشعر يوماً بأن واقعة ما، أو ذكرى، أو مناسبة أليمة استطاعت أن تجرفه بعيداً عني. وحتى وإن حدث الأمر فإنني لم أكن لأفصح عنه بسهولة. إنني كصحافي عاش متنقلاً، مدين له. مدين لشغفه، طاقته، وعدم اعترافه بكسل أو تعب من أي نوع. لقد كان خلوه من العيوب شرطاً عندما كانت الصحافة مهنة تتطلب من المرء أن يمدّ يده إلى داخل فم الذئب ليسحب خبراً ما، أو أن يتقصّى مسار أحداث معينة بالمقلوب حتى بلوغ الجحر الذي وُلدت فيه. لقد كان جسدي ماكينتي الخاصة التي حملتني من مكان إلى آخر وفي يدي شبكة الطفل الكبيرة التي وضعها والدي في يدي لا لأصطاد بها الفراشات، بل الأشباح الأكبر حجماً بكثير. لم تغفل عيناى حدثاً منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي. ولم أعتذر أمام مناسبة كبرى أو حرب أو انقلاب أو غزو. أما الآن، فعليّ أن أكون بطريقة ما غائباً ثلاث مرات في الأسبوع، لا غائباً عن العالم وحسب، بل عن سورية تحديداً. سورية التي تعنيني أكثر من أي وقت الآن. فأنا مجبر في كل مرة على أن أخذ قسطاً طويلاً من الراحة قبل أن أعود إلى وعبي لأراقب سقوط العالم في بلادي. لقد تلقيتُ من مرضي تلميحاً قوياً جداً، بأن حياتي لن تكون كما اعتدتها في السابق. وأن على الإنسان أن يكون جاهزاً للتكيف في نهاية المطاف مع جموده الذي لا يُحتمل. وأن مرضي هو الحاجز الذي شطر حياتي قسمين.

يتغير الصحافيون ولا يتغير العالم.

أنتبه الآن، وأنا أقول هذه الكلمات، إلي أن الصحافي يمضي حياته دون أن ينجز تحقيقاً واحداً عن نفسه. إنه ممنوع من ذلك. الصحافة التي عرفتها لم تكن يوماً كتابة عن الذات. فأنا لست الخبير، والخبر لم يكن يوماً أنا. وإن كنت أجد نفسي الآن أكتب ولأول مرة هذا التقرير الروائي، الشخصي فوق العادة، كمن يعرف عن نفسه أخيراً لعائلته، لابنه وابنته وأولادهما، بعد كل تلك العقود. أن يُدلي بما يختزنه من انطباعات ووجوه، حوارات ومفارقات وزلات وأخطاء. فالصحافي أشبه بالفلاح الذي يحمل مذراة يذري بها قمح التاريخ. بحبّاته المسوسة والسليمة. يُعرض الأحداث للهواء ثم ينكفي. إنه أشبه بخزان صامت.





حبال الغسيل في القبو الذي تسَلَّلتُ إليه عبر المطبخ، وألعبُ بـتِـاع جرائد. أو أخرج إلى الشوارع التي لم يكن لحزب البعث أثرٌ فيها أو سلطة، وأخطُ شعارات على جدرانها رفقة أولاد آخرين، قبل أن نذهب إلى البساتين المحيطة ببيتنا في حي «بستان الرئيس»، نظارد الخضروات التي لا يمكنها الركض إلى أي مكان، نقتلعها وندشها في أفواهنا، بلمعان أوراقها أو صفرتها، وسواء كانت ناضجة أو لا. نبتلع معها بعض الأتربة والجراثيم، ولا أعلم ماذا أيضاً. كما لو أننا مستعجلون لتخبئة الأرض في أجسامنا.

بأية حال، فإن المشهد يثير فيّ، حين أربطه بوضعي الآن، تساؤلاً فيه من الرمزية ما يفوق واقعتي بطبيعة الحال: هل يعقل أن يكون تراب الأرض السورية قد أبقى في كليتي طوال تلك السنوات؟ إنه سؤال شعري، أدرك ذلك، والطب يستطيع أن يدحضه بجملة واحدة. لكنني أعرف أن لا إجابات مُطلقة في الشعر. وأفضل الآن أن ألقى بالسؤال جانباً، أو أتركه لقارئ. وأن أعود إلى ذلك الاتصال المبكر والخافت بالتراب السوري، والذي ستظل صورته قائمة لعقود في ذهني. صورة انحنائي إلى الأرض، المشهد الذي كنت أراه كلما اشتقت إلى سورية أو ابتعدت عنها. كأنني دأبت على القيام بذلك لمعرفة المسبقة بأنني سأظل بحاجة إلى ما يعوّضني عن المسافة التي ستُنصب بيني وبين موطني سورية. كما لو أن يداً خفية في تلك اللحظة كانت تدفعني لأنحني إلى الأرض وأقترب بهذا الشكل منها. إنه المشهد الذي يحفظ تماسي الأول بيني وبيّن ترابها، والذي سيكون نغائفاً لتمام أكبر، بين صحافي جوّال وبين بلاده التي ستمحي معالمها لاحقاً. فتلك البساتين، المنخفضة والهادئة، لم تعد موجودة اليوم إلا في رأسي. لقد اقتلعتها الحفارات والبلدوزر معبدة الطريق في الهواء أمام عمارات شاهقة. إنها من علامات دمشق القديمة التي يحفظها الطفل رياض فيّ. رياض الذي كان فرداً في عصابة أطفال أطلقنا عليها اسماً لا يخلو من البلاغة والمبالغة في آن: «الأسد الكاسر». الأسد الذي كان بعد أن يغزو الحيطان والبساتين، يلقي توبيخ أمهات الأطفال وأبائهم في آخر النهار. تلك هي سورية التي غادرتها، أو ربما سورية التي لم أغادرها قط.

تركت الجسم الصحافي عندما كان مريضاً فيما أنا بصحة جيدة. أما الآن فأشعر بأنني بحاجة لأن أكون صحافياً دون أن أستطيع. أشعر بأن سورية، كل سورية، تمر في النهر من أمامي. وليس بمقدوري أن أعيش راهنها كصحافي، وليس أمامي إلا أن أكتفي بما حفظته ذاكرتي. لقد أزيلت أماكن وهدمت معالم وتوارى عن المشهد أناس عرفتهم ملياً. باتت سورية مختزلة. كما لو أن ما يحدث في بلادي أتى ليكمل مشهد الموت الطويل الذي خبرته منذ كنت طفلاً، «موت الآخرين» في.

في الأسبوع الذي خرج فيه أطفال درعا ليكتبوا - الأرجح بدافع التسلية - شعارات على حيطان مدرستهم، مرضت. هم سرعان ما اعتقلوا وتُكِّل بهم، وأنا سرعان ما استدعيتُ إلى العناية الفائقة. حياة سورية ستتغير بعد تلك اللحظة كما حياة السوريين. وأكاد أجزم، جميع السوريين. سواء من هم في داخل البلاد أو من هم خارجها. وستدخل البلاد في مرحلة «احتضار طويلة»، فيما سيفعل الأطباء، في الأيام الأولى للآزمة، كل ما في وسعهم لإبقاء جسمي متوازناً. لقد أدين أطفال درعا بواقع سياسي لم يكن له أي أثر عندما كنتُ طفلاً حموياً في الشام. هم ممنوعون من أن يحولوا الأخبار إلى مادة للهو أو أن يكتبوا ما سمعوه توأً وبطريقة محض أو توماتيكية، على الجدران. وربما، لو صنعوا على سبيل اللهو قارباً ورقياً من أية جريدة، على مرأى من الضابط الذي قام باعتقالهم وتعذيبهم، للاقوا أيضاً المصير نفسه.

هل يعقل أن يكون تراب الأرض السورية قد أبقى في كليتي طوال تلك السنوات؟ إنه سؤال شعري. أدرك ذلك. والطب يستطيع أن يدحضه بجملة واحدة. لكنني أعرف أن لا إجابات مطلقة في الشعر وأفضل الآن أن ألقى بالسؤال جانباً.

قصة أطفال درعا تعزّز فيّ الشعور بأنني عشت طفولة سورية مترفة، على قلتها وعاداتها البسيطة. أنا أيضاً لطالما كانت الأخبار ووسيطها الورقي تسلّيتي المفضلة وأنا طفل. أرى نفسي في بيتنا الأول في «حي بستان الرئيس» بالشام، أنشر الصحف على

عقد ضائع من حياة العراق (٢/١)

عصام الخفاجي

كاتب وأستاذ جامعي،
عضو سابق في الحزب
الشيعي العراقي.
آخر أعماله «ولادات
متعسرة: العبور إلى
الحدثة في أوروبا
والشرق» (٢٠١٣).

هي الحرب إذن!

ليست الحرب على عباس. وهو صبي كان، وفقاً
للبلافات العسكرية، أول ضحية مدنية أصيب في قصف
الحلفاء في الأيام الأولى من الحرب فتبرّع أمير الكويت
بإرسال طائرة خاصة نقلته للعلاج علي نفقته. بثت قناة
فوكس المتحمسة للحرب الخبر مفصلاً. فسقط ضحية
مدنية في هذه الحرب ليس إلا حدثاً عارضاً في حرب يُراد
تصويرها إنسانية وسماها الرئيس بوش نفسه «الصدمة
والإيلام» Shock and Awe. بعد سنوات قليلة لم يعد
الضحايا المدنيون أفراداً متناثرين يصابون عرضاً. هل
كان الأمير والأميريون يتوقعون أن يأتي يوم لن تكفي
فيه كل طائرات الكون لمعالجة المصابين كما عولج علي
عباس؟ ظل للصبي اسم على الأقل. أما من سيلحقونه
فلم تعد لديهم أسماء، بل صاروا أرقاماً. صاروا يتجرعون
الألم والصدمة التي ستصاحبهم حتى اليوم.

هكذا كان الحال يوم التاسع من نيسان / أبريل ٢٠٠٣.
لم يعد ثمة اسم لما حصل: سقوط، تحرير، احتلال. تتلون
تسمية الحدث كما تريد أن تراه أو لا تراه. ولم يكن هناك
وصف للملامح. كان الارتباك المصاحب للسقوط المدوي
للمتمثال يشي بالارتباك الذي سيليه في ما بات يعرف
بـ«العملية السياسية».

صعد الجندي الأميركي وغطى رأس صدام حسين
بعلم بلاده، لكنّ القادة أزالوا العلم فوراً. فلا بد للحدث
أن يظهر عراقياً.

سقوط المتمثال وخرج «الحواسم»

نقلت وسائل الإعلام صورة الكهل الذي أمسك ببوستر
الرئيس المخلوع وأخذ يضربه بالنعال. لكنها لم تنقل
صورة مراسلة قناة «الجزيرة» التي أغمي عليها حين

شاهدت سقوط تمثال معبودها من مقرها في فندق
الميريديان. ولم تنقل كذلك ما انفرد الصحفي جون لي
أندرسون بالحديث عنه في كتابه «سقوط بغداد»: في الأيام
الأخيرة للتراجيديا شاهد أندرسون للمرة الأولى حوالي
خمسين شخصاً ملتحين يرتدون جلابيب قصيرة ينزلون
من سلالم الفندق. كان هؤلاء من المجاهدين الذين سمح
لهم صدام بالمجيء (أو أطلق سراحهم من السجون) على
أمل أن يقلبوا الوضع إلى جحيم بوجه القوات الغازية.
حين سقط المتمثال، تولى بعض الإعلاميين نقل هؤلاء إلى
جامع الفردوس المقابل حيث اختبأوا.

بدأت معالم الطبقة الصاعدة تتوضح مع صعود
«الحواسم»^١. مئات، بل آلاف ممن أجهزوا على ما تبقى من
دولة نخرتها الحروب والاستبداد وجوع حصار وحشي
دام ثلاث عشرة سنة وغرفوا كل ما وقعت عليه أياديهم
من أموال عامة وخاصة. لم يكن قد مضى أسبوع على
سقوط «الصنم»، كما صار إسلاميو الشيعة يسمونه، حتى
تم اكتشاف شاحنة ملأى بسبائك الذهب في حديقة فندق
الشيراتون وسط بغداد. كانت الشاحنة تعود لمن نصّب
نفسه محافظاً لبغداد. كان هذا «المحافظ» ركناً من أركان
حركة سياسية ستلعب دوراً في ما بعد ٢٠٠٣، لكنّ الحركة
سارعت إلى التنصل منه. في الوقت نفسه تسربت الأخبار
عن الهجوم على قبو البنك المركزي والمتحف العراقي
ونهب ما فيه. من «طبقة» الحواسم هذه، ومن آخرين
انضموا إليها، سيشهد العراق توزيعاً جديداً للعمل بين
أفرادها: عصابات الخطف و«العلّاس» ووظيفتهم مراقبة
الضحية / الهدف وتشخيصه، و«القباطنة» المتخصصون
في تهريب النفط ومشتقاته إلى الخارج، و«الكابتين»
المتخصص في تجارة المخدرات. لكنّ الحواسم الأهم هم
من سيتحولون إلى رجال أعمال العراق الجديد.

١ فصل من كتاب
بيروي، مع بعض
التحليل، العقد
المهد لغزو العراق
عام ٢٠٠٣
والعام اللاحق
له من خلال
تجربتي الشخصية
في التعااطي
مع المؤسسات
السياسية الأميركية
ومراكز أبحاثها
ومع ممثل الأمن
العام للأمم المتحدة
السيد الأخضر
الإبراهيمي.

٢ أطلق العراقيون
هذه التسمية
على اللصوص
المنشقين إثر الغزو
نسبة إلى تسمية
صدام حسين
لمعاركة المقبلة
مع الأميركيين
بالحواسم.

سيناريو انتفاضة ١٩٩١ الشعبية سينتكرّر ما إن تبدّى معالم هزيمة نظام صدام.

لم تتكرّر انتفاضة ١٩٩١ في عام ٢٠٠٣. وإذ أسعى إلى تفسير هذا الأمر تحضّرني بعض أسبابه:

كانت الانتفاضة فعلاً مدينيّاً لم يلعب الريف أو العشائر دوراً يُذكر فيه. لكن العشائر «الوهمية» صارت ظاهرة مستشرية في المدن والبلدات بفعل الحصار. انهارت أجهزة البعث في تلك الفترة أو تفكّكت وانضم كثير من البعثيين الشيعة إلى الانتفاضة وما عاد بوسع الحزب التحكّم بكل مفاصل حياة المجتمع. وعلى أنقاضها استحضّر صدام، أو اخترع، شيوخ عشائر يغدق عليهم المنافع المادية ويقربهم إليه في خطوة ذكيّة نجحت إلى حدّ ما في تكوين جدار عازل ووسيط بين النظام وقطاع كبير من سكان المدن. كانت الخطة الصداميّة تقوم على إنشاء سلّم متحرّك يسير باتجاهين: من الأعلى إلى الأسفل، إذ يُفترض في الشيخ أن يوزّع بعض المنافع الآتية من أعلى على أفراد عشيرته، ومن الأسفل إلى الأعلى إذ ينقل الشيخ إلى القمة معلومات عن التحوّكات المعارضة ليسند مهمّات ذوي البدلات الزيتونية (كما بات العراقيون يسمّونهم) من فيالق القدس وفدائيي صدام وغيرها من أجهزة القمع التي تكاثرت بعد الحصار. هكذا تقطعت معظم المدن لتتحوّل أجزاءها غير الحديثة إلى «دير» عشائرية تعيق تكرار سيناريو ١٩٩١ حين هبّ سكّان المدن والبلدات متجاوزين تلك التقسيمات وإن لم يتجاوزوا الانقسامات الطائفية. لعب الانقسام الطائفي دوره الخطير على صعيد آخر برغم الخطاب التزويقي الذي تتبنّاه معظم القوى السياسيّة. وإن كان التباعد الطائفي وباءً، وهو كذلك، فلا بدّ من الاعتراف بوجوده كمدخل لعلاج. إذ كيف يمكن أن نفسّر بقاء محافظات صلاح الدين والأنبار والموصل السنيّة ساكنة آنذاك؟ وكيف نفسّر أن المحافظات المختلطة مثل ديالى وبغداد لم تشهد تحركات تُذكر إلّا في مدينة الثورة/الصدر الشيعة؟

وكان ثمة فارق آخر لم أعطه ما يستحقّ من تفكير. في عام ١٩٩١ أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش الأب وقف العمليّات العسكريّة عند وصول قوات التحالف إلى الناصريّة، ممّا دفع غالبية الشعب إلى الانتفاض على نظام أدركوا أنه ما زال واقفاً على قدميه برغم ترنّحه. ولكن ضد من ستثور هذه المرة وقد وصلت القوات الأميركيّة إلى بغداد بسرعة فائقة مسقطّة النظام؟ وبرغم هذا الانتصار الساحق، كان ثمة خوف لعب هو الآخر دوراً في

عدا الانفلات العارم للحواسم وانتشار العصابات، لم يكن ثمة تحرّك جماعي يُذكر. خدر وذهول يلقان الشارع. لا تجد تظاهرات معارضة للاحتلال، ولا جماهير تحيية، ولا داعين إلى استعادة السيادة وإقامة نظام حكم ديمقراطي جديد. كان ذبح المعارض مجيد الخوئي على يد المعارض الصاعد مقتدى الصدر في حرم الإمام علي مؤشراً مبكراً إلى المسار الآتي لـ«العملية السياسية». وكان عدم الاكتفاء بقتل مقاولين أميركيين قيل إنهم كانوا من «السي أي أي» بل الرقص فوق جثثهم وصراخ المعارضين بأن رؤوس هؤلاء ستكون «باجة»^٣ ومن ثمّ تعليقاتهم على سارية الجسر مؤشراً إلى اعتياد شعب على دميّة تربوا عليها طوال عقود من تفنّن الحكّام بالقتل والتعذيب.

لماذا لم تتكرّر انتفاضة ١٩٩١؟

عند ذاك أدركت الوهم الذي دافعت عنه لسنوات، وهم اقتنعت به. دافعت عنه في ورشة «مستقبل العراق» الشهيرة التي جرت برعاية وزارة الخارجية الأميركية أواخر عام ٢٠٠٢ وكتبت عنه في دراسة نشرها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن في الفترة ذاتها. لا أظنني جانبت الصواب حين أكدت في محافل دولية عدّة على سلبية وتشكك العراقيين تجاه الغرب بسبب موقف الولايات المتحدة الذي مكّن صدام حسين من إجهاض انتفاضة عام ١٩٩١. ولم أجنب الصواب حين كتبت وعبرت عن رأيي في مناسبات لا حصر لها بأن الحصار الوحشي الذي تم فرضه أفاد النظام فيما مرّق النسيج الاجتماعي وجعل الناس ينطوون على أنفسهم ويركضون وراء لقمة العيش. وكان رأيي، ولا يزال، أنّ انبعاث الهويات «تحت الوطنية» وتجذّرها يعود إلى هذا الحصار لا إلى طائفية وعشائرية متأصّلتين في المجتمع. الهوية الطائفية ظلّت قائمة لكنّ بعدها السياسي لم يتخذ منحى متفجّراً إلّا خلال التسعينيات. والهوية العشائريّة أفلتت أو كادت في الجنوب والشرق، فيما ظلّت عاملة تماسك في المناطق غير الزراعيّة في غرب العراق وشمال بغداد. حدّرت مراراً من أن سياسة الحصار ستنتج «جيل فرساي» عراقياً كناية عن الشباب الألماني الذي خنقه الحلفاء إثر الحرب العالميّة الأولى حين تم أنتزاع مناجم الفحم من ألمانيا وأوصل البؤس والبطالة إلى مستويات بشعة سهّلت على هتلر اللعب على العواطف بتصوير الغرب مسؤولاً عن مأساهه وولّد حقداً عارماً ضدّ المنتصرين. لكنني ارتكبت خطأ فاحشاً إذ تصوّرت بأنّ

٣ وجبة ثريد الخبز مع رأس البقر المسلوق.

عدم تكرار الانتفاضة. خوف قد يبدو مثيراً للاستغراب حين نسترجع الأمر بعد أكثر من عقد على انتهاء الحرب. خوف من عودة صدام سرى على السنة أناس بسطاء التقيتهم بعد شهر من سقوط التمثال. تسمعه متمثلاً في صورة تشكك في نوايا الأميركيين. قد يتخذ الخطاب شكلاً سريالياً. قال لي سائق التاكسي: قد يكون الأمر لعبة أميركية تعيده إلى الحكم فينقض علينا كما فعل في ١٩٩١. لكن خطاب عشرات آخرين التقيتهم كان أكثر واقعية وإيلاً: وماذا سيحدث لنا إذا تركنا الأميركيون كما فعلوا في الحرب الأخيرة؟

الجنرال والسياسي والخبير

كنت في واشنطن يوم السقوط المدوي للتمثال في التاسع من نيسان / أبريل ضمن فريق من مئة وأربعين شخصاً هم أعضاء المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتطوير. تسمنا أمام شاشات التلفزيون وهي تنقل الحدث حياً. هل دمعت عيناى فرحاً بانتهاء كابوس جثم على صدورنا طوال ربع قرن أم حزناً لأن حلمي بأن ثورة عراقية ستتكلل بالانقضاء على ذلك التمثال لم يكن سوى أمنية بأن يستحيل الحدث مفخرة للعراقيين عوض تعاملهم معه بارتباك؟

خوف من عودة صدام سرى على السنة أناس بسطاء. قال لي سائق التاكسي: قد يكون الأمر لعبة أميركية تعيده إلى الحكم فينقض علينا كما فعل في ١٩٩١.

جنرال سيكون الأكثر عداءً لهذا المجلس لعب دوراً في تأسيسه. في نهاية عام ٢٠٠٢، وبعد إكمال مشروع ضخم باسم «مستقبل العراق» أشرفت عليه وزارة الخارجية الأميركية تم سحب ملف العراق من الأخيرة لتصبح وزارة الدفاع مسؤولة عنه وليكون تحت الإشراف المباشر لوزير الدفاع المفوض للشؤون السياسية، الدكتور بول فلوفوتز. كان من أولى المشاريع التي خطط لها البنتاغون تأسيس هيكل من الخبراء الذين يمكن أن يساعدوا في إعادة إيقاف الدولة العراقية على قدميها بعد الاحتلال.

لا أعرف إن كان المشروع وقّدة ذهن أم أن الأميركيين كانوا يتسابقون مع آخرين سبقوهم إلى التخطيط للأمر،

٤ سأتناول مشروع «مستقبل العراق» وفلوفوتز ببعض التفصيل في ما بعد.

إذ ليس بوسعي تأكيد أو نفي معلومات متواترة سمعتها من مطلعين بريطانيين عن فكرة ممانلة شجعت حكومتهم الراحل السيد مجيد الحوي على تنفيذها. ولعل الولايات المتحدة استبقت الأمر فأجهضتها. كما أشير إلي مجموعة من العراقيين المقيمين في كاليفورنيا، كنت واحداً ممن كانوا على تواصل معها على شبكة البريد الإلكتروني، كانت تسعى لذلك بدعم من الدكتور أحمد الجلبي.

جاء وفد من البنتاغون برئاسة الجنرال جاي غارنر إلى ديترويت للقاء قادة «المنبر الديمقراطي العراقي» وهو تجمع من الكفاءات العراقية المعارضة لنظام صدام حسين. كان جاي غارنر مسؤولاً عن حملات إغاثة كردستان إثر انتفاضة ١٩٩١ وصار أول حاكم لعراق ما بعد صدام، لكنه ابتعد فيما بعد عن النقاشات والصراعات الدائرة في إدارة بلده. دعا غارنر قادة المنبر إلى اجتماع مع فلوفوتز في واشنطن. أصر البنتاغون على أن يكون الجسم الرئيس للمجلس من بين العراقيين الأميركيين. ذهب وفد من خمسين شخصاً إلى ذلك الاجتماع الذي استغرق ساعة ونصف ساعة بعد أن كان مقرراً له أن يستغرق ثلاثة أرباع الساعة. في هذا الاجتماع تم الاتفاق على تشكيل المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتنمية Iraqi Reconstruction and Development Council.

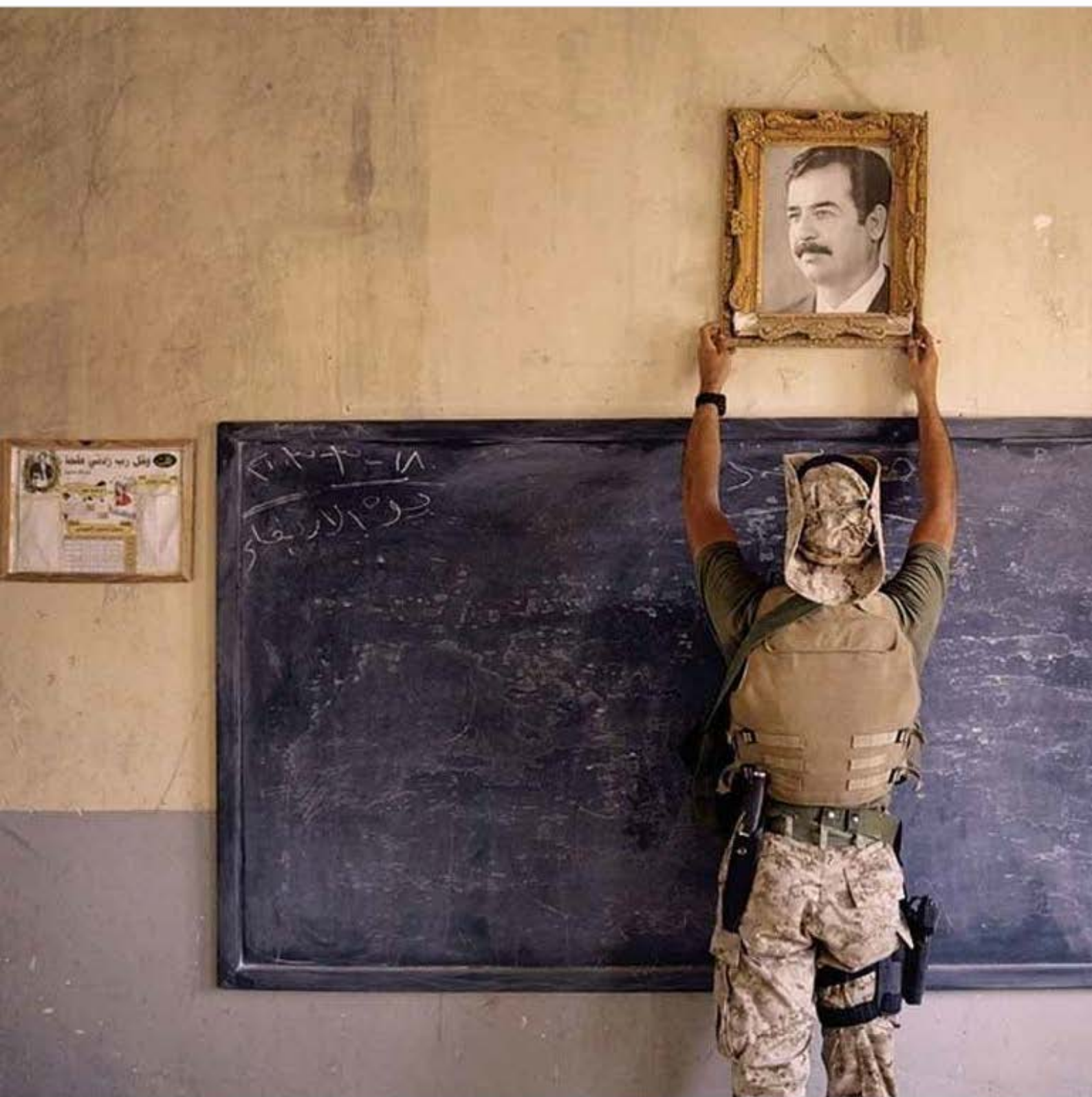
ولتكريس المباركة الأميركية للمجلس، وجّه البيت الأبيض دعوة لممثلين عن المجلس للقاء الرئيس بوش. كان تشكيل الوفد مصوغاً بعناية إذ تم اختيار عربي شيعي وعربي سني ومسيحي لعضويته. وكان غياب ممثل كردي عن اللقاء لافتاً للنظر مع أن المجلس سيضم عدداً كبيراً من الأكراد في عضويته. كان الأكراد غائبين لأنهم أخذوا يتعاملون مع العالم الخارجي باستقلالية عن العراقيين.

لم أكن من بين مؤسسي المجلس، لكن منسقه اتصل بي مرات عدة طالباً منّي الالتحاق بهم، وكان قد بعث لي برسالة قبل ذلك تحمل أطناناً من المديح. لكنّ مصدر الإلحاح، كما عرفت فيما بعد، كان بول فلوفوتز، وزير الدفاع المفوض، الذي صار المجلس مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمكتبه. اتصل بي فلوفوتز بنفسه حيث أقيم بهولندا طالباً منّي أن ألتقي بـ «أصدقائي» المؤسسين للمجلس على الأقل. وبالفعل، كان ولا يزال لي أصدقاء حميمون في المنبر شرفوني إذ دُعيت كأول مساهم من خارج الولايات المتحدة لحضور مؤتمرهم السنوي وتقديم مداخلة فيه.

تحفظات وقبول

فوجئت بطلب الالتحاق لثلاثة أسباب، أولها وأهمها أن موقفي من المشروع الأميركي كان معروفاً لا للحرب، نعم لرفع الحصار المدبر للمجتمع العراقي لا لنظامه الحاكم، نعم لضربات إلى مراكز قوة النظام الاستخباراتية والعسكرية، نعم لتجريم قادة النظام ومحاصرتهم بنجميد أرصدتهم المالية والتحرّي عن واجباتهم المالية، نعم لمطاردتهم حيثما حلوا كمجرمي حرب ومجرمين ضد الإنسانية، وفوجئت بطلب الالتحاق ثانياً لأنني كنت في مقال طويل في شهرية «اليموندي ديبلوماسيك» الباريسية واسعة الانتشار والتأثير عن الصراعات بين وزارتي الخارجية والدفاع حول الموقف من العراق وفوجئت ثالثاً لأن ما طرحته في مداخلتني بمؤتمر المنبر الديمقراطي العراقي، الذي كان نواة مجلس إعادة الإعمار، أفكار تنقطع كلياً مع أفكار البنتاغون، ولأن المؤتمر انعقد في فترة حاسمة إذ سبق إعلان الحرب على العراق بأشهر قليلة، كان الحضور الرسمي الأميركي، فضلاً عن وسائل الإعلام الحكومية الأميركية مثل «صوت أميركا» كثيفاً، وأذكر أنّ السيد توماس كراشيفسكي مساعد وزير الخارجية الأميركي كان من بين الحاضرين.

في مداخلتني تلك، أهديت قلقي من وهمين روجهما مقرّبون عراقيون من البنتاغون وصاروا مسلمين في أعين إدارة بوش، أول هذين الوهين وأخطرهما، في نظري، كان افتراض أنّ عقوداً من الاستبداد وسيادة الفكر الواحد ومفهوم القائد الواحد والتسميم الفكري الذي ربّى الناس على عداة الديمقراطية والتعددية وتصويرهما كمؤامرة غريبة لشقّ وحدة الصف الوطني لم تترك تأثيراتها المدمرة في الثقافة السياسية للشعب العراقي الذي يستقبل القوّات الأميركية كمحررين يقابله بالترحيب والوهم الثاني هو تخيل العراق جزيرة لا محيط إقليمياً حولها سبرمي بكل ثقله لإيهك وتزريق أي تجربة ديمقراطية تهدّد الدول المحيطة، وكلها (باستثناء تركيا) تخضع لنظم تسلطية، بتعبير أكثر دقة، كان شمة وهم قائم على أنّ الوجود العسكري والسياسي لأكثر دولة في العالم سيُشَل أي محاولة لإضعاف تلك التجربة، بل أنه سيلعب دور العامل الحاسم في إطلاق ظاهرة الدومينو [سخافة الوهم العربي عن الموضوع الحلاقة] حيث تتساقط النظم الاستبدادية واحداً تلو الآخر بفضل إشعاع التجربة الديمقراطية العراقية، لا سيما أنّ تلك النظم، باستثناء إيران وسورية، تعتمد اعتماداً وثيقاً



على التحالف مع الولايات المتحدة. لم يكن هذا الوهم متعامياً عن الثقل الإقليمي وقدرته على تغيير الخريطة السياسية العراقية فحسب، بل إنه تعامى عن حقيقة أنَّ

هناك الزميل الإعلامي الذي رجاني أن أصـ
له مذكرة إلى بريمر باللغة الإنكليزية تناشـ
إرسال قوة عسكرية تصاحبه إلى تكريت.

معظم الحكام الآتين إلى العراق مرتبطون بهذا القدر أو ذاك بالقوى الإقليمية، وأنَّ الديمقراطية ليست مطروحة على أجنداتهم، إذ برغم الاستنتاجات المتواترة عن أن حليفَي الولايات المتحدة الرئيسيين في العراق لم يكونا يتمتعان بوجود جماهيري مؤثر، ظلت الإدارة الأميركية تدفن رأسها في الرمال مفترضة أنَّ احتلالها للعراق سيخلق واقعاً محلياً جديداً.

«ميثاق شرف» في واشنطن

في السابع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣، تسلّمت رسالة موقعة من الجنرال جاي غارنر، مدير مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية «أورها» يدعوني فيها إلى الحضور إلى واشنطن «للتباحث مع منسّق المجلس ومسؤولين في وزارة الدفاع في الأمور المتعلقة بمجلس إعادة الإعمار والتنمية العراقي ومهمة «أورها» ORHA في عراق ما بعد النزاع». كانت صيغة الرسالة، ومن ثمَّ القناة التي تكوّنت لديّ منذ وصولي بعد يومين من تسلّم الرسالة، أنَّ ثمة غموضاً في العلاقة بين المجلس و«أورها». فالرسالة تدعوني إلى الحضور لمناقشة أمور مع هيئتين مستقلتين لا مع هيئة واحدة تتبع إحدهما الأخرى. ومن الواضح أنَّ وزارة الدفاع أنشأت الهيئتين حديثاً من دون أن تحدّد العلاقة بينهما. في اليوم الأول من التحاقني بالعمل، جاءني منسّق المجلس بمسوّدة تعرض صيغة تلك العلاقة تضمّنت «أن يؤدّي أعضاء المجلس المهمّات التي تكلفهم «أورها» بها». وطلب منّي أن أقدم مقترحاتي بشأنها. اعترضت على ذلك وأعدت صياغة المسوّدة لتكون «العمل المنسّق والمتكامل بين المجلس و«أورها»». ولم تكن الصيغة التي اقترحت ابتكاراً عبثياً، فالرسالة التي وجهها جاي غارنر لي نصّت حرفياً على أنَّ «أورها» «طلبت مساعدة المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتنمية

في تأمين استمرارية عمل الحكومة والاستقرار والنظام العام وإعادة إعمار البلد». بعد فترة قصيرة عاد المنسّق فرحاً لأنَّ وزارة الدفاع وافقت على الصيغة التي قدّمتها. ساهمت في وضع «ميثاق شرف» أترك لغيري الحكم على درجة الالتزام به: «أتعهد أن أقوم بمهمّتي كعراقي يتجاوز انتماءه الطائفي أو السياسي، ألا أسعى إلى الحصول على مركز وظيفي قبل انتهاء عمل المجلس وحلّه حيث تكون للفرد حرية التقدّم للعمل في أجهزة الدولة أو ممارسة النشاط الخاص أو العودة من حيث أتى. وأتعهد أن أكون عضواً في فريق من العاملين يضمّ العاملين الحاليين في تلك المؤسسات أو الوزارات التي تمّ تكليفني بالمساهمة في إعادة إعمارها».

لم تعرف وظائفنا لأننا لم نعرف من أين نبدأ. ولم نعرف من أين نبدأ لأن الأميركيين أصروا منذ اللحظة الأولى على تهميش دور العراقيين. كان الفريق المكوّن من ١٤٠ عضواً يتوزعون إلى أربعة أفراد لكل وزارة بالإضافة إلى عدد مماثل من العاملين في الوزارات آنذاك والمحافظات غير الكردية التي استقرّ وضعها نسبياً بعد أن خرجت عن إدارة بغداد منذ عام ١٩٩٢.

كان بيننا من جاء طامعاً بأن يكون وزيراً في المجال الذي اختير من أجله في واشنطن. ولعلّ هؤلاء هم الذين كانوا الأبرع في تمثيل دور الحبيب المتحمّس المجتهد في واشنطن، إذ لا بدّ أنَّ من يتابع العمل سيرفع تقارير تشيد بكفاءته. سنظلّ حال الزميل المكلف بالعمل في وزارة العدل عالقة في ذهني ككوميديا. كان يتحدث بصراحة عن ضرورة تأمين فيلات «لنا»: «لنا» تعني نحن الوزراء القادمين. فمنصبه كوزير أمر مفروغ منه، كما كان يعتقد. ومع أنّه رجل قانون (يقال إنَّ أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه كانت حول الفكر القانوني لصدام) فقد كان من بين ما عرض عليّ، بصفتي منسّقاً ثانياً، مرسوم يقضي بحلّ حزب البعث. وبرغم خبرتي المحدودة في هذا المجال، أجبته، متخذاً هيئة التلميذ الذي يطرح سؤالاً بهدف التعلّم: ألا يجب أن يصدر أمر كهذا عن سلطة قضائية مستقلة تبين فيه الأسباب القانونية الموجبة ثم تأمر السلطة التنفيذية، وهي هنا وزارة العدل، باتخاذ ما يلزم لتنفيذ قرارها؟ كما كان هناك الزميل الإعلامي الذي رجاني أن أصوغ له مذكرة إلى بريمر باللغة الإنكليزية تناشده إرسال قوة عسكرية تصاحبه إلى تكريت التي عاش فيها لأنه قادر على تعبئة أبناء المدينة ضد صدام وإقناعهم بتأييد عملية «تحرير العراق». وزميل ثالث

اسمه الذي «ملاً الدنيا وشغل الناس» للحظة، ليتبخر ما إن انتفت الحاجة إليه. في عام ١٩٩٨، قدّم الدكتور خضر حمزة، الذي كان مستشاراً أقدم في لجنة الطاقة الذرية العراقية، مسودة كتاب بعنوان «خدعة: العراق والقنبلة النووية»، كان العنوان واضحاً: لا قدرة للعراق على امتلاك سلاح نووي. لم يصادف موضوع كهذا هوى لدى الناشرين. لكنّ الدكتور حمزة كان مثابراً! بعد عامين فقط، أنجز الرجل مسودة كتاب جديد يقلب سابقه رأساً على عقب ليحقّق انتشاراً واسعاً. كان عنوان الكتاب هذه المرة «صانع قتابل صدام: قصّة أجنّدة أسلحة العراق النووية والبيولوجية من الداخل» (أي من شاهد عيان من داخل المشروع). في هذا الكتاب، تحدّث حمزة عن دور مفترّض له كمساهم في مشروع نووي على وشك الاكتمال. تعمّدت أن أوّجّل الحديث عن مجموعة أظنّها الأكثر نبلاً في اندفاعها للانخراط في مشروع المجلس. لم يكن هؤلاء ولا من منحت نفسي الحقّ في تصنيفهم في خانات، قلت في البدء إنها تتشابه عنكبوتياً، غافلين عن طبيعة المشروع الأميركي تجاه العراق. غير أنّ من تحمّس للغزو ومن عاداه ومن وقف متردداً ضمن هذه المجموعة كان ينطلق من قناعة مبدئية ولا أظنه كان باحثاً عن مال أو عن منصب. أشير هنا إلى أمثلة أوّكد أنها ليست حصرية: د. محمود ثامر أحد أهم اختصاصيي الطب الباطني، د. عزام علوش خبير الريّ الذي اكتسب شهرة عالميّة بفضل عمله في إعادة إحياء الأهوار، إلى جانب أسماء علميّة مهمّة أخرى: د. محمد الحكيم، د. محمد علي زيني وشباب رائعين مثل هاري حبيب وسامي كريم. وأضيف إلى هذه المجموعة مناضلين، منهم عدنان الزلفي الذي كان فتى تعرّض للتعذيب في سجون صدام قبل أن يتمكن من الفرار إثر انتفاضة ١٩٩١، والعميد توفيق الياسري الذي لعب دوراً بارزاً في انتفاضة ١٩٩١.

أيّ وطن ينتظرك أيّها الخبير؟

بعد شهر بالضبط من انهيار التمثال الذي بات نقطة القطع في تاريخ العراق، حطت الطائرة التي حملتنا في «مطار» بغداد. كان يمكن للمكان أن يكون أيّ بقعة في الأرض. ظلام دامس تعجّب كيف تلمّس الطيار المكان الذي حط فيه. لم أقتل الأرض. صار الطقس في عيني مسرحية مبتذلة. لا أذكر إن كنت بكيت وقتها، كما فعل بعض الزملاء، أم لا. كنت أشعر بذهول وخدر. تظلّ تحلم لمدة ربع قرن حتى تأنس للحلم وتريد له أن يبقى يؤنسك.

استجلب طاقماً تلفزيونياً من البلد الذي كان لاجئاً فيه ليصوّر عودته الظافرة وجهوده في بناء البلد الذي لم يكن مضى على وصوله إليه غير أيام.

منتفعون وطالبو وظائف

حين وصلنا بغداد، تمّيت أن أمتلك موهبة الإخراج السينمائي لكي أصوّر تلك الحالات التي لم تكن كلها كوميدية كموقف الكهل المسكين الآتي من السويد والذي كاد أن يصاب بنوبة قلبية حين أجابه موظف الاستقبال في فندق الرشيد بأنّه لا يعرف اسم «الوزير» الذي وعده بالحصول على وظيفة رفيعة.

حصل بعض من انتمى إلى هذا الصنف من أعضاء مجلسنا على ما يريد لأنّه نجح في الرهان على الطرف السياسي الذي سيكون له دور فاعل في الدولة الجديدة، وغادر آخرون محمّلين بما استطاعوا كسبه من أموال. ثمّة صنف ثان من الزملاء، عرف الزميل المنسّق وعرفوا أن «خبراتهم» تنتمي إلى مجالات أخرى: التكتيب والحصول على «القوت اليومي» والاستفادة من وجودهم في بلد الخراب الجائع للبحث عن عقود في مشاريع لا يفقهون من أمرها شيئاً. ابنه أحمد الذي أنهى الدراسة الثانوية ولم يدخل الجامعة بعد، و«عبد حمود»، كناية عن مرافق صدام، وغيرهم كثير ممن سيوقعون عقوداً تمنحهم مبالغ تراوح بين ٣٠٠ دولار و ٥٠٠ دولار يومياً إذ كانت المساومات والتوسّلات لرفع تلك المخصّصات جارية قبل وصولنا بأسابيع.

وتفريعة ثالثة: خبراء لا يجادل أحد في كفاءتهم في مجالات اختصاصهم، وآخرون ذوو خبرات متواضعة لم يكونوا معنيين بالمكافآت الشهريّة ولم يدخلوا في بازارها. خطّطوا منذ البدء لغرف أكبر ما يمكن بأسرع وقت. تعدّدت أساليبهم في تحقيق ما يريدون: طبيب محسوب على حزب الدعوة، حقّق طموحه في رئاسة الهلال الأحمر ثم تبخّر عائداً إلى الولايات المتحدة بعد أن «قيل» بأنّه استولى على ملايين الدولارات، ابنة مسؤول كردستاني كبير كانت تعمل في شركة اتصالات مغمورة في إنكلترا نجحت في إحالة عقد ضخم إلى شركتها برغم احتجاج شركة ماركوني ذات الشهرة العالمية التي عرضت وثائق تثبت أنها قدّمت عرضاً بسعر يقلّ بكثير عن عرض شركة ابنة المسؤول بمواصفات أرقى بكثير، خبير لم يكن بحاجة إلى كسب أموال من عراق ما بعد صدام تحدّث عنه الصحف الأميركية ولذا أجد نفسي في حل إذ أشير إلى

كأن عصا ساحر حولتنا جميعاً إلى أصنام. لا أذكر أحداً رفع صوته مخاطباً الآخر «الحمد لله عالسلامة». لا أذكر أحداً أطلق ضحكة تعبر عن فرحة العودة. معظم من أقبلوا على تلك المغامرة حققوا الهدف الذي جاءوا من أجله: الانتقام من المنفى.

كان آخر ما توقعت هو أن يختار الحاكم العسكري رمز السيادة العراقية مقراً له. أعلنوا. لفظياً على الأقل. أنهم جاؤوا محررين. هذا ما فعله مود. الجنرال البريطاني يوم دخل بغداد عام ١٩١٧.

مرّ الباص الذي قادنا بمحاذاة سور مرتفع خيل إليّ أنّه لن ينتهي. قدّرت أنّه قصر الرضوانية الرهيب الذي كان مقرّ حفلات التحقيق والتعذيب للمشتبه في مشاركتهم في انتفاضة ١٩٩١. كان السائق الأميركي قد أدار الراديو نحو محطة «سوا العراق» التي سمعتها للمرة الأولى. فبعد أن فشلت راديو «صوت أميركا» بإسלו به الدعائي الفاضح، في الوصول إلى المستمع العربي، صوّت الكونغرس الأميركي لصالح إنشاء تلك القناة الإعلامية لتبثّ نشرات أخبار وبرامج خفيفة مخصصة قنّاء مختلفة لكل من مناطق العالم العربي. وكان راديو «سوا العراق» بالطبع، محط الاهتمام الأكبر لدى المشرفين على الإذاعة. وصلنا أخيراً إلى القصر الجمهوري. أولى الصدمات.

كان آخر ما توقعت هو أن يختار الحاكم العسكري رمز السيادة العراقية مقراً له. أعلنوا، لفظياً على الأقل، أنّهم جاؤوا محرّرين. هذا ما فعله مود، الجنرال البريطاني يوم دخل بغداد عام ١٩١٧. كان بوسعهم إنشاء منطقتهم «الخضر» أينما أرادوا، فقصور صدام الفخمة تملأ ببغداد، لكنهم اختاروا القصر.

حتى القصر كان حالك الظلام. وقف صفّ من العسكريين أمامنا وطلبوا أن نضع حقائبنا على الأرض. لم تكن حقائب بالضبط، بل أكياساً عسكرية زيتونية اللون حشونا داخلها ما يلزمنا وما كان وجوده مثار سخريّة: أقنعة مضادة للغازات السامة وسترات واقية من الرصاص وألبسة عسكرية لم نستخدمها قط. توسّط جاي غارنر الصف وصافحنا، كما صحّبه، ببرود لافت. ثمّ تفرّقنا نتعثر على السلالم التي قادتنا إلى قاعات اصطفت فوقها

عشرات الأسرّة والأفرشة الملقاة على الأرض. مذّاك صار كل سرير ألقى أحدنا نفسه عليه سريره الخاص. وصار هذا السرير مكتبه الخاص. لم تكن الوحيدتين الذين عشنا هكذا. فإلى جانبي كانت أسرة «مكاتب» مهندسي وفنيي شركة بكتل العملاقة: يفرشون خرائطهم ومخططاتهم على الأرض ويجتمعون حولها للدراسة. ولم يحظ بعضنا حتى بأسرّة ففرشوا أعطيتهم على الأرض. لم يكن عددنا يقل عن ثلاثين شخصاً في القاعة.

لم تكن سلطة التحالف المؤقتة قد أنشئت بعد، بل كانت إدارة البلد المحتلّ في أيدي «أورها» ORHA، مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية الذي تشكل في أوائل عام ٢٠٠٣ بقيادة جاي غارنر. وكان الأخير قد جلب معه عدداً من العراقيين لمساعدته في تلك المهمة، لذا لم يستسغ وصول فريق من مئة وأربعين عراقياً يقومون بالمهمة ذاتها. عرفْتُ فيما بعد أن غارنر كان من الداعين إلى تسليم السلطة للعراقيين في أسرع وقت ممكن. ولم يكن هذا موقف وزارة الدفاع، لذا عدنا غارنر «من جماعة» الأخيرة. لقد انتقل الصراع المرير بين أجنحة الإدارة الأميركية من واشنطن إلى بغداد. ظلت «أورها» تدير العراق حتى تم حلّها في نهاية يونيو/ حزيران لتحلّ محلّها سلطة التحالف المؤقتة ولتتخذ الحرب بين قبيلتي وزارة الدفاع ووزارة الخارجية شكلاً جديداً لعب دوراً كبيراً في تعطيل، بل وتخريب أيّ مسعى لتحسين الوضع في العراق.

في إطاعة غارنر

حين تبين أنّ غارنر قرّر التعامل بشكل فوقّي كامل مع فريق المجلس، طلبت من المنسق أن يتّصل بواشنطن لكي تبلغ غارنر بأنّ مهمّتنا هي العمل بالتنسيق مع «أورها». صدمتني ابتسامته المرتبكة، واعترف بأنّه لم يخبرني الحقيقة إذ لم يوافق البنّاغون على الصيغة التي قمت بإعدادها ونحن في واشنطن، وأننا نعمل تحت إمرة «أورها» لا بالتنسيق معها. وصف أحد الصحفيين غطرسة غارنر قائلاً إن هذا الرجل يعتقد أنّ مجرد طلبه من الآخرين مناداته باسمه الأول كافٍ لإعطاء الانطباع بأنّه متواضع.

بعد حين أبلغني الزملاء الذين لحقونا إلى بغداد أنّ أول جملة خاطبهم بها غارنر «أنتم هنا لتنفيذ ما أكلفكم به. وإذا لم يعجبكم الأمر فيمكنكم العودة فوراً إلى ديربورن» (وهي البلدة التي يتركز فيها العراقيون في

٥ بالرغم من الكشف عن مئات المقابر الجماعية لضحايا نظام البعث ونقصي كثير من وثائق إدانته، وثبوت كون قصر الرضوانية مقراً رئيساً لممارسة جرائم التعذيب، لم يردّ ذكر له قطّ بعد سقوط النظام. فقد تحوّل القصر إلى «كامب كروبر» الذي احتفظ فيه الأميركيون بالسجناء «عالي القيمة» مثل صدام حسين وطارق عزيز.



منهم أتتهم من مدينة «صدام» التي لم يكن قد صار اسمها مدينة الصدر. هزوا رؤوسهم بلا مبالاة حين قلت لهم بأن اسمها مدينة الثورة.

يا لهذه المدينة التي ظل اسمها هاجساً لكل الحكام. كنّا، كبغداديين، نمارس عنصرينتنا فنسميها «خلف السدة». سكّانها كائنات سميناها «شراكو» ألقي بهم الجوع على تخوم مدينتنا. وجاء عبد الكريم قاسم الذي حول أكواخ القصب إلى مساكن متواضعة تمتد إلى مساحات شاسعة فصار اسمها «مدينة الثورة». وقرر صدام، في زيارة نادرة له إلى مدينة يعرف كم تكرهه، أن يسميها باسمه.

لم يكن في الحمام ماء ساخن. ولم يكن حمام واحد ليتسع بالطبع لكل هذا الحشد من الوافدين. في الأيام التالية اشترى كل منا «شامبو» من كشك أقيم على عجل على أحد الأرصفة خارج القصر، وتم بناء كابينات لتصبح حماماتنا. بدأ القصر يتأمرّك. صار اسم الفسحة الدائرية التي تتوسط المكاتب «الروتندا» (الساحة المستديرة). كان في وسط الروتندا مجسم للقصر الجمهوري استلقتني مفارقة في وضعه. فمع أن الأميركيين لم يقصفوا القصر الذي ظل على حاله، كانت قبة المجسم متأكلة والمجسم يعلوه الغبار. حشد من العراقيين يملأ الممرّ الخارج يساراً كلسان من تلك الروتندا طالبين تزويدهم بـ«بادجات» تسمح لهم بالدخول إلى القصر.

كان من بينهم إعلاميون يرأس بعضهم الآن تحرير صحف، ونواب حاليون. أمّا نحن فقد حظينا بـ«بادجاتنا» التي تحمل كلّها الحرف A الذي يعنى أننا في الدرجة الدنيا من الثقة الأمنية. كانت القاعة الفسيحة على يمين الروتندا هي مكان عملنا، لكنّها لم تكن مكتباً خاصاً بالمجلس. كان فيها ما لا يقلّ عن أربعين جهاز كومبيوتر يعمل عليها أفراد ينتمون إلى جهات شتى. إلى يسار الروتندا كان مكتب السفير البريطاني ومساعديه الذي دخلته مرة واحدة للقاء السفير لسبب لا أذكره، لعلّه كان لإيداء اعتراضني على الدور الهامشي الموكّل إلى مجلسنا. أمّا الطابق الثالث فكان محاطاً بسريّة تامّة ولا يقترب منه إلا حملة «بادجات C» أعلى درجات الموثوقية. دخلته مرة واحدة بطلب من أستاذ في جامعة جورج تاون التي سبق أن ألقيت فيها عدّة محاضرات. قابلني من فتح الباب لي باستنكار شديد، فقد اكتشفت في ما بعد أنني في مكتب مجلس الأمن القومي التابع للرئيس الأميركي مباشرة. تعرّفت في المطعم بعد حين بشاب اسمه أحمد يعمل في هذا الجهاز قال لي إنه الوحيد من أصول عراقية فيه.

ديترويت). وفستّر لنا ذلك بعض ما كان غامضاً في أذهاننا وأهمّه تأخير سفرنا إلى العراق إلى ما بعد شهر من سقوط صدام. كنّا آنذاك في ولاية نيومكسيكو، واحدة من أكثر الولايات الأميركية تخلفاً وتقع في أقصى الجنوب. لعلّها المكان الوحيد في أميركا وأوروبا الذي تشاهد فيه مبرّدات الهواء التي نستعملها في العراق لا أجهزة التكييف. فاستعداداً للعودة إلى العراق تمّ تدريبنا على استخدام الأفتعة الواقية من الغازات السامة وعلى استخدام المسدس للدفاع عن النفس. تخيلت الدكتور الوقور محمود ثامر، السبعيني الذي لا يتجاوز وزنه خمسين كيلوغراماً يجابه قوة عسكرية. تسلمنا سلاسل تعلّق على الرقبة ويحمل كل منها رقماً للتعرف إلى جثثنا في حالة الوفاة، إذ كانت مصنوعة من معدن يقاوم درجات الحرارة العالية التي يسببها الانفجار، كما تم تصوير أسناننا شعاعياً للغرض نفسه.

في نيومكسيكو كلّفني الزملاء من أعضاء المجلس بكتابة مذكرة إلى بول فلفوفتز تعبّر عن عدم اقتناعنا بالتفسيرات المقدّمة من أنّ الظروف الأمنية لا تسمح بالتحاقنا، إذ إنّنا لم ننتم للمجلس إلا للمساهمة في إعادة الأمن والشروع في المساعدة على إحياء مرافق الدولة. والواقع أنّ المجموعة التي وصلت بغداد في التاسع من أيار وكنت من بينها، لم تكن تضمّ أكثر من عشرين شخصاً من أعضاء المجلس المئة والأربعين. قيل لنا وقتها بأننا المجموعة «الأكثر أهمية». أمّا الغالبية الساحقة «الأقل أهمية» فقد سافرت إلى الكويت وبقيت هناك حتى نهاية مايو/ أيار. وكان التبرير هذه المرة سوء الأحوال الجوية. عرفت فيما بعد، أنّ مساعي محمومة كانت تُبذل لحلّ المجلس حتى بعد أن وصلنا إلى بغداد.

القصر يتأمرّك

خرجت من القاعة لأدخّن، فجاءت موظفة من غرفة مقابلة عرفت فيما بعد أنّها غرفة «وكالة التنمية الأميركية» تأمرني بإطفاء السيجارة، فالتدخين ممنوع في القصر. لست في بلدك إذًا. هم يشترعون ما يمكن وما لا يمكن عمله هنا. منذ البدء، كان للوكالات الرسمية الأميركية، على عكس «بكتل» وغيرها، مكاتب وغرف مستقلة.

صباح اليوم التالي خرجنا إلى الحمام. كان فاحراً لكنّه لم يكن مثيراً، فلم يكن هذا مقراً لإقامة صدام حسين. صبية ينظفون المغاسل والأرض قابلونا؛ هلو سير، غود مورنغ مستر. صعدوا حين أجبتهم بالعربية. عرفت

ثم جاء تلفون «الثريا»

بعد حوالي الشهر في القصر الجمهوري بدأنا نترقبه. تمّ بناء صفّ طويل من الكابينات الخشبية وخيّرنا بين السكن منفردين في واحدة منها أو البقاء في غرفة تتسع لحوالي عشرة أشخاص في القصر فاخترت الكابينة. واختار آخرون البقاء. قبلها جاء تلفون «ثريا». في البدء، كانت لدينا أجهزة لاسلكي لا ندري ما نفعل بها سوى أنها تمنح حاملها شعوراً بالأهمية. قال منسق الفريق بلهجة قائد عسكري إنها ضرورية للاستخدام في حالات الطوارئ لكننا استخدمنا تلك اللعب للتحاور في ما بيننا عبر الغرف. تشارك كل اثنين منا في واحد من أجهزة ثريا، وكان شريكى الصديق العميد توفيق الياسري. لا أذكر أنني استخدمت الجهاز إلا للاتصال بزوجتي وبصديق آخر هو هشام ملحم مدير مكتب قناة «العربية» في واشنطن الذي كنت أنقل له ما يدور من مهازل.

كانت لدينا أجهزة لاسلكي لا ندري ما نفعل بها سوى أنها تمنح حاملها شعوراً بالأهمية.

لكن المؤسسة التي أحاطتنا «بحنانها» التجاري العسكري منذ البدء كانت «كيلوغ براون أند روت» وهي شركة فرعية لمؤسسة هالبرتون العملاقة التي كان ديك تشيني نائب الرئيس بوش عضواً في مجلس إدارتها. تولّت كيلوغ تزويد العاملين الذين كانوا بالمئات بكل حاجياتهم اليومية، بدءاً بالطعام والقرطاسية وصولاً إلى غسل الملابس وكيّها. لكن ما إن تصل الملابس المكوّنة ونعلّقها على مرافق الشبايك (إذ لم تكن ثمة خزانات ملابس بالطبع) حتى ينقضّ عليها تراب بغداد كأنه يريد الانتقام من ترف العاملين بعيداً عن هموم الناس. وكانت المفاجأة حين اكتشفت أنّ كلّ تلك الخدمات من دون استثناء، بما فيها غسل الملابس الداخلية تتمّ في الكويت، وكل حاجياتنا ابتداءً من القرطاسية حتى الطعام تجلب من الكويت. كتبت مذكرةً تقترح إصلاح مصانع المواد الغذائية العراقية، فضلاً عن إنجاز الخدمات الأخرى بهدف تشغيل بعض من قوّة العمل العراقية العاطلة، فجاء الجواب بأنهم يخشون من تعرّض المنتجات والملابس للتسميم، علماً أنّه كان بوسعهم أخذ عينات للتأكد من سلامتها. وكتبت مذكرة

أخرى تقترح إحياء معامل الإسمنت الحكومية للشروع في عملية البناء من جهة، ولخلق جو من الثقة لدى رجال الأعمال بأنّ المناخ الاقتصادي مقبل على الانتعاش، فكان الجواب هو أنّ الأولوية الآن للخصخصة كأنّ المشاريع في عزّ ازدهارها ولم يبقَ إلا بيعها.

فرض النيولبرالية

بعد أشهر قليلة، أكّدت إدارة بوش نيّتها في فرض توجيهها النيولبرالي فوراً على العراق، وهو ما كان لا بدّ من أن يؤدّي إلى قيام رأسمالية متوحشة لا اقتصاد سوق يمتلك آفاق الازدهار، وهو ما توقّعت حدوثه قبل سقوط صدام في محاضرة دعائي البنك الدولي إلى إلقائها في عدد محدود من الخبراء والشخصيات أذكر منهم الأمير الأردني زيد بن طلال (أو ابنه رعد!). أنشأت سلطة التحالف «مجلس التنسيق الدولي لسلطة التحالف المؤقتة» وتولّى ماريك بلتكا رئاسته. كان بلتكا وزير مالية سابقاً في بولونيا تولّى الإشراف على عمليّة انتقال بلده بعد انهيار الشيوعية. في مؤتمر عن دروس انتقال أوروبا الشرقية في أواخر سبتمبر/أيلول ٢٠٠٣، طرح بلتكا آراءه بوضوح تام: الإصرار على اللبلة الفورية للأسعار، رفع الإعانات التي توقّرها الدولة للسلع التي يعتمد عليها الناس، الخصخصة الفورية، واعتبار أنّ إصلاح مؤسسات قطاع الدولة، حتى وإن كان هدفه تهيئتها للبيع إلى القطاع الخاص، أمر كارثي.

حكم القضاء الأميركي على «كيلوغ براون أند روت» في ما بعد بدفع غرامات عالية بتهمة تضخيم الأرباح بالمشاركة مع تجار كويتيين. كان التعلّل بأجواء الحرب وسيلة سهلة للقيام بذلك من خلال الادعاء باضطراب المؤسسة إلى دفع تكاليف خيالية لنقل المواد، وتلف المعدات والبضائع وضياعها. هكذا صار الأمن باباً للأردنيين وغيرهم من الساعين إلى غرّف أكثر ما يمكن وبأسرع ما يمكن من أموال سمّتها الإدارة الأميركية نفقات إعمار للعراق. كان هؤلاء يأخذون عقوداً لتجهيز سلطة التحالف بأيد عاملة رخيصة من بنغلادش وغيرها. فمع بدء الهجمات ضدّ القوّة الأميركية، تناقص عدد العاملين العراقيين في المطاعم حتى انعدم، وكانت الحجة هي ذاتها: الخوف من تسلل الإرهابيين. وقد سمعت من مقاول أردني بأن العقود بينهم وبين كيلوغ تضمّنت شرطاً غير مكتوب مفاده عدم تشغيل أيّ عراقي.

وغيرها من الوكالات التجسسية. ففي العام ١٩٦٩ ترك العالم النووي بيستر Beyster وظيفته المريحة في صناعات الدفاع وعمره ٤٥ عاماً ليؤسس SAIC في غرفة صغيرة بكاليفورنيا. وخلال أربعة عقود لم تتعرض «سايك» إلى الخسارة في أي سنة، إذ صارت أكبر شركة خاصة لتكنولوجيا المعلومات ووصلت عوائدها عشية غزو العراق إلى ٦,١ مليار دولار.

لا تعلن وكالات الاستخبارات أسماء من تتعاقد معهم ولا عن حصصهم من إجمالي العقود الممنوحة، لكن المصادر تفيد بأن «سايك» كانت المتعاقد الأكبر مع وكالة الأمن القومي ومن بين أكبر خمسة متعاقدين مع «السي أي أي» عشية الحرب على العراق. فضلاً عن أن تكنولوجيا «سايك» في النقاط المعلومات وتحليلها هي التي مكنت الولايات المتحدة من اعتقال عدد كبير من أعضاء القاعدة، فهي مصنعة لمجسات حرارية تحت البحر تستطيع تتبع الغواصات ومنتجة للبرامج التي تستخدمها الأقمار الصناعية التجسسية لمسح العالم وإيصال المعطيات الدقيقة حول مواقع الأهداف، لاسيما في حرب ٢٠٠٣، ومطورة لمعدات تستخدم أشعة غاما التي تخترق الشاحنات وتفحص محتوياتها عن بعد.

لعل أهم إنجازات «سايك» برنامج «تيراتيكت» TeraText وبرنامج التصنيف اللغوي الكامن Latent Semantic Indexing (LSI)، بفضل هذين البرنامجين تتحول مليارات مليارات مفردات كل لغة مكتوبة في العالم والتي ترد في الكتب والمجلات والمكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني وغيرها إلى معطيات يمكن الاستفادة منها في عمليات المراقبة والتجسس. إذ بوسع «تيراتيكت» تحليل ملياري وثيقة خلال أربع ثوان، أي ثلاثين مليار وثيقة في الدقيقة، من خلال كشف ترابطات وتكرار المفردات والمصطلحات والأسماء. ففي عملية اعتقال القيادي في تنظيم القاعدة خالد شيخ محمد، المدان بالتخطيط لعمليات سبتمبر ٢٠٠١، وكان في باكستان، جمع برنامج تيراتيكت عبارات مشتتة مثل «خالد»، «نائب»، «تاريخ غير محدد» لعملية متوقعة تقوم بها خلية نائمة.

وبفضل هذا الدور الهائل والعلاقة الوثيقة مع الإدارات الأميركية، منح البنتاغون سبعة عقود لسايك لإعادة إعمار الحكومة وإنهاض الإعلام في العراق في شباط/فبراير ٢٠٠٣، أي مع بدء الحرب بالضبط، على أن يتم تنفيذها جميعاً تحت إشراف دغلاس فيث، الذي

أدركت فيما بعد سبب كرم كيلوغ المبالغ به في التعامل معنا، فحين انتقلنا إلى فندق الرشيد قبل لنا بأننا غير مطالبين بإعادة ما تم تزويدنا به من بطانيات ومراوح وسترات واقية من الرصاص سعر الواحدة منها ٥٠٠ دولار. وما إن صدر الحكم على الشركة حتى أعلنت مؤسسة «هالبرت» العملاقة انفصالها عنها وتحولها إلى مؤسستين منفصلتين في مسعى للتبرؤ من فضائح «كيلوغ براون».

تعمل «سايك» في إنتاج تكنولوجيا فائقة السرية تمثل جوهر عمليات التجسس التي تمارسها وكالة الأمن القومي و«السي أي أي».

لا أحد يسمع ما تقول، أو قل إنهم يسمعون ما يودون سماعه فقط. عبّر الصديق مؤيد الحيدري عن الأمر ببلاغة شديدة حين التقى بول فلفوفتز بالإعلاميين في إحدى زيارته الأولى لبغداد. قال له: «كان صدام يملأ أفواهنا بالقطن فجئتم وأخرجتم القطن منها لتضعوه في آذانكم».

هذا هو رب عملنا إذن

لم تكن حالات الترابط بين العلاقات السياسية والشخصية والمصالح الاقتصادية مقتصرة على مؤسسات «بكتل» و«هالبرت» و«كيلوغ براون» آند روت» وغيرها، فبعد أن تركت عملي في مجلس الإعمار، صرت أنقب في الوثائق والتقارير بحثاً عما يلقي مزيداً من الضوء على الخيوط المتشابكة للعبة التي كنا ضحايا لها. كان الاكتشاف الأكثر إثارة لذهولي هو ما حصلت عليه من تفاصيل عن «رب عملنا» «سايك» SAIC، وهو مختصر Science Applications International Corporation. إذ لم تكن عقود عملنا في المجلس تتم مع وزارة الدفاع مباشرة، بل عبر «سايك» التي نالت عقداً من الوزارة لتأمين لوجستيات تشغيل الأطقم ومتابعة شؤونهم.

لكن هذه المؤسسة التي تولت عملية تجهيز وتأمين مستلزمات سفرنا وإقامتنا تستحق اسمها «التطبيقات العلمية العالمية» بكل جدارة. تعمل «سايك» في إنتاج تكنولوجيا فائقة السرية تمثل جوهر عمليات التجسس التي تمارسها وكالة الأمن القومي و«السي أي أي»

«عبد حمود» الجديد يحتل الآن مركز مدير عام ويعلن أنه يحمل شهادة الماجستير. يتختر المنسق في مشيته، يرسم على وجهه وحركاته مظهر الجدّة ويوزّع علينا ابتسامات باهتة محسوبة، ويجلس مقابل أعضاء المجلس كأنه يتخذ قرارات استراتيجية. كان الاختصاصيون قد بدأوا يرافقون المستشارين الأميركيين إلى الوزارات، لكنهم كانوا يشكون جميعاً من أنّ الأخيرين لم يسمحوا لهم حتى بالتحدّث إلى المسؤولين أو العاملين العراقيين فضلاً عن تقديم اقتراحات بشأن عمل تلك الوزارات أو سبل المساهمة في إعادتها إلى سابق عهدها. عاد الزميل المعنّي بالعمل في وزارة الداخلية يشعر بالإهانة إذ لم يسمح له الأميركيون بالإطلاع على قرص مدمج يحوي أسماء العاملين في أجهزة صدّام الأمنية، وهو الذي كان مفترضاً به أن يساهم في إعادة بناء تلك الأجهزة. وجرت هذا بنفسه في الزيارة الوحيدة التي قمت بها وكانت إلى وزارة الثقافة مع المستشار الإيطالي. فقد عهدت قوّات التحالف بمهّمة الإشراف على الوزارات الثانوية إلى غير الأميركيين لإضفاء طابع أمنيّ على احتلالها للعراق. كان هذا المستشار منتشياً بدوره. يصطحب عدداً من المصوّرين ويزور شارع المتنبي لكي يوحى باهتمامه بالثقافة. شعرت بالعار لأنّ الموظفين تعاملوا معي كمسؤول وصاروا يستعطفونني مؤكدين أنّهم لم يكونوا من أنصار نظام صدّام حسين.

لكنّ هذا بالضبط كان محور اجتماعاتنا اليومي وما يسأل عنه المنسق: كم بعثياً شخّصت في «وزارتك»؟ هكذا كان المطلوب أن يتولّى مختصّون المهمّات التي كانت أجهزة الأمن تقوم بها في ظلّ البعث. لا حاجة إلى القول بأنّ بعض أعضاء المجلس لم يكونوا يحضرون الاجتماعات وكان قسم كبير من الحضور يتنّدر على ما يجري.

منسق مجلسنا هذا الذي ظننته اختفى عن الأضواء بعد اختفاء محتضنيه اللبراليين الجدد في أميركا ظهر مؤخراً مثبّراً قنبلة سياسية في العراق. قرار بتوليته منصب الأمين العام لمجلس الوزراء كجزء من حملة «الإصلاح» التي دعا إليها رئيس الوزراء الحالي د. حيدر العبادي تحوّل إلى معركة سياسية ضارية انتصر فيها خصومه الذين اتّهموه بأنّ قراره جاء تنفيذاً لمطالب أميركية. منسّقنا إذن صار أوباماويّ الهوى.

كان تشخيص البعثيين وطردهم من الوظائف من المهامّ المطلوب تنفيذها من جانب المستشارين الأميركيين

سيرد ذكره فيما بعد، علماً أنّ كبير مساعدي فيث في البنتاغون هو كرستوفر هنري الذي كان نائب الرئيس الأقدم لسايك حتى تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

بموجب أحد العقود، تقوم سايك بتوظيف «خبراء ينفذون محتوى العقد» وهم ١٥٠ شخصاً، يحدّد العقد طبيعة عملهم بـ «تشخيص، والاتصال وتوظيف أفراد من المنفيين العراقيين من الراغبين في تكريس جهودهم لإعادة الإعمار وفرض الاستقرار في العراق» (أي نحن)، وينصّ العقد كذلك أنّ على «سايك» استئجار شقق وتغطية تكاليف المعيشة وتوفير الطاقم والداعم والمقدم للخدمات لهؤلاء الأفراد. وينصّ العقد على إرسال الفريق إلى العراق لفترة لا تقل عن الشهر.

ويدعو عقد ثان «سايك» إلى توظيف جهاز لإعادة بناء جهاز الإعلام الجماهيري وتجهيزه وتدريبه يتكوّن من أربعين شخصاً، تكون مهمّته تشغيل ثلاث محطات تلفزيونية في بغداد والبصرة وإربيل وإصدار صحيفة تصدر ستة أيام في الأسبوع بتوزيع يومي مقداره ٣٠٠ ألف نسخة. ويحدّد عقد ثالث ثلاثة أسماء بالاسم: شاها علي رضا (التي سيرد ذكرها كذلك) وأحمد دبّوس وأوين كربّي «للمساعدة في تسهيل التحول السياسي لعراق ما بعد النزاع إلى أمة ديمقراطية حرة» بمخصصات ٢٠٩ دولارات في الساعة (نعم، في الساعة الواحدة).

«بدأنا نعمّر العراق»

أخذ منسق «مجلسنا» يجتمع بنا مساء كلّ يوم في حديقة القصر. ثمة نافورة سيظلّ شكلها عالقا في ذاكرتي. نافورة يكفي تأملها لتكوين صورة عن سيكولوجيا صدّام حسين. يستمتع الناس بشرب قهوتهم الصباحية أو المسائية جالسين أمام نافورات تضخّ الهدوء مع انسياب مياهها: ماء يتدفّق من فم دولفين وديع، من إبريق تصبّه صبيّة. نافورة القصر الجمهوري لم تكن كذلك. هل انتبه لها أيّ من زائري صدّام؟ كانت النافورة تجسّم سمكة ضخمة تخنق أخرى تقيّ الماء. أيّ ذوق سادّي! في الفترة التي كنّا فيها هناك، كانت الحديقة قاحلة بسبب انعدام المياه، فصار لون النافورة وأسماكها أقرب إلى حقيقتها: حقيقة الموت.

يأتي المنسق متبوعاً بشخص شبه أمنيّ عينه عضواً في المجلس الذي يُفترض أنه يضمّ مئة وأربعين اختصاصياً في شتّى مجالات إعادة إعمار العراق، لكنّنا سمّينا التابع «عبد حمود» تشبيهاً له بمرافق صدّام حسين.





كذلك، لكنهم كانوا بحاجة إلى عراقيين يساعدونهم في التعرف إلى هؤلاء. ومع أن الدور المنوط بالمستشارين الأميركيين كان شكلاً ملطفاً متناسباً مع العصر بالمقارنة مع شببيه البريطانيين عند تأسيس الدولة العراقية، فقد كانت الصلاحيات الممنوحة لهم لإدارة الوزارات وإعادة رسم سياساتها وأساليب عملها إمبراطورية بامتياز.

مؤهل الخبير: الولاء لبوش!

ولكن من هم مستشارونا ومن أين جاؤوا؟
يلقى راجيف شانراسيكاران، مدير مكتب بغداد للواشنطن بوست أهمية كبيرة في أوساط صنّاع القرار في الإدارة الأميركية وأحد أنشط الصحفيين العاملين في بغداد آنذاك وأكثرهم ثقافة وتوقّداً ذهنياً، أضواءً مهمة على نوعية العاملين الأميركيين في سلطة التحالف وكيفية اختيارهم: «بعد سقوط نظام صدام اجتذبت فرصة العمل في بغداد كل أصناف الأميركيين: مهنيين ضجرين من وظائفهم، أكاديميين يتحدثون العربية، اختصاصيين في التنمية، ومغامرين راغبين في الذهاب إلى مناطق الحرب». ولكن كان عليهم المرور على دائرة خاصة في وزارة الدفاع قبل أن يُسمح لهم بالعمل هناك. لم يكن على المتقدمين أن يكونوا خبراء في الشرق الأوسط أو في مجالات إعمار مناطق ما بعد النزاعات. أهم المؤهلات كان الولاء لإدارة بوش. كان العاملون في هذا المكتب يطرحون أسئلة فظة بشكل مباشر: هل صوت لجورج بوش؟ هل تؤيد طريقة الرئيس بوش في محاربة الإرهاب؟ كان طبيعياً في مثل هذه الحال أن يكون كثير من العاملين في سلطة التحالف مفتقدين للمؤهلات اللازمة للعمل. شاب في الرابعة والعشرين من العمر لم يسبق له العمل في مجال المالية قط، قدّم طلباً للعمل في البيت الأبيض فأرسل إلى بغداد لإعادة تشغيل البورصة. ابنة معلق بارز من المحافظين الجدد تخرّجت حديثاً من جامعة إنجيلية أرسلت لإدارة ميزانية العراق البالغة ١٣ مليار دولار. شعقت حين سألتني من سيكون مسؤولاً عن عمل البنك المركزي إن كانت للعراقيين تجربة في العمل على الكمبيوتر. أجبته بأنّ ثمة عموداً يومياً في جريدة الجمهورية البغدادية لتعليم الشباب على برنامج «بيسك» الذي كان سائداً حين ذاك، وأني تدرّبت على برنامج «فورتران» في سنة دراسية الجامعية الأخيرة.

تم تعيين البعض بفضل مكالمات هاتفية أجراها عضو نافذ في الحزب الجمهوري مع برعمر لصالح صديق

شخصي. من بين هؤلاء جيمس هافرمان الذي اختير لإعادة تأهيل نظام الرعاية الصحية، ولم يكن إلا عاملاً في مجال الخدمة الاجتماعية واسماً مجهولاً في أوساط اختصاصيي الصحة في العالم التحق بعمله في بغداد. قبلها كان مديراً لوكالة مسيحية لتبني الأطفال. جاء خلفاً لشخصية من بين أكبر اختصاصيي العالم في مجال الصحة العامة وبخاصة في البلدان التي تشهد صراعات عسكرية، اختصاصي عمل في كوسوفو والصومال ودّرس في جامعة جونز هوبكنز المرموقة. لكنه لم يستمر في عمله سوى أسبوع واحد لأن الاختيار وقع على هافرمان. وعلى حدّ تعبير راجيف: «كان «بركل» الذي تمّ استبداله يملك من الشهادات العلمية ما يملأ جداراً من المجلدات لكنه لم يمتلك صورة تجمعته بالرئيس بوش. أمّا هافرمان فكان من أوائل مشاريعه في عراق مُبتلى بكل أنواع الكوارث الصحية والمفتقد لأبسط الحاجات واللوازم الطبية شتّى حملة للتثقيف بمضارّ التدخين».

تحاشى البيت الأبيض عن عمد خبراء الشرق الأوسط المحترفين والمخضرمين وخبراء مجتمعات ما بعد النزاعات، الذين عمل كثير منهم في وزارة الخارجية أو الأمم المتحدة لأنهم لم يكونوا متحمسين لنشر الديمقراطية وذوي نزعات ليبرالية.

تمثّلت الحالة الأكثر تراجيدية في تعيينات العاملين في سلطة التحالف في اختيار المشرف على وزارة الداخلية. ففي أيار / مايو ٢٠٠٣، أي بعد اكتمال احتلال بغداد بشهر واحد، توصّل فريق من خبراء وزارة العدل الأميركية إلى أنّ العراق بحاجة إلى أكثر من ٦٦٠٠ مستشار أجنبي لإعادة تأهيل جهاز الشرطة. فكيف استجاب البيت الأبيض والبنّاغون لهذه التوصية؟ تمّ إرسال شخص واحد فقط هو بيرني كيرك، الذي كان نجماً في الإعلام الأميركي، بوصفه قائد شرطة نيويورك أثناء الهجوم على مركز التجارة العالمي عام ٢٠٠١. لكنّ خبرة الرجل في العالم الخارجي اقتصرّت على عمله مسؤولاً أمنياً لمستشفى حكومي أميركي في السعودية وطرد بعدما توصّل التحقيق إلى أنه كان يتجسس على الطاقم الطبي هناك.

ما إن حلّ كيرك محلّ خبير وزارة الخارجية في تطبيق القانون الدولي روبرت غيفود، وقبل أن يتعرّف على الوضع في العراق، عزّف مهمته بأنها «جذب اهتمام وسائل الإعلام لعملنا الجيد في إعداد الشرطة لأنّ الوضع الأمني ليس بالسوء الذي يعتقد الناس». وقبل

أن يُمضي أسبوعاً واحداً في بغداد، أجرى كيرك عدداً كبيراً من المقابلات التي أكد فيها أن الوضع أخذ في التحسّن مع أنه عيّن فريقاً كاملاً من الحراس الشخصيين من جنوب أفريقيا.

تم ترتيب اجتماع بين برير و بعض أعضاء مجلسنا. أردنا أن يتركز الاجتماع على ضرورة إعطاء المجلس دوراً رئيساً في عملية إعادة الإعمار.

غادر غارنر، جاء برير كان آخر عهدي به حين تجاوب باهتمام مع مقترحي بعقد اجتماع يضم رؤساء الجامعات العراقية العشرين بوصفهم الأقدر على تحديد المشاكل وتعيين احتياجات كل جامعة وترتيبها حسب درجة إلحاحها وأولوياتها. شعر إيردمان بالحنين حين تم إبلاغه بأن الدكتور سامي المظفر، رئيس جامعة البصرة، شتم الحرس الذين أرادوا تفتيشه قبل الدخول إلى قصر المؤتمرات وعاد من حيث أتى.

تم حل «أورها» وأزيح غارنر ليحل محله برير. كان وجه غارنر متجهماً وهو يصافح برير ببرود. وصل برير المحسوب على وزارة الدفاع إلى بغداد ليتولى منصب رئيس «سلطة التحالف المؤقتة» التي حلت محل «أورها». تجمع العاملون في الروتندا حيث توسّط الحاكم الجديد الجمع وألقى كلمة: أمنيات، وعود وتأكيدات على تصميم الولايات المتحدة على العمل لضمان مستقبل زاهر لعراق ديمقراطي يكون نموذجاً يشع على المنطقة. تم ترتيب اجتماع بين برير وبعض أعضاء مجلسنا. أردنا أن يتركز الاجتماع على ضرورة إعطاء المجلس دوراً رئيساً في عملية إعادة الإعمار. كان الارتباك وترقب الحدث السعيد الجلل بادياً على وجه المنسق حتى إنه أراد إجراء بروفة لكيفية توزيع الأدوار بيننا؛ ماذا يقول كل منا؟ كيف نخاطبه؟ كيف نعرض ملاحظتنا من دون إبداء تذمر؟ أذكر أنني وزميلين، خالفنا الأعراف إذ جلسنا على حافة الشباك المواجه لمقعد برير المتصدّر للطولة. حاول المنسق مداراة حرجه من عدم احترامنا لأصول اللقاء بابتسامة اعتذار عن «رعوتنا». كل ما علق بذهني من ذلك اللقاء هو توجيه برير التحية لي باللغة الهولندية حين عرف أنني أت من هناك، فقد استدعى لتولي مهمة حكم العراق من وظيفته سفيراً لبلده في ذلك البلد ثانوي (وربما ثالثي) الأهمية. لم يعلّق شيء في ذهني لأنّ الحوار، إن صحّت تسميته حواراً، لم يكن غير تبادل للأمنيات بأن تسير الأمور على ما يرام. خرجنا من لقائنا بعد أن وعد برير بأنه سيغيّر الأمور. لكن الأمور لم تتغيّر.

مغادرة فندق الرشيد والعودة إليه

أوائل حزيران / يونيو ٢٠٠٣ تم إصلاح ما يمكن إصلاحه من فندق الرشيد فانتقلنا إليه. لا أزال أذكر ممسحة الأقدام في مدخله لأنّ صورة بوش الأب كانت مطبوعة عليها بهدف أن تدعس عليها بأقدامك إذ تدخل إلى الفندق. كانت تلك من آثار حرب تحرير الكويت. دهمهم الوقت

ومع هذا فقد جاء بعض من هؤلاء المستشارين مدفوعاً بنوايا طيبة وأحلام رومانسية بالفعل. وحاول آخرون القيام بأعمال إصلاحية لأسباب أخرى، منهم دكتور العلوم السياسية الثلاثيني إيردمان الذي أراد اختبار استنتاجات أطروحة تخرجه برؤوسنا. في تلك الحالات القليلة كان ثمة تبادل مثير للأدوار بين المستشار الأميركي وبين أعضاء فريقنا العراقيين. كنت حين أراه مصحوباً بأربع مصفحات أو أكثر، عندما أخرج لتدخين سيجارة الصباح عند مدخل بناء القصر، أعرف أنّه ذاهب إلى البنك ليحمل أكداً من النقد لتوزيع رواتب الأساتذة والعاملين. لم تكن اجتماعاته مع الأساتذة الجامعيين لقاءات «بريرية» تزيينية. كان يسجل أدق التفاصيل والمقترحات ابتداءً من توفير معدّات مخابر الكيمياء إلى تحديث مكنتات أقسام اللغة الإنكليزية في كليات الآداب التي لم تر مطبوعاً جديداً منذ نهاية الثمانينيات. ولأنّ إيردمان وفريقه العراقي كانا ينتميان إلى هذه الفئة النادرة، فقد كانت محنته الدائمة، كما صرّح فيما بعد للنويويورك تايمز، هي التوفيق بين عمله كموظف في سلطة التحالف المؤقتة عليه تنفيذ المرسوم ١٦ حول إقصاء أعضاء المراتب الثلاث العليا من حزب البعث ومن لهم علاقات أخرى بالنظام المباد من جهة، وبين سعيه لإعادة إيقاف الجامعات وتحديثها من جهة أخرى. لم يرد إيردمان أن يتحوّل إلى مفوض سياسي وظيفته مطاردة الآخرين. ولحسن الحظ كان المستشارون العراقيون لهذه الوزارة من فريقنا، وأهمهم الدكتور محمد الربيعي، من ذوي الخلفيات العلمية الجدية والاستقلالية السياسية. لم تربطني علاقة وظيفية مع الدكتور إيردمان، لكننا تقاربنا بحكم الخلفية الأكاديمية المشتركة.

أليست تلك المأساة المعروفة: الثورة التي تأكل أبناءها؟ لنا كمثقفين نخطأ أقدامنا في شارع المتنبي، كان لتلك البشاعة وجهها. كنا بحاجة إلى أن يقوم أصدقاؤنا الشيوخ بالتعريف بنا لجمهرة من المثقفين الذين لم يسمعوهم بأسمائنا ولآخرين سمعوا بها ولكن لم يعرفوا ما أنتجنا. خفق قلبي فرحاً حين عرفت بأن مازن لطيف قام بنسخ كتاب ممنوع لي بخط اليد ووزعه في ظل نظام البعث. ولكن كم قارئاً كان بوسعه الحصول عليه؟ وكم قارئاً كان مهتماً بقراءة عمل غير شعري أو ديني؟ ما أبشع شعور الغربة!

ما أبشع أن يُشعرك آخرون لا بالغربة عن عالمهم، بل عن فضاء صار ملكاً لهم عن جدارة. وصفت حياتي في شارع المتنبي مذ كان عمري خمس سنوات: منذ ١٩٥٥. لكنهم يعيشون الشارع ويصنعونه اليوم. قلت لماجد وأنا أُنشِر إلى بناء مهتم: هذه مكتبة المثني. علّق بلامبالاة: «إذن، كانت هنا». هو ابن الحاضر، وإن لم يكن شاباً. فهو لم يعيش المتنبي إلا الآن. ما هم إن أشرت إلى بناية عبد الكريم قذوري المقاتلة لمكتبة المثني حيث مكتب أبي للمحاماة؟ إنه ابن شارع صنعه وما عاد لي فيه غير فضاء متخيل. عليّ أن أتعامل معه كما يودّون تخيله. مقهى الشابندر الذي لم يكن له أي علاقة بالثقافة، بل كان مقهى العرض الحالجية ومراجعي المحاكم حوّلها خيالهم إلى «كافيه» المثقفين كأنه «كافيه» كلوني الباريسي.

في فندق الرشيد وفي القصر الذي كان جمهورياً، وكان لا بد أن نتردد عليهما باعتبارهما «مقرّ عملنا»، كان جدول أعمال معظمنا يتضمن قضاء ساعات في الكابينة التي أقامتتها شركة MCI والتي تضم عشرات أجهزة الكمبيوتر التي يمكن استخدامها للتواصل عبر الإيميل. وكانت هذه الشركة، التي يبدو أنها كانت طامعة في الحصول على السبق في بناء شبكة الهواتف النقالة، قد زوّدتنا، عبر سلطة التحالف، بجهاز لكل منا نصل به مجاناً. هكذا غادرنا عصر «الثريا».

لم نكد نبدأ النعود على حياة الحرية في شقة أطلّس حتى اضطررنا إلى العودة خائبين إلى فندق الرشيد بعد أن تردّدت شائعات بأنّ البناية ستعرض لهجوم بعد ورود «معلومات» بأنّها مقرّ لعلماء إسرائيليين! وقد حدث الأمر ذاته مع فندق في عرصات الهندية تم تفجيرها بالفعل. لم تُشعّرنا الدورية الأميركية التي جابت شارع السعدون مساءً بالاطمئنان.

فلم يتمكنوا من نسج ممسحة جديدة تحمل صورة بوش الابن. لا أذكر كم بقيت هناك قبل أن تُعطى خيار الانتقال إلى سكن خاص خارج المنطقة التي لم تكن قد منحت اسم «الخضراء» بعد. اغتنم الصديق صادق الصائغ الفرصة فتشاركت معه في استئجار شقة في شارع السعدون قريباً من سينما أطلّس. منطقة تعجّ بالعصابات والحشاشين السودانيين وكل كائنات الله المهمشة. ومع هذا كان صادق أكثر شجاعة مني. ينزل للتجوال ويعود حاملاً قصصاً طريفة ومخيفة. صار لدينا زوار «عاديون» لا ينتمون إلى عالم السياسيين والقادة «المهمين»: باحثون ومثقفون ربطت صادق وربطتني بهم علاقات قديمة، أدباء ومراسلو وسائل إعلام، وأشبه مثقفين غربيين باحثين عن الشهرة يأملون بالعودة إلى الغرب حاملين كتابات أو أفلاماً أو تسجيلات لا توثق بل تعرض لبطولة المنتج الذي تحدّي الموت في رحلته البطولية المفترضة. ملأ كل هؤلاء حياة كادت تجف داخل عالم لم ننتم إليه. حياة ثقافية هي انتماؤنا، هي هويتنا. من جزيرة الحرية هذه انطلقنا إلى شارع المتنبي، إلى سوق السراي.

لنا كمثقفين نخطأ أقدامنا في شارع المتنبي. كان لتلك البشاعة وجهها. كنا بحاجة إلى أن يقوم أصدقاؤنا الشيوخ بالتعريف بنا لجمهرة من المثقفين الذين لم يسمعوهم بأسمائنا ولآخرين سمعوا بها ولكن لم يعرفوا ما أنتجنا.

ما أبشع الغربة! ما أبشع أن تقرّر خوض المعركة ضد الطغيان مبكراً فتخرج منفيّاً. أو لعلّ أسلوبنا في المجابهة كان انتحارياً. ليست تلك مآساتنا وحدنا. هي مأساة عرفها ثوريو العالم كلّهم. خرجنا مبكرين قبل أن يتصاعد الكره للنظام فصار هذا شبة. لكن، على عكس السياسيين، لم يصفنا أحد بـ «جماعة الخارج». احتضناً بعضنا، مزهر مرسومي، مؤيد الحيدري، لطيفية الدليمي، سلوى زكو، عبد الرحمن طهمازي وأحبة آخرون. تعرفت إلى مثقفين لم أعرفهم من قبل، حيدر سعيد، يحيى الكبيسي، أسماء جميل. تظاهروا أنّ الزمن توقف منذ افترقنا، لكنّه لم يتوقف. يعرفون أنّنا لم نأت قادة نفتتح عصرًا جديدًا يخنقهم الآن باسم الديمقراطية. لعلّ بعضهم أحسّ بأننا سنكون مخنوقين مثلهم في ظلّ نظام توهمنا أنّه سيأتي بجديد فلم يأت به.



المطران غريغوار حداد العدالة الاجتماعية جواباً على الطائفية

نشر هذا المقال للمطران الراحل غريغوار حداد الذي توفي بعد نزاع طويل مع المرض في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٥ الماضي. صدر المقال مطلع الحرب الأهلية في جريدة «لوريان لو جور» اللبنانية الناطقة باللغة الفرنسية في ١٥ تموز / يوليو من العام ١٩٧٥. وهو يعطي فكرة عن موقع العدالة الاجتماعية في فكر المطران ونشاطه.

المطران غريغوار حداد

مواليد ١٩٢٤ درس اللاهوت وتدرّج في المناصب الكنسية.

عزل عن منصبه كمطران لبيروت العام ١٩٧٥ لمقالاته التجديدية الجريئة في الفقه المسيحي في مجلة «أفاق».

دعا إلى علمانية شاملة وإلى العدالة الاجتماعية لقطع الطريق على انفجار النزاعات الأهلية.

أسس في ستينيات القرن الماضي «الحركة الاجتماعية اللبنانية»، وفي عام ٢٠٠٠ شارك في تأسيس «تيار المجتمع المدني».

لغريغوار حداد عدة مؤلفات في اللغة والعروض والعلمانية والروحانيات.

والمسكن، والملبس، والعناية الطبية. مقابل طبق من العدس، بلغ المطاف بالكثيرين، بسبب جوعهم، وخصوصاً جوع أسرهم، إلى «بيع حقوقهم»، وجعل مقولة «العيش أولاً» تتقدّم على أي اعتبار آخر، أي قناعة، أي طموح، أي مطلب إيديولوجي، مذهبي، سياسي. هذا هو واقع الحال، النتيجة الدراماتيكية لهذه الأشهر الثلاثة من سفك الدماء، والحداد، والذعر. يعود المرء إلى احتياجاته البيولوجية الأساسية.

قبل أن يكون نتيجة للأزمة، شكّل هاجس الاحتياجات البيولوجية الأساسية هذا أحد أهم أسبابها. فقد بات الوضع الاقتصادي لعدد أكبر وأكبر من المواطنين، في السنوات الأخيرة، هشاً لدرجة أنّه بلغ حدّاً من البؤس لا يمكن تحمّله. ما عادت هذه ظاهرة فردية وياتت تتخذ أشكالاً جماعية: أصابت بالكامل قرى ومناطق في لبنان، كان النزوح الجماعي ينقل البؤس من المناطق الريفية ويزرعه في ضواحي المدن، خصوصاً بيروت، وصولاً إلى قلب بعض أحيائها.

خلال هذا الانتقال، كان البؤس يتبع مساراً كاملاً. وقد نما إدراك لدى أولئك الذين كانوا حتى الآن ريفيين مسالمين: إدراك لبؤسهم، ولبؤس الطبقات العاملة، وللфارق الفاضح بين مستوى معيشتهم ومستوى معيشة أقلية تعيش في ترفّ فاحش، بحيث تنفق في سهرة واحدة ما يكفي لإعالة أسرة لعشرة وعشرين سنة.

إنّ إدراك لحقهم في العدالة، والمساواة، والحياة الكريمة، حيث ما من أحدٍ مُحسن وما من أحدٍ «يتلقّى الإحسان».

في حين يبدو أنّ الجميع في هذه البلاد يحاول عن عبث شرح الأسباب الحقيقية للأزمة المأساوية التي تهز لبنان واكتشاف السبل الفعّالة التي تتيح الخروج منها، تقترح صحيفة «لوريان لو جور L'Orient-Le-Jour» كلمتين باللغة اللاتينية لمساعدتنا في فهم ذلك جيداً!

«فلنعش أولاً، ثم نتفلسف»، يفيد القول اللاتيني المأثور. والمقصود بذلك أنّه قبل المباشرة بأي نشاط، على المرء أن يسعى إلى ضمان حياته وسبل معيشته. بعبارة معاصرة: تتقدّم الاحتياجات والمتطلبات البيولوجية على أي نشاط أو مسعى، سواء فلسفياً كان أو ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً، إلخ.

في إطار أزمئنا، يمكننا أن ننسب ثلاثة معانٍ إلى هذه الأولوية البيولوجية، إلى «فلنعش أولاً»:

- _____ نتيجة الأزمة
- _____ سبب الأزمة
- _____ ما العمل للخروج من الأزمة؟

العودة إلى ما هو بيولوجي

بعد ثلاثة أشهر من القتال، ومن الدمار، ومن الجنون، ومن المعاناة، ومن الموت، ومن الخوف، ومن الكراهية، يتمثل الوضع الاقتصادي لدى السواد الأعظم من الناس في أنّه لم يعد لدى هؤلاء سوى هاجس واحد: البقاء طبعاً، والتمكن من إنقاذ حياتهم وحياة أولادهم، إنّما أيضاً التمكن من إيجاد السبل الأسرع لتلبية احتياجات الحياة الأساسية: المأكل،

إثبات في هذا المجال. سأكتفي ببعض الأرقام التي كُشف لنا عنها من خلال مسح «القوى العاملة» الذي أجرته وزارة التخطيط عام ١٩٧٠: هناك ٢,٩٠٠,٠٠٠ لبناني، من بينهم ١,٢٠٠,٠٠٠ مقيم في بيروت وضواحيها. ماذا عن دخلهم؟ لا يأتي التقرير أبداً على ذكره ذلك أن النتائج كانت ستبدو مرعبة ليُكشف عنها أمام الشعب اللبناني. وبالعودة إلى النسب المئوية الشهيرة لبعثة «إيرفد» (IRFED) التي وضعها عام ١٩٦٢ والتي لم تتغير كثيراً كما ينبغي (إن لم يكن بمعنى استقطاب أكبر وإفقار للطبقات الوسطى)، ومن خلال زيادة المداخل بمعدل الضعفين (مدخلات الأسرة زادت بمعدل الضعفين لا أكثر خلال ١٣ عاماً)، نحصل عن عام ١٩٧٥ على الجدول التالي:

من شأن هذه العملية الإفشاء، أو عدم الإفشاء، إلى الالتزام بحزب «يساري». تتضافر القوى الشعبية، وتتضاعف، ولا يمكن للنتيجة، عاجلاً أم آجلاً، أن تتمثل إلا في انفجار ضد هذا الوضع الجائر وضد القيمتين عليه لأنهم يجدون في ذلك مصلحة لهم. مقولة «فلنعش أولاً» مع متطلباتها المزعجة، ما عادت تمثل واقع حال ثابت: باتت تشكل أحد الأسباب الأساسية، السبب الأكثر أساسية ربما، لأزمتنا: ذلك الذي يثير الأمواج، والمدّ البحري القادر على تدمير كل شيء في طريقه من أجل إعادة إعمار أفضل.

بعض الأرقام البليغة

يمكننا تقديم وقائع وإحصاءات لا تعد ولا تحصى كمستندات

صحيفة لوريان لوجور، بتاريخ ١٥ تموز/ يوليو ١٩٧٥ ملف رقم: ٠٠١

دخل الأسرة السنوي (بالليرة اللبنانية)	العدد التقريبي (عام ١٩٧٠) للـ		% من السكان
	أشخاص	أشخاص لكل أسرة	
عام ١٩٧٥ (x٢)	عام ١٩٦٢	أشخص لكل أسرة	أشخص
٢٤٠٠	١٢٠٠	٣٣٠٠٠	١٩٨٠٠٠
٥٠٠٠	٢٥٠٠	١٣٠٠٠٠	٨٨٠٠٠٠
١٠٠٠٠	٥٠٠٠	١١٠٠٠٠	٦٦٠٠٠٠
٣٠٠٠٠	١٥٠٠٠	٥١٣٠٠	٣٠٨٠٠٠
ما فوق	ما فوق	٣٣٠٠	٨٨٠٠٠

الأسر وميزانيات المجموعات الكبيرة تشير إلى أنه عام ١٩٧٠ كانت كلفة إ طعام ولد واحد تبلغ ٢ ل.ل. يومياً، في حين أنه عام ١٩٧٥، تبلغ ٣ ل.ل. على الأقل. وبالنسبة إلى أسرة متوسطة، تتألف من ٦ أفراد، فإن الميزانية الشهرية الدنيا المخصصة للطعام ستبلغ ٦ x ٣ ل.ل. x ٣٠ يوماً = ٥٤٠ ل.ل. أو ٥٤٠ x ١٢ شهراً = ٦٤٨٠ ل.ل. سنوياً. وهكذا فإن إضافة رسوم الإيجار وتكاليف الطعام تعطي سنوياً: ٦٤٨٠ + ٤٠٠٠ = ١٠,٤٨٠ ل.ل. بالتالي فإن الخلاصة الباردة والمأساوية التي تنبثق

إذا قارنا مدخلات الفئات المختلفة في ما يخص قسمين فقط من نفقات الأسرة، الإيجار والمأكل، ماذا نجد (بالنسبة إلى بداية عام ١٩٧٥)؟ إن إيجار شقة ذات غرفتي نوم في بيروت وضواحيها، لا يمكن أن يقل عن ٦٠٠٠ ل.ل. سنوياً. ومع أخذ الإيجارات القديمة بعين الاعتبار، يمكننا الإبقاء على متوسط يُقدَّر بـ ٤٠٠٠ ل.ل. سنوياً، هذا بصرف النظر عن رسوم المياه، والكهرباء، والرسوم الضريبية والبلدية. يصعب تقدير تكاليف الطعام بالنظر إلى الارتفاع الجنوني في الأسعار. غير أن بعض المقارنات بين ميزانيات

وفعالة في سبيل إحداث تغيير والحوول دون العودة إلى نظام آخر جائر وقمعي.

صحيح أنّ أسباب الأزمة لا تكمن في الظروف المعيشية الاقتصادية والمادية للسواد الأعظم من اللبنانيين وحسب. وصحيح أنّه من بين هذه الأسباب هناك هذا المرض المستوطن المسمى بالطائفية. بيد أنّ هذا المرض يظهر بشكل خاص في أوقات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وخصوصاً في الأماكن حيث تنتمي الطبقات المحرومة بأغليتها الساحقة إلى الطائفة نفسها. فمن شأن إرساء العدالة الاجتماعية أن يساعد في القضاء على هذا المرض بشكل نهائي. ومن الصحيح أيضاً أنّه يبدو أنّ القضية الفلسطينية تشكل عنصراً هاماً من هذه الأزمة. هنا أيضاً فإنّ الظلم الذي تخضع له غالبية الشعب اللبناني لا يمكن إلا أن يقترن بالظلم الأكبر بكثير للشعب الفلسطيني. وهكذا فإنّ العدالة الاجتماعية اللبنانية ينبغي أن توفر عدالة متساوية لجميع الذين يعيشون على أراضيها وخصوصاً جموع الفلسطينيين. وسيكتشف الشعبان بالتالي صراعات مشتركة ضد العدو المشترك وضد قضايا الظلم الأكثر راديكالية في العالم الثالث بأسره.

فمن الصحيح أيضاً أنّ الصهيونية، والإمبريالية والرأسمالية العالمية تشكّل جميعها قضايا أهم بكثير، وأن وضع حدٍ لها أصعب بكثير. لكن إذا حُلّت مشاكلنا الداخلية، سيقبل عدد الضعفاء كما العملاء المستعدين للتعاون مع هؤلاء الأعداء ضد أبناء وطنهم.

للخروج من الأزمة

يقودنا ذلك كله إلى القول، مع المجازفة بتكرار أنفسنا، أنّه بغية وضع حدٍ لهذا الوضع المأساوي الذي، على الرغم من الهدوء المؤقت السائد ما زال يعتبر متفجراً بسبب استمرارية الأسباب التي أدّت إلى تفجّره، إنّ أحد أهم السبل التي ينبغي اتباعها تتمثل في ضمان «العيش أولاً» لهذه الأغلبية التي تعاني، في زمن السلم كما في زمن الحرب الأهلية. ولعل الأكثر إلحاحاً هو تأمين العمل، والسكن، والمأكل، والطبابة لهذه الجموع وذلك بكرامة وبشكل مستقر.

اختارت «وزارة السلامة العامة» شعاراً لها، كلمة واحدة: الأمن. فقد كرر قادة سياسيون ومعلقون كثر أنّ المطلب الوحيد الذي هم متمسكون به في هذه

عن هذه الأرقام التقريبية (التي لا تتضمن أياً من الأقسام الأخرى: المليس، والنقل، والرسوم الدراسية، والرعاية الطبية، إلخ) تتمثل في أنّ راتب ٧٩٪ من اللبنانيين هو أقل من ١٠،٤٨٠ ل.ل.، الحد الأدنى تحديداً للتمكن من تسديد التكاليف السنوية للمأكل والإيجار لأسرة واحدة.

ماذا يفعلون لسد هذا العجز؟ يلجأون إلى وسائل استثنائية:

_____ سوء التغذية، عدم الالتحاق بالمدرسة، المساكن غير اللائقة.

_____ بيع الأراضي والمباني.

_____ الاستدانة من المربين بفوائد باهظة.

_____ هجرة مؤقتة أو دائمة، وغالباً تفكك الأسرة.

_____ الاستجداء من الجمعيات الخيرية.

_____ الغش والرشوة.

_____ مدخلات خفية، لم يصرّح ولا يمكن أن

يصرّح عنها.

_____ جرائم، وجنایات وعمليات فساد أخرى.

لا يسهم ذلك كله إلا في مضاعفة عدد ضحايا مجتمع غير عادل، لا يرحم، غير واع، وغير مسؤول وبالتالي عدد المتمردين، والقوى الراجئة في التغيير.

نتفلسف لنعيش

لا تكمن نتيجة واقع الحال هذا في المقولة اللاتينية المعكوسة وحسب: «لكي نتفلسف، لا بد لنا من أن نعيش أولاً»، إنما لا بدّ الآن من إضافة: ولنتمكن من العيش وإنقاذ حياة الجموع، لم يعد من الممكن أن لا نتفلسف أولاً، أي:

_____ تحليل معطيات هذا المجتمع غير العادل، والجائر والساحق وتركيباته وبناء الفوقية.

_____ اكتشاف سبب هذا الوضع الذي يكمن بشكل كبير في العداء الطبقي، وتضارب مصالح هذه الطبقات الاقتصادية والبيولوجية.

_____ تعميم هذا الإدراك وبخاصة أمام أولئك الذين كانوا دوماً مخدوعين بإيديولوجيا الطبقات المسيطرة، المموّهة غالباً بأسباب طائفية أو دينية أو ثقافية، ومساعدتهم في «فلسفة» وجودهم، بدون أن يعني ذلك أنّ عليهم أن يأخذوا كل شيء «بأخذ فلسفي»، أي القبول بالوضع الراهن غير العادل.

_____ تنظيم إدراكهم من خلال قوة حاضرة



المرحلة الأولى من هذه الوزارة «الممتدة»، هو الأمن. أما الباقي فسيأتي لاحقاً، بعد توسيع الوزارة. غير أنّ الرغبة في إرساء هذا الأمن من دون السعي إلى «العيش أولاً»، والمباشرة في الوقت عينه بتأمينه، هي مجرد وهم.

إن كان الأمر ما زال يتعلق بالاقتصاد الليبرالي الوحشي وإن كانت المعجزة اللبنانية ستظل تترجم من خلال الارتجال وقصر النظر والصيغ التقريبية. فسنشهد بسرعة على تعرض الأمن الإيجابي للأغلبية للمخاطر الأشد خطورة وسنغرق مجدداً في الأزمة. ويعني ذلك هذه المرة في كارثة لن ينهض منها لبنان مجدداً.

ذلك أنّ الأمن قد يكون سلبياً وإيجابياً في آن. فالأمن السلبي تضمنته «قوى الأمن»، ووزارة قوية ورئيس وزراء ووزير داخلية حريصان ومتحدان يحاولون تهدئة المواطنين الذين يحرسون على أن تكون «الطرق كافة مفتوحة وآمنة»، وعلى عدم تعرض أحد للاختطاف أو إصابته برصاصة طائشة. ومن شأن هذا الأمن أن يقضي على الخوف من موت عنيف ويطمئن المواطن. أما الأمن الإيجابي فينبغي أن يؤمن سبل العيش بطريقة أكيدة ومستقرة جداً حتى أنّ المواطنين لن يطاردتهم بعد الآن هاجس الخوف من الغد، الخوف من أن يحتاجوا إلى العمل، إلى الطعام، إلى المسكن. فهو يقضي على الخوف من الموت البطيء، ومن الألم المبرح الذي لا ينتهي أبداً.

هذان النوعان من الأمن مترابطان بشكل أساسي: في حال عدم توافر الأمن السلبي، تصبح الاستفادة من سبل العيش غير ممكنة، حتى وإن كانت مؤمنة ومستقرة.

وعلى العكس، في حال انعدام الأمن الإيجابي، يهدد ذلك مباشرة الأمن السلبي أي حياة الجميع.

عندما يكرر السياسيون، والتجار، والصناعيون والصحافيون بلا كلل: «أعطونا الأمن، ونحن اللبنانيين نتكفل بالباقي: سنعيد بناء اقتصاد البلاد وازدهارها، وسنعيد لبنان إلى زمن المعجزة اللبنانية!»، يحق لنا أن نسألهم:

_____ أي اقتصاد تقصدون؟

_____ عن ازدهار من تتحدثون؟

_____ أي معجزة لبنانية تقصدون؟

_____ أي لبنان سينتعش؟

إن كان الأمر ما زال يتعلق بالاقتصاد الليبرالي الوحشي، حيث سيستمر الأقوى بقمع الأضعف واستغلاله، وإن كان يعتمد على ازدهار الأقلية الرأسمالية القليلة وازدهار المجتمع البرجوازي، وإن كانت المعجزة اللبنانية ستظل تترجم من خلال الارتجال وقصر النظر، والصيغ التقريبية، والمداخلات الخفية (وغير الخاضعة للضريبة)، وإنتاج الخلايا الرمادية وحسب، وإن كان الأمر يتعلق في نهاية المطاف بلبنان خاص ببعض المحظين، فسنشهد بسرعة على تعرض الأمن الإيجابي للأغلبية للمخاطر الأشد خطورة وسنغرق مجدداً في الأزمة، ويعني ذلك هذه المرة في كارثة لن ينهض منها لبنان مجدداً.

بالتالي على لبنان أن يتغير! كيف؟ فيما، خلال ٣٢ عاماً من الاستقلال، وعد الحكام الذين تعاقبوا المطالبين، باسم الجموع التي باتت أكبر عدداً وأكثر وعياً بالعدالة والتنمية. وما أنّ الوصول إلى «الحّد الأدنى للمعيشة» لم يتحقق حتى الآن، يقودنا ذلك إلى أن نطرح على أنفسنا أسئلة عدّة:

_____ هل كان الحكام جادين في وعودهم؟

_____ هل حاولوا أن يفوا بوعودهم وفشلوا في ذلك؟

_____ أكان بإمكانهم الوفاء بهذه الوعود في إطار

«النظام» الاقتصادي والطائفي المعمول به؟

_____ هل علينا أن نتحدث عن عجز أشخاص أم

عجز «النظام»؟

لطالما رفض قادتنا والمستفيدون من هذا النظام اتباع هذه الطرق المحفوفة بالمخاطر. بالنسبة إليهم، كانت المقولة: «العيش أولاً، وعدم التفلسف أبداً!» فالتفكير متعب وخطير! بيد أنه وبشكل مفاجئ، يصبح من الأخطر بكثير عدم «التفلسف»، وعدم السعي فعلياً إلى التغيير الذي من شأنه أن يتيح للأغلبية الحصول أخيراً على معيشة وعلى عيش كريم.

كان قادتنا يحمون أنفسهم من خلال هذه الكليشيهات التي كانت بمثابة أفكار:

_____ «يعتمد اقتصادنا كلياً على القطاع الثالث،

فالبلاد خالية من الثروات الطبيعية، لن تتمكّن الاشتراكية

من التكتيف مع وضع ماثل».

_____ «بلدنا عبارة عن فسيفساء من الطوائف: لن

تحصل يوماً ثورة قائمة على الصراع بين الطبقات».

_____ «تصون الدول الكبرى «الصيغة» اللبنانية:

فهي ثلاثتها، لا داع لأن نقلق، أكثر من اللازم، حيال الشعب الذي يثيره بعض المحرضين».

«اليسار منقسم جداً! لن ينجح أبداً في تشكيل قوة حقيقية لتبوء السلطة أو حتى تمتي ذلك». إنها كليشيهات مُعدة في سبيل ضمان الأمن الأناني للأقلية المحظية. ولم يتمّ القبول بالتغييرات الصغيرة المنجزة إلا لتعزيز المكتسبات وحماية امتيازات هذه الأقلية نفسها. كان يفترض بهذه التغييرات أن تكون بوضوح أكثر جذرية، وأن تطاول القوانين والتركيبات التي سمحت بوجود طبقات محظية ومستغلة في يومنا هذا وأخرى محرومة ومستغلة.

المعيار الوحيد الصالح

وفق أي معيار علينا تصميم التغيير؟ إن المعيار الوحيد الحاسم الذي يضمن صلاحية النظام واستدامته هو ذلك الذي يصون حقوق الأغلبية. فالإنسان هو القيمة المطلقة التي ينبغي أن يوضع ويطبّق كل نظام، وكل منظومة وكل قانون لخدمتها. والمقصود بالإنسان، مطلق أي إنسان، الناس كلّهم.

بيد أنه إن كانت الأقلية المحظية تستفيد دون غيرها من نظام ما أو من تغيير في إطار النظام، فلا يمكن للمعيار المعتمد ألا أن يكون خاطئاً. لكن إن كان يصبّ في مصلحة الأغلبية، فسيشمل ذلك تلقائياً الأقلية: بذلك يكون في خدمة الناس جميعاً. لسوء الحظ، لم تكن هذه الحقائق واضحة بالنسبة إلى الحكام والطبقات المسيطرة في بلادنا. هل كانت ثلاثة أشهر من الأزمة والحرب الأهلية كافية لفتح أعينهم، وأذهانهم وقلوبهم وتحديد إرادتهم؟

لا يعرف التاريخ الحل اللبناني: «لا غالب، ولا مغلوب» ولعل أمنيّاتنا أن يتحقق نصر الشعب من خلال الأساليب «اللاعنفية» ذلك أن أيا من مشاكلنا الداخلية لم تحل بالعنف الذي تدفق على البلاد. بيد أنها يمكن أن تحل من خلال قوة اللاعنف التي بدأت بالتشكل.

المصلحة مرجوة فعلاً وقابلة للتحقيق بشكل موضوعي. وآلاً ينتهي هذا التغيير بتغيير الأشخاص الذين يدعون أنّهم بخدمة الجماهير، والذين سيستغلونهم في الواقع بأسلوب جديد.

فضلاً عن ذلك، سيساعد هذا المعيار حتى في علمنة بعض المطالبات الغامضة، كذلك المتعلقة على سبيل المثال بـ«المشاركة» في تعديل الدستور اللبناني، وبإحصاء السكان، وبقانون الجنسية إلخ.

في لبنان، كما في كل مكان آخر في العالم، هناك «طاقتان» تتصارعان، بمزيد من الوضوح والضراوة:

«طاقة «بعض الأشخاص»، الممثلة برأس المال (المركز في دول معينة وشركات معينة متعددة الجنسيات)، والتي تقوّيها أسلحة القمع والدمار وإيديولوجيا قمعية.

«طاقة الجماهير الشعبية التي تستيقظ من كبوتها في كل مكان، وترتبط، وتتحد، وتخرج عن صمتها، وتجعل صوتها مسموعاً، أمّحدة كانت أم مؤمنة بالله، لكنها تؤمن دوماً بالإنسان، بصرف النظر عن إيمانه، وطاقته، وإلحاده.

يبدو أنّ المحظيين في كل دولة، وفي العالم، يشكلون لبعض الوقت، الطاقة الأقوى. لكن على الرغم من المظاهر الخادعة، يبدو أن كفة الميزان تميل أكثر فأكثر لناحية الجماهير الشعبية.

لو يستطيع هؤلاء «الأشخاص القليلون»، في بلادنا، أن يكونوا أكثر شفافية ببقليل، ويضعوا أنفسهم حقيقة في خدمة الشعب من خلال تبني برنامج «الأمن الإيجابي»، ليس من خلال «إعلان وزاري» وحسب، بل من خلال عملهم، وذلك في القطاعين العام والخاص. وإن شعروا بأنهم عاجزون عن تحقيق هذا التحول العميق، عليهم أن يتمنّوا بالشجاعة للتنحّي وإفساح المجال أمام أولئك الذين سيضعون أنفسهم حقيقة في خدمة الشعب، لإنجاز كافة التغييرات اللازمة مع تجنب البلاد والشعب مآسي جديدة، لأنّه عاجلاً أم آجلاً، الكلمة الأخيرة هي للشعب، والنصر النهائي هو له وحده.

لا يعرف التاريخ الحل اللبناني: «لا غالب، ولا مغلوب» ولعل أغلى أمنيّاتنا أن يتحقق نصر الشعب هذا من خلال الأساليب «اللاعنفية»! ذلك أنّ أياً من مشاكلنا الداخلية لم تحل بالعنف الذي تدفق على البلاد. بيد أنّ مشاكلنا كافة، وأولها تلك المرتبطة بـ«العيش أولاً»، يمكن أن تحل من خلال قوة اللاعنف التي بدأت بالتشكل. لكن يتعلّق الأمر هنا بمشكلة مختلفة تماماً.

ينبغي أن يُحكم على كل عمل تقوم به الدولة وفقاً لهذا المعيار. وهذا ينطبق أيضاً على عمل، الأحزاب والمجموعات والمجموعات الصغيرة التي تكافح في سبيل التغيير ومطالباتها وبرامجها. لا يكفي أن تأتي الشعارات على ذكر «مصلحة الشعب»، بل ينبغي أن تكون هذه



حسين آيت أحمد

حقوق الانسان ناقصة دون حقوقه الاقتصادية والاجتماعية

حسين آيت أحمد

أحد القادة التاريخيين
للثورة الجزائرية
٢٦ آب / أغسطس ١٩٢٦ -
٢٣ كانون الأول / ديسمبر
٢٠١٥ من مؤلفاته كتاب
عن حقوق الانسان في
أفريقيا ومذكراته بعنوان
«روح الاستقلال- مذكرات
مكافح» (٢٠٠٩).

في الأول من كانون الثاني / يناير المنصرم، شيع عشرات الآلاف من الجزائريين حسين آيت أحمد، أحد القادة التاريخيين للثورة الجزائرية، إلى مثواه الأخير في قرينه بمنطقة القبائل.

وكان آيت أحمد قد توفي في سويسرا في ٢٣ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٥ عن ٨٩ عاماً. أعلنت السلطات الجزائرية الحداد الرسمي عليه لثمانية أيام، وفي تلك المناسبة أصدر الرئيس عبد العزيز بوتفليقة قراراً باعتماد الأمازيغية لغة رسمية في الجزائر إلى جانب العربية وهو المطلب الذي ناضل آيت أحمد طويلاً من أجل تحقيقه.

بدأ حسين آيت أحمد حياته النضالية قائداً لـ «المنظمة الخاصة» التي بادرت إلى ممارسة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي منذ العام ١٩٤٧.

بعد انطلاقة الثورة العام ١٩٥٤، تولى مسؤولية مكتب جبهة التحرير الوطني الجزائرية في القاهرة ومثل الثورة في مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز ودافع عن القضية الجزائرية في الأمم المتحدة. وكان أحد قادة الثورة الخمسة الذين اختطفت فرنسا طائرهم العام ١٩٥٦ وأودعوا السجن الفرنسي إلى حين انتزاع الجزائر لاستقلالها العام ١٩٦٢.

في العهد الاستقلالي، انتخب آيت أحمد عضواً في المجلس التأسيسي للجزائر المستقلة لكنه عارض فرض حكم الحزب الواحد وانفراد أحمد بن بللا بالسلطة، فأسس أول حزب معارض «جبهة القوى الاشتراكية» العام ١٩٦٣.

سجنه بن بللا واستصدر بحقه حكماً بالإعدام. لكنه هرب من السجن بعد سقوط بن بللا وسلك طريق المنفى العام ١٩٦٦.

عاد آيت أحمد إلى الجزائر العام ١٩٨٩ مع عهد الانفتاح وحظي باستقبال شعبي عارم. شارك وحزبه في العملية الانتخابية وعارض وقفها بعد مرحلتها الأولى التي فاز فيها الإسلاميون بأكثرية الأصوات. رفض عرضاً من الطغمة العسكرية. الأمنية التي سيطرت على السلطة لانتخابه رئيساً للجمهورية، مصرّاً على تنحي العسكر والأمنيين عن التدخل في السياسة والعودة إلى الدولة المدنية والمسار الديمقراطي. وما لبث أن غادر البلاد مجدداً بعد اغتيال الرئيس محمد بوضياف العام ١٩٩٢.

أدان حسين آيت أحمد «الحرب الأهلية» التي أطبقت على الجزائر، محملاً المسؤولية للتسلط الأمني العسكري ولعنف الإسلاميين على حد سواء، داعياً إلى حل سياسي يرسخ «السلم الأهلي» وإلى انتخاب مجلس تأسيسي يشرع لجمهورية ثانية.

نشر في ما يأتي مقابلة أجرتها مجلة «زوايا» الفصلية الصادرة في باريس مع حسين آيت أحمد في عددها الرابع الصادر في آذار/مارس ١٩٩٠. وهي تعطي فكرة عن هذه الشخصية الأسيرة لسياسي يتحدث بشغف رؤيوي يجمع الوطنية إلى تطلّب عنيد للديمقراطية، ويعبر عن عشقه للغة العربية في الوقت الذي يطرح فيه المسألة الأمازيغية كمكوّن من مكوّنات النضال الديمقراطي في إطار وحدة الوطن الجزائري.

الجمعية التأسيسية، إذ وضعت الدستور بمعزل عن تلك الجمعية وفرضته فرضاً، مما أثار أزمة. ولقد أقدمت على تأسيس «جبهة القوى الاشتراكية» في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣ ضد ما سميته «الانقلاب الدستوري». وأودّ التشديد على أنه لم يُتخذ أي قرار بتأسيس حزب أوحده، أي إنه لم يكن ثمة من شرعة تشريع لتأسيس الحزب الأوحده. طبعاً، جبهة التحرير الجزائرية هي التي خاضت الحرب. ومثلت الكثير من التنظيمات السياسية التي قاتلت في داخلها لا بصفتها تنظيمات سياسية - فقد طلب منها أن تحل نفسها وأن ينضمّ مناضلوها إلى صفوف الجبهة بشكل إفرادي. لكنني أقول الآن إن جبهة التحرير هي نتاج الحرب أكثر مما هي سببها. ولو تعمق علماء الاجتماع والسياسة في دراسة ظاهرة الثورة الجزائرية، لاكتشفوا أنّ هذه لا يمكن اختزالها، في المطاف الأخير، بجبهة التحرير ولا بجيش التحرير. إنما كانت ظاهرة استثنائية من التعبئة الذاتية للأفراد والجماهير. من هنا إنّ جبهة التحرير لم تكن تملك أية شرعية في تنصيب نفسها حزباً حاكماً أوحده. وقرارها الانفراد في الحكم هو قرار اتخذته شلّة أو تحالف من الشلل.

شرعية شعبية في مؤسسات دستورية
بصدد الشرعية، لن تكون هناك شرعية إلا عندما تتم العودة إلى الشرعية الشعبية. فهذا الوجه التاريخي الذي أشرت إليه يلبي لضمان استمرارية الأمة الجزائرية أن يقوم دستور حقيقي تضعه جمعية وطنية تأسيسية على قاعدة التعددية وبعد مرحلة انتقالية تؤمن لكافة القوى السياسية فرصها المتكافئة. من هنا إن «جبهة القوى الاشتراكية» تناضل من أجل أن تعود الكلمة فعلاً إلى الجزائريات والجزائريين بما هم مواطنون، ومن أجل حقهم في انتخاب ممثليهم إلى تلك الجمعية التأسيسية. ولن تكون ثمة شرعية فعلية للحكم إلا عندما يوضع دستور وتقوم مؤسسات دستورية. الآن توجد حكومة تحاول إجراء إصلاحات بعد أحداث تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٨ الدامية. حتى ذلك الحين كان الجمود كاملاً وكان الحزب الأوحده قد وهب نفسه الشرعية بنفسه. وأقول إنه حتى بعد الأحداث الدامية، كان المؤتمر السادس لجبهة التحرير مؤتمر انغلاق يرفض أي تطور أو إصلاح ليبرالي، أو بالأحرى تعدي، رفضاً قاطعاً.

غير أنّ الأمور سارت باتجاه مخالف. فالأنظمة البوليسية تملك حاسة شم قوية للتعرف إلى المزاج الشعبي

إلى أين الجزائر؟ سؤال يكثر تداوله هذه الآونة وتكثر الأجوبة عنه. أحزاب المعارضة تقاطع الانتخابات البلدية. وأوساط في جبهة التحرير تبحث عودة أحمد بن بللا في الاجتماع الأخير للجنة المركزية.

حسين آيت أحمد من القادة التاريخيين لحرب التحرير وللجبهة. عاد إلى بلاده بعد إجازة حزبه «جبهة القوى الاشتراكية». في لقائه مع «زوايا» يمزج ملاحظات عائد من المنفى بعد ٢٣ سنة مع تركيز متماسك على أولوية الديمقراطية.

♦ تطرح بالحاح الآن مسألة شرعية السلطة في الجزائر. قامت السلطة بُعيد الاستقلال على دور جبهة التحرير الوطني في حرب التحرير. أنت من القادة التاريخيين للجبهة والحرب التحرير. إلى أية شرعية للسلطة تدعو؟ إلى تجديد الشرعية الأصلية (الثورية) لحرب التحرير أم إلى بناء شرعية جديدة؟ وما هي؟

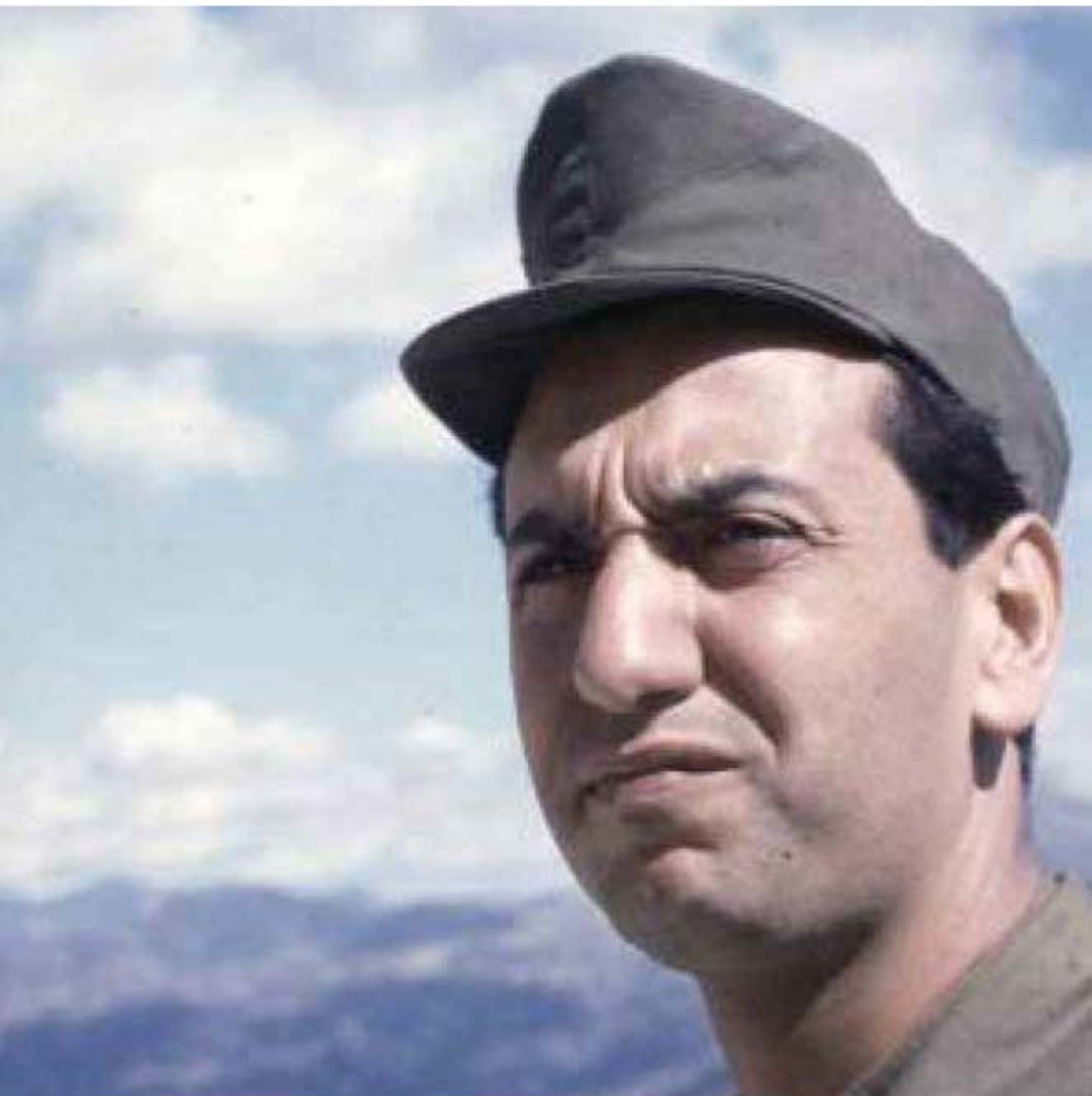
■ لنبدأ من البداية. لم تسلم الجزائر سيادتها للنظام الكولونيالي، مثلما كانت الحالة بالنسبة إلى تونس. ارتكز النظام الاستعماري على مرتكزين: استسلام الحاكم العثماني يوم ٥ تموز/ يوليو ١٨٣٠، وهو استسلام عسكري محض. والمرتكز الثاني هو تسليم الأمير عبد القادر، الذي لم يكن له أية صفة قانونية بل كان هو أيضاً تسليماً عسكرياً.

نتج من ذلك أنّ السيادة التي كانت مجسّدة في الدولة الجزائرية انتقلت إلى الشعب الجزائري الذي ظل يقاوم خلال عقود من الزمن حتى سنة ١٨٨٠. وما يميز الفترة الكولونيالية هو أن الشعب الجزائري عاد فصار موئل السيادة. وعندما منحت الفرصة، لم تتكون الحركة الوطنية الجزائرية حول الدولة، كما كان الحال في المغرب وتونس، بل حول الشعب تكونت، أي حول أفكار حقوق الإنسان والافكار الديمقراطية، مما أعطى قاعدة أصلب لفكرة السيادة الوطنية، سيادة الشعب الجزائري.

خلال العقد الذي سبق انتفاضة ١٩٥٤، كانت الحركة الوطنية ترفض كل حقوق للجزائريين تصدّق بها السلطات الاستعمارية، وتعلن أن الكلمة يجب أن تكون للشعب، وتطالب بانعقاد الجمعية التأسيسية. من هنا كان الاستقلال بمثابة العودة لتكريس تلك السادة الوطنية الشعبية تكريساً دستورياً.

عند الاستقلال، أعلنت جبهة التحرير نفسها حزباً وحيداً حاكماً وفرضت انتخاب الجمعية التأسيسية الوحيدة بلائحة انتخابية وحيدة. بل إنها لم تحترم تلك





يستمر الشعب الجزائري في ممارسة سيادته مثلما مارسها خلال الحرب، وأعتقد أن حرمانه تلك الحقوق هو الذي سمح بقيام دولة استبدادية وقيام طبقة اجتماعية تحتقر الشعب احتقاراً شبه كولونيالي هي تلك البرجوازية المتوحشة التي تصمّ أذنيها وتشبح بنظرها عن بؤس الأكثرية الساحقة.

الديمقراطية السياسية قاعدة انطلاق

فيما يتعلق بمقاربتنا للديمقراطية، نعتبر أن الديمقراطية السياسية ضرورية ولكنها ليست كافية. إنها قاعدة الانطلاق لنيل سائر الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وتجسيدها. فيقدر ما يسمح للشعب بأن يستعيد سيادته وللمواطنين بأن يسترجعوا حرياتهم ومواطنيتهم، يستطيعون بالتالي فرض تطور يسير بالاتجاه الذي يرغبون فيه. ليس الخيار في رأينا بين ليبرالية متوحشة وبين اشتراكية متوحشة. إننا نرفضهما معاً. منذ ١٩٦٣، تضمّن الإعلان التأسيسي لـ «جبهة القوى الاشتراكية» رفض دكتاتورية البروليتاريا وما سميّناه آنذاك «البرجوازية المجردة» في أن معاً يجب تمكين الشعب الجزائري من أن يسيطر على مصائره السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

ثمّ إننا نرى أن الليبرالية المتوحشة ليست قدراً مقدراً. واضح أن بلدنا بحاجة إلى اقتصاد سوق. والعالم كله يتراجع عن المقاربات البرقراطية في بناء الاقتصاد والمجتمع. وأعتقد أنه إذا كان شعار الاشتراكية لا يزال له صدى في الجزائر، رغم انعدام الثقة بكلمة اشتراكية لارتباطها بالكوارث التي عانى منها الناس في حياتهم اليومية، أقول إذا كان لا يزال ثمة سمعة للاشتراكية في الجزائر، فلأن الناس تتذكر أننا - في «جبهة القوى الاشتراكية» - قد ناضلنا من أجل الديمقراطية ومن أجل حرية الصحافة والتعددية. وأعتقد أنها فرصة تتيح لنا أن نظل أوفياء لمنظومة قيم معيّنة هي قيم الاشتراكية.

♦ ما حاجة النظام الجزائري إلى الديمقراطية الآن؟

■ سأحاول الإجابة عن سؤالك بالقول إنني الآن صرت أفهم أكثر لماذا قتلوا صديقي المحامي مسيلي في باريس. كانت تصنيفته الجسدية تندرج في استراتيجية تسمح للانفتاح الـ «الديمقراطي» بأن يكون انفتاحاً مسيطراً عليه، انفتاحاً شكلياً، لأنهم شكّلوا لنا فيما بعد حركة قبائلية غرضها إضعاف «جبهة القوى الاشتراكية» في المناطق القبائلية ومنع انغراسها فيها. طالما نشرت

والى التطلعات الشعبية. وقد أدرك النظام الجزائري أنّ قطيعة وقعت بين دولته، المفتقدة لأية شرعية، وبين الناس. فأدرك أنه لا مخرج له إلا بالانفتاح. وقد تم هذا الانفتاح بواسطة قوانين دستورية عُرضت على الاستفتاء الشعبي. من هنا نعتبر أنه توجد الآن شرعية، ونلعب لعبة تلك الشرعية. هي شرعية هشّة، مجرّاة، وناقصة، نسعى إلى توسيعها نحو عقد جمعية وطنية تأسيسية. ولكن لا يمكن القول إنه توجد شرعية دستورية في الجزائر. بل يمكن القول إن كل شيء سار باتجاه وكأنه أريد تنصيب الجزائر كلها ضد دستورتها.

♦ إلى أي مدى انصاع النظام للضغط الشعبي، في إجراءات الانفتاح هذه. وإلى أي مدى شكلت تلك الإجراءات تنازلاً للضغوط الخارجية، ضغوط الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي، التي تضع شروطاً باتت عالمية حول التعددية الحزبية - إنهاء حكم الحزب الواحد وخصوصة القطاع العام وحداً أدنى من الالتزام بحقوق الإنسان، حسب الصيغة الاميركية؟

■ أكيد أن الجزائر تعيش في محيط دولي. وهي قد عاشت علاقاتها بالاتحاد السوفياتي على أمل أن تستمدّ من تلك العلاقات شرعية ثورية لنظامها. بمثل ما عاشت طوال تلك الفترة علاقات مع الولايات المتحدة سمحت بنشوء رأسمالية دولة وبرجوازية جديدة. والثابت هو الابتعاد عن أوروبا وآثارها الديمقراطية. والغرض تأمين غلبة الأجهزة العسكرية والأمنية وإشراك قسم من السكان في المنافع من خلال إنشاء «السونطراق».

غير أن الذي يجب أن نتذكره هو أن جبهة التحرير الجزائرية قد ناضلت من أجل حقوق الإنسان منذ أن وجدت. بل إن هذه الحقوق تشكل جزءاً من الهوية الوطنية الجزائرية، لا الحقوق السياسية والمدنية وحدها، بل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية كذلك. فمنذ مطلع النضال الاستقلالي الحديث، وجهت الجزائر خلال عامي ١٩٤٨ - ١٩٤٩ عدّة مذكرات إلى الأمم المتحدة تطالب فيها بحقوق الإنسان وتدين الهيمنة الاستعمارية والاضطهاد الثقافي. توجد إذن صلة بين المطالبة بالاستقلالية من جهة وبين احترام الديمقراطية واحترام الكرامة الإنسانية من جهة أخرى.

♦ تقود حزباً يسمى «جبهة القوى الاشتراكية»، أية علاقة تقيم بين الاشتراكية والديمقراطية؟

■ إن الحرية السياسية لا تنفصل عن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. ومن أجل إحقاق حقوق الإنسان، يجب أن

الأكاذيب عن تلك المنطقة، والحقيقة أنها تلعب الآن الدور الوطني ذاته الذي لعبته خلال حرب التحرير، ولكن هذه المرة على مستوى الديمقراطية. فقد خلقوا «التجمع الثقافي الديمقراطي» RCD ثم أرادوا خلق تنظيم آخر تسيّره أجهزة أمنية معروفة، وهذا كله لقطع الطريق على قيام بديل شعبي يعبر عن التطلعات العميقة للناس وعن مصالحهم. هكذا استبقوا مثل هذا التطور. قالوا سوف نشيع الديمقراطية لكنّ الانفتاح سوف يولّد حركة شعبية، وكانت الشركة تملك ما يكفي من المعلومات لتدرك أن لمثل تلك الحركة كل الحظوظ لتصير حركة ذات تمثيل واسع النطاق.

من أجل نقابات حرة

يدور الآن حوار حول عقد ميثاق وطني بين الأحزاب السياسية، وهي فكرة يكثر الحديث عنها في أوساط الأحزاب الجديدة كما في أوساط السلطة السياسية. خلال الفترة الأخيرة استقبلنا العديد من ممثلي الأحزاب السياسية، منها وفد من «حزب الطليعة الاشتراكية» الذي كان يتحدث عن عقد ميثاق وطني. وقد أجبنا بأننا مستهدفون من قبل السلطة التي تحاول تصنيفتنا وتخریب حزبنا. لسنا نملك مقرات لحزبنا ونواجه مصاعب جمة. ونخشى ألا تعود الديمقراطية السياسية مجزية إذا كانت الجماهير المهتمّة وأشباه البروليتاريين والمليونان من العاطلين من العمل والنساء والشرائح الاجتماعية المهتمّة، لا تعتبر تلك الديمقراطية وسيلة لمنحها الثقة والأمل.

ندعو وليقـر العمال أنفسهم إذا كانوا يريدون اتحادا نقابيا ديمقراطيا واحدا أو عدة اتحادات نقابية

المهم الآن أن نساعد العمال الجزائريين على تأسيس نقابات حرة حقيقية، علماً أن «حزب الطليعة» ممثل في المجلس الوطني للاتحاد العام للعمال الجزائريين، وأنّ القطاع النقابي لجهة التحرير يسعى إلى دعوة مؤتمر يجدّد الثقة لاتحاد نقابي ممثل لأوامره. فيما القاعدة العمالية تخترقها شتى التيارات الديمقراطية. نحن ندعو إلى حل كافة المؤسسات النقابية. وليقرر العمال أنفسهم إذا كانوا

يريدون اتحاداً نقابياً ديمقراطياً واحداً أو عدة اتحادات نقابية. لكن لا نريد أن يكون لحزبنا نقابة خاصة به. المهم أن نقول للناس نظموا أنفسهم على نحو ديمقراطي. أما دورنا نحن في هذه المرحلة من المسار الديمقراطي فهو أن نساعد العمال والفلاحين والشبيبة والنساء على أن تكون لهم بنى على الصعيد الوطني وأن نساعد كافة الشرائح الاجتماعية المهتمّة على أن تنتظم في جمعيات، لأن حركة الجمعيات تبدو لنا الآن أهمّ حتى من الأحزاب السياسية.

■ أفهم من حديثك أنك تدعو إلى ديمقراطية «من تحت»، رافضاً الديمقراطية التي يجري التصديق بها «من فوق» والتي تتجاهل الإرادة الشعبية.

■ في أول اجتماع في رأس الحفرة تحدثت عن الحرية السلبية. قد يبدو أنّ ثمة مفارقة في الحديث عن حرية وسلبية. لكن واقع الحال هو الحرية الممنوحة كهبة من فوق. بعد سنتين من المسار الديمقراطي، لا يزال الإعلام كما هو عرضة للتلاعب والكيفية. مثلاً، جرى تصوير لقائي مع الرئيس الشاذلي بن جديد على أنه تم بناء على طلبي. ليس عندي من اعتراض على أن أطلب مقابلة الرئيس. لكن الحقيقة أنه هو الذي طلب مقابلي. فكان عليّ أن أضع الأمور في نصابها الصحيح في مهرجان وهران.

ثمة صحفيون يعتقدون أنهم يكسبون رضى الرئيس بتقديم الأمور على هذا النحو، أي بنفي أن يكون الرئيس هو الذي أخذ المبادرة في دعوتي للقاءه، بينما من واجب الرئيس في نظام ديمقراطي أن يلعب دور الحكم.

استقلال القضاء والإعلام

بادرت في اجتماع وهران إلى إدانة الموقف المشين للتلفزيون الذي أعطى ١٢ دقيقة للنائب العام للإدلاء بمطالبة حول جريمة بليدا. أنا أدنت جريمة الاغتيال في بليدا وأدنت العنف وقلت إنه لا يجوز أن ننهاون في مثل هذه الأمور. لكنّ المدّعي العام لجأ إلى التهديد. في حين أن على القضاء أن يكون حيادياً وهادئاً ومستقلاً عن السياسة. وكنت أودّ لو أن التلفزة خصصت ولو صورة واحدة لحوادث جامعة وهران عندما خرقت الشرطة الحرم الجامعي وأخذت تقمع الطلاب داخل الجامعة ذاتها. هناك إضرابات مهمة في الحجاز وفي أماكن أخرى، فضلاً عن النضالات الاجتماعية. وهذه كلها لا تشير إليها التلفزة. إن التلفزيون قلعة من قلاع النظام القديم. أقولها

عن الظاهرة الإسلامية أودّ أن أقول أولاً إن الإسلام شكّل خلال مقاومة الاستعمار الهوية التي بها قاوم الشعب، ولم يجد من ملجأ له وملاذ غير المساجد والزوايا. عدتُ إلى وطني فوجدت وجه الحياة السياسية فيه وقد انقلب رأساً على عقب. لم تعد الهيمنة فيها لجهة التحرير التي أدارت البلد خلال ربع قرن بل هي الآن للإسلاميين. إن احتكار جبهة التحرير للسلطة قد أضحى أسطورة فالسيطرة الفعلية الآخذة في التكوّن أمام أعيننا هي سيطرة الإسلاميين. في وجه ذلك، يجب بثّ الأمل في الناس ودفعهم إلى النضال. بديهي أن الأمر ليس سهلاً. لا نملك السلطة ولا الوسائل اللازمة لتنظيم حركتنا بسرعة، ولا نحن نمتلك وسائل الإعلام والتنظيم التي تمكننا من أن نلحق بالسرعة التي تتدهور فيها الأوضاع التي نحن عليها شهود.

ما هي السيناريوهات الممكنة؟ أنا متفائل كمناضل، بكل شيء وبحماسة مهما تكن التوقعات عن النتائج، وإلا فلا نقوم بها على الإطلاق. تقوم فكرتنا على تنظيم المناطق الحساسة في حياة البلد الاقتصادية والسياسية والثقافية، ودفع المثقفين إلى اتخاذ المواقف والخروج من عزلتهم بحيث إنّ المدّ الجاري لا تصادفه شعبية معيّنة بل يفضي إلى بناء حركة ديمقراطية منظمة. رغبتني وحلمي معاً أن أبني حزباً ديمقراطياً حقيقياً.

◆ ألسنتُ تخشى من انشقاق أهليّ بين قطاعين من الشعب الجزائري: أي بين الشرائح الحديثة وبين شرائح شعبية واسعة وتقليدية مهمشة لم تطاولها الحداثة وتسيطر عليها الأصولية؟

● أعتقد أنّ هذا هو الخطر الأفدح. في تيزي أوزو، حدّرت من العواقب الوخيمة المترتبة على مثل هذا الشقاق. الفئات الأشدّ بؤساً من السكان في انتظار ظهور المهدي، وهناك احتمال أن تلتقي هذه القوى الاجتماعية المخلعة اجتماعياً ونفسياً مع جناح في الحكم يريد العودة إلى الخلف.

◆ غالباً ما نتناسى حجم الانشقاق بين المدينة والريف في بلادنا. ما حجم تواجد الأصوليين في الأرياف؟

● الأصولية موجودة في الأرياف المتمدّنة. هناك تريف للمدن الجزائرية، وهو أكبر الكوارث. التسيّب يضرب أطنابه. لهذا لم أتعرف إلى بلدي عندما عدتُ إليه. هناك صعلة للوعي وليس مجرد صعلة للمجتمع. في حين أن الشبيبة ديناميّة، مع أنّها غير متّسّية مع الأسف، وهي قادرة على إطلاق عملية تجديد ذهني وثقافي واسعة في بلادنا.

على الماضي. عندما عدت، خصّصوا لخبر عودتي دقيقة ونصف الدقيقة. وأية دقيقة ونصف؟ صوّروني وأنا أطالب بالصحافيين الأجانب! مع أنني كنت قد أدليت بمدخلة طويلة استغرقت ساعة ونصف الساعة لم يأخذوا منها ولو لقطة واحدة. عندما نزلت من الطائرة، فصلوني عن الصحافيين الأجانب. قد يكون هذا الأمر طبيعياً إذ أرادوا أن أخصّص حديثي للصحافة الجزائرية. وعندما انتهيت، كان الصحافيون الأجانب، المعتمدون في الجزائر والآتون منهم معي في الطائرة يريدون الاجتماع بي، ويمررون لي الرسائل طالبين السماح لهم بالدخول إلى القاعة. وبعد ساعتين من لقائي مع الصحافة المحلية، سألت: أين هم الصحافيون الأجانب؟ فكانت تلك هي اللقطة التي اختاروا عرضها على الناس. وفي الليلة ذاتها، خصّصوا أكثر من ربع ساعة لمؤتمر «تجمّع الثقافة والديمقراطية».

نحن مسلمون. لكننا هنا في صدد قضايا مدنيّة لا تدخل للدين فيها. غير أننا لن ندخل المعركة السياسيّة على أساس التحليل والتحريم.

هذا هو منطق الصدقات والهبات «من فوق»، ولما كان الإطار هو ما هو عليه، فيجب أن نناضل لنملأه بمضمون آخر، يجب أن نعبئ الجزائريّات والجزائريين من أجل أن ينتزعوا حقوقهم بأنفسهم وأن يحولوا هذا المسار الديمقراطي إلى مسار حقيقي.

دور المسلمين إغناء الديمقراطية

◆ كثر الحديث خلال الفترة الأخيرة عن تطوّر على الطريقة السودانية في الجزائر أي عن سيناريو انقلاب عسكري يعتمد على الحركات الإسلامية. إلى أي مدى تعتقد بإمكان هذا الاحتمال؟

● ليكن واضحاً كل الوضوح: نحن مسلمون. لكننا هنا في صدد قضايا مدنية لا دخل للدين فيها. غير أنّنا لن ندخل المعركة السياسية على أساس التحليل والتحريم. نرفض في الشؤون المدنية أن يقال هذا محرّم في الدين وهذا محلّل. وليكن واضحاً. نحن مسلمون ونحن ديمقراطيون. نعتقد أنّ دور المسلمين هو أن يُغنوا الديمقراطية لا أن ينهبوا الشعب. فإرادة الشعب من إرادة الله.

■ القضية ثقافية. في الجزائر لا يوجد مناطقيّة قبائلية ولا يوجد مشكلة قبائلية. هناك مسألة ثقافية أمازيغية تخصّ سكان المنطقة القبائلية.

اللغة الأمازيغية من أقدم لغات العالم. والثقافة الأمازيغية هي الوحيدة المتبقية من الثقافات المتوسطية القديمة. حتى اللغة الفينيقية كان لها تأثير في الأمازيغية. اندثرت شبيهاتها. اندثرت اللغات الفرنسية واليونانية والإيطالية القديمة لصالح اللغة اللاتينية. إنها من أقدم اللغات المتوسطية ذات الأبجدية. هي من أقدم الأبجديات (التيفانا).

والحقيقة أنه توجد استمرارية للغة وثقافة بتعبير عربي الآن. وكانت ذات تعبير روماني أيام الرومان وتعبير بيزنطي أيام حكم بيزنطية. هناك استمرارية والأمازيغية تشكل جزءاً من الشخصية الوطنية الجزائرية. لست أفهم لماذا تستثني الجزائر أحد مكوّنات هويتها. من المفارقات التي صدمت الشباب الجزائري أيام يومين رعايته لحركة لتحرير جزر الكناري بحجة أنّ هذه تنطق بلهجة أمازيغية، فيما هو في بلاده كان يضطهد المطالبين باستخدام تلك اللغة من أبناء شعبه ويرفض الاعتراف بمثل هذه الحقوق لشعبه ذاته.

قلت دائماً وأكرر: نحن مع العروبة بصفتها الهوية الثقافية للشعب، نحن مع العروبة الحديثة التحرّرية، العربية هي لغتنا، اللغة الرسمية، اللغة القومية للجزائر. نحن أبناء ثقافة عربية. لقد أحجم الناطقون بالأمازيغية عن المطالبة بحقوقهم اللغوية والثقافية خلال حرب التحرير حتى لا يتركوا أي مجال للاستعمار لأن يستغل ذلك. أمّا وقد نلنا الاستقلال، فإنّ هؤلاء الناس يطالبون باحترام لغتهم. ليس ثمة قومية بربرية، ليس ثمة قومية أمازيغية أو قبائلية، ونحن ضد هذا اللون من القومية الاستثنائية. نرى أنّ الاستقلال ليس انكفاءً على الذات بل هو استجماع للقوى، وهو أيضاً انفتاح.

الحركة السياسية الوحيدة التي تطرح مشكلة الاندماج الوطني بالمعنى الثقافي هي «جبهة القوى الاشتراكية»، بالأخذ بالاعتبار كافة مكونات الثقافة الوطنية. يجب أن يكون للغة القبائلية حظها في التطور. لهذا يجب إعلانها لغة وطنية ومنح السكان وسائل تعلم لغتهم واستخدامها في الإدارة. الذي صدم السكان الذين لا يجيدون تكلم العربية أنهم، في زمن الاستقلال، أُجبروا على تكلم العربية، وهم لا يعرفونها أصلاً، كانوا يعلّقون على ذلك بالقول: أيام الاستعمار كانوا على الأقل يوقرون لنا المترجمين في إدارات الدولة والمحاكم. وها إن الكثير منهم غادر الجزائر وهاجر إلى أوروبا. أعتقد أن الاندماج هو نقيض النبذ. يجب الاعتراف

لكن قوى القمع موجودة. صحيح أنها لا تمارس القمع، لكن الناس تدري أنّها موجودة وتقول: إن هذه العملية الديمقراطية ستكون هشة وغداً قد يعود القمع، فلماذا نظهر إلى العلن ونعبّر عن آرائنا؟ دُعيت للإلقاء محاضرة في قسنطينة وقد ذهلت لأنه يوجد فيها بين ١٥ ألفاً و ٢٠ ألفاً من الجامعيين. قلت لهم: مناضلو حرب التحرير اجترحوا المعجزات، وأنتم يجب أن تشاركوا في النضال الشعبي بأن تجعلوا من الديمقراطية قضيتكم الشخصية. ثمة إمكانات هائلة لدى شعبنا قابلة لأن تنفجر ولكن بشرط أن ينزاح كابوس الخوف عن الناس.

لا معنى للديمقراطية بلا مشاركة المرأة

◆ تحتدم مسألة المرأة في الجزائر فيما يشنّ الأصوليون هجوماً شرساً عليها، على دورها في حرب التحرير، على عملها، وحتى على خروجها من البيت. وثمة جمهرة من النساء يقاومن للحفاظ على الحقوق، ويرفضن أن تكنّ ضحايا مستكينات لتلك الحملة وأن يعاد تهميش نصف المجتمع.

■ الذي يميّز الجزائر هو الدور الحيوي الذي لعبته النساء في حرب التحرير. استقالة الرجال دفعت النساء إلى الاضطلاع بمسؤولياتهن. سوف أستشهد بنادرة: «الزينة» بطلة من بطلات حرب التحرير. أمام الوضعية الجديدة للمرأة في بلادنا، تجدها تقول للرجل: «أيام الثورة، كنت تأتي إلي لتطلب الإذن لأسمح لك بالانتقال من قرية إلى أخرى. والآن عليّ أن أخذ منك الإذن لأخرج من البيت؟». لعبت النساء دوراً حاسماً في الحرب ومع ذلك لم تكن امرأة واحدة لتمثلن لا في الحكومة المؤقتة ولا في قيادة جبهة التحرير. إن أهمية دورهن في الميدان لم تكن منعكسة على مستوى القيادة. وعندما اعتمد الفرنسيون سياسة المناطق الممنوعة، وأجلت قوى بكاملها في الأرياف. تكفلت النساء بفلاحة الأرض. أهمية المساهمة النسائية كما ترون كانت عظيمة. غير أن تقهقر السيادة الشعبية عبّر عن نفسه أيضاً بتغييب المرأة عن الميدان السياسي.

لا معنى للحديث عن الديمقراطية إذا كانت أكثرية الشعب ليست مشاركة فيها. ولا معنى لحديث عن التنمية إذا جرى شل النساء عن المشاركة فيها، بل لا نستطيع الحديث عن ثقافة إذا لم تساهم النساء في التجديد الثقافي وإذا لم تحطم الإطار العائلي الظلامي.

◆ كيف تحدّد القضية الأمازيغية؟ كيف تفهمها؟ ما الذي تدعو إليه حلاً لها؟

بالناس كما هم، إنّ الكرامة لا تتجزأ. الكرامة هي اللغة وهي الحيز وهي الحقوق الاجتماعية، وهي الحقوق السياسية. لا نريد أن تتم الأمزجة كما تم التعريب أي بالمناقضة والاعتباط ومن دون إعداد. نريد جهداً طويلاً المدى. يجب أن يتعلم الجزائريون والجزائريات العربية والأمازيغية والفرنسية. رداً على الحجة التي تقول بأن هذا كثير، نقول إنّ الشباب يتعلمون أصلاً أربع أو خمس لغات. على مستوى السلطة، يوجد نظرة شبه زراعية إلى قضية الثقافة، ينظرون إلى الدماغ على أنه وعاء فارغ وأن كل شيء يعتمد على ما تضعه فيه. إذا وضعت اللغة الفرنسية فهذا زرع أجنبي، زرع فرنسي، يجب أن نشرح لهم أنّ الدماغ عضلة، كلما استخدمتها ازداد نشاطها، وكلما تكاثرت اللغات ازدادت طاقتها على الاستيعاب، وتحسن أدائها وازدادت فرصة تطوّر المقولات الذهنية الأكثر تقدماً.

جـرى تزوير المشكلات الثقافية والمشكلات اللغوية بزجها في النزاعات على السلطة. في النزاعات السياسية. جرى تزوير المواضيع الثقافية بتسييسها.

أصرّ على قول هذا: أعتقد أننا نقدم عنصر توازن إلى الجزائر لأننا سيّسنا المطالب الثقافية والنضال من أجل الحقوق الأمازيغية.

◆ ثمة انبعاث للثقافة القبائلية والهوية القبائلية مرتبط بطريقة ما بتهميش الشباب، ولكنه أيضاً ردّ فعل ضد التعريب الإلزامي. هل التعريب ميّز الشرائع العربية في إدارة مثلاً، ليس من قضية ثقافية بدون أساس اجتماعي، لا توجد مطالبة بتأكيد هوية ولا مطالبة ثقافية من دون مدلول اجتماعي من هذا النوع أو ذاك. أن يكون النظام قد مارس التمييز ضد أكثرية الشعب هذا صحيح. لكن هل وقع تمييز خاص ضد الأطر القبائلية، ذات التعليم الفرنسي غالباً؟

■ هل كان ثمة امتيازات قبائلية في الإدارة الفرنسية؟ هل ميّز التعريب ضد القبائليين بعد الاستقلال وشكل واسطة ارتقاء اجتماعي للبعض على حساب الآخرين؟ أقول إن سياسات جبهة التحرير الجزائرية، بطريقتها في إبراز النزاعات السياسية والثقافية، كانت سياسات دماغوجية. الحركة الاستقلالية تأطرت بين الذين درسوا باللغة

الفرنسية، فيما العلماء وراء فرحات عباس كانوا يشكلون التيار الإصلاحية، وكانوا من أصل برجوازي، ينتمون إلى طبقة اجتماعية لها حدودها. ولم يكن العلماء يخفون ذلك إذ كانوا يقولون: لن نضحّي بأنفسنا أبداً من أجل الجهلاء. يقضون يومين في الاعتقال وما أن يُطلق سراحهم حتى يستقبلوا من السياسة. لن نضحّي بأنفسنا أبداً من أجل الجهلاء. هذا احتقار للجهلاء. انطلقت الثورة بفضل الذين درسوا في الجامعات والثانويات عند الفرنسيين، ومنهم تشكلت فئة من الذين يقولون عنهم «حسين الأحول» إنهم لم يكونوا مثقفين بل مجرد متقدمين على الأميين.

أقول إن التعريب بالمناقضة بعد الاستقلال لم يكن قدراً مقدراً. مع ذلك، لست أعتقد إن كان سيوجد قبائلي واحد يعارض التعليم الحديث بالعربية. والحال أنه جرى تزوير المشكلات الثقافية والمشكلات اللغوية بزجها في النزاعات على السلطة، في النزاعات السياسية، جرى تزوير المواضيع الثقافية بتسييسها، بالمعنى غير النبيل للكلمة. وهكذا طبقت سياسة تعريب قائمة على المناقضة والذي لمسته عند بعض المثقفين الناطقين بالعربية قولهم إنّه يجب ترقية الناطقين بالعربية في الإدارة مهما يكن مستواهم. ماذا ينتج من ذلك؟ تنتج إدارة عديمة الكفاءة، إذ إن التوظيف يجب أن يكون على أساس المهارات، على أساس الكفاءة. أما عندنا، فمن أجل إرضاء بعض الشرائع الاجتماعية جرى تشريع أبواب الإدارة على مصارعها، بما أدى إلى المأزق المعروف حيث البيروقراطية خنقت المجتمع المدني. وأية بيروقراطية! بيروقراطية متضخمة وعديمة الكفاءة.

◆ موقفك من الوحدة المغاربية. ■ في ما يتعدى اعتبارات الكلاسيكية، إن ربع قرن من سوء الحكم والإدارة والتجارب المشتركة يجب أن توحّدنا. لم نعد نملك القدرة على البقاء إلا بوحدة في وجه التيارات الإقليمية التي نشهد عليها في أوروبا وسواها. في الوقت الذي نناضل فيه من أجل إشاعة الديمقراطية كل في بلده، علينا أن نعمل من أجل إشراك الفئات الأكثر حرماناً في عملية بناء المغرب الموحد، ليس فقط تمثيلها في البرلمان المغربي بل وأيضاً أن نجد أشكال تمثيل في مجالس تنمية تشارك فيها النساء والنقابيون وجميع الذين لم تسنح لهم فرصة التمثيل في البرلمانات الوطنية. المهم جعل الوحدة المغاربية حقيقة لا رجعة عنها بإشراك الأحزاب السياسية والجمعيات والهيئات الممثلة للمجتمع المدني حتى تستطيع أن تلعب دورها كاملاً في النطاقين العربي والأفريقي.

الأنظمة العربية من دولة الاستقلال إلى مجتمع الخراب

فيصل دراج

كاتب وناقد أدبي،
الأردن، من أعماله
الأخيرة «مساهمة
في علاقة الأدب
بالسياسة» (٢٠١٢)
«ذاكرة المغلوبين»
(٢٠١٤).

أرهقت الأنظمة العربية، منذ منتصف القرن الماضي، شعوبها بأشكال من القمع مختلفة. وأرهقت ذاتها وهي تدافع عن شرعية مفقودة بأدوات تفتقر إلى الشرعية. تبادلت الأنظمة وشعوبها العداء، دافعة بالطرفين إلى ركود طويل انفتح، لاحقاً، على التفكك والانحلال. لا يتفصل العداء المتبادل، رغم خصوصيته العربية، عن دور دولة إسرائيل كعنصر فاعل في «تطور المجتمعات العربية»، الذي شكّلت إسرائيل فيه علاقة داخلية. أنجز قيام دولة إسرائيل، عام ١٩٤٨، هدفين مترابطين: جاء بالمأساة الفلسطينية، ومنع التطور الطبيعي عن المجتمعات العربية، ذلك أن احتلال الصهيونية لفلسطين استولد مباشرة شعار «الرد على الهزيمة»، فالمهزوم لا يرضى عن هزمته، كما استولد شعاراً موازياً «تحرير فلسطين» ونصرة الأماكن المقدسة. سوّغ الشعاران اللذان اعتنقتهما الشعوب العربية قيام انقلابات عسكرية لاحقة، أعطت «الجيش» دوراً مركزياً في صوغ صفات المجتمعات العربية، التي اعتقدت أن جيوشها «تلبي» طموحاتها القومية.

ولادة «الدولة الوطنية»

تزامن احتلال فلسطين، كما رحيل الاستعمار عن بلدان عربية متعدّدة، مع ولادة «الدولة الوطنية» التي تقدّمت بخطاب يجمع بين التقدّم الاجتماعي وتحرير فلسطين، فلم تكن الصهيونية قادرة على الانتصار لولا «تخلف المجتمع العربي». ترجم الخطاب العسكري هدفه بشعار «وحدة الأمة»، الذي رأى في الأحزاب السياسية «مرضاً» يجب استئصاله، واعتبر السياسة، من حيث هي، نقيضاً لمصالح الوطن. جعل الخطاب العسكري من السياسة، أو ما دعي بذلك، اختصاصاً سلطوياً، مرجعه الجيش، الذي خسر

بلاغة صغيرة عن قضايا كبيرة
سوّغ احتلال فلسطين، في أربعينيات القرن الماضي، للعسكريين احتلال السلطة واحتكار القرار الوطني، وسوّغت هزيمة حزيران تحويل الدولة الوطنية إلى «دولة بوليسية مطلقة»، على اعتبار أن «القوى الخارجية المتأمرة» لا تستهدف الشعب بل القوى المدافعة عنه. ومع اختصار

هجين، لا هو بالعلماني ولا بالديني، باستثناء سلطات لم تغادر، سياسياً، العصور الوسطى.

تصنيع الوعي الديني المغلق

اجتاحت معظم الأنظمة العربية منذ منتصف القرن العشرين انقلابات عسكرية لها «إيديولوجيا وطنية عفوية»، أرادت أن تحارب «تخلفاً» لا تعرف مصادره، وأن تخلق «مستقبلاً زاهراً» لا تعرف الطريق إليه. وبسبب البنية الاجتماعية للعسكريين، الذين جاؤوا من أوساط ريفية تفتقر إلى السياسة والثقافة، ارتاح هؤلاء إلى خيار إيديولوجي تلفيقي، يجمع بين التقليدي والحداثي، والقومي والديني، ويستبعد الرقابة والإرادة الشعبيتين. فبعيداً عن المشروع العلماني الصريح، الذي تقدّم به المصري طه حسين، في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، بعد معاهدة الجلاء بين مصر وبريطانيا - ١٩٣٦ - أثر جمال عبد الناصر، بعد ثورة ١٩٥٢، «حلاً معتدلاً» يجمع بين الحداثة والأصالة، بلغة ذاك الزمان، ويصالح بين الاشتراكية والإسلام، في انتظار وريثه «السادات»، الذي أطلق شعار «دولة العلم والإيمان». استبعد الرئيسان الديمقراطية وقاما، بنسب مختلفة، «بتأميم الحياة الحزبية»، إذ لا حزب إلا حزب الرئيس، ولا صحافة إلا تلك التي باركتها السلطة.

لم يكن الحال مختلفاً في الجزائر، «بلد المليون شهيد»، حيث ساوى قادة الثورة، وهواري بومدين خاصة، بين الثوري والمسلم، فإن أراد الثوري أن يكون وطنياً علمانياً، كان مصيره الإقصاء والعقاب. أمّا حزب البعث، الذي انتشر في العراق وسورية وغيرهما، فقد ساوى بدوره بين القومية والإسلام، حيث المسلم عروبي والعروبي مسلم بالضرورة. لم يخرج الجنرال جعفر النميري، في السودان، عن هذا الخيار وانتهى، بعد تسلمه السلطة، إلى «الخلافة»، على مقربة من الزعيم الليبي معمر القذافي، الذي أطلق شعار: «من تحزّب خان»، مكتفياً «بكتابه الأخضر»، الذي سوّغ طغيانه الفريد.

ارتاحت «الدولة الوطنية»، منذ بداياتها، إلى «إسلام تلفيقي»، في مجتمعات تقليدية مُنعت فيها «التعددية»، وأقصى فيها المواطن عن السياسة وشؤونه الوطنية. غير أن السلطات الطويلة العمر، التي جاوز حكمها الأربعين عاماً، جاءت معها، لزوماً، بمبدأ «الإسلام والسياسة»، إذ كل ظرف سلطوي يحتاج إلى إسلام خاص به. فبعد الاعتراف بالإسلام كقيمة ثقافية تفرضها «الأصالة»

الإرادة الوطنية - الشعبية في إرادة السلطة المستقلة انتهى زمن «التسوية الإيديولوجي»، ترسّبت فلسطين في خطاب براغماتي، تفرضه المناسبات، واختزلت الوحدة العربية إلى تنسيق «وزارات الداخلية»، التي ترصد مخاطر تحرّر الإنسان العربي، وأسقط الفساد المتصاعد «المصالح الوطنية»، وشكّل مع الاستبداد مرجعين متكاملين، يكفلان ديمومة السلطة المستبدّة، وديمومة «الإخضاع الشعبي». انطوت الشعارات السلطوية، بداهة، على نقائصها، فزادت «الاشتراكية» من الفروق الطبقة في المجتمع إلى حدودها العليا، وتقاسمت السلطات العربية المتنافسة تمزيق «المصالح العربية»، وفقاً لقاعدة تضع مصلحة السلطة فوق مصلحة الوطن، ومصالح الحاشية السلطوية فوق مصالح الوطن والشعوب والقومية العربية، التي استقرّت بأبعاد مختلفة، في «اللاوعي الشعبي العربي».

خطاب السلطات الإيديولوجي. قبل التمكن من السلطة وبعده. كان يعوزه الاتساق ويسخر من العلاقة بين القول والممارسة. استمر خطاباً تلفيقياً مرجعه الأساسي: ديمومة السلطة ومصالحها. ولهذا لم تنتج تلك السلطات «مفكرين» يدافعون عنها.

أهملت السلطات العربية، وبعد تمكّنها من السلطة بخاصة، الخطاب الإيديولوجي، وحوّلت إلى بلاغة صغيرة تستثمر القضايا الكبيرة، وذلك في تكرار فارغ يحو معنى القدس وفلسطين والوحدة العربية، و«التأمر الخارجي». وواقع الأمر أن خطاب السلطات الإيديولوجي، قبل التمكن من السلطة وبعده، كان يعوزه الاتساق ويسخر من العلاقة بين القول والممارسة، استمر خطاباً تلفيقياً مرجعه الأساسي: ديمومة السلطة ومصالحها. ولهذا لم تنتج تلك السلطات «مفكرين» يدافعون عنها، ولم تكن بحاجة إليهم، على أية حال، ذلك أن الحديث عن «مثقفين عضويين»، لا ينفصل عن إرادة في هيمنة إيديولوجية لم تكن ضرورية، سلطوية، على أية حال، على اعتبار أن تسوية السلطة يمر بالخوف والقمع وأجهزة الدولة التأديبية، ولا يحتاج إلى الإقناع، ولا يقبل بالحوار والمواقف النسبية. ولذلك انتقلت، بسهولة، من «الاشتراكية»، التي هي احتكار سلطوي للمصالح العامة، إلى رأسمالية السوق، التي لم تغادرها على أية حال، ومن «الفكر القومي» إلى التبشير الديني، ومن «علمانية» غائمة الحدود، إلى نظام

جاء الإسلام كمسوغ للاشتراكية أو «وحدة الأمة» ثم تقدم خطوة كسلاح في مواجهة «التنوع الثقافي» مسوغاً أنظمة غير شرعية.

لجأت الأنظمة العربية إلى الدين. «فتأسلمت». كي تحجب لدشريعيتها من ناحية. ولتنافس الاتجاهات الدينية في «نجاحها الشعبي» من ناحية ثانية.

بعد إخفاق متصاعد، في المجالات جميعاً، وفي سياق صعود التيارات الدينية، منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، لجأت الأنظمة العربية إلى الدين، «فتأسلمت»، كي تحجب لا شرعيتها من ناحية، ولتنافس الاتجاهات الدينية في «نجاحها الشعبي» من ناحية ثانية. فقرّبت منها رجال الدين، وبالغت في احتفالها بالمناسبات الدينية، وأعطت الخطاب الإسلامي مكاناً واسعاً في الإعلام والمدارس والمناسبات الرسمية، حتى بدا الدين عنصراً أساسياً في البنية الإيديولوجية الرسمية، متحوّلاً، بالضرورة، إلى إيديولوجيا دينية، تنتسب إلى مصالح السلطة، وإلى القوى الاجتماعية القريبة منها. أفسد هذا الانتساب المزدوج رجال الدين ووظائف المؤسسة الدينية، وأصبح «المشايخ» من نخبة المجتمع المسيطرة وغدت المؤسسة الدينية سلطوية بامتياز. تجلّى الأمر بوضوح كبير في تأويل الخطاب الديني، الذي نقل إلى بنيته مقولات الممارسات السلطوية للأنظمة الحاكمة.

فإذا كان تأويل الخطاب الإسلامي قد عرف، في النصف الأول من القرن العشرين، اتجاهات متعددة، تستبعد «الحقيقة الأخيرة»، فإن أنصار الإيديولوجيا الدينية السلطوية فرضوا تأويلاً واحداً، يلبي مصالح «الحاكم الواحد»، واعتبروا ما خلاه خروجاً على الأعراف والتراث. وما مأساة الأستاذ الجامعي المصري نصر حامد أبو زيد، الذي حاول اجتهداً دينياً طليقاً، إلا خروجه عن الرأي الواحد المفروض سلطوياً، وسعيه إلى تأويل منفرد على العلم والحياة. ولهذا طرد من الجامعة، ووقف معلّقاً في الهواء، بلا دعم ولا مؤازرة، إلى أن ترك مصر ومات في المنفى. وبداية فإن مأساته من مأساة سياقه، فقد اجتهد في زمن سلطة فاسدة تستثمر الإيديولوجيا الدينية، طغي فيه «الإسلام النفطي» وسيطر، مجتمعيًا، الوعي المتخلف، الذي يحرض على تأويل أكثر تخلفاً.

أراد نصر حامد أبو زيد، «المسلم الليبرالي»، أن يستأنف جهود طه حسين في زمن مختلف، فاصطدم بسياق جديد أجهز على «تراث» طه حسين وزمنه. فقد تجرأ «الثاني» على الموروث حين كتب «في الشعر الجاهلي» - ١٩٢٥، وعالجه بمنهج ديكاوت، وتجراً ثانية في كتابه «الفننة الكبرى» - ١٩٤٧، مع فرق كبير بين الحالتين. كان حسين حين كتب كتابه الأول حزياً، وله حزب يدافع عنه، وكان لمصر برلمان يقبل تعددية الرأي، وحين أنجز كتابه الثاني كان لمصر حركة شعبية ديمقراطية واسعة، يلعب المثقفون فيها دوراً كبيراً، ولا أثر «للإسلام النفطي»، الذي أراد للتعاليم الوهابية أن تمحو ما جاء به «التنوير المصري»، الممتد من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

مجتمع الخوف

في فضاء سلطوي يستولد، بأدوات مختلفة، «مجتمع الخوف»، كان على الإيديولوجيا الدينية الجديدة أن تحتفي بمقولة «المراتب الاجتماعية»، استناداً إلى فهم مبتور لآية قرآنية تقول: «أطيعوا الله وأطيعوا أئمة الأمر منكم»، حيث طاعة الحاكم، مهما كان سلوكه، من طاعة الله، والانصياع إلى رجل الدين من الانصياع إلى إرادة الله والحاكم معاً، كما جاء في كتاب الشيخ المصري محمد الشعراوي «تربية الإنسان المسلم»، الذي اعتبر «الصراع الطبقي» شكلاً من الحسد لا يقوّه الإسلام. لهذا غدا الحاكم مقدّساً، أو قريباً من التقديس، واكتسح رجال الدين مواقع المثقفين، وانتشر شكل هجين من المرتين الدينيتين هم: «الدعاة» الذين ملأت صورههم الأجهزة الإعلامية. و«الداعية» معلّم هجين، يتقن الكلام من دون أن يتقن، بالضرورة، القواعد اللغوية، أو أن يعرف الدين معرفة صحيحة. يتصرّف مرتاحاً بشكله الموروث، غطاء الرأس والذقن، ويكمل صورته ببلاغة ساكنة حدّاها الوعد والوعيد، تشير إلى الجنة وجهنم ولا تشير إلى غيرهما. والطريف، في حدود معينة، أنّ «الدعاة»، الذين أصبحوا من نجوم المجتمع، جمعوا ثروات طائلة من تجارة الدين، المقبولة سلطوياً، التي ترضي وعياً «جماهيرياً» ساذجاً، يساوي بين شكل الشيخ والموروث الديني. والمحقق أن قراءة الدعاة للدين أهدرت السياقين التاريخي والاجتماعي، وحوّلت الدين إلى خطاب بلاغي مجرد، لا علاقة له بالأوضاع الاجتماعية وممارسات الحكم، وانصرفت إلى ثنائيات: الكفر والإلحاد، والدنيا



المجتمع، متوسلة مقولات هجينة مثل: اللاوعي الشعبي، الذي يمكن توزيعه على الحاضر والماضي معاً، أو الوجدان الديني العربي - الإسلامي - على اعتبار أن هذا الوجدان متجانس في جميع الأزمنة، وأنه في وجدانه المتجانس لصيق بـ «الحكمة الدينية» الإسلامية. شيء قريب مما قال به المغربي الشهير محمد عابد الجابري، الذي أهدر السياقين التاريخي والاجتماعي واحتفى بمصطلح: بنية العقل العربي المتحرر من السياسة والإيديولوجيا. ومع أن بعضاً من هذه الدراسات ارتكن إلى مفردات: العلمي، الإيستمولوجي والقطع المعرفي، فقد وطد، عملياً، صورة الفكر القديم، وصمّت عن السياق السلطوي الذي ألغى الشروط الاجتماعية للعمل الفكري.

ربما يكون في مآل دراسات التراث، التي عني بها الماركسيون العرب في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته، قبل أن تأخذ منحى سلطوياً، ما يضيء، ولو بقدر، مآل المثقف العربي، الذي تحزّب في تحليلاته ذات مرة، وانتسب إلى الأحزاب السياسية وأسهم في تأسيسها، إلى أن جاءت التحولات الاجتماعية العاصفة، وقذفت به إلى خيارات ضيقة، فرضها الحلف الصريح والمضمر بين السلطة المتأسلمة و«أدعياء الدين». تراجع المثقف، الذي كان مأخوذاً بالنقد السياسي وانتقل، ما تبقى منه، إلى النقد الثقافي في عناوينه «الكبيرة»: الأنا والآخر، الإيستمولوجي والإيديولوجي، التفكيك ونظريات اللغة، إلخ. وواقع الأمر أن المثقف العضوي أو ما كان يدعى بذلك، عرف في الربع الأخير من القرن الماضي وما تلاه أزمات ثلاث: شهد «نهاية» أوهامه الإيديولوجية، وهو المؤمن بالتقدم و«عدالة التاريخ»، ونهاية علاقة «الجماهير» بالأحزاب السياسية، والتحاقها بالجماعات الدينية التي تسمح بتحزّب المؤمنين ضد المشركين. وعان أيضاً التداعي الثقافي الذي اخترق المجتمع العربي، بدءاً من انهيار المؤسسة التعليمية، العالية منها والمتوسطة، وصولاً إلى تدهور اللغة العربية، الذي رافق صعود الفروق الاجتماعية، وجعل «اللغة العربية» من نصيب الفقراء واللغات الأجنبية، والأميركية منها بخاصة، من نصيب النخبة.

تخليق الإنسان الفقير

الاحتجاج والتمرد والثورة من صفات «الفئات الميسورة»، هذا ما وعته الأنظمة المستبدّة، التي قوّضت بممارساتها المختلفة الطبقة الوسطى العربية، التي كانت تنتج الأحزاب والمثقفين والمنصرفين إلى السياسة بشكل عام. بسبب منظور

والآخرة، والحلال والحرام، وجعلت من «عذاب القبر» علماً مستقلاً بذاته، له وقائعه ومفرداته والبراهين عنه. وعلى صورة التلفيق الإيديولوجي السلطوي، الذي صالح بين معاصرة لا وجود لها وأصاله مختلفة، فإن «إسلام الدعاة» هاجم في الغرب الرأسمالي ثقافته وفنونه وديمقراطيته وفلسفته، وبارك سوقه الليبرالية، التي اندرجت فيها «أنظمة العلم والايمان».

إذا كانت الأنظمة المتسلطة، الطويلة العمر، قد حوّلت الانتخابات البرلمانية إلى «فولكلور برلماني»، قوامه تأييد المرجع الأعلى، والأحزاب السياسية، «المسموح بها»، إلى «فولكلور حزبي»، فقد غدا الخطاب الديني السلطوي فولكلوريا بدوره، يستعيد «الماضي المؤمن» وعظمته، ويلحق به السادة الحكام، ويبشّر بعضهم بالجنة. كان بديهاً في سياق تجهيلي، يتكامل فيه الدعاة والحكام، أن تزدهر لفظية دينية ماضوية تتحدث عن: الخلافة والبيعة وطاعة أولي الأمر والجهاد و«الإعجاز العلمي القرآني» وقوة الإيمان و«سداجة العلوم الحديثة»، ووصل التلفيق الذي جاوز حدوده إلى بعض الجامعات الرسمية، التي عرفت بتاريخها التنويري، قبل رحيل الاستعمار وبعده، ففقدت ندوات مشتركة بين رجال العلم ورجال الدين، «تشرح» دور «النصوص الدينية» في شفاء الأمراض المستعصية. بل إن المصري الشهير مصطفى محمود، الذي أطلق اسمه على جامع شهير في القاهرة، مايز بين «العلم اللدني»، المنبثق من القلب المؤمن، و«العلم الدنيوي» الزهيد الذي توزّعه المدارس الرسمية والجامعات، علماً أنه كان في المناهج المدرسية الرسمية «المتأسلمة» ما يفصل بين الرواية «الملحدة»، والرواية المؤمنة، وبين الشعر الذي يقبل بـ «الشرع»، والشعر المغاير المنفلت من قيود الدين والشرعية.

التراث بين اجتهادين

كان عادياً في العقود الأخيرة من القرن الماضي، كما في مطلع الألفية الثالثة، أن تزدهر دراسات التراث - التي أراد بعض التنويريين العرب، في زمن آخر، إعطاءها تأسيساً جديداً حال أحمد أمين في مصر، على سبيل المثال. اجتهد التنويرون، قدر المستطاع، في تعيين مفهوم التاريخ ونبذ «التدروش» والأقاصيص الدينية، عاملين على «ترهين الموروث» كي يصبح جزءاً من ثقافة الحاضر في الحياة الثقافية الاجتماعية. وعلى خلاف ذلك، ساوت الدراسات التراثية السلطوية بين قضايا التراث المجردة وقضايا

سلطوي غايته الإفكار الاجتماعي، تفككت الطبقة الوسطى واندرجت غالبيتها في الفئات الفقيرة، والتحق بعض منها بالسلطة، وهم القادرون على التكيف مع برجوازية رثة، ومتوحشة كما قال البعض، تبدأ بالسلطة وتنتهي إليها، حيث السلطة هي الحاكم الأكبر والمالك الأكبر في آن.

الأنظمة مارست «نهاية الإيديولوجيا». قبل إعلان السوق الليبرالية عنها. ذلك أنها جعلت الأجهزة الأمنية بديلاً عن الحزب والجماهير والإيديولوجيا. بالمعنى المتعارف عليه.

ارتكبت الأنظمة العربية، الفاسدة والمفسدة، إلى ما يمكن أن يُدعى «الإفكار المجتمعي الشامل»، اقتصاداً وسياسة وثقافة وقيماً، ففي منظور تسلطي، يضع كل ما هو خارج الحاكم أفقر، عملياً، معنى الوطن وأفقر المواطن العادي الذي «تعطيه» السلطة ما يضمن استمرار عمله في أجهزتها، وتحتل ثقافته في تلقين واستظهار سلطويين، ولا تمنحه من الحقوق السياسية إلا «شكلايات فقيرة». عبر الروائيون عن هذا الوضع بصيغة «الكائن الأجوف»، أو «الكائن المفرغ من جوهره»، الذي يتعامل مع الواقع خائفاً وينصرف من الحياة خائفاً، كما لو كائن الخوف هو الحق الأكيد الذي تضمنه له «سلطة فقيرة» تتمدد في الاتجاهات جميعاً. لا غرابة أن يرتعب «المواطن» من وجوه السلطة في أكثر تفاصيلها هامشية، بدءاً من «شرطي المرور»، الذي نقله فساداً إلى مقام «الأعيان»، إلى «معلم المدرسة» الذي يبيع الأسئلة والإجابات. تضيء هذه الظواهر معنى «مجتمع الخضوع»، في مراتبته الصارمة، أو «مجتمع الخوف» الذي يجعل من السلامة الشخصية اليومية هدفاً كبيراً، أو «مجتمع التخوين»، بلغة الشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان، حيث القمع يعطي الإنسان طبيعة ثانية، تغاير طبيعته الإنسانية الأولى.

لم يكن هدف التربية السلطوية توليد «الإنسان السلبى» فقط، الذي يرضى بالحاكم وبابنه الذي سيرث موقعه بقدر ما استهدفت «الذاكرة»، التي كان عليها أن تنسى ما تعلمته من أنظمة سابقة، كالحديث عن النقابات ومعاينة المرتشي على سبيل المثال، حال الأغنية العربية الهابطة والسيطرة، التي تفسد الذوق وتحجب فناً «سابقاً» كان فيه شيء من الذوق الرفيع. والمحصلة أن كل نظام مستبد يعتبر ذاته بداية مطلقة، بحسب ما سبقها من بدايات،

الأمر الذي يختصر التاريخ الوطني، في رموزه المتعددة، في شخص «الحاكم الأول»، الذي لا تاريخ له.

التطبيع بطبائع الاستبداد

خلقت الأنظمة العربية الطويلة العمر مرحلة تاريخية جديدة، أرغمت «المثقف القديم» على تغيير نمط حياته، بقدر ما أجبره «نسيج المجتمع الفاسد» على خيارات لم يعرفها لتحصيل رزقه. فلم تعد الصحافة هي الصحافة، ولا الحزب هو الحزب، وتحوّلت النقابات إلى شيء قريب من الأحجية. لذا أصبح «الحزب الجماهيري» نقيضاً للحزب، فهو مجموع من المرتزقة والمتكسبين، وأخذت الجماهير موقع «الرعا» القديم. بل إن هذه الأنظمة مارست «نهاية الإيديولوجيا»، قبل إعلان السوق الليبرالية عنها، ذلك أنها جعلت الأجهزة الأمنية بديلاً عن الحزب والجماهير والإيديولوجيا، بالمعنى المتعارف عليه. وبسبب النسيج الاجتماعي الفاسد، الذي تشرف عليه السلطة وتهندس علاقاته، والذي اتسم بالإنشاء السريع والإفكار المنهجي، ارتبك معنى «الطبقات»، وترسب «الصراع الطبقي» فوق طبقة سميكة من الانصياع والإذعان والتدين الجماهيري والصمت القسري. ولذلك انتهى المضطهدون والمستغلون إلى كتلة واسعة تدعى: الفقراء، مقابل «الأثرياء» أو «أصحاب الأموال»، الذين تتكشف «طبقيتهم» في علاقتهم بفئة قمعية مهيمنة، جعلت من أجهزة الأمن وسيلة لتكدس الثروات. كان الماركسيون يقولون: لا طبقات إلا في عملية الصراع الطبقي، التي تعني وجود طبقات متميزة، «ارتبكت» ملامحها في الأنظمة العربية الفاسدة، إلا إذا اعتبر «الفقر والتدين الجماهيري» ممارسة طبقية في شروط معينة.

انطوت المجتمعات العربية، المحكومة بسلطات مستبدة طويلة العمر، على ما يربك «النظر التقليدي»، اعتماداً على أطروحتين تقول أولاهما: لا وجود لطبقة إلا في آثارها الاجتماعية الفاعلة، وذلك في سياق جعل من السلطة هي الفاعل الوحيد. وتقول الثانية: لا وجود لطبقة، بالمعنى الحقيقي، إلا في تعييناتها الثقافية. ولكن ما هو التعيين الثقافي في مجتمع محكوم بإيديولوجيا سلطوية تلفيقية، وإيديولوجيا دينية مغلقة ترفض السلطة وتنصاع لها في آن؟ وما هو الفرق بين هاتين الإيديولوجيتين اللتين تتقاسمان وجوهاً مشتركة، تحيل إلى «واقع وهمي» لا يمكن تحديده؟ كان عبد الرحمن الكواكبي يقول: «إن طال عهد المستبد بهم بالحكم الاستبدادي، تطبّعوا بطباعه، وأخذوا بقيمه». ترجمت الطبائع التي استولدتها السلطات، في

مستوى أول، خصائص «المجتمع الخائف» الذي تخترقه القدرة والانغلاق الفكري و«التدين القطيعي» وعدم الثقة بالذات وبالأخرين والبحث القلق عن الرزق وعدم الثقة بالمستقبل، وعكست، في مستوى ثانٍ تفكك القيم المحايث «للمجتمع المفسد» الذي يساوي بين المصالح الصغيرة والحقيقة، وبين الخضوع والأمان.

هزمت الحداثة الاجتماعية. في البلدان العربية. مرتين: هزمتها سلطات تأخذ بقيم تقليدية. إذ الحاكم هو الحر الوحيد. وهزمتها شعوبها التي ردتها سلطاتها إلى وضع الرعية.

إنما يقرأ في طبيعة السلطات، التي هُزمت أمام إسرائيل وقامت، لاحقاً، بهزيمة شعوبها، سعيًا وراء «عالم عربي مستقر»، يؤمن مصالح إسرائيل ومصالح الرأسماليات المختلفة، المعنية بما هو «تحت الأرض»، لا بما هو فوقها، بلغة الأميركي ديك تشيني، إبان الهجوم على العراق، فقد عرفت الحواضر العربية الأساسية (القاهرة، دمشق، بغداد)، قبل قيام إسرائيل، حياة طبيعية لا مكان فيها للعنف والتطرف الدينيين، وعرفت، ولو بقدر، السياسة والأحزاب السياسية، بعيداً عن زمن الاستقلال الوطني، الذي تزامن مع ولادة إسرائيل، ووحد بين احتكار الشأن الوطني العام وإلغاء حقوق المواطنة.

الاستبداد وارثاك الأفق العربي

إذا كانت الحداثة الاجتماعية تتضمن الديمقراطية والاعتراف المتبادل بين البشر ونسبية الأحكام وتعددية القيم والنظر، فما هي حظوظ الحداثة في بلدان عربية حرمت خمسين عاماً من الممارسات الحداثيّة؟ كيف ترجع السياسة إلى مجتمعات أفقرت من السياسة؟ وكيف تستقيم المواطنة في بلدان حرم المواطنون فيها من حقوق المواطنة المتعددة؟ كيف تعترف بالعلمانية جماعات واسعة ساوت بين الكفر والعلمانية؟ والواقع أنه: لا جواب. فكل طبقة منتصرة تقلد الطبقة التي هزمتها في أشياء كثيرة. والسؤال في علاقته «بأطياف الربيع العربي»، هو: ما هي القيم «الوليدة والقديمة» لدى شعوب عربية لم تنتصر، بعد، في صراعها ضد الأنظمة المستبدة؟ تحضر في هذا المجال مقولات ثلاث لا ينقصها الارتباك: استمرارية الصراع بين قديم عميق الجذور وجديد «فقير البنية»، وسيورة تحويلية معقدة يفعل فيها الداخل والخارج معاً، فلا تزال الولايات المتحدة تراقب مشهداً عربياً لا تريد لجديده أن ينتصر ولا لمجتمعاته أن تستقر وتزدهر. تمس المقولة الثالثة الإنسان العربي، القومي في لغته والديني في انتمائه والواضح، أحياناً، في طائفته، وغير الواضح في «وطنيته»، لأنه يرى في الطائفة، لأسباب سلطوية، وطناً. تتبقى «قوى التقدم» المهتمشة، التي عليها أن تقرأ واقعاً اجتماعياً لم تتوقعه.

مهما يكن مآل «الحراك الثوري العربي»، الذي انطلق قبل سنوات، وسيستمر طويلاً، فإنه جسّد الحدث الأكبر في تاريخ العرب الحديث. فقد أجبر أكثر من طاغية على التنحّي أو على إبراز وجهه الكامل، وهو أمر ليس مألوفاً في الحياة العربية، المعقدة والمقيدة، التي اخترقتها تبعية واسعة ومتجددة.

أخفقت الأنظمة المستبدة في نشر إيديولوجيتها «المعلنة»، المحدثّة عن وحدة الشعب والأمة وتأمين الاستقلال الوطني، ونجحت في نشر «إيديولوجيتها المضمرّة»، الفاسدة المفسدة، المرتبطة بتقنين حاجات المواطنين اليومية. استبعدت، في الحالين، السياسة والحوار المجتمعي، منتهية إلى تفكيك «الشعب»، الذي هو مقولة سياسية، ومنتج لا وجود له إلا بأدوات سياسية. أفضى كل هذا إلى صعود النزعات الطائفية والجهوية والعشائرية والقبلية والعائلية، وكل ما يهّمّش المجتمع والشعب والوطن. تجلّى غياب السياسة، في المجتمعات المستبدّة بها، في سيطرة الأجهزة القمعية على غيرها، وتجلى غياب الوعي السياسي، مجتمعياً، في سيطرة الانتماءات الضيقة على الانتماء الوطني. عبّرت الجماعات الدينية عن أولوية «المعتقد الديني» على الوطن، كما جاء على لسان الناطقين باسمها: «من لا دين له لا وطن له»، وعبرت الفئات المتسلطة، الطويلة العمر، عن أولوية المصالح السلطوية على الوطن والمجتمع. نفت الأولى معنى «الشعب»، الذي هو مقولة حديثة، وهمّشت الثانية معنى «الدولة» وهي مقولة حديثة بدورها، ذلك أن الدولة تعرّف بالمجتمع الذي تؤمن مصالحه، وتضمن له الرعاية والحماية. ولهذا هزمت الحداثة الاجتماعية، في البلدان العربية، مرتين: هزمتها سلطات تأخذ بقيم تقليدية، إذ الحاكم هو الحر الوحيد، وهزمتها شعوبها التي ردتها سلطاتها إلى وضع الرعية.

وحاصل القول، وبعيداً عن الرطانة «الغربية»، التي تفتقر إلى المعرفة أو النزاهة، أو إلى الطرفين معاً، فإن توصيف العالم العربي بالتطرف والعنف والإرهاب، لا يقرأ في «جوهر عربي» مجرد، ولا في «جوهر إسلامي» عجيب،

محمود محمد طه الإسلام في رسالتين

نجاة إدريس إسماعيل

قاصة وصحافية
من السودان.

إلى اعتقال طه وتقديمه للمحاكمة في حزيران / يونيو ١٩٤٦ فكان أول سجين في تاريخ الحركة الوطنية، وتم إطلاق سراحه بعد خمسين يوماً. في أيلول / سبتمبر ١٩٤٦ قامت سلطات الاستعمار بتفعيل قانون منع الخفاض الفرعوني (ختان الإناث)، لكنّ الحزب الجمهوري عارض المنشور من باب أنّ العادات السيئة لا تحارب بالقوانين بل ببث الوعي والعلم وإشاعة التنوير في المجتمع. وعندما أقدمت السلطات الاستعمارية على سجن امرأة في رفاعة ختنت هذه ابنتها، وجاء ذوو المرأة يستنجدون بمحمود الذي قام فيهم خطيباً في مسجد رفاعة قائلاً «ليس هذا وقت العبادة في الخلاوي والزوايا أيها الناس، إنما هو وقت الجهاد، فمن قصّر عن الجهاد وهو قادر عليه ألبسه الله ثوب الذل وغضب عليه ولعنه». فخرجت المدينة بأجمعها في ثورة عارمة اقتحمت السجن وأطلقت سراح المرأة. ونجم عن ثورة رفاعة تلك إيذاء محمود محمد طه سجن ود مدني لمدة عامين ثم أتم مدته في سجن كوبر. وفي ذلك يقول الشاعر محمد المهدي المجذوب من نونيته (إلى الله):

أين محمودها الذي دفع الضيم
للقيد في يديه رنين

عربي يثور للعرض والدين
ولكنه الغداة سجين

طاهر القول والسريرة والكف
له الخسف والعذاب المهين

ربّ رحماك إنه فعل الخير
ولكنه وحيد غيب

ولد المفكر المهندس محمود محمد طه في مدينة رفاعة بوسط السودان عام ١٩٠٩. تعود جذور والده إلى الشمال بينما والدته من قرية صفية غربي رفاعة. بدأ محمود دراسته بالخلوة والتحق فيها بالتعليم النظامي الأولي والأوسط برفاعة، واستمر بالدراسة التي نبغ فيها، حتى التحق بمدرسة الهندسة في كلية غوردون التذكارية - جامعة الخرطوم حالياً. عرف عنه أثناء سني الدراسة تميزه بالخصال النبيلة، حيث عرف بالصدق والشجاعة ومناصرة الضعفاء، كما عرف عنه تميزه في الألعاب الرياضية التي كان يمارسها منذ أن كان بالمدرسة الوسطى حتى التحاقه بكلية غوردون. كان تأثيره في الجامعة كبيراً خصوصاً في أقرانه، وقد عبّر عن ذلك أحد الأدباء السودانيين قائلاً: «إن محموداً كان كثير التأمل لدرجة تجعلك تثق في كل كلمة يقولها».

الفكرة الجمهورية

أنشأ فكرته «الجمهورية» في تشرين الأول / أكتوبر من العام ١٩٤٥ وقد بدأت بصفة حزب سياسي أخذ اسم «الحزب الجمهوري»، وكان من أهم مطالبه وقتها الجلاء التام للاستعمار. ونادى الحزب بأن يحكم السودان بنظام جمهوري بدلاً من النظام الملكي الذي كانت تستخدمه كل من بريطانيا ومصر لحكم البلاد. وقد سبق بحديثه ذاك الأحزاب السياسية الأخرى التي كانت موجودة وقتها، إذ انقسمت حينها الحركة الوطنية الحديثة بُعيد مرحلة مؤتمر الخريجين العام إلى أحزاب اتحادية وأخرى استقلالية. بدأ الحزب الجمهوري المشاكسة مع المستعمر البريطاني، حيث عمد طه إلى توزيع منشورات تحث على النضال متخذاً من قضايا مزارعي مشروع الجزيرة وسياسة الاستعمار الثنائي تجاه قضية الجنوب منطلقاً للنضال. وكان أعضاء الحزب الجمهوري يوقعون أسماءهم على المنشورات، ممّا أدى

المذهب الجديد

أثناء عامي السجن صرف محمود وقته بالعبادة والصيام الصمدي، وعندما خرج منه اعتكف في رفاة لمدة ثلاث سنوات توقف عندها الحزب عن العمل. وعندما خرج من معتكفه، طرح طه مذهب الإسلام الجديد والذي يقوم على العدالة الاجتماعية وحرية الفرد واتجه بدعوته من «ملء فراغ الحماس إلى ملء فراغ الفكر». وكان ذلك في العام ١٩٥١. ثم أصدر الكتب التي يتحدث فيها عن مذهب مثل كتاب «قل هذه سبيلي» و«الدعوة الإسلامية الجديدة»، ثم توالى إصدار الكتب «دستور السودان» و«الرسالة الثانية في الإسلام» حتى زادت كتبه ومنشورات الجمهوريين عن مائتي الكتاب.

آراء فكرية خاصة

يقول الدكتور قيصر موسى الزين إن الحركة الجمهورية مرّت في مراحل عديدة حتى انتقلت إلى أم درمان، وقد ربط محمود محمد طه نشر فكره بتطوير تنظيم ديني وكذلك بإطلاق حملات دعوية بالشوارع. ومن أبرز أفكاره تقسيم الإسلام إلى رسالتين، تخص الأولى القرن السابع الميلادي والثانية القرن العشرين. ويشير الزين إلى تقسيم طه القرآن الكريم إلى ناسخ - يخص الرسالة الثانية - ومنسوخ - يخص الرسالة الأولى - وقد تبنى فكرة أنّ الرسالة الثانية هي التي تناسب التقدم البشري في العصر الحالي لحلّوها من تشريعات مثل الرق وتقييد حقوق المرأة، مستنداً في آرائه تلك إلى مرجعية الفكر الباطني.

الإخـوان يعتقدون أن إصلاح المجتمع مرتبط باستيـلائهم على السلطة. ولذلك فإن فكرة التبليـغ لديهم أساسها الحكم. بينما أساسها بالنسبة إلينا هو حركة الانسياب الثقافي اليومي للمجتمع.

ويرى محمود أنّ الآيات المكيّة التي نزلت في فجر الدعوة بمكة تمثل أصول القرآن، مضيفاً أنّ الإسلام ديانة كوكبية تقوم على المساواة بين البشر، وكان يسمّي الآيات المكيّة «آيات الأصول» مشيراً إلى أنها قامت على الإسماع ونبذ الإكرام.

ولعل تكوّن خطي أحد أبرز مفكري السودان لم يكن بالأمر السهل، إذ يشير الكاتب محبوب عمر بشري في

كتابه «رواد الفكر السوداني» إلى حياته الأولى قائلاً: «نشأ محمود محمد طه ولم يرتكب فاحشة في حياته وعاهد الله على أن يلتزم بالخلق الإسلامي، ودرس في كلية غوردون وتخصص في الهندسة، وخرج للحياة في الثلاثينيات فالتحق بالسكة الحديدية وعمل بعطبرة، وكان قارئاً نهماً في اللغتين العربية والإنكليزية... ودرس مذاهب الفلسفة وكل أنواع المنطق، حتى المنطق الوصفي والمنطق الجدلي، وله دراسات عن مدرسة الجدليين منذ الفيلسوف الألماني هيغل حتى ما كتبه ماركس، وتفرع منه ما كتبه منظرو الماركسية، وله دراسات عن المنطق الرياضي واعتراضات على وايتهد وراسل، كما له اعتراضات على مدرسة هيغل».

معارضته للإخوان المسلمين

تميّز محمود محمد طه بأنه مفكر فريد اشتهر بنصاعة الحجة وقوتها واستقامة الشخصية والثبات على المبدأ، وكانت له هيبة وسطوة فكرية وسط خصومه الذين كانوا من ناشطي حركة الإسلام السياسي السودانية. تميز طه بقدرته الفائقة على الاستدلال بنصوص القرآن، وكان رجلاً موسوعياً في إلمامه بالتراث الإسلامي وبمختلف تيارات الفكر المعاصر.

من أهم ما طرحه محمود محمد طه أنّ الفكر الإسلامي على المستوى الكوني «الكوزمولوجي»، كما أنه قد تنبأ بسقوط الشيوعية قبل عقود من حدوثه الداوي، فكان من أطروحاته أن الرأسمالية والشيوعية وجهان لعملة واحدة، وهي الفكرة المادية عن الوجود. وقال إن الإسلام سيخلف النظامين الشيوعي والرأسمالي، وكان يكثر من الاستدلال بالحديث النبوي «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. وقالوا: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يُحيون سنّتي بعد اندثارها».

ويقول الكاتب الصحفي بابكر حسن مكي في كتابه «النميري: الإمام والروليت» إنّ حاور محمود محمد طه في منزل بمدينة الثورة فقال له «أما الإخوان فهم يعتقدون أن إصلاح المجتمع مرتبط باستيلائهم على السلطة. ولذلك فإن فكرة التبليغ لديهم أساسها الحكم، بينما أساسها بالنسبة إلينا هو حركة الانسياب الثقافي اليومي للمجتمع». وأضاف محمود أن «دعوة الإخوان مصطدمة على الدوام بالتمايز الديني والعنقي بين الشمال والجنوب، إذ إنّ سعيهم نحو إقامة جمهورية إسلامية لا بد له من أن يرتطم بالجدار المسيحي للجنوب،

وعندها سيجدون أنفسهم بين خيارين: إما مقاتلة الجنوبيين وقصل الشمال وإما التراجع عن إستراتيجيتهم وهذا مستحيل. أما نحن فلا يهمننا أن يكون الجنوب مسيحياً أو الغرب إثنياً... نحن مع المثقف الجنوبي ومثقف غرب السودان وشرقه وشماله ووسطه».

رسالة الصلاة

وقسم المفكر محمود محمد طه نشأة الإنسان إلى أربع مراحل وذلك في كتابه «رسالة الصلاة». وأشار إلى أن المرحلة الأولى من نشأة الإنسان تعني تطوره في المادة غير العضوية منذ بروزه في الجسد، مشيراً إلى الآية الكريمة «أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون». وبدأت المرحلة الثانية من نشأة الإنسان ببرز المادة العضوية من المادة غير العضوية، مضيفاً أن المرحلة الثانية بدأت بحيوان الخلية الأولى، بينما بدأت المرحلة الثالثة من نشأة الإنسان حيث ظهر آدم النبي الخليفة الذي خلقه الله خلقاً كاملاً، وتتميز المرحلة الرابعة من نشأة الإنسان - والتي يعتبرها الكاتب قفزة من قمة منازل المرحلة الرابعة - بدخول الحاسة السادسة والحاسة السابعة ويعتبرها درجة من درجات الترقى.

يرى طه أن للصلاة معنى قريباً ويظهر في الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة والتي فرضت في مقام «قاب قوسين أو أدنى». وأوضح أن عبد الترقى يشاهد وحده الفعل، ثم يترقى منها إلى شهود وحدة الصفة، ثم يترقى منها ليشاهد وحدة الاسم، وليس وراء ذلك إلا شهود الذات.

ويرى محمود محمد طه أن للصلاة معنى قريباً ويظهر في الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة والتي فرضت في مقام «قاب قوسين أو أدنى» مضيفاً أنها تكون في مقام الشهود الأسمائي والذي يعتبره وسيلة إلى الشهود الذاتي. وأوضح طه أن عبد الترقى يشاهد وحده الفعل، ثم يترقى منها إلى شهود وحدة الصفة، ثم يترقى منها ليشاهد وحدة الاسم، وليس وراء ذلك إلا شهود الذات. وأضاف أنه في مقام الشهود الذاتي فرضت الصلاة بالمعنى البعيد، وهي الصلة مع الله بلا «واسطة»، في مقام «ما زاغ البصر وما طغى» حيث تطمس من



العبد ذاته المحدثه وتبقى ذاته القديمة في صلة مع القديم، لا يفصلها وسيط ولا تقوم بينهما وسيلة وهناك تسقط الوسائل والغايات ولا يبقى إلا الواحد القهار.

الرسالة الثانية

ويرى محمود محمد طه أن الرسالة الثانية أجملها المعصوم إجمالاً ولم يقع في حقها التفصيل إلا في التشاريع المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها، كتشاريع

عندما أصدر الجمهوريون كتاب «الهوس الديني يثير الفتنة ليصل إلى السلطة» الذي انتقدوا فيه سلطة مايو حينها، اعتقلت الأخيرة طه وأودعته السجن هو وعددًا من الجمهوريين، وبقوا في السجن حتى صدور قوانين أيلول / سبتمبر والتي عرفت بقوانين الشريعة الإسلامية، ليطلق سراحه في ١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٤. عندها أصدر منشوره «هذا أو الطوفان» الذي طالب فيه بإلغاء قوانين أيلول / سبتمبر ١٩٨٣ كما طالب بوقف الاقتتال في جنوب السودان، فأعيد اعتقاله في الخامس من كانون الثاني / يناير ١٩٨٥ كما اعتقل عدد من الجمهوريين قبله.

في السابع من كانون الثاني / يناير مثل المفكر محمود وأربعة من تلاميذه أمام محكمة الطوارئ. وفي العاشر من الشهر عينه أصدرت المحكمة برئاسة القاضي المكاشفي طه الكباشي حكمها بإعدام محمود محمد طه بحكم الردة ليصدق على الحكم رئيس الجمهورية جعفر نميري ويتم تنفيذ الحكم في ١٨ كانون الثاني / يناير ١٩٨٥.

إبتسامه وداع

وما بين الجدل الكثيف الذي أثاره الأستاذ محمود محمد طه حياً وميتاً، بين متفق معه ومختلف، كانت إبتسامته الوضاعة التي افتّر وجهه عنها عندما نزع الغطاء عن وجهه قبيل تنفيذ حكم الإعدام به، قد لفتت أنظار العالم، واسترعت شاعرية علامة السودان عبدالله الطيب فقال مصوراً المشهد:

كشفوا وجهه ليعرف أن هذا
هو الشخص عينه محمود

قري الحكم ثم صاح به القاضي
ألا مثله اقتلوه، أبيدوا

كبر الحاضرون للحدّ مثل
العيد إذ جمعهم له مشهود

وأراهم من ثغره بسمّة الساخر
والخبل فوقه ممدود

وعلى وجهه صفاء وإشراق
أمام الردى وديع جليل

بين الجدل الكثيف الذي أثاره الأستاذ محمد محمد طه حياً وميتاً. بين متفق معه ومختلف. ف. لفتت الأنظار إبتسامته الوضاعة التي افتّر وجهه عنها عندما نزع الغطاء عن وجهه قبيل تنفيذ حكم الإعدام به.

العبادات وتشاريع الحدود، ذلك حسب قول الكاتبة أسماء محمود محمد طه والكاتب الدكتور النور محمد حمد في كتابهما «نحو مشروع مستقبل للسلام». وأضافا أن القرآن لم يبين منه بالتشريع والتفسير إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين بما يتناسب مع طاقة الناس وقتئذ. وقد أضافا في كتابهما عن الرسالة الثانية أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكمل لأن السير في مضماره سرمدى، مشيرين إلى «عند» في الآية الكريمة «إن الدين عند الله الإسلام» بأنها ليست ظرف زمان ولا مكان وإنما هي خارج الزمان والمكان، مضيفين أن السير بالقرآن في مضمار الإسلام سير إلى الله في إطلاقه وهو بذلك لم يتم تبيينه وإنما تم إنزاله بين دفتي المصحف ولم يتم تبيينه - على حد قولهما.

محكمة الردّة والإعدام

في العام ١٩٦٨ رفع شيخان من شيوخ جامعة أم درمان الإسلامية دعوى حسبة طالباً فيها بإعلان ردّة الأستاذ محمود محمد طه عن الإسلام، وانعقدت وقتها محكمة صورية ولم يمثل طه أمامها ولم يستأنف حكمها لعدم اعترافه بشرعية المحكمة. ثم أودع السجن ثانية عقب تأليفه لكتاب «اسمهم الوهابية وليس اسمهم أنصار السنّة» الذي أغضب السلطات الدينية بالمملكة العربية السعودية، فأودعه نظام مايو السجن بعدما كان قد أصدر قراراً من قبل بمنعه من إلقاء المحاضرات العامة.

الرسالة الثانية من الإسلام

محمود محمد طه

مفكر إسلامي وسياسي سوداني (١٩٠٩-١٩٨٥)، مؤسس الحزب الجمهوري (١٩٤٥) الذي دعا إلى حكم ديمقراطي اشتراكي فيدرالي. اعتُقل أكثر من مرة وأُعدم في عهد جعفر النميري بتهمة إثارة الكراهية ضد الدولة والردّة. من مؤلفاته «رسالة الصلاة»، «تطوير شريعة الأحوال الشخصية»، «الإسلام وقضية المرأة» و«الرسالة الثانية من الإسلام».

نُشر أدناه مختارات من «الرسالة الثانية من الإسلام» (كانون الثاني / يناير ١٩٦٧) التي تحتوي أبرز أفكار محمود محمد طه واجتهاداته. وقد أثارت من الخلافات والسجلات والانتقادات بالردّة قدر ما أثارت من تأييد وحماسة. وتدلّ الفصول الأخرى على فحوى ما تبقى من أفكاره وتدور حول «ما ليس أصلاً في الإسلام»، حسب «الأستاذ» طه (حسبما يسمّيه أنصاره) وهذا يشمل: الجهاد، الرق، عدم المساواة بين الرجل والمرأة، تعدّد الزوجات، الطلاق، الحجاب، العزل بين الرجال والنساء.

الرسالة الأولى

ينطلق عليها عادة، من الإسلام الأول، وليس، على التحقيق، من الإسلام الأخير.

وأنت حين تقرأ قوله تعالى «إن الدين عند الله الإسلام» يجب أن تفهم أن المقصود الإسلام الأخير، وليس على التحقيق، الإسلام الأول، ذلك بأن الإسلام الأول ليست به عبرة، وإنما كان الإسلام الذي عصم الرقاب من السيف، وقد حسب في حظيرته رجال أكل النفاق قلوبهم، وانطوت ضلوعهم على بغض النبي وأصحابه - ثم لم تفر ضلوعهم عن خبئها، وذلك لأن المعصوم قد قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وأمرهم إلى الله». ولقد نشأ الإسلام بين القريتين، مكة والمدينة: بدأ في مكة، فلما انهزم فيها هاجر إلى المدينة، حيث انتصر. وما كان له أن ينتصر في مكة، ولم ينتصر «وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون».

الرسالة الأولى هي التي وقع في حقها التبیین بالتشريع وهي رسالة المؤمنين. والمؤمنون غير المسلمين، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع، وإنما هو اختلاف مقدار، فما كل مؤمن مسلم، لكن كل مسلم مؤمن. والإسلام بداية، ونهاية. فكما أن الزمان والمكان لولبيان، فكذلك الأفكار، فإنها لولبية، يسير الصاعد في مراقبها في طريق لولبي، يرتفع في المراقبي كلما يدور على نفسه، حتى إذا تمت دورة على نقطة البداية ارتفع السالك سمّاً فوقها، وجاءت نهاية تلك الدورة على صورة تشبه البداية، ولا تشبهها. وكذلك الحال، فإن السالك في مراقبي الإسلام يسير على معراج لولبي، ينضمّ نحو مركزه، كلما ارتفع نحو قمته، ويدور على نفسه دورة، كلما رقي في سبع درجات، أولها الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، ثم في نهاية الدورة، الإسلام.

وأمة البعث الأول - أمة الرسالة الأولى - اسمها المؤمنون، لدى الدقة، وإنما أخذت اسم المسلمين، الذي

إسلام المسلمين وإسلام المؤمنين

ما انتصر الإسلام، وإنما انتصر الإيمان. ولقد جاء القرآن

صاحبة الوقت يومئذ، «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين» وأخواتها، وهن أكثر.

وحين تمّت الهجرة إلى المدينة، ونسخت آيات الإسماع، وانتقل حكم الوقت إلى آية السيف، ونظائرها، «فإذا اتسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واغصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم». ودخل الخوف في ميدان الدعوة، واضطرت نفوس إلى التقية، أسرّت أمراً وأعلنت غيره، ودخل بذلك النفاق بين الناس.

وكون ذكر الجهاد، وبيان الجهاد، من ضوابط الآيات المدنية، لا يحتاج إلى تحليل.

وأما كون المكية من ضوابطها ذكر السجدة، فذلك لأن السجدة أقرب إلى الإسلام منها إلى الإيمان. وفي حديث المعصوم: «أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد»، وفي القرآن الكريم «اسجد واقترب» وفيه سر عظيم من أسرار السلوك إلى منازل العبودية.

ومنها أن تفتتح السور بحروف التهجي، وهذا باب عظيم، وفيه سر القرآن كله، والحديث عنه لا يتسع له هذا المقام، وإنما نكتفي منه بما نحن بصده من بيان الفرق بين رسالتي الإسلام.

الرسالة الثانية

الرسالة الثانية هي الإسلام، وقد أجملها المعصوم إجمالاً، ولم يقع في حقها التفصيل إلا في التشريعات المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها، كتشريع العبادات، وكتشريع الحدود، قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً» هذا اليوم يوم عرفة، من حجة الوداع، في السنة الثامنة من الهجرة، وقد كان يوم الجمعة. وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن. وهي قمة رسالات السماء.

الإسلام لا يمكن أن يكمل

وهو إنما رضي لنا الإسلام ديناً لنرضاه، فإن أمراً لا يبدأ من طرفه هو، لا يبدأ من طرفنا نحن. قال تعالى «ثم تاب عليهم ليتوبوا». وقد ظن كثير من الناس أن قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» تعني أن الإسلام كمل

مقسماً بين الإيمان، والإسلام، في معنى ما جاء إنزاله مقسماً بين مدني، ومكي. ولكل من المدني والمكي مميزات يرجع السبب فيها إلى كون المدني مرحلة إيمان، والمكي مرحلة إسلام.

الاختلاف بين المكي والمدني ليس اختلافاً في مكان النزول. ولا اختلاف في زمن النزول. وإنما هو اختلاف مستوى المخاطبين. فيأبها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة. ويأبها الناس فيها شمول لكل الناس.

فكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ «يأبها الذين آمنوا» فهو مدني، ما عدا ما كان من أمر سورة الحج، وكل ما ورد فيه ذكر المنافقين فهو مدني، وكل ما جاء فيه ذكر الجهاد، وبيان الجهاد، فهو مدني، هذا إلى جملة ضوابط أخرى. وأما المكي فمن ضوابطه أن كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية، وكل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية، سوى سورتي البقرة، وآل عمران، فإنهما مدنيتان، وكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ «يأبها الناس» أو «يا بني آدم» فإنه مكي، سوى سورة النساء، وسورة البقرة، فإنهما مدنيتان وقد استهلتهما بآيتين من القرآن «يأبها الناس اتقوا ربكم» وفي آخرهما «يأبها الناس اعبدوا ربكم» والشواهد عن الضوابط، بين المكي والمدني، إنما سببها التداخل بين الإيمان والإسلام، فإنه، كما ذكرنا، كل مؤمن مسلم في مرتبة البداية، وليس مسلماً في مرتبة النهاية، وكل مسلم مؤمن، ولن ينفك.

والاختلاف بين المكي والمدني ليس اختلاف مكان النزول، ولا اختلاف زمن النزول، وإنما هو اختلاف مستوى المخاطبين. فيأبها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة. ويأبها الناس فيها شمول لكل الناس. فإذا اعتبرت قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم» - وقوله تعالى «إن الله بالناس لرؤوف رحيم» وأدركت فرقاً، فاعلم أنه الفرق بين المؤمن والمسلم، وهو مستوى كل من الخطابين. وورد خطاب المنافقين في المدينة، ولم يرد في مكة، مع أن زمن النزول في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنوات، أو يقل، وذلك لأنه لم يكن بمكة منافقون. وإنما كان الناس إما مؤمنين، أو مشركين، وما ذلك إلا لأن العنف لم يكن من أساليب الدعوة بل كانت آيات الإسماع هي

وعبّر عنه تبارك وتعالى «يأيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» وتلك النفس الواحدة إنما هي نفسه، تبارك وتعالى.

فكلمة الإسلام، مثلاً، لها معنى قريب هو الذي عبّر عنه القرآن بقوله تعالى «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم». وهذا هو الذي سمّيناه الإسلام الأول وقلنا إنه لا عبرة به عند الله. وللإسلام معنى بعيد، وهو مركز عند الله، حيث لا حيث. وهو بمعناه البعيد قد أشار إليه سبحانه وتعالى حين قال «يأيها الذين آمنوا اتّقوا الله حق تقاته، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون». ومعلوم أنه لا يتّقي الله حق تقاته إلا الله، وهو، من ثم، نهج معراج إلى الله ذي المعارج، في مقام عزه، بالعبودية، والتذلّل، والاستسلام. والعبودية لا تتناهى. فهي كالربوبية تماماً. والعبودية المطلقة لله تقتضي العلم المطلق بالله. وهذا لا يكون إلا لله عز وجل «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله» فالغيب هنا يعني الله. فكأنه قال، لا يعلم الله إلا الله، ولقد تحدّثنا في رسالة الصلاة كيف أن العبودية هي الحرية، ممّا لا سبيل إلى إعادته هنا. فليرجع إليه.

الأمة المسلمة لم تظهر بعد

والإسلام إنما كان نهج معراج إلى مقام العبودية بفضل القرآن. وهو كتابه المسلك في مراقبه. وهذا التسليك هو ما من أجله أنزل القرآن، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى «ولقد يسنّ القرآن للذكر، فهل من مذكر». وهو إنما يذكّرنا بالعبودية التي أقرّنا على أنفسنا بها، ثم نسيناها، وذلك حيث قال تعالى «وإذ أخذ ربك من بني آدم، من ظهورهم، ذريّتهم، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا بلى! شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين / أو تقولوا، إنما أشرك آبائنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون / وكذلك نفصل الآيات، ولعلهم يرجعون»، لعلهم يرجعون إلى الله بالعبودية والاستسلام بالإسلام.

ولمّا كان القرآن هو منهاج السلوك إلى الله، «قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، والقرآن هو هذا الهدى، فقد أصبح أوله عند الله، وآخره عندنا. فإن نحن أحسنّا السلوك في مدارجه استرجعنا الفردوس الذي فقدناه بخطيئة آدم، وارقتنا المراقي في الإطلاق. قال تعالى عن القرآن «ألم / ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى

عند الناس، وانتهى إلى قمة كماله يومئذ. وهؤلاء، حين يقرأون قوله تعالى «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» يعتقدون أن تبين القرآن قد تمّ، وليس هناك أمر هو أبعد من الصواب من هذا الرأي. فالقرآن لم يبين منه بالتشريع، وبالتفسير، إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين، ويناسب طاقة الناس. والقرآن لا يمكن أن يتم تبينه. والإسلام، كذلك، لا يمكن أن يكمل. فالسير في مضماره سير سرمدى. «إن الدين عند الله الإسلام» و«عند»، هنا، ليست ظرف زمان، ولا هي ظرف مكان، وإنما هي خارج الزمان، والمكان. فالسير بالقرآن في مضمار الإسلام سير إلى الله في إطلاقه. وهو بذلك لم يتمّ تبينه، ولن يتمّ، وإنما تمّ إنزاله بين دفتي المصحف. تمّ إنزاله، ولم يتمّ تبينه.

ومن هنا يفهم الفرق بين «أنزلنا» و«نزل» من الآية «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكّرون». فإنّ الفهم العام، عند العلماء، أنهما مترادفتان، وما هما بذاك. و«ما» في جملة «ما نزل إليهم» لا تعود إلى الذكر، وإنما تعود إلى جزء من الذكر، ينصب عليه الأمر بالتبيين، وهو ما يخص الرسالة الأولى. إلا ما يكون متداخلاً بينها وبين الرسالة الثانية.

ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن قد نزل مثاني. وفي ذلك يقول تعالى «اللّه نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً، مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تليّن جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلّل الله فما له من هاد» ومعنى «متشابهاً» قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعلى، وبين وجهه وقفاه، وبين ظاهره وباطنه.

معنى «مثاني» أنه ذو معنيين: معنى بعيد عند الرب، ومعنى قريب تنزل للعبد. والقرآن كله مثان. كل آية منه، وكل كلمة فيه، بل وكل حرف من كل كلمة.

ومعنى «مثاني» أنه ذو معنيين. معنى بعيد عند الرب، ومعنى قريب تنزل للعبد. والقرآن كله مثان. كل آية منه، وكل كلمة فيه، بل وكل حرف من كل كلمة. والسر في ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد. والشبه الذي فيه هو الشبه الذي قام بين الرب والعبد، وعبّر عنه المعصوم بقوله «إن الله خلق آدم على صورته»





إخوانك يا رسول الله؟» قال «بل أنتم أصحابي!» ثم قال الثالثة: «واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعدا» قالوا «من إخوانك يا رسول الله؟» قال «قوم يجيئون في آخر الزمان، للعامل منهم أجر سبعين منكم» قالوا «منا أم منهم؟» قال «بل منكم» قالوا «لماذا؟» قال «لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على الخير أعواناً».

المساواة السياسية: الديمقراطية

... كما أنَّ الاشتراكية هي ثمرة النزاع الطويل بين «العندهم» و«الماعندهم» في الصعيد المادي، فإن الديمقراطية هي أيضاً نتيجة الصراع بين «العندهم» و«الماعندهم» في الصعيد السياسي، وهي تبتغي أن يكون الناس شركاء في السلطة، كما هم شركاء في خيرات الأرض. والديمقراطية صنو الاشتراكية. وهما معاً يمثلان جناحي المجتمع. فكما أن الطائر لا يستقل في الهواء على جناح واحد، فكذلك المجتمع، لا يستقل بغير جناحين من ديمقراطية واشتراكية. ولقد ظهرت الديمقراطية قبل الاشتراكية، ذلك لأن الاشتراكية تحتاج إلى وعي جماعي أكثر مما تحتاج إليه الديمقراطية التي قد تقوم في بدايتها على قلة من المثقفين. ثم إنَّ الاشتراكية تحتاج، كمقدمة لها، إلى الرأسمالية النامية الغنية، وهي أيضاً وليدة الآلة، فلم يكن من الممكن أن تتقدمها. ولم يحجَّ الآلة إلا مؤخراً. هذا الحديث يعني الاشتراكية العلمية. أما الاشتراكية الساذجة، البدائية، فإن نشأتها بعيدة في التاريخ.

ولدت الديمقراطية في بلاد الإغريق، وفي أثينا بالذات. وقد كانت أثينا أرقى مدن الإغريق ثقافة. وكانت كل مدينة من تلك المدن حكومة قائمة بذاتها. ولما كانت الدول الإغريقية التي تمثلها المدن صغيرة فقد كان من السهل على الشعب أن يمارس الحكم مباشرة عن طريق اجتماع أفرادها، وكانت ديمقراطيتهم بذلك الديمقراطية المباشرة التي لا تحتاج إلى مجلس نيابي، ولا إلى مجلس تنفيذي، على النحو الذي عرف مؤخراً، وهي لم تكن تقوم على موظفين دائمين، وإنما كان الموظفون ينتخبون كل عام. وكثيراً ما كان الانتخاب يجري بالاقتراع، وكان أهل أثينا يعتقدون أن الاشتراك في مناقشة، وسياسة الشؤون العامة، حق لكل مواطن، وواجب عليه، «لم يكونوا يعتبرون النساء والعبيد من المواطنين». (...)

الفرد غاية

ولقد أخذت الديمقراطية من أيام أثينا تنمو وتتطور

للمتقين». وقال عن المتقين المهتدين بالقرآن «إن المتقين في جنّات، ونهر، في مقعد صدق، عند مليك مقتدر». وهذه درجات: أولها الجنّات، ثم النهر، ثم مقعد الصدق ثم عند مليك مقتدر، وذلك «عند لا عند» و«حيث لا حيث». وهذه الدرجات تتفاوت من الجنّات الحسية، وهي الفردوس المفقود بالخطيئة، إلى المطلق في إطلاقه، وإلى كل أولئك يهدي القرآن، فهو لا يستنفذ. «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً». ومن أجل هذا فإنه باطل، زعم من زعم أن القرآن يمكن أن يستقصى تبينه. ذلك بأن القرآن هو ذات الله. وهذه الذات تنزلت، بمحض الفضل، إلى مدارك العباد ليعرفوها، فكانت القرآن في تنزلاته المختلفة: الذكر، والقرآن، والفرقان. وفي منزلة الفرقان هذه انصبّ في قوالب التعبير العربية، واستعملت هذه القوالب أبلغ استعمال لتشير إلى منزلتي القرآن، والذكر. والقرآن إنما انصبّ في قوالب التعبير العربية لتتمكن نحن من الفهم عن الله. قال تعالى في ذلك: «إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون». ولقد ورّطت هذه الآية، وأخواتها كثيراً من علماء المسلمين في الخطأ، فظنوا أن القرآن عربي بمعنى أنه يمكن أن يستقصى فهمه من اللغة العربية، ومن معرفة أساليبها، وما هو بذاك، ولقد تحدّثنا عن ذلك عند حديثنا عن السور المفتحة بأحرف التهجي، فليراجع هناك.

ولما كان الإسلام بهذا السموق، فإنه لم يتفق لأمة من الأمم إلى اليوم. والأمة المسلمة لم تظهر بعد. وهي مرجوة الظهور في مقبل أيام البشرية. وسيكون يوم ظهورها يوم الحج الأكبر، وهو اليوم الذي يتم فيه تحقيق الخطاب الرحماني بقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً».

ولقد كان محمد يومئذ طليعة المسلمين المقبلين، وهو كأنما جاء لأئمة، أمة المؤمنين، من المستقبل، فهو لم يكن منهم، فقد كان المسلم الوحيد بينهم «قل إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي، لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين». ولقد كان أبوبكر، وهو ثاني اثنين، طليعة المؤمنين. وكان بينه وبين النبي أمد بعيد. وإلى المسلمين، الذين يجيئون في مقبل أيام البشرية، أشار حديث المعصوم، حين قال: «واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعدا» فقال أبوبكر «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟» قال «بل أنتم أصحابي!» ثم قال ثانية: «واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعدا» فقال أبو بكر «أولسنا

وتتباين في ذلك في مختلف أرجاء العالم، ولكنها تتبع في كل مكان من مبادئ تحاول أن تبينها بوضوح كنهج متميز وفد من مناهج الحياة. نهج للحياة يعترف بكرامة الإنسان، ويحاول أن يقيم تصريف الشؤون الإنسانية وفق العدل، والحق، وقبول الشعب. ولقد وصلت مرحلة تطوير الديمقراطية الحديثة إلى مبادئ يمكن تلخيص أهمها في ما يلي:

- ١ — الاعتراف بالمساواة الأساسية بين الناس.
- ٢ — قيمة الفرد فوق قيمة الدولة.
- ٣ — الحكومة خادمة الشعب.
- ٤ — حكم القانون.
- ٥ — الاسترشاد بالعقل، والتجربة، والخبرة.
- ٦ — حكم الأغلبية، مع تقديس حقوق الأقلية.
- ٧ — الإجراءات أو الوسائل الديمقراطية تستخدم لتحقيق الغايات في الدولة الديمقراطية.

فليست الإجراءات ولا الأجهزة الديمقراطية غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة إلى غاية وراءها. ليست الديمقراطية أن تكون لنا هيئة تشريعية، وهيئة تنفيذية، وهيئة قضائية، وإنما جميع أولئك وسائل لتحقيق كرامة الإنسان. الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب، وإنما هي منهاج حياة، الفرد البشري فيه غاية، وكل ما عداه وسيلة إليه، ولا يجد أسلوب الحكم الديمقراطي الكرامة التي يجدها عند الناس إلا من كونه أمثل أسلوب لتحقيق كرامة الإنسان.

الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب. وإنما هي منهاج حياة. الفرد البشري فيه غاية. وكل ما عداه وسيلة إليه.

وفي النهج الديمقراطي الحاضر خطأ هو أقل من الخطأ الذي تورطت فيه الشيوعية الماركسية بكثير، لكننا رغم ذلك لن نسترسل في استقصائه هنا وإنما نتركه إلى حينه في سفر «الإسلام ديمقراطي اشتراكي».

وإنما تجيء كرامة الإنسان من كونه أقدر الأحياء على التعلم والتزقي، وإنما تجيء كرامة الديمقراطية من كونها، كأسلوب للحكم، أقدر الأساليب على إتاحة الفرص للإنسان ليلبغ منازل كرامته وشرفه، وإنما يتعلم الإنسان من أخطائه، وتلك هي الطريقة المثلى للتعليم. ففي الديكتاتورية تمنع الحكومة الفرد من أن يجرب، أو يعمل

بنفسه، وبذلك تعطل نموه الفكري والعاطفي والخلقي، لأن كل أولئك إنما يتوقف نموه على ممارسة العمل، وتحمل مسؤولية الخطأ في القول، وفي العمل، ثم التعلم من الخطأ. وعلى العكس من الديكتاتورية، نجد أن الديمقراطية قائمة على الحق في ارتكاب الأخطاء، وهذا ليس معناه الرغبة في الخطأ من أجل الخطأ، وإنما الاعتراف بأن الحرية توجب الاختيار بين السبل المختلفة للعمل. ولا يمكن للإنسان أن يكون ديمقراطياً حقاً دون أن يتعلم كيف يختار، وأن يحسن الاختيار في ذلك، وأن يصحح، باستمرار، خطأ الاختيار الذي يبدو منه الفينة بعد الفينة. وفي واقع الأمر فإن السلوك جميعه، وممارسة الحرية برمتها، إنما هي سلسلة من التصرف الفردي في الاختيار والتنفيذ. أو قل في حرية الفكر، وحرية القول، وحرية العمل. على شرط واحد هو أن الإنسان يتحمل نتيجة خطئه في القول، وفي العمل، وفق قانون دستوري.

فالديمقراطية هي حق الخطأ. وفي قمة هذا التعريف جاء حديث المعصوم «إن لم تخطئوا وتستغفروا فسيأتي الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم».

«لست عليهم بمسيطر»

ومن كرامة الإنسان عند الله أن الحرية الفردية لم يجعل عليها وصيًّا، حتى ولو كان هذا الوصي هو النبي على رفعة خلقه وكمال سجاياه. فقد قال تعالى في ذلك «فذكر إنما أنت مذكر» لست عليهم بمسيطر»، والمعنون هنا هم المشركون، الذين رفضوا عبادة الله، وعكفوا على الأصنام، يعبدونها، ويتقربون إليها بالقرابين، والمنهي عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد، الذي لم يُرد علواً في الأرض، والذي قال تعالى عنه «وإنك لعلى خلق عظيم». ومن هذا نأخذ أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين. وأن ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردي عليها. وفي الحق أن الحرية الفردية حق أساسي يقابله واجب هو حسن التصرف في ممارستها. ولما كان مجتمع المؤمنين قاصراً عن الارتفاع إلى ممارسة الحرية الفردية في الاختيار والعمل فقد جعل النبي وصيًّا عليهم ليعدهم لتحمل مسؤولية الحرية الفردية المطلقة، وهو أثناء وصايته عليهم يصبر على إعطائهم حق الخطأ، كلما وسعه ذلك، من غير أن يشق عليهم أو يعنتهم. فهو بذلك إنما يعدهم لممارسة الديمقراطية حين يقوى عودهم، ويستحصن عقلهم. وبذلك أمر الله حين قال «فبما رحمة من الله لنت

المساواة الاقتصادية: الاشتراكية

الاشتراكية تعني أن يكون الناس شركاء في خبرات الأرض، وهي قد بدأت منذ أن بدأ المجتمع، فإنها صنو الرأسمالية. وكانت الرأسمالية، ممثلة في الملكية، هي النظام الذي نشأ عليه المجتمع، ولقد تطورت الرأسمالية إلى أن وصلت معناها العلمي الحاضر، وكذلك تطورت الاشتراكية، وإنما كان تطورها أبطأ من تطور الرأسمالية لأن الرأسمالية تعتبر مقدمة طبيعية لها، ولا يمكن للاشتراكية أن تسبق الرأسمالية. ثم إن الاشتراكية نتيجة حكم القانون الذي يرعى حق الضعيف، في حين أن الرأسمالية نتيجة قانون الغابة الذي يعطي الحق للأقوياء، ويتقاضاه لهم، وبطبيعة النشأة، فإن قانون الغابة مرحلة سابقة لمرحلة قانون العدل، والمرحلة.

ولقد ظهرت الاشتراكية في جراثيمها البدائية في صورة الحسد، أو الغبطة التي تعتمل في صدر «الماعندهم ضد العندهم». فقد كان محسوداً الذي يوفق إلى سلاح حجري يمتاز بالخفة، والقوة، والحدة. والذي يوفق إلى كهف حصين، وفسيح، والذي يوفق إلى زوجة جميلة، ومُحِبَّة، ومطبعة، وقوية، وهكذا. ولقد دفع هذا الحسد إلى الصراع التاريخي بين «الماعندهم والعندهم». ولا يزال هذا الصراع محتدماً، ولن ينفك، حتى تتم المساواة المطلقة بين الناس في خبرات الأرض.

وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع الطويل المربك كانت الاشتراكية في مرحلتها البدائية، وهذه تعني المشاركة في الخيرات التي لا تضيق بأحد، ولا يقع عليها الحوز. ولقد عبّر المعصوم عن هذه حين قال «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلاً والنار». وفي هذا الحديث إشارة رصينة إلى وجوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الخيرات باستغلال الموارد الطبيعية والصناعية. وإنما دخلت الاشتراكية في الطور العلمي مؤخراً، وبرزت، واستحوذت على اهتمام الناس، وأصبحت في أيماننا هذه يدعيها الذين يعنونها، والذين لا يعنونها، وذلك لفرط تعلق الشعوب بها.

من روبرت أوين إلى كارل ماركس

ولقد بدأ في أوائل القرن التاسع عشر استخدام اصطلاح «الاشتراكية» و«الشيوعية» في كل ما له صلة بفكرة الملكية العامة للعقار. وقد استخدم اصطلاح «الاشتراكية» في إنكلترا في حوالي عام ١٨٢٠، ولأول مرة، بواسطة روبرت أوين، وهو صانع ثري،

لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين».

وهذه آية الشورى، والشورى، حيث وردت، سواء في هذه الآية، أو في قوله تعالى «والذين استجابوا لربهم، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون» فليست آية ديمقراطية، وإنما هي آية تنزلت من آية الديمقراطية لتعد الناس ليستأهلوا الديمقراطية، حين يجيء أوانها. فالشورى ليست أصلاً، وإنما هي فرع، وهي ليست ديمقراطية، وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعد الأمة لتصبح ديمقراطية. والأصل في الديمقراطية آيتا «فذكر إنما أنت مذكر / لست عليهم بمسيطر».

وبنفس هذا القدر، الزكاة ذات المقادير ليست اشتراكية، وإنما هي رأسمالية. وآيتها «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم، وتزكّيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم». ليست أصلاً، وإنما هي فرع. والغرض وراءها إعداد الناس نفسياً، ومادياً ليكونوا اشتراكيين، حين يجيء أوان الاشتراكية. والآية الأصل، التي تنزلت منها آية الزكاة ذات المقادير، هي قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ولقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك.

الشورى ليست أصلاً. وإنما هي فرع. وهي ليست ديمقراطية. وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعد الأمة لتصبح ديمقراطية. والأصل في الديمقراطية آيتا «فذكر إنما أنت مذكر / لست عليهم بمسيطر».

ولما كانت الرسالة الثانية تقوم على الارتفاع من الآيات الفرعية إلى الآيات التي هي أصل، والتي جرى منها التنزل إلى الفروع لملازمة الزمان، والملاءمة طاقة المجتمع، المادية، والبشرية، فقد وجب الارتفاع بالتشريع، وذلك بتطويره ليقوم على آيات الأصول، وكذلك يدخل عهد الاشتراكية، وعهد الديمقراطية. وينفتح الطريق إلى تحقيق الحرية الفردية المطلقة بالممارسة في مستوى العبادة، ومستوى المعاملة. وهذه هي شريعة المسلمين. شريعة الأمة المسلمة التي لما تأت بعد، وقد أصبحت الأرض تنهياً لمجيئها. فعلى أهل القرآن أن يمهّدوا طريقهم، وأن يجعلوا مجيئهم ممكناً، وميسراً، وهذا ما من أجله كتب هذا الكتاب.

وبين مذهبه هو، ويسميه الاشتراكية «العلمية» أو «الشيوعية». ونحن عندما نتحدث عن الاشتراكية العلمية، أو عن الشيوعية، فيما ندعو إليه، لا نريد مذهب ماركس هذا، بل إننا لنعلم أن اشتراكية ماركس ليست علمية، وإنما هي متورطة في خطأ أساسي، ليس هذا المقام مقام الخوض فيه، وإنما سنخوض في تبيانها عند الكتابة عن «الإسلام ديمقراطي اشتراكي» الذي سيصدر عما قريب إن شاء الله.

الحد الأدنى لجميع المواطنين

فالاشتراكية العلمية، عندنا، تقوم على دعامتين اثنتين، وفي أن واحد: أولاهما زيادة الإنتاج، من مصادر الإنتاج، وهي المعدن، والزراعة، والصناعة، والحياوان. وذلك باستخدام الآلة، والعلم، وبتجويد الخبرة الإدارية، والفنية. وثانيتهما عدالة التوزيع، وهي تعني، في مرحلة الاشتراكية، أن يكون هناك حد أعلى لدخول الأفراد، وحد أدنى. على أن يكون الحد الأدنى مكفولاً لجميع المواطنين، بما في ذلك الأطفال، والعجائز، والعاجزون عن الإنتاج، وعلى أن يكون كافياً ليعيش المواطن في مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية. وأما الحد الأعلى للدخول فيشترط فيه ألا يكون أكبر من الحد الأدنى بأضعاف كثيرة حتى لا يخلق طبقة عليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة ذات الدخل الدنيا. ومن أجل زيادة الإنتاج وجب تحريم ملكية مصادر الإنتاج، ووسائل الإنتاج، على الفرد الواحد، أو الأفراد القلائل في صورة شركة، سواء كانت شركة إنتاج، أو شركة توزيع. ولا يحل للمواطن أن يملك، ملكاً فردياً، إلا المنزل، والحديقة حوله، والأثاث داخله، والسيارة، وما إلى ذلك مما لا يتعدى إلى استخدام مواطن استخداماً يستغل فيه عرقه لزيادة دخل مواطن آخر. والملكية الفردية، حتى في هذه الحدود الضيقة، يجب ألا تكون ملكية عين للأشياء المملوكة، وإنما هي ملكية ارتفاق بها، وتظل عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها.

ثم إنّه كلما زاد الإنتاج من مصادر الإنتاج اتجهت عدالة التوزيع إلى الاتقان، وتقريب الفوارق، وذلك برفع الحد الأدنى، ورفع الحد الأعلى، على السواء. لكن رفع الحد الأدنى يكون نسبياً أكبر من رفع الحد الأعلى، وذلك بغية تحقيق المساواة المطلقة. وعند تحقيق المساواة المطلقة بفضل الله، ثم بفضل وفرة الإنتاج، تتحقق الشيوعية، وهي تعني شيوع خيرات الأرض بين الناس.

ويعتبر مؤسس الاشتراكية الحديثة. ولقد كان يؤمن بإمكان تحقيق التحسين الاجتماعي عن طريق الوسائل الاختيارية، والدستورية الوثيدة، والمستقرة، التي تجنب الشعوب الشرور التي تسير في ركاب التغييرات الثورية العنيفة، وبخاصة سيئة الإعداد منها.

الاشتراكية العلمية عندنا تقوم على دعامتين اثنتين أولاهما زيادة الإنتاج وثانيتهما عدالة التوزيع

وكلمة «الشيوعية» مشتقة من كلمة لاتينية معناها «عام» أو «مملوك للجميع». ولقد استخدمت في أول الأمر حوالي عام ١٨٣٥ بواسطة الجمعيات الثورية السرية الفرنسية التي كانت ترمي إلى قلب الطبقة الوسطى بالعنف، ثم السيطرة على فرنسا، بهدف إنشاء اقتصاد يكون فيه جميع المتاع المنتج مملوكاً للشعب، وتكون فيه طبقة العمال هي العنصر الحاكم.

ودخل كارل ماركس في الصورة، وأخذ يدرس ويرصد ويطور أفكاره على أساس النظريات، والتطبيقات الاشتراكية، والشيوعية المختلفة، ولقد فضل اصطلاح «الشيوعية»، فاختاره ليصف به أفكاره، لأن هذا الاصطلاح كان مرتبطاً بفكرة تغيير المجتمع بالعنف. وكان ماركس يقيم مذهبه على أربعة مبادئ:

- مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصادية.
- التاريخ ما هو إلا سجل لحرب الطبقات.
- الحكومة ما هي إلا أداة تستخدمها طبقة في اضطهاد طبقة أخرى.
- العنف والقوة هما الوسيلتان الوحيدتان لتحقيق أي تغيير أساسي في المجتمع.

وعلى هذه المبادئ، ووفاء بها، ظل ماركس، منذ كتاباته الأولى، يهاجم بإلحاح التجارب الاشتراكية، كالتي كان يراها روبرت أوين، ويصفها بأنها غير علمية، وغير واقعية، لأن التاريخ، كما هو واضح في رأيه، قد سار على قوانين علمية قاسية، وأن تغييراً اجتماعياً جوهرياً بغير طريق القوة والعنف لا يمكن أن يتم. ولهذا فقد سخر باعتقاد أوين وغيره من الاشتراكيين بإمكان إصلاح اجتماعي عن طريق الزمالة، والتعاون، والتطور الوثيد. وكان يسمى عملهم هذا الاشتراكية «المثلى» ويهتم كثيراً بالتفريق بينها

يحققها الإسلام بمجيء أمة المسلمين، ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها، وتتم نعمة الله على سكانها، ويحل في ربوعها السلام، وتنتصر المحبة.

فالشيعوية إنما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار. فكان الاشتراكية إنما هي طور مرحلي نحو الشيوعية.

حين يحدثنا القرآن عن الجنة إنما عني أيضاً النموذج المصغر للجنة الكبرى الذي يتحة فـ في هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين

٥ - المساواة الاجتماعية: محو الطبقات والفوارق هذه أصعب المساويات تحقيقاً، وتعتبر المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية مقدمة لها، وهي تتويج لهما، وخلاصة، وقمة. وهي لم تتحقق للإنسانية إلى يوم الناس هذا، ولن تتحقق في المستقبل إلا بالجهد الشاق، والتربية، والتعليم، لتصحيح، وتغيير ما هو كالتطبيعي في المسلك الإنساني. وهي بذلك أرقى إنتاج المدنية في جميع العصور. إذ المدنية إن هي إلا محاولة تبعد الإنسان عن نزعاته الحيوانية الدنيئة، وتقوده إلى مستوى أعلى من الخلق، حيث يستبدل قانون الغاية - قانون العنف، والسيطرة بالقوة - بقانون العدل، والحق، والمرحمة - فيدخل بذلك التحسين في نوع العلاقات البشرية، فيحل الرضا محل القوة، والعدالة محل الاستغلال، والحرية محل الكبت، والعاطفة المتسامية بالعقل القوي، محل العاطفة الناضبة. (...)

ضد الفوارق والتمييز

موضوع المساواة الاجتماعية هو الفرد البشري، كما كان الأمر في شأن المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية. فإن الفرد البشري، كما سبقت الإشارة إلى ذلك مرات، هو الغاية وراء كل سعي جماعي. هو غاية وسيلتها الإسلام والقرآن، وهما أعظم الوسائل المنهجية على الإطلاق. ووسيلته أيضاً المجتمع، وهو أعلى ما أنتجته الإنسانية إلى اليوم. والفرد الذي هو غاية هو الفرد البشري، من حيث هو بشري. حتى وإن كان أحمق. فإنه يجب ألا يجعل وسيلة إلى شيء سواه. ومن أجل ذلك وجب ألا تقوم بين الأفراد فوارق من جرّاء المولد، أو العنصر، أو اللون، أو العقيدة، أو الجنس من الذكورة والأنوثة. قال تعالى في ذلك: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير»، وقوله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» يعني إنما تكون الكرامة بالعلم والخلق. فإن التقوى علم وعمل بمقتضى العلم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى «إن الله عليم خبير». «عليم» إشارة إلى العلم. «خبير» إشارة إلى التصرف بالعلم. وقال المعصوم «الناس لأدم وأدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولقد عاش المعصوم الشيوعي في قمته حين كانت شريعته في مستوى آية الزكاة الكبرى «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ولقد فسّر العفو بما يزيد عن الحاجة الحاضرة. وحديثه عن الأشعرين في مستوى الشيوعية، وذلك حين قال «كان الأشعريون إذا أملقوا، أو كانوا على سفر، فرشوا ثوباً، فوضعوا عليه ما عندهم من زاد، فاقتسموه بالسوية، أولئك قوم أنا منهم وهم مني». وهذا هو فهم الأمة المسلمة التي لما تجي بعد. ولقد أدرك هذا الفهم أصحابنا الصوفية وذلك حين تصوّروا جميع الأرض، وما عليها من خيرات، كمائدة أنزلها الله على عباده، وأمرهم أن يرتفقوا منها بزاد المسافرين، ويواصلوا سيرهم إليه. فهذه الأرض، مثلها عندهم مثل المائدة، وضعت للأكلين، وعليها اللحم، والخبز، والخضر، والحلوى، وجلس إليها عشرة رجال، فإن كل ما عليها هو على الشيوع بينهم، ولا تقع لك الملكية الفردية لقطعة لحم منها، إلا حين تحتويها أصابعك، وتبدأ رحلتها إلى فمك.

الشيوعية يحققها الإسلام

وحين يحدثنا القرآن عن الجنة «وقالوا الحمد لله الذي صدّقنا وعده، وأورثنا الأرض، نتبوا من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين» إنما عني أيضاً النموذج المصغر للجنة الكبرى، الذي يتحقق في هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين «تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» على حدّ التعبير النبوي الكريم. وهو ما داعب خيال ماركس وضلّ الطريق إليه كل الضلال، ولن يبلغه إلا المسلمون الذين لما يأتوا بعد. وحين يأتون سيتحقق في الأرض طرف من قوله تعالى «إنّ المتقين في جنّات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ، إخواناً على سرر متقابلين. لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين». وهذا الطرف هو الشيوعية التي



وعدم التمييز الاجتماعي ضد الضعيف، ومحو الفوارق التي قامت على قانون الغابة بين الأفراد والطبقات هو عمل التمدين الأكيد، فإذا وجدت مجتمعاً للمضعفاء فيه حقّ محفوظ، وكرامة مرعية، وإذا وجدت مجتمعاً للنساء فيه حرية، وحرمة، وتشريف، وللأطفال فيه حقوق، وله بهم عناية، وعليهم رحمة، ولهم فيه محبة، فاعلم أنه مجتمع متمدّن، ومتحضّر.

**أن المرأة حين تعد لتكون أما بأن تعلم كل ما
يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المتشعبة لا تفـ
خدمتها للمجتمع في نظر المجتمع عن خدمة أخيها.**

والأسرة هي المجتمع الأول، وفيها تعلّم، ولا يزال يتعلّم، الفرد النظام، والسلوك الاجتماعي النظيف، واحترام القانون، وتوقير السلطة، والتعاطف، والتسامح، والمحبة. ولا تزال للأسرة مقدرتها الفائقة على تربية الأفراد التربية التي تكون بعيدة الأثر، في حياتهم الفردية، وحياتهم في مجتمعهم الصغير، وفي مجتمعهم الكبير، حين يبرزون إليهما، وعماد الأسرة الأم، وهي ملكة المملكة الصغيرة، ولكن مع شديد الأسف فإن الاعتراف بها لم يتفق للأسرة البشرية إلى اليوم. فإنها كانت، ولا تزال، مضطهدة، وكان، ولا يزال، دورها في بيتها دور الخادمة. ولهذا الوضع شؤد العواقب على تنشئة الأطفال، مما يترك عميق الأثر في حياة المجتمع برمته وفي جميع مستوياته.

التعليم مسار تطوّري

ولقد أسلفنا القول في هذا الكتاب عن أمر المساواة المطلقة بين الرجال والنساء مما لا نحتاج إلى إعادته في هذا الموضع، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنّ أمر المساواة الاجتماعية لا يجيء عفواً، وكأمر طبيعي للتطوّر. بل لا بد فيه من التخطيط، والتطوير الذكي للمجتمع، ذلك بأنه يحتاج إلى تعليم، ويحتاج إلى تربية. والتعليم غير التربية، فإنّ غرض التعليم إكساب الفرد الخبرة المهنية التي تجعله مفيداً للمجتمع في الميدان الذي خلق وهو مستعدّ له بما ركز في فطرته من موهبة، وهو ضروري ليسلّح الأفراد بالقدرات العلمية، والفنية، والإدارية، والتكنولوجية، لتنمية حضارة مجتمعهم، وللتسامي بها في مراقبي الكفاءة والكفاية، وفي

التعليم يقع التخصص، ويقع التمييز، ويسود الاتجاه إلى التخطيط لإنجاب حاجة المجتمع - فيه يقع التمييز بين الرجال، والنساء، ويقع التمييز بين الرجال، والرجال أيضاً، ذلك بأنه إنما يرمي إلى تنمية، وتغذية الموهبة عند كل موهوب، حتى يخدم مجتمعه في الميدان الذي خلق وهو مستعد له استعداداً فطرياً، بيد أن هذا التمييز الذي يقع في ميادين الإعداد لخدمة المجتمع المدنية لا يحمل معه أي امتياز اجتماعي ترتفع به، تلقائياً، مكانة فرد فوق فرد آخر. وفي هذه النظرة، التي تتجه إلى إعداد المواطنين

بطريقة إنسانية، وبنام، ويجلس، ويتحدث، ويتصرف في جميع شؤون، العامة والخاصة، بطريقة إنسانية ومهذبة، فلا يعرض مبادئه، ولا يبد منه ما يؤدي السمع، ولا البصر، ولا العقل، ولا القلب. وهو لا يبصق في الأماكن العامة النظيفة، ولا يتبول، ولا يتغوط، في الأماكن العامة. ولا يرمي الأوساخ، والقاذورات، في الأماكن النظيفة على الطرقات. وهو، على العموم، يحاول، بجهد الطاقة، أن يترك كل شيء على صورة أحسن من التي وجده عليها. ويجب أن يعدّه لكل أولئك التربية. التربية في المدارس، وفي النوادي، وفي الأماكن العامة، حيث يجري التثقيف، والتعليم، للشعب، كل حين، وبغير انقطاع، وبكل وسائل الإعلام التي تستطيع الدولة أن توفرها، من إذاعة، وتلفزيون، وسينما، ومسرح، وصحافة، وكتب، ومجلات، ومحاضرات، وأنواع التسجيل المختلفة، لأنواع الفنون المختلفة، حيث توجه الدولة كل إمكانات المجتمع لإنجاب الأفراد الناضجين، وذلك بتوحي النهج التربوي السليم. فإن مشاكل المجتمعات كون أغلبية الأفراد إما مراهقين، أو أطفالاً. ويقل فيها الأفراد الناضجون الذين يقعون على مواجهة الحقيقة، (والأطفال يتابعون مبدأ اللهو، وهو مبدأ يجعل الإنسان يتصرف مدفوعاً بأهوائه ورغباته، ويحاول أن يحقق أية رغبة عند ظهورها، دون أن يوازن بين رغبة وأخرى وينقذها، ويقترب الجري وراء هذا اللهو الوقتي المباشر بتجنب ما قد يسبب الفشل، أو الألم، أو الإنكار، ومسلك كهذا ينشأ من الفشل في التمييز بين الرغبات المتنازعة على أساس معقول طويل المدى. وغالباً ما يحلّ التمتي محل ما هو محتمل أو مرغوب فيه) وليس هناك مخرج إلا عن طريق التربية.

والتربية، بخلاف التعليم، لا يقع فيها التخصص، ولا التمييز بين الرجال والنساء، وإنما هي حق أساسي لكل فرد بشري، وهي تشمل حتى الأطفال، ولا تحدّ إلا بطاقتهم على التلقي، والإدراك، والتنفيذ.

والقاعدة الذهبية في التربية هي أن تضع الأفراد أمام المسؤولية وأن تُعينهم، بكل الوسائل، على تحمل المسؤولية، ذلك بأن غرض التربية هو إنجاب الأفراد الناضجين. هو إنجاب الرجال، من الأطفال، ومن المراهقين، الذين تعج بهم المجتمعات عجباً. والفارق بين الأطفال والمراهقين، وبين الرجال هو أن الرجال يتصرفون بحرية، ويتحملون مسؤولية تصرفهم، بينما الأطفال والمراهقون يتركون التصرف خوف المسؤولية، أو يتصرفون ويحاولون الهروب، تحت الظلام، من مسؤولية تصرفهم.

القاء تض تعينهم. بكل الوسائل. على تحمل المسؤولية.

إعداداً مهنيّاً بواسطة برامج التعليم الموجه، قيمة المرأة غير قيمة الرجل، ولكنها قيمة مساوية لقيمتها. بمعنى أن المرأة، حين تعدّ لتكون أمّاً، بأن تعلم كل ما يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المتشعبة، لا تقلّ خدمتها للمجتمع، في نظر المجتمع، عن خدمة أخيها الذي يعدّ ليكون مهندساً، أو طبيباً، أو مشرعاً. وليس لإعداد الأمومة الصالحة حدّ تقف عنده، فإنّ الفتاة كلما علمت كلما زادت كفاءتها في ميدان الأمومة نفسها. ومن أجل مصلحة المجتمع يجب أن يعلم كل فرد عملاً يتقنه باليد وبالعقل، وهو كذلك من مصلحة الفرد نفسه، لأنّ الإنسان لا تنضج قيمه الفكرية، ولا قيمه الخلقية، إلا إذا كان يحب العمل اليدوي، ويتقن طرفاً منه إتقاناً حسناً، ذلك بأنّ الترقّي جميعه إنما هو علم، وعمل بمقتضى العلم. قال تعالى في ذلك «إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه». كل هذه المسائل تدخل في غرض التعليم.

التربية تحرير للمواهب

وأما غرض التربية فهو تحرير المواهب الطبيعية: العقل، والقلب، من أسر الأوهام، والأباطيل. فبسلامة القلب من الخوف، وصفاء الفكر من الأوهام، تتحقق حياة الفكر، وحياة الشعور، وهي غاية كل حي. وهي مهمة التربية. وللتربية وظائف كثيرة هي في جملتها نقل الإنسان من الاستيحاش إلى الاستيناس، حيث تصبح عاداته جميعها إنسانية، ومهذبة. فهو يأكل بطريقة إنسانية، ويشرب

قصة حوار لم يتم

في العام ١٩٩٠، في باريس، اقترح محمود درويش على أدونيس أن تجري مجلة «الكرمل» مقابلة معه ضمن سلسلة من المقابلات مع الشعراء العرب. وسأل محمود أدونيس إذا كان يفضل احداً أن يجري المقابلة، فاختارني أنا. وكنت حينها في عداد أسرة تحرير «الكرمل». ترددت أول الأمر، على اعتباري لست شاعراً ولا ناقداً أدبياً بأي معنى احترافي. لكني فكرت أنه إذا كان أدونيس قد اختارني فهو يحسد أننا سوف نجري مقابلة سجالية غنية متعددة المواضيع وناجحة. أقول سجالية لأنه كان دوماً يدعوني «صديقي اللدود» لكثرة ما بيننا من خلافات عقيدية وسياسية وأدبية. وافقت متهيّباً.

قلت لأدونيس نلتقي على كأس عرق. نضع مسجّلة بيننا ثم ننطلق. قال: موافق وستكون المقابلة مناسبة عيد ميلادي الستين وأختم بعدها اعطاء مقابلات صحافية.

لم يكن شعر أدونيس ولا آراؤه بغريبة عني منذ أيام الدراسة الثانوية. مع ذلك، أعطيتني مهلة لا بأس بها للإعداد، قرأت خلالها القسم الأكبر من أعمال علي أحمد سعيد الشعرية، وكثرة من مقابلات ودراسات له وعنه في الصحف. ووضعت بضع عشرات من الأسئلة علي أن تضاف إليها أسئلة ثانوية خلال المقابلة. ولما حان وقت المقابلة أبلغني أدونيس، وكان موظفاً في «الأونيسكو» حينها، أنه يفضل قراءة الأسئلة أولاً ثم نتوسع بواسطة الحوار الشفهي.

سلمته قائمة الأسئلة ولما قرأها هاتفني قائلاً إنه يفضل الإجابة عنها خطياً. بعد أيام استدعاني وسلمني إجاباته المكتوبة، ولست متأكداً ما إذا سلمني إياها أو تركها عند سكرتيرة في المكتب. المهم أن المقابلة الشفوية لم تحصل.

قرأت الأجوبة وفوجئت بالتسرّع والسلبية في الأجوبة، وقد اختتمت المقابلة بنص يتساءل فيه لماذا صديقي ظلمني / وهاجمني، وفيها تحسر ولوم على الصديق الذي هو أنا.

أيقنت أن الأسئلة قد بدت له سلبية بل مستفزة، وأن المقابلة لم تكن ناجحة. سلمت المخطوطة، وكانت بخط اليد، لمحمود مع الملاحظة أنني أعتبر المقابلة فاشلة ولا تليق بأدونيس، وتركت له حرية القرار بالنسبة إلى النشر. في اليوم التالي هاتفني محمود ليبلغني أن أدونيس اتصل به طالباً استرداد المقابلة والامتناع عن نشرها. وأردف محمود: أمل أن تكون لديك نسخة عن المقابلة للذكرى.

لم يخطر في بالي أن أنسخ المقابلة بالمرة. وهكذا ضاعت أجوبة أدونيس على تلك المقابلة التي لم تتم. ما بقي منها الأسئلة، وقد رفقتها على كومبيوترتي ذي الأحرف العربية.

وقعتُ على الأسئلة منذ فترة. قلت لنفسي لماذا لا أنشرها في «بدايات» لأستطلع آراء القراء عن مدى جديتها ولاءمتها لشخص أدونيس وشعره وأفكاره.

لا يقتصر الأمر على ذلك، نشر أسئلة المقابلة التي لم تحصل بمثابة تجديد العرض على أدونيس لكي يجيب عنها، مع الاستعداد طبعاً لنشر أجوبته، دون أدنى تدخل، على صفحات المجلة.

فواز طرابلسي

الممنوعات اللغوية والعديّات الشعبية

نجلا جريصاتي خوري

كاتبة وباحثة في
الثقافة الشعبية، من
أعمالها «عديّات
وعديّات» (٢٠٠٩)،
«حكايات وحكايات/
حكايات شعبية من
لبنان» (٢٠١٤)،
«يا ريتي عصفور»
(٢٠١٥).

سأنتقل في هذه المداخلة من تجربتي في إعداد كتاب: «عديّات وعديّات» («دار قنبر» و«جمعية السبيل»، بيروت ٢٠٠٩)، وفيه نشرت مجموعة كبيرة من العديّات الشعبية للأطفال، كانت ثمرة جهد تجميعي استغرق العديد من السنوات.

عملي في هذا الكتاب، وفي مجالات الحكاية الشعبية، طرح أمامي مشكلة العلاقة بين الممنوع والمسموح، خصوصاً أن الأدب الشعبي متغلّت في طبيعته من كل أشكال الرقابة، ولا يراعي الممنوعات والمحرمات، غير أن عملي الذي يجمع بين المستويين التوثيقي والتربوي، دفعني إلى التأمل في معنى الممنوع اللغوي ومستوياته وأطره، في النشر والعمل التربوي والحياة اليومية.

تعالج ورقتي هذه الممنوعات في مستوياتها الثلاثة: العيب والحرام والخوف من المجهول. ثم تحلل التعامل معها بحسب البيئة الاجتماعية والجنس والموقع، لتصل إلى استخدام البدائل على مستويات اللغة والتعبير الجسدي والتشويه اللفظي.

في النهاية، سأطرح أسئلة تنطلق من تجربة اضطرابي رغم موقفي المبدئي القائم على رفض الممنوعات اللغوية، والحرص على التعامل مع الأدب الشعبي بصفته كنزاً اجتماعياً حياً ومتجدداً - إلى القيام برقابة ذاتية غير صارمة، من خلال امتناعي عن نشر عدد من العديّات في كتابي، لأسباب شتى، غير أن سبب الأسباب، إذا جاز لي استخدام هذا التعبير، هو انتقال النص الشعبي من الشفوي إلى المكتوب والمطبوع.

إذ إنّ الكتابة والنشر يفرضان حرماناً تتعلّق بالنص الاجتماعي، وليس فقط بالرقابة التي تمارسها السلطات في العالم العربي. فالكتابة تفرض نوعاً من الحفر ومراعاة ما نطلق عليه اسم احترام ومراعاة

السلوك الاجتماعي. إن رفضي الشخصي لهذا المبدأ، واقتناعي بأنّ من حقّ الشفوي أن يكتب، وخصوصاً إذا كان وثيقة تنتمي إلى عالم الأدب الشعبي، الذي نشأ ولا يزال يتشكل في الإطار الشفوي، فرض عليّ مسألة أخرى هي المسؤولية التربوية، التي عليّ الالتزام بشروطها. وهذه مسألة تحتاج إلى دراسة مستقلة، وإلى التمييز بين الوثيقة والنص الموجه للأطفال والمربين، أو تحتاج إلى وعي تسامحي، يقبل بشروط اللعبة كما هي، ويضع جانباً جميع الاعتبارات لمصلحة الحقيقة.

بدأت علاقتي بالعديّات مع دخولي في تجربة الأمومة. فالطفل حديث الولادة في حاجة إلى كلام وإيقاعات قصيرة، تساعد الأم على نسج العلاقة معه من خلال اللغة. فاستعنت بذاكرتي، وبعديّات طفولتي. لكن الذاكرة تنسى، ووضعني كهمجرة اضطرتها الحرب الأهلية إلى الانتقال من الأشرفيّة إلى عائشة بكار، وتقطع أوصال علاقتي الاجتماعية القديمة، دفعني إلى طرح الأسئلة على جاراتي الجديّات عن العديّات التي يتذكرنها، فبدأت رحلتي غير المبرمجة لتسجيل هذه العديّات التي تحوّلت مع الوقت والجهد إلى مشروع كتاب.

وقد ترافق هذا المشروع مع عملي في فرقة «صندوق الفرجة» التي أسستها عام ١٩٧٩، وهي فرقة مسرحيّة تقدّم عروضاً للدمى وخيال الظلّ. استمرّت إدارتي لهذه الفرقة عشرين سنة، قدّمت خلالها عروضاً مستوحاة من الحكايات الشعبيّة الشفويّة. وبدأت بتسجيل الحكايات من الناس لهذا الهدف، فاكشفت أهميّة الحكايات الشعبيّة، وبدأت عملاً منهجياً في تدوينها، وكانت نتيجة هذا العمل كتابي: «حكايات وحكايات، حكايات شعبية من لبنان»، (دار الآداب، بيروت ٢٠١٤).

اندمج العملاق، العديّات والحكايات في مقترَب

واحد، هو جمع وتحرير هذا التراث الشعبي الهائل الغني والمتنوع والجميل، من أجل وضعه في خدمة الأطفال في لبنان والمنطقة العربية. لعل الحكاية والأغنية والعديّة تفتح أفقاً من الأمل، في بلاد تتعرض لعواصف من النكبات المتلاحقة.

أريد أن أعترف بأن هذين الكتّابين ما كانا ليريا النور لولا تجربتي خلال حرب تموز ٢٠٠٦. ففي وسط القصف الإسرائيلي الوحشي، حاولت مع زميلتي جمانة بحلق القيام بعمل تربوي ترفيهي للأطفال في المدارس العامة التي صارت مأوى للمهجرين من الجنوب والضاحية الجنوبية.

في هذه التجربة الصغيرة اكتشفت أن أطفالنا يعيشون انقطاعاً عن تراثهم الشعبي. وعندما أردنا إقامة نشاط مع الأولاد على إيقاع أغنية يعرفها الجميع، اكتشفنا أن الأغاني التي يحفظونها هي الأغاني الرائجة للمطربات والمطربين المعاصرين، أو الأغاني الدينيّة والوطنية، ولا علاقة لها بأغاني الأطفال وبالتراث الغنائي اللعبي الذي نجده في العديّات.

استخدم دامت كلمات العيب والكلمات النابية والشتائم في النكات والمسرح الكوميدي يتزايد لا سيما على شبكات التواصل الاجتماعي. حيث يتحول العيب إلى مادة للفكاهة ولحظة مثيرة للضحك.

هكذا وجدت أنّ من الضروري نشر العديّات التي جمعناها، وهو مشروع تبنته «جمعية السبيل، أصدقاء المكتبات العامة» عبر الزميلة نوال طرابلسي، ونشرته دار قنيز في كتاب جميل.

خلال عملي على تصنيف العديّات وكتابة حواشي الفصول، كان عليّ مواجهة الممنوعات اللغويّة، واتخاذ القرارات بشأنها، وسأقوم الآن بتصنيف هذه الممنوعات التي تنقسم إلى ثلاثة أنواع وتحليلها:

العيب

ما هو العيب؟ جاء في القاموس المحيط: «العيب: مصدر والوصمة والنجاسة وما يخلو عنه أصل الفطرة السليمة». العيب في الحياة اليوميّة هو ما يجب ألا يُقال أو يُفعل. وإذا حاولنا تحديد الذي لا يُقال في الممارسة الاجتماعيّة

السائدة، فإننا سوف نجد أن معظمه يتمحور حول أطراف الأعضاء الحميمة في الجسد، وهو يتركز حول الجسد - المتعة وليس حول الجسد - الألم. مثلاً، لعبة «القطّ المربوط» القديمة، تغيّرت تسميتها إلى «القرود المربوط» ومن ثم إلى «السعدان المربوط»، قبل أن تختفي، وذلك بسبب الالتباس بين هذا الحيوان وفرج المرأة.

كذلك قد يتخذ العيب شكلاً آخر مرتبطاً بالقيم الأخلاقية - الاجتماعيّة التي دفعت صانعي الحلوى التي كان يُطلق عليها اسم «راس العبد» إلى تغييره إلى «طربوش». أما في طرابلس فلا تزال تذوّق الحلوى بتسمياتها الشعبيّة: «بيضات الملايكة» (الشميسة) و«خربة الدب» (النمّورة) و«الشلّكات» (القطايف الصغيرة بالقشدة).

أما الألم بتفاصيله، فلا يعتبر عيباً، كالاسهال (مشي البطن) أو حريق في البول، فهذه يجري الحديث عنها بإسهاب.

من جهة ثانية، تحتلّ الكلمات النابية مثل «خرا» و«طيز» وأخواتهما، حيزاً أساسياً في الممنوعات، رغم أنّها جزء من الكلام اليومي.

من نماذج تلطيف التعابير بين القواميس كلمة فرنسيّة يمكن اعتبارها للتعبّج: يترجم قاموس الروبير كلمة «زوت» (zut) إلى الإنكليزيّة بكلمة «اللعة» (damn) ويترجم (damn) إلى الفرنسيّة بكلمة (merde) أي «الخرا»، أو «الغائط» كما جاء في محيط المحيط، والعامة تقول «الخرا»، غير أنّ فريحة يتجاهلها في معجم الألفاظ العامّة. تسمية هذه اللفظة النابية في لغة الأطفال هي «كاكا» (caca)، واللافت أن «الفقّة والفقّة حدث الصبي» والحدث هو الغائط، كما جاء في «المحيط».

أما استخدام كلمات العيب والكلمات النابية والشتائم في النكات والمسرح الكوميدي، فيتزايد لا سيما على شبكات التواصل الاجتماعي، حيث يتحوّل العيب إلى مادة للفكاهة ولحظة مثيرة للضحك.

الحرام

الحرام هو ضدّ الحلال، هكذا يعرفه اللغويّون. والحرام يتركز في الكلام حول الدين بقلة احترام أو لامبالاة، وعلى الشتائم التي تدور في معظمها حول مسألتين: شتم الدين أو الخالق، والإشارة إلى الأعضاء الحميمة. القول «احترق ديني»، مثلاً، للدلالة على الإرهاق، أو «يلعن ربّه ما أحلاه» للتعبّج، «عايف دينه»، «طلع دينها»،

مثلاً، بينما تعتبر منافية للذوق إذا قيلت في نشرة الأخبار.

الممنوعات في الحياة اليومية

كيف يجري التعامل مع هذه الممنوعات اللغوية في الحياة اليومية؟

الممنوعات اللغوية جزء من لغة الحياة، لذا لا يمكن تجاهلها أو اعتبارها غير موجودة، فيجري التعامل معها بأشكال متعددة بحسب البيئة والجندر والظرف، لكن الشكل الأساسي لهذا التعامل يحصل عبر التحايل، فالتحايل لا يلغيها بل يشدّبها لفظياً أو شكلياً من دون إلغاء معانيها، وهذا يكون عبر ثلاثة أشكال:

استخدام البدائل اللفظية: لنأخذ مثلاً «الدورة الشهرية»، أي الطمث أو الحيض، فيقال «العادة الشهرية» أو «الميعاد»، أو يقال باللجوء إلى لغة أجنبية، «معي البيزئد» (period) أو «السكتائم» (sick time) أو «الريكل» (règles)، وسمعت أيضاً «شو بك؟ pms» استيقاً لسبب توتر إحداهنّ، وهذا يعني «pre menstrual syndrome»، وهو التوتر قبل الدورة الشهرية.

أو يجري اللجوء إلى لغة مبتكرة، يعيق على المستمع فكّ رموزها، مثل «الطانات روز» أو «قاطعة الصلاة»، كما تستبدل كلمة «ظظ» بـ «١٦-١٧»، وهما رقما «ط» و«ظ» في الأبجدية، أو يكون بعدم عدم لفظ المفردة الحرام، مثل «جاييتني» أو «شرّفت»، أو «عملها»، كذلك الأمر، يقال للسرطان «المرض الخبيث» أو «المرض الشنع» أو «هيداك المرض»، ويقال عن موت أحدهم مثلاً: «عطاك عمره» أو «سلم الأمانة» أو «طلع ع السما» أو «خلصوا زيتاته»، وهي كنايةات الهدف منها تخفيف وقع الكلام ومعناه، وفي النهاية يمكن اللجوء إلى استخدام مرجع لغوي آخر كالفصحى، «العق إستي! فرج شقيقتك يا شقيق الزانية! يا برازا!».

استخدام لغة الجسد: من خلال إشارات موحية، كالإشارات بالرأس تعبيراً عن اليأس من مرض أو الموت، وباليدين للتعبير عن العملية الجنسية أو عن العادة الشهرية عبر وضع اليدين على البطن، والغمزة، والابتسامة، وإشارات اليد والأصابع، نذكر منها الإشارات الرمزية الخاصة بالأطفال، مثل مدّ اللسان

«ارتحنا من دينه»، «شو دينه هيدا؟» أو «شو ربّه هيدا؟»: عبارات تستخدم إلى حدّ كبير في اللغة اليومية، لكنّها تعتبر كلاماً معيباً، كما أن كتابتها ليست مقبولة اجتماعياً.

الخوف من المجهول

يتخذ هذا الخوف شكل الأمراض المستعصية أساساً، فالإشارة إلى مرض السرطان أو إلى الأمراض الجنسية مسألة يفضّل الناس تجنّبها، كما يتخذ الموت أسماء مواربة، كي لا يجري الكلام عنه بشكل مباشر، وخصوصاً حين نتحدّث عنه للأطفال.

غير أن الشتائم لا تراعي هذا الخوف: كأن يقال «حمّى تسلقك»، «سرطان بتمك»، «بيعت لك مرض»، «الععى بعيونك»، «بلي تسترك»، «يقطع عمرك» أو «يقصف عمرك»... وسمعت أيضاً «راحك ربح ما يخلي فيك ولا عظمة صحيح!».

هذه الممنوعات اللغوية تختلف بحسب البيئة الاجتماعية والجندر والظرف.

لا وجود لأي ممنوعات لغوية في العديات كما في الأدب الشعبي بشكل عام ما دامت في الإطار الشفوي.

في البيئات الاجتماعية نلاحظ أن البيئات المدنية تتحايل على هذه الألفاظ وتمارس رقابة ذاتية عليها، بينما يكون الأمر أكثر حرية وصراحة في البيئات الريفية، في «محيط المحيط» يطلق المعلم بطرس البستاني على هذه الكلمات اسم «الألفاظ الصريحة»، كما أن استخدام هذه التعابير يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية. الطريف في هذا الموضوع أن بعض هذه الألفاظ نفسها، مقبولة اجتماعياً، شرط أن يقال بلغة أجنبية، مثل «oh putain!» بالفرنسية (يا للعاهرة) للتعجب، أو «holy shit» بالإنكليزية (الكلمة الأولى تعني القداسة، والثانية، الغائط) للتأسّف.

أمّا التعامل مع الشتائم فهو يتبع الانقسام الجندري، ففي حين يفرح الآباء بشتائم أبنائهم الذكور، بل يعلمونها لهم في بعض الأحيان، فإن استخدام الإناث للشتائم يعتبر عيباً كبيراً.

وفي النهاية فإن الظرف والإطار يحدّدان قبول هذه الألفاظ أو رفضها، فهي تقبل في برنامج تلفزيوني فكا هي

نماذج من العديّات المحذوفة

عديّات للبيبو

لَمَّا قَالُوا لِي بَنِيَّةٌ
هَبَّطَ الْبَيْتَ عَلَيَّ

طَعْمُونِي الْبَيْضَ الْمَسْلُوقَ
سَلَقُوهُ بِشَوِيَّةٍ مَيَّةٍ

لَمَّا قَالُوا لِي الْغَلَامُ
شُوفْ كَيْفَ اسْتَدَّ خَيْلِي وَقَامَ

قَلْبُوا لِي الْبَيْضَ الْمَقْلِي
وَكُلَّ السَّمْنَ فَوْقَهُ عَامَ

لَمَّا قَالُوا لِي وَلَدٌ
انْشَدَ صَهْرِي وَاَنْسَدَ

وَجَابُوا لِي الْبَيْضَ مَقْشَرًا
وَكُلَّهُ عَايِمَ بِالزَبْدِ

دَبَّةٌ كَلِي
دَبَّةٌ اشْرَبِي
خَدِي الْبِنْتَ
وَحَلِي الصَّبِي

مَيْنَ ضَرْبِكَ مَيْنَ قَالَ لَكَ شَيْ
رَيْتَهَا جَمَالُهُ مَا تَمْشِي
رَيْتَهَا مَرْتُهُ مَا تَحْبَلُ
وَمَا تَدُوقُ قَعُودَ الْكُرْسِيِّ
وَإِنْ قَالَ حِدا عَنْكَ شَيْ
رَيْتَهَا عَيْوَنُهُ مَا تَشُوفُ نَشِي
وَإِنْ قَالَ حِدا عَنْكَ مَشُومٌ
مِنْ مَنَامِهِ مَا يَبْقُومُ

يَا حَبِيبَ الْحَبُوبَاتِ
وَيَا رَفِيقَ الْمَلَايَاتِ (اللواتي يملأن الماء)

للتزريك، و«بَقْطَة» باليدَ لمتَمَيَّ السوء، و«سَنَكْف»
بالخنصر للمخاصمة، و«صالح» بالسبابة للمصالحة، و«وَزَّ
عينك»، و«نحس»، وما إلى هنالك من الإشارات المرمّزة.

التشويه اللفظي: الشائع أنَّ من المستحسن أن يقال
«ينعن» أو «ينعم» بدلاً من «يلعن»، و«ديكك» أو «ديبك»
بدلاً من «دينك». أو استبدال الكلمة الممنوعة، مثل «أكل
هوا»، بدلاً من «أكل خرا». وكلنا يعرف حكاية تهجئة
كلمة «خَرَجَ» التي صارت نكتة: «خ فتحة خا، ر فتحة را
= حازا، ج فتحة جا = خَرَجَ».

أعود في النهاية إلى تجربتي الشخصية في العمل
على كتاب العديّات لأشير إلى أنني لم أشعر بثقل
المنوعات اللغوية أو حتى بوجودها عندما كنت أستمع
إلى العديّات على لسان راوياتها. فلا وجود لأي ممنوعات
لغوية في العديّات كما في الأدب الشعبي بشكل عام ما
دامت في الإطار الشفوي.

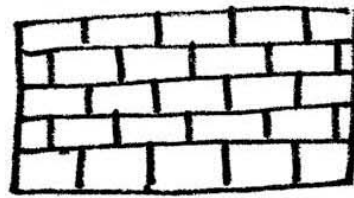
وعندما أعددت العديّات كي تطبع في كتاب، شعرت
بالانزعاج من بعض الألفاظ، فالكثابة بصفتها سلطة،
تفمع، أما الكلام فحرّ من كلّ القيود. ووجدت نفسي
مضطرة إلى اللجوء إلى رقابة ذاتية مخففة لسببين:

————— الأول هو خوفاً على الكتاب من مقصّ
الرقيب العربي، وتخوفاً من أن أؤذي دار النشر مادياً. على
الرغم من أن تجربتي مع «دار قنبر» تشير إلى جراءة الدار
وإصرارها على احترام التراث ونشر النصوص كاملة.

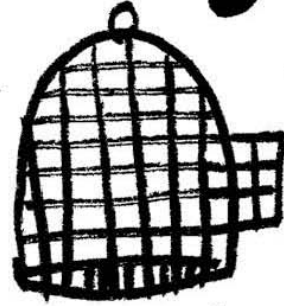
————— الثاني، سبب تربوي وشخصي. أحسست
أنّ عليّ دوراً تربوياً يقضي بحذف نصوص طائفية أو
عنصرية موجودة في تراثنا، وهذا بدافع أخلاقي أولاً،
كما شعرت بأنّ بعض العديّات الفاضحة لا مكان لها،
وربما يعود ذلك إلى سبب شخصي أيضاً، وهو نفوري
من الألفاظ النابية.

السؤال هو متى نتقبّل ويتقبّل مجتمعنا لغتنا كما
هي، ومتى نتحرّر من الرقابة الذاتية كي يكون للحرية
الكلمة الفصل في كلّ ما نقوم به ونكتبه وننشره؟ فأنا
أرى أن الحرية والشجاعة لا تنفصلان، وأنا مع تجاوز
أنفسنا وحتى تعريضها للخطر في بحثنا عن الحرية.

أنشر هنا بعض العديّات التي حذفها كي أستكشف
معكم جواباً على سؤال: «ماذا لو نشرتها؟» أو «هل كان
يجب نشرها؟».



توت

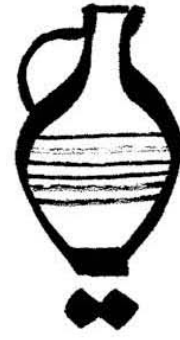


عصفور



رمان

بريق

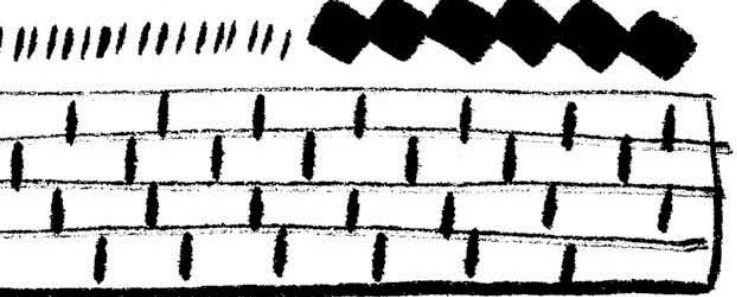


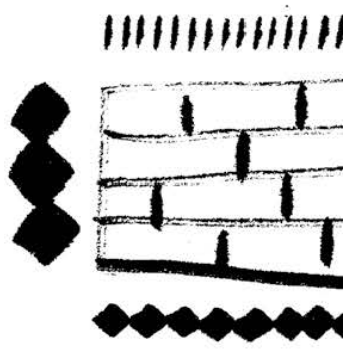
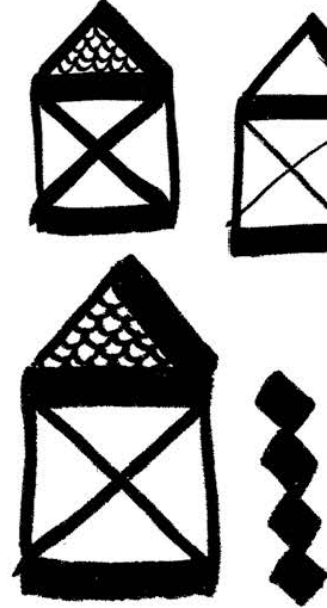
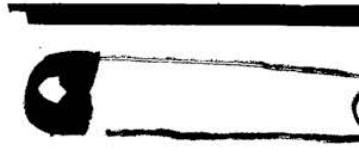
حزنة



بريق

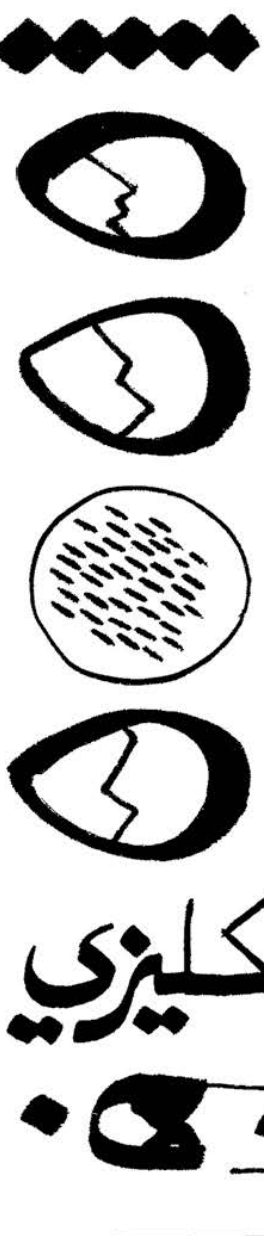
البيان





سریر
العلبة
بیض
الحط

حایه
کتاب
غزال



ويلي زوجها غايب
يروح ابني لعندها بيات
هاي بنتي ست الستات
بجوزها واحد غني

حتى يموت ويترك لها
وتجيب الورثة وترجع لي
دخلك دخلك دخل الله
انت ابريق ولا جرة

انت ابريق الفاخوري
أسمر ومدندل برا

دخلك دخلك دخل الله
انت ابريق ولا جرة

انت جرة الفاخوري
قرص مدور من جوا

عديات لجسم الطفل

على عشك طبخنا
رز وأبلما ويخنة

أكلنا لانتفخنا
وطعمينا كل الجيران

عشك عشك ضناني
إله أربع قراني

إله رف وإله رفوف
إله قرنه للغالي

فتيرك يام الفثير
كان صغير وصار كبير

وعشعوشك يلي معرش
حطيني عليه أمير

فتيرك بدّي قصه
وأعطي لسامر نصه

إله نبعة بنصه
عمالي تفور تفوير

افرحي يا ماما
وزلغطي يا جارة

الحمامة من طولها
عربشت ع الدالية

ويا بنات غنوا لها
هيدي بنتي الغالية

والهبرة هبرة قنفد
بتشقى الحيط وبتنفد

والهبرة هبرة أمير
بتبحش لنا بالبيت بير

يا جارة خبي بنتك
كبر ابني واعلمتك

بكرا رَح يخزق الحيط
ورح يفوت لعند بنتك

بكرا بيخطف لك اياها
وبتصير بنتك مش بنتك

عديات لتنويم الطفل

نيمتك بسرير حديد
خفت عليك من العبيد

هزي له يا أم شديد
بركي على صوتك بينام

نيمتك بسرير العود

خفت عليك من اليهود

غثي لها يا أم مسعود
بلكن على صوتك بينام

عديات اختيار اللاعبين

نور نور تحت التوت
معهم صبي عم يموت

حطوا راسه بالعبه
وقبروه بالتربة

عديات وألعاب كلامية

بدوية حيزك ميزك
والبرغوت يقرص ... طيزك
بدوية حيزك ميزك
والعصفور ينقر ... بزك
بدوية حبسك مسك
والله يخلي لك ... كسك

عديات التضامن

دبوس انكليزي ... يويو

يغرس بطيزي ... يويو

دبوس الإبرة ... يويو

يغرس بزبري ... يويو

عديات الحرقصة والتزيك

يا صايم رمضان
يا موحد ربه

كلبتنا البيضا
تبوسه على خده

يا فاطر رمضان
يا مقلل دينك

كلبتنا السودا
تسحب مصارينك

المفطر كلب مشخر
والصايم غزال نايم

والمفطر هلق هلق
بتمه كلب معلق

والمفطر هالساعة
بتمه بزاقة

عديات المواسم

الزبرة من زبارتها
وامها تدق بهارتها

وبيها شمّر ووقف
ع قطش دندولتها

والزبرة من زباريها
والرحمن يداريها

والشعر النبات فيها
كله خوخ ورمانة

يلبي بتعطي بالكمشة
انشا الله تعمى وما تمشي

ويلبي بتعطي بالحفنة
انشا الله بتموت مندفة

من شعر طلال حيدر «يا ناظرين التلج!»

طلال حيدر

شاعر بالعامية
والفصحى، لبنان.
من أعماله ديوان
«آن الاوان» (١٩٩١)
غنّت له فيروز
ومارسيل خليفة
وغادة غانم.

فَخَارَ

نَيَّالَ فَخَارَا لَهَا جَرَّةُ
فَرَحَانٍ عِنْدُو عَيْدُ
بِيشْرَبْ عَ طُولِ نَبِيْدُ
وَمِدْرِي خَدُوْدُو لَيْسَ مَحْمَرًا
تَخْمِينِ بُوْسْ شَيِّ مَرَا سَمْرَا
نَمَّا غَفِي عَ تَمَّ هَا جَرَّةُ

شو كنت يا فخار قبل بهالديني؟
كمشة تراب وعشت ما صرلك سني
لنّ جبلتك خايبي حمرا
تا عتّق نبيداتنا للعيد

مَتْلُكْ اَنَا

كنت بزمني طين يا فخار
صدفه مرق الله جبلني بدمعتو بالنار
وشوش بادني وطار
وقللي انت فخار
يو جرّا

وشو نفع هاجرّا
لو نشفت الحمرا؟
هيدي الدني اسرار

يارايح

بَكْرَا إِن صَرْتُ خِتَارِ
وَعَنْتْ عَ بَالِكْ شَيِّ بِنْتِ سَمْرَا
يَا صَاحِبِي تَذَكَّرْ أَنتَ فَخَّارُ

يا راعي القصب مبجوح
جايي ع بالي شروقي
قلو للقصب ما يبوح
بالسرّ اللي بعروقي

وإن ضعنا سوى بهالليل
خلي صوتك مسموعي
يا رايح صوب مشرق
مشرق ما يا بو ربيعي

راحوا يرعوا غنمهن
والعشب فوق ضلوعي
وأيام الغابن ولفي
لعدن ع صايبي
وعتم علينا يا ليل
وضيبي يا حلوة ضيبي

قالولي إني عشقان
وأني مش داري بحالي

بين الصاحي والغفيان
لمحت خيالك قبالي
كان الصبح شتو بان
وآدان الصبح عالي

ونازل من صوئين مرسال
من عيني نزلوا دموعي

مي

بتبقلك المي
لا تموتي
أغرقي بالمي
تبصير موتك نَعَس
وتُصير
شمسك فيّ

خوفي عليك تكبري
وخوفي على حالي
رح تنزل عليّ الدني
ويتغرّق خيالي
ون كان

لا بد وغنى ورح ترحلوا
مَحُوا الطريق
مرسوم ع الحيطان
ولد حفيان
راكض بالحريق
قومي نُعْسِله يا دني
بلكي إذا نُعْسِتي
بيفيق

وحدن

وَحْدُن بيبقوا مثل زهر البيلسان
وحدهن بيقطفوا وراق الزمان
بيسكروا الغابي
بيضلهن مثل الشتي يدقوا على بوابي

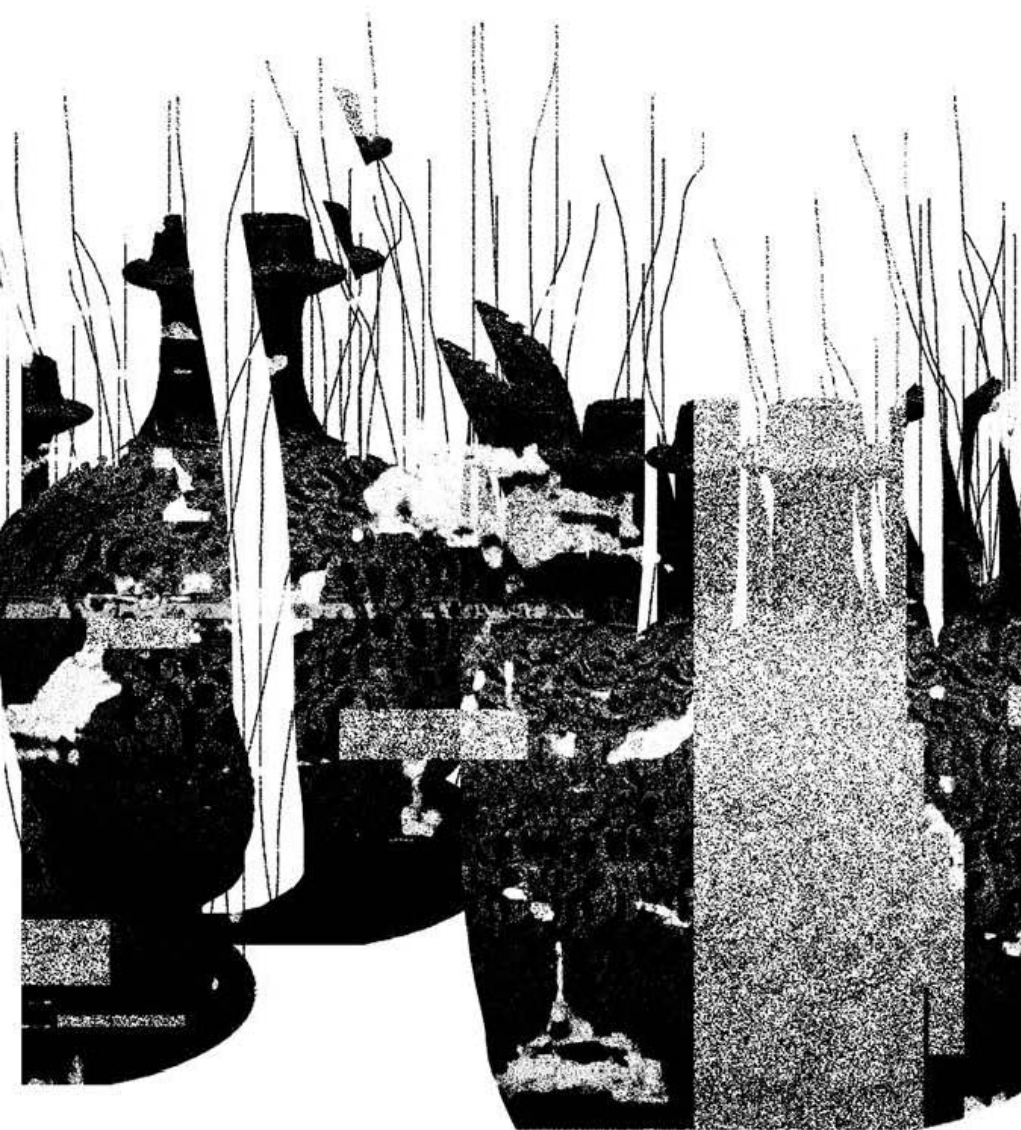
يا زمان
يا عشب داشر فوق هـ الحيطان
ضويّت وَرد الليل ع كتابي
برج الحمام مسوّر وعالي
هَجّ الحمام بَقِيَتْ لحالي
يا ناظرين التلج ما عاد بدكن ترجعوا
صرّخ عليهن بالشتي يا ديب بلكي يسمعوا

وحدن بيبقوا مثل هالغيم العتيق
وحدهن وجوهن وعتم الطريق
عم يقطعوا الغابي
وبأيدهن مثل الشتي يدقوا البكي
وهني على بوابي

خيال

لو كان عندي فرس
لضلّ عالعلي
بس نُدْهيني
بنزل على خيالي
يا بنت راعي الغنم
هالموت مقابيلي
ردّوا معي البواب
جايي هوا شمالي





في ناس
قالوا قتل
في ناس
قالوا مات
في ناس
قالوا فتح عتمة خيالو
وفات

قومي اطلعي عالبال

بغيتك نزل الشتي
قومي اطلعي عالبال
في فوق سجادة صلا
واللي عم يصلوا قلال
صوتن متل مصر المرا
وبعليك الرجال
ع كتر ما طلع العشب بيناتنا
صار يرعى الغزال

وديت مع راعي حماء
يشوف لي الطريق شمال
قاللي السنه طالع هوا
بيوقع الخيال

يا ريت
ما سرّجت الفرس
ولا بعنت هالمرسال

ها الكان عندن بيت

ها الكان عندن بيت
وصورة

عليها ناس
معلقين بخيط
وقعوا ع سطوح العمر
وستلقتهن الحجار
وقعوا
متل ما بيوقع المشمش
ع ولاد الصغار

وين أهلي؟
وين طاحونة حزن خيي الصغير؟
وين طيارة ورق نومي
على هزة السرير
وين الايديين
اللي حطت الابريق فوق الحصير
وين الشبايبك
القات منا الصوت
متل الزمهرير
وين رمان السقف
مقطوف ومعلق
متل عمر الكبير
لك.. عن يا قلبي
متل ه النحل
جوات الفقير
وقع العمر
ما بين إيد
وهزات السرير

حلوه

حلوه
متل عبي القصب
خيط القصب تعبان
جيبوا حدا من دمر
يدقدق وشم
جيبوا من الهامة
والوشم

بَنَ مُحَمَّصٌ وَهَبَ الْهُوَ شَامِي
 غَمَازَةً لِعَالِجَدَّ
 مَا إِلَهَا اسْمُ؟
 وَالْحَدَّ قَدَّامِي
 وَمَكْخَلِي
 وَالْكَحْلَ رَاسْمَهَا رَسْمُ
 مَيْنَ اللَّيِّ بَرَا قَلَامِي
 وَمُشْنَشَلِي مَتَلِ الْفَرَسِ
 بِأَيْدَا أَسَاوِرٍ مِنْ دَهَبٍ
 بَتَخَشَّ
 بَتَخَشَّ؟
 بِيَدُورِ الطَّرَبِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

شرق شمال

وَصَلْنَا عَلَى مَشَارِفِ حِمَاهُ
 نَوَاعِيرَهَا نَاحُوا
 فَارَقْتَهُنَّ شَرْقِي حَلَبٍ
 مَا عَرَفْتُ وَيْنَ رَاحُوا

عرس الالف

رَسَمُوا الصَّوْتَ عَ الْكَفِّ
 وَحَنُوا صَبِيعَ اللُّغَةِ بِالْحَنَظِّ حَرْفٍ وَحَرْفٍ
 دَارَ الْعَرَسِ
 خَشْخَشَ بِسَهْرَاتِ الْأَلْفِ هَذَا الدَّفَّ
 وَالْ «حَا» لَقَّتْ عَ الْخَصْرِ زَنَارَهَا
 لَمَنْ حَبِيبَا لَفَّ
 فِي حَرْفٍ دَقَّ وَفَاتَتْ
 وَقَفُوا حُرُوفَ الْعَطْفِ

وَالْ «دَال» فَتَحَتْ دَارَهَا

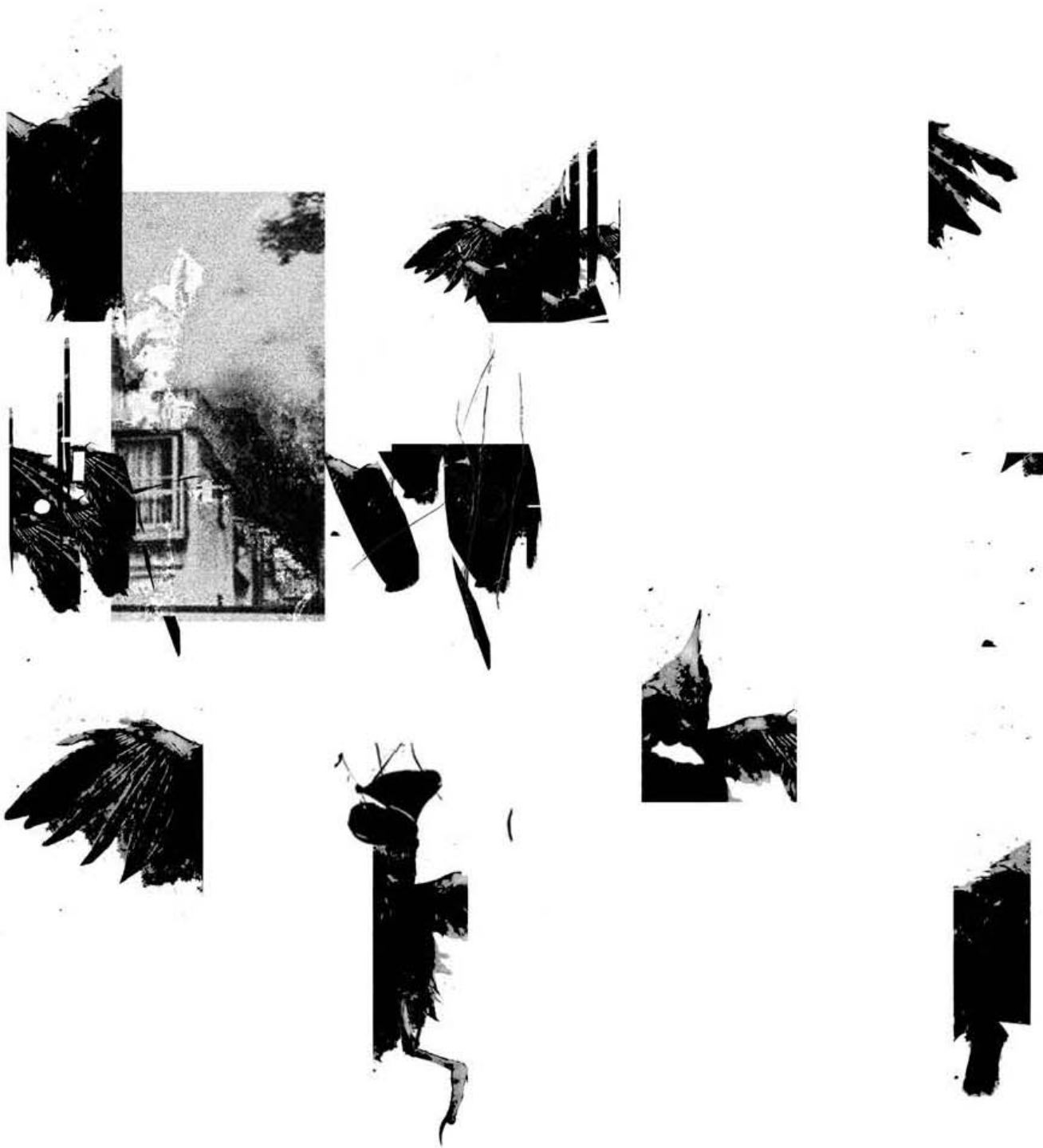
تَسْتَقْبِلُ بَزَوَّارَهَا
 وَإِلَ «هَا» قَلْبَا هَفَّ
 رَقَصَتْ وَدَاخَتْ بِالْهُوَ لِحَالِهَا
 وَالْ «كَاف» تَزَقَّقَ كَفَّ

شَمَّلَ اللُّغَةَ مَا يَجْمَعُهُ
 إِلَّا الْمَشْيَ عَ الْمَيِّ
 لِأَنَّهُ أَخَفَّ

ما دام

مَا دَامَ
 نَوْمٌ وَلَادَهْنٌ طَيَّرَ وَرَقٌ بِالسَّهْلِ
 مَا دَامَ
 مَا عَادَ بَدَهْنٌ يَخْلَوُ الصَّبِي
 يَدْقِدُقُ جُرَّاسِ النَّحْلِ
 مَا دَامَ
 إِيْدِيكَ الْبَيُوتِ الْفَاضِيَةِ
 مَا دَامَ
 مَا بَقِيَ فِي حَدَا
 غَيْرَ الْفَقَاصِ الْعَالِيَةِ
 وَغَيْرِ الصَّدَى
 مَا دَامَ
 إِيْدِيكَ السَّهْوِ
 مَا دَامَ
 بَسْ تَلْمَلْمَلِي دَيْكِي
 يَتَلْمَلْمُوا طَرَافَ الْحَقُولِ
 مَا دَامَ
 مَهْمَا قَلْتُ
 رَحَ أَسْكُتَ عَ طُولِ
 مَا عَادَ بَدِي قَوْلِ





سيف

يا من حلب
يا من الشام
هـ الحنّة شماليه
حنّيت إيديك
يا بو خطوط محنّيه
يبلق لك التّوب
والشملة الشامية

لكّ سحاب سيفك وغني
تلبق لك الغنيّه
مكتوب ع السيف
والكلمات كوفية
مكتوب «حبّيت»
الباقى حروف محيه

مين

لبسوا الكفافي ومشوا
وما عرفت مين هنّ
ما عاد رح يرجعوا
يا قلب حاج تعنّ
لا حصان جايب حدا
ولا سرج عم بيرنّ

لكّ ضحاك
سنّك دهب
خليه بيان السنّ
كل ما عتّق بيحنّ
با بئن إسمك حلو
سمّيت حالي بئن

ردّ العباية قصب
ع الكتف
محبوبي
والعين قوس القدح
وسيوف مسحوبة
راحوا
ليشوا العثم
قامات مهيويه
ناديت
يالله ارجعوا
ما تلقّتوا صوبي

خزن الميدة

اوعا تسموها
بتحزن ميدة
بيوقع أدان العصر
وبينسرق سيف النبي
وما بيلتقي بمصر

إنت الشام مزينة
إنت قواس النصر
وقفوا العرب ع سلاحهن
لمن فردت الشعر

تمنيت حالي دهب
تاصير مثل الشام
وتغار مني حلب
وما عود فتّي نام

هالموت ع ظهر الفرس
مارق بهالايام
والناس
ع كتر النعس
كل ما مرق بتنام

حصان

ما تقول غاب القمر
قول العبايه ليل
لو كان عندي عُمرُ
لأسرُج صهيل الخيل

فلسطين

نمت
فُتَّكروك ولد غفیان
تحت المي
قربوا منك يحاكوك
لقيو بُحيرة مي
وجك مثل رجعة ولد
بعد الغياب
وجك مثل تلة
وعم تصرخ دياب

يا عُمر
ما ييلحق يجي تيروح
وجك
مثل بيرق عزا
من بعيد عم يلوح

انت
بيت أهلي
ورد عم أرفعو
ت سييح الحقلي

انت بلاد مقوصة
وعم تنقتل قبلي

انت
وهبط يا منام
ووعيا متلي

واقف على سهل البقاع
ملثم بشمله
بصرخ
وصوتي ضايع
وقالوا الهوا قبلي

يا بيت اهلي
يا سَطَّيحات الحمام
يا دَعَس عالي
فوق تلجات المنام

تفريد

يا مين شقلي بو لهب
ومرته معه
محمل على ضهرا حطَب
بردان عم يُوقد عَرَب